

رسالة
إلى
الدُّعَوَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ
من
دعوة العمل الإسلامي

جمال البنا

المحتويات

الباب الأول

الدعوات الإسلامية على الساحة

الفصل الأول : دعوة الأخوان المسلمين العالمية

الفصل الثاني: الجماعة الإسلامية باكستان – الهند

الفصل الثالث: حزب التحري - ١١١ -

الفصل الرابع: دعوات الرافضة الجديدة

الفصل الخامس: قسامات مشتركة بين الدعوات الإسلامية

الفصل السادس: دعوات إسلامية صاعدة

الفصل السابع : دعوات وصلت إلى الحكم

الباب الثاني

دعوة العمل الإسلامي

الفصل الأول : تمهيد ومنطق

الفصل الثاني : الركيزة الأولى: كرامة الإنسان

الفصل الثالث : الركيزة الثانية: قداسة العلم

الفصل الرابع: الركيزة الثالثة: الحرية

الفصل الخامس: الركيزة الرابعة – العمل

الفصل السادس: وأخيراً – العدل: "مايسترو" الدعوة

بسم الله الرحمن الرحيم
والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله

مقدمة

كان لنا مندوحة عن أن نكتب هذه الرسالة، لأنها تقول كلمة الحق، وكلمة الحق مرة، عن دعوات إسلامية بعضها وصل إلى الحكم، ونقدها يعني الاضطهاد، وبعضها الآخر ممن لم يصل إلى الحكم تربطنا بها وشائج قديمة. ونقدها يعني القطيعة. وكنا عن هذا وذاك في غنى لو آثرنا العافية ولذنا بالصمت. ونحن لا نزهد في العافية، كما يعز علينا أن نفقد صداقاتنا، ولكننا لا نسمح لهذين أن يفتاتا على الحقيقة التي حالت حوائل عديدة دون أن تظهر. فمن رزق الشجاعة أعوزه عمق الفكر أو سعة الأفق، ومن رزق هذين وقفته روابط الوظيفة، وانتماءات الحزب والهيئة، والأمل في المستقبل، والخوف من الاضطهاد. أو حالت المجاملات دون أن يقول "كل حق" أو أن تكون نبرته كما ينبغي لنبرة الحق أن تكون.

وقد انتظرنا أربعين عامًا أن ينهض أحد المفكرين بهذه المهمة المقدسة، ولكن هذا لم يحدث بالصورة المطلوبة، ولم يعد يجمل الانتظار، وقد جاوزنا السبعين وأصبح أداء هذه

الرسالة فرض عين، قبل أن يمضي بنا قطار العمر،
ونحاسب على ما فرطنا.

﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنِّي أُرِيدُ إِلَّا
الإصلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ
أُنِيبُ ﴾ هود: ١٨٨

جمال البنا

القاهرة/ جمادي الآخرة ١٤١٢
ديسمبر ١٩٩١

الباب الأول

الدعوات الإسلامية على الساحة

الفصل الأول

دعوة الأخوان المسلمين العالمية

دعوة الأخوان المسلمين هي أولى، وكبرى الدعوات الإسلامية المعاصرة.

وقد أثرت أثرًا عميقًا، وتركت بصمتها على الدعوات الإسلامية الأخرى حتى التي انشقت عليها أو التي تختلف معها.

وبقدر ما كانت سيئة الحظ في بلدها، بقدر ما رزقت الانتشار والذيعوع في دول أخرى.. بما في ذلك الدول الأوروبية والأمريكية..

المجتمع المصري قبيل الأخوان:

كان المجتمع المصري في عشرينيات هذا القرن (1) يدخل مرحلة جديدة تختلف جذريًا عن المراحل السابقة.

(1) القرن العشرين الميلادي.

ففي الربع الأخير من القرن التاسع عشر حاول جمال الأفغاني أن يثير نهضة إسلامية تنتقد مصر من تغلغل النفوذ الأوروبي.

ولكنه أبعد عن البلاد في وقت كانت مصر أشد ما تكون حاجة إليه.

فقد أدت دعوته إلى الثورة العرابية التي انتهت - لعدم وجود القيادة الحازمة - إلى الاحتلال البريطاني عام ١٩٨٢م.

وما إن دخل الجيش البريطاني مصر حتى واصل بصورة شاملة عملية التغريب التي كان إسماعيل باشا (الخدوي) قد بدأها بصورة جزئية.

فغيرت منهاج الدراسة لتتفق مع المناهج الأوروبية، وجعلت لغتها، "الإنجليزية" ..

وهيمن الإنجليز على كل المناصب العليا، وخضع الوزراء المصريون لتوجيهات المستشارين الإنجليز.

وكانت كل الشركات التجارية، والمصارف والبنوك، والدور الصناعية في يد الإنجليز أو غيرهم من الأجانب، وكانت لغتها هي: الإنجليزية، أو الفرنسية..

وشجعت صور من اللهو والفحش، وأبيح وحمى البغاء، وانتشرت الحانات، وظهرت المراقص والكباريهات التي

كانت مباءات لإغواء الشباب، وابتزاز "العُمد" الذين يأتون إلى القاهرة ليشهدوا عالم "كشكش بيه" ..

وكانت الأواصر التي تربط المجتمع بمقوماته الإسلامية تتهاوى شيئاً فشيئاً ..

وبدا كأن مصر تسير في طريق التطور الأوروبي، عندما انفجر الشعب في ثورة ١٩١٩م، التي عبر بها عن رفضه لسياسة الاحتلال ..

وكانت انتفاضة تلقائية شعبية عنيفة قامت دون ترتيب من الزعماء، وتطورت رغم إرادة الزعماء الذين ما كانوا يريدون إلا مفاوضة الإنجليز، وليس الثورة على الإنجليز ..

وتبينت بريطانيا أن الشعب لا يقبل الاحتلال ..

وكانت بريطانيا قد اضطرت قبيل ذلك إلى إقالة عميدها العتيد "لورد كرومر" إثر فضيحة محكمة دنشواي، فأعدت ترتيب الأوراق وغيرت في سياستها، واعترفت باستقلال مصر بتحفظات أربع^(١).

وكان ذلك إيذاناً بدخول مصر المرحلة الليبرالية التي تقوم على ركائز ثلاث:

(١) تتعلق (١) بتأمين المواصلات البريطانية. (٢) الدفاع عن مصر. (٣) حماية المصالح الأجنبية والأقليات . (٤) السودان.

نواة هي الفرد
هدف هو الريح والكسب
مناخ هو الحرية
وقد يطلق على هذه المرحلة..

إذا نظرنا إليها من الزاوية الاقتصادية: "الرأسمالية".
وإذا نظرنا إليها من الزاوية السياسية: "الديمقراطية".
وإذا نظرنا إليها من الزاوية الطبقيّة: "البرجوازية".
فهذه التسميات كلها جوانب متعددة لحقيقة واحدة..
ووجدت المرحلة فارسها في سعد زغول، ووثقتها في
دستور عام ١٩٢٣..

وكان سعد زغول تلميذاً لمحمد عبده، ومحمد عبده كان
تلميذاً لجمال الأفغاني، ولكنه انسلخ من فكر جمال الأفغاني
الثوري الكفاحي واتجه إصلاحاً توفيقياً: فتقبل مهادنة اللورد
كرومر..

فجاء سعد زغول ليمضي بهذا الاتجاه إلى غايته التي
تؤدي - لا محالة - إلى الفصل ما بين الدين.. والمجتمع.
بحيث يقوم المجتمع على الركائز الليبرالية الثلاث التي
أشرنا إليها، ويأوي الدين إلى ركن قصي في المساجد
والزوايا والطرق الصوفية وأئمة المساجد..

ووجدت المرحلة وثيقتها في دستور عام ١٩٢٣م الذي أقام الأحزاب، ومجلس النواب، ومجلس الشيوخ، وسمح بانطلاق الرأسمالية.. وحرية الفكر..

كان المجتمع المصري خارجاً من استعمار بغيض، ومجتاز لثورة عصيبة ضحى فيها بأكثر من ثلاثة آلاف قتيل، فتجاوب مع العهد..

واكتسب سعد زغلول - لأسباب عديدة - شهرة أسطورية..

وخلال عشر سنوات تقريباً من بدء المرحلة ظهرت ثمارها في الطبقة المثقفة الجديدة - رواد حركة التنوير (1) - طه حسين، ومنصور فهمي، وإسماعيل مظهر، ومحمود عزمي، وحسين هيكل، وسلامه موسى، وقاسم أمين (2) الذين فتنوا بالثقافة الأوروبية، وانبهروا بمظاهر الثراء والحرية وصور الاستمتاع الطليق ومشاهد الجمال في كل ناحية، فعادوا مبشرين بها.

(1) كما أطلقوا عليها بعدئذ.

(2) من الجدير بالذكر أن معظم هذه الشخصيات عادت إلى الفكر الإسلامي، وتبينت أن اتجاهها لأول إنما كان بتأثير الانبهار الأول.

وظهرت الأحزاب وأخذت تتسابق وتتصارع على الحكم، وشغلت الناس بمعاركها ومؤامراتها..
ووصل التعصب للأحزاب والأشخاص في بعض الحالات إلى درجة أن هتف بعضهم:
"الحماية على يد سعد أفضل من الاستقلال على يد عدلي!".

وكان الإنجليز والملك يتلاعبان بالأحزاب..
واحتلت أخبار الأحزاب أنهار الصحف وزاحمت أخبار الفنانين والفنانات والممثلين والممثلات والمغنيين والمغنيات والراقصات، وقامت السينما بدور مؤثر في إفساد المقومات وإشاعة التفاهة والفحشاء.

ولم يكن لدى الأحزاب أي حس إسلامي، ولا نجد في برامجها أية إشارة إلى الإسلام.

ولم تكن مواقفها متجاوبة - بل لعلها كانت متجافية - مع الإسلام..

وفي ظل حكم الأحزاب اعتمد الاقتصاد الرأسمالي الربوي.. والديمقراطية الليبرالية.. والتحررية الاجتماعية.. كمثل عليا للنظام..

ولم تقم محاولة واحدة لاستلهاام الإسلام..

ولم يظهر الإسلام على خريطة البرامج التعليمية إلا بصورة تافهة..

ولم يظهر التاريخ الهجري إلا بعد التقويم الميلادي ولم تظهر اللغة العربية بما تستحقه..

وكان يمكن لمسيرة الليبرالية أن تسير على عواهنها، وتمضي إلى غايتها لولا ظهور دعوة الأخوان المسلمين..

دعوة الأخوان المسلمين:

كان على دعوة الأخوان المسلمين أن تتصدى لهذا التيار الكاسح الذي كان يمضي قدماً مسلحاً بالفكر والثقافة، مدعماً بباشوات السياسة والاقتصاد، مؤيداً من القوى العالمية التي جعلت مقاومة الإسلام جزءاً رئيسياً من سياستها..

كان على دعوة الأخوان المسلمين أن تبين خطأ وقصور الفكر الليبرالي البرجوازي، وأن هذه النظم التي فُتن بها المجتمع المصري ليست هي بالنظم المثلى، ولا هي خالية من المثالب والقصور.. وأن المثل الأعلى الليبرالي الذي يتمحور حول الفرد، ويستهدف الربح أو الكسب ليس هو المثل الذي ينهض بالأمة أو يحقق السلام الاجتماعي أو يكفل تضافر الجهود.

وكان على دعوة الأخوان المسلمين أن تقدم البديل الإسلامي:

بأن تبرز نظامًا اقتصاديًا إسلاميًا أفضل من اقتصاد ربوي..

وسياسة إسلامية تفضل الديمقراطية والبرلمانية والتعددية الحزبية..

وقيماً اجتماعية إسلامية أفضل من القيم التي تقوم على الفردية والأثرة والأنانية وتستهدف الاستمتاع.

وكان على دعوة الأخوان المسلمين أن تعيد الإسلام من ركنه البعيد القصي إلى قلب وصميم المجتمع، بحيث يثري القضية الاجتماعية، ويعرض وجهة النظر الإسلامية، وأن تصحح المفهوم الليبرالي، الذي قد يسميه البعض "العلماني" لدور الدين في المجتمع..

هذا الدور الذي تأثر في أوروبا بمسلك الكنيسة عندما استحوزت على السلطان، أو تعاونت مع الملوك في مواجهة الشعوب، وقاومت كل أفكار التقدم العلمي.

وأن هذه الفكرة إن كانت صحيحة في أوروبا، فإنها غير ذات موضوع في مصر، وفي الدول الإسلامية:

أولاً: لأنه لا يوجد في الإسلام كنيسة.

وثانياً: لأن الإسلام لا يقاوم العلم.

وثالثاً: لأن الإسلام دين حياة، فالزكاة مقترنة بالصلاة، والعمل الطيب مقترن بالإيمان، والجهاد يعد من أولى الواجبات..، والقرآن يحرم صراحة وبقوة الخمر والميسر والربا والزنا وكلها أمور ممارسة في المجتمع..

وكان على دعوة الأخوان المسلمين مرة أخرى أن تصحح المفاهيم الإسلامية نفسها التي سادت وقتئذ.

فعندما عزلت الليبرالية الإسلام عن قضايا المجتمع الحيوية، وعندما أغلقت في وجهه هذه المجالات فإنه تقوقع في قوقعتي "العبادة" و "المذهبية".

وأصبحت كل المشاكل التي يعني بها الشيوخ، ويهتم بها الناس هي جزئيات الشعائر والطقوس، والمسائل الخلاقية فيها بين المذاهب.

* * * *

وكما ذكرنا فإن الليبرالية وإن أبعدت الإسلام عن صدارة المجتمع، فإنها لم تمس الدين نفسه. بل على العكس، فإنها لم تضن عليه بمعسول القول، كما أنها عُنيت بأن تكفل للشيوخ والفقهاء. تأميناً مادياً.

وبين آونة وأخرى في المناسبات يُدعى هؤلاء الشيوخ ليشاركوا مع الليبراليين على منصة الاحتفالات.

وبهذه الوسائل حالوا دون ثورة الشيوخ على الأوضاع القائمة.

وخلال هذه الرحلة الطويلة التي تدرجت فيها الفكرة عن الإسلام شيئاً فشيئاً، حتى فقدت روحها ولم تحتفظ إلا بقشورها اختفى المعنى الجهادي من الإسلام. مع أن الجهادي أحد عناصر الحيوية والفعالية في الإسلام.

وكان على دعوة الأخوان أن تتصدى لقضية الخلافات المذهبية، والاهتمام بالجزئيات والشكليات، وأن تضع الأولويات في مكانها.

وقد أورد الإمام الشهيد أول استقبال الشيوخ له في جامع الإسماعيلية وأسألهم له عن:

"التوسل"

السلام بعد الأذان

قراءة سورة الكهف يوم الجمعة

السيادة للرسول في التشهد

عن أبي الرسول

قراءة القرآن للميت

وسارت دعوة الأخوان المسلمين قدمًا في هذه الناحية إلى الدرجة التي جاوزت الفقه المذهبي واستشرفت فقه السنة..

ودفع الإمام الشهيد الشيخ سيد سابق لتأليف كتابه المشهور "فقه السنة" وكتب مقدمته.

بل إن دعوة الأخوان المسلمين جاوزت هذا الإطار إلى إطار التقريب ما بين السنة والشيعه، عندما شاركت السيد تقي الدين القمّي في تكوين دار التقريب بين المذاهب الإسلامية.

* * * *

وقبل دعوة الأخوان المسلمين كان الجانب التربوي مقصورًا على الطرق الصوفية، ولم يكن للإمام البنا اعتراض على فكرة تصوف سليمة رشيدة تلتحظ آداب وروح الإسلام.

ولكن الحقيقة أن ذلك كان يناقض الإرث الصوفي.

ولهذا عني الأخوان المسلمون بالجانب التربوي؛ فكانوا مدرسة ترعى أعضائها وتجعلهم يأخذون أنفسهم بآداب الإسلام وتوجيهاته في كل جزئيات حياتهم: في الطعام والشراب والملبس والنفقة والعمل والعلم والعلاقات الاجتماعية..

ووضع الإمام البنا رسائل خاصة بذلك كرسالة التعاليم..
كما أن هناك وسائل تربوية عملية كالرحلات،
والندوات، ونظام الأسر، والمؤتمرات، والكتائب،
والمخيمات، والدورات..

وكلها وسائل جماعية مدروسة ومبرمجة⁽¹⁾.

وهكذا كان على دعوة الأخوان المسلمين أن تقوم ثلاث

مهام:

أولاً: تقديم الإسلام كدين حياة يقول كلمته في الاجتماع
والاقتصاد والسياسة، ويلهم الناس القيم والمثل،
وإثبات أن ما جاء به الإسلام يفضل كل ما جاءت به
النظم "العلمانية" أو الأوربية. وإنقاذ المجتمع
المصري من "الانبهار" بالحضارة الأوربية وتحويل
التطور ليسير المسار السليم.

ثانياً: إخلاص الدين لله، وترتيب الأولويات فيه، والابتعاد عن
الجدل والمراء والشكليات والخلاف..

ثالثاً: إيجاد "المسلم النمطي" عن طريق التربية والتعليم بحيث
يحيى حياة إسلامية ويعلم الاتجاهات والمواقف

(1) راجع وسائل التربية عند الإخوان المسلمين دراسة تحليلية تاريخية:

د. على عبد الحليم محمود دار الوفاء.

والقرارات التي يتخذها في مواجهة مشكلات الحياة الحديثة، وتكون عنده "الإجابات" عن الأسئلة التي يطرحها العصر.

* * * *

ونعقد أن دعوة الأخوان المسلمين نجحت إلى حد ما، وبقدر ما سمحت به الظروف في هذه المهام الثلاثة.

ومن العسير تصور المجتمع المصري لو لم توقف دعوة الأخوان موجة التحلل والانسياق وراء مظاهر الحياة الحديثة التي كانت تدق طبولها فنون وآداب، وأهواء وشهوات، ومصالح، وانخداع بالظواهر..

ومع أنها لم تستأصل هذا الاتجاه الذي كان يمضي بحكم تطور لا يمكن إيقافه، إلا أنها أوجدت رأياً عاماً إسلامياً يتمتع بقوة شعبية تفوق ما يتمتع به الاتجاه الدنيوي. مع أنها لم تتوصل في يوم من أيامها إلى أجهزة الإعلام التي هي في يد الحاكم.

وكان من عبقرية الإمام النبأ أنه صاغ هذا الحل في كلمات معدودات وشعارات عامة ومفهومة، ولا يكاد يكون هناك خلاف عليها.

مثل: "دين ودولة"، "الله غايتنا" .. "القرآن دستورنا" ..
"الرسول زعيمنا" .. "الجهاد سبيلنا" .. "الموت في سبيل الله
أسمى أمانينا".

وكان هذا الرأي الإسلامي العام في أصل ما أطلق عليه
فيما بعد: الصحوة الإسلامية.

ونجحت فكرة الأخوان المسلمين في القضاء على
الخلافات المذهبية، التي كانت محتدمة تشغل بال المسلمين
وتفرق وحدتهم، حتى كادت هذه الخلافات أن تنتهي وتطوي
صفحتها.

كما أنها قدمت المسلم النمطي في هذا العصر طالبًا
متفوقًا .. عاملاً دؤوبًا .. موظفًا أمينًا.

ولم تركز تربية الأخوان وقتئذ على الشكليات والمظاهر
التي استشرت بعد ذلك وأصبحت نوعًا من "اللازمة" كتفضيل
القميص "الجلابية" والطاقيه على أي زي آخر.
.. فهذا شيء لم تعرفه المدرسة الأخوانية ..

وكان معظم شباب الأخوان حليقي اللحى، يرتدون البديل
والكارفت، ويضعون الطرابيش وكان الإمام البنّا نفسه يرتدي
يرتدي البدله والطربوش كما يظهر في صورته.

وبفضل دعوة الأخوان وعملها المتصل والمخلص عاد
الإسلام مرة أخرى دعوة إنقاذ وإنهاض، واستعاد جهاديته

وحيويته ووقف أمام تحديات العصر بعد أن نجحت علمانية الحقبة الليبرالية في أن تقصيه إلى ركن بعيد من أركان المجتمع.

حسن البنّا: رجلاً وإماماً وشهيداً:

كانت دعوة الأخوان المسلمين⁽¹⁾ هي ثمرة فهم وعمل رجل مؤمن موهوب موفق هو: "الإمام الشهيد حسن البنّا" الذي رُزق عوامل أهلته للقيام بهذه الدعوة من طفولته حتى شهادته.

ومن هذه العوامل:

كان الإمام البنّا هو الابن البكر لرجل عر بالعصامية وعلو الهمة والإبداع وخدمة السنة. وولد وشبّ في بقعة من أجمل بقاع الريف المصري. وعلى ضفاف النيل - واشترك مع أترابه في الألعاب الجماعية، ثم انتظم في دراساته بحيث تخرج بترتيب الأول من دار العلوم ليعمل في المهنة التي أحبها وبمرتب يفوق ما كان يتقاضاه الأوساط من الناس ثم تزوج في مستهل شبابه زواجاً موفقاً⁽²⁾.

(1) وكلمة: "دعوة" من نحت وصياغة الإخوان المسلمين.

(2) لمزيد من آثار الوراثة والطفولة، انظر.. خطابات حسن البنّا الشاب إلى أبيه .. للمؤلف.

هذه العوامل المواتية كلها حالت دون أن يصاب الإمام الشهيد بالتعقيد أو الانطواء أو الشعور بنقص، أو يبدأ دعوته في سن الأربعينيات من العمر، أو يضطر للتغيير فيها كما حدث لكثير من الدعاة، وجعلت "منفتحاً"، مرناً. وكان هذا في أصل سعة أفقه، وتلقائيته، لكل الاتجاهات الإسلامية التي أشرنا إليها.

وكان الإمام الشهيد بصفة عامة يتقبل كل واحد يعرض خدماته على الأخوان ويأمر بإعداد مكتب له. فإذا كان لديه جديد، فستكسب الدعوة. وإلا فسيترك إمكانياته. وقد كتب مقدمة كتاب الأستاذ عبد الحميد جودة السحار عن أبي زر، ودفع الشيخ سيد سابق لكتابة كتاب "فقه السنة" وكتب مقدمته، وأمر بطبع "العدالة الاجتماعية" للشهيد سيد قطب.

توفرت في الإمام الشهيد صفات الداعية النموذجي فكان كاتباً وخطيباً ومربيّاً ومنظماً. وجمع بين الفكر والعمل. وكان لديه من الذكاء والحس والحضور والكياسة ما يكسب قلب جليسه. وعصمه الله من فتن الدنيا: المال والنساء فكان متقشفاً ولم يملك في حياته بيتاً أو عربة. وكان يأكله وملبسه هو أكل عامة الناس.

وكان الإمام الشهيد هو شيخ الدعوة والمرشد الروحي لأعضائها. فهو إمامهم في الصلاة: يصلي فيحسن الصلاة

ويقرأ القرآن على غير ما ألف الشيوخ بصورة تمس شغاف قلوبهم وتجعل أحد كتابهم يقول أن الصلاة وراء الإمام الشهيد كانت جزءاً من التكوين الروحي لهم. وهو ضيف الشرف في كل مناسبة. من ولادة أو زواج أو وفاة.. وهو "مطوّفهم" في الحج وهو في كل هذه المناسبات الخطيب الذي يأتي بما يتطلبه المقام دون إسهاب مُمل أو إيجاز مُخل، ويغلب أن يتضمن حديثه استشهاداً موفّقاً من الشعر أو الحديث أو القرآن..

كان الإمام الشهيد منظماً قديرًا نابهاً. وقد استطاع خلال عشرين عاماً، وتحت مظله من النكر والخفاء، أن يضع بيده بذرة خمسمائة شعبة من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب. وكان يعرف الناس ويتذكر الوجوه والأسماء بعد عشرات الأعوام ويخاطب ويعامل كل واحد بما يتفق مع نفسيته. وكان حسه المرهف وأدبه يكسبه حب الجميع. وفي كل شعبة من هذه الشعب الخمسمائة. خطب الإمام الشهيد. وصلى. وتناول الطعام، وأمضى ليلة أو أكثر وتعامل مع أهلها واستخلص من آنس فيه الخير..

وقد استطاع أن يربط بين هذه الشعب، وأن يجمع بين القلوب وأن يمسك بكل الخيوط بصورة لا أثر فيها لقسر أو ضغط. كانت الخيوط التي تربط التنظيم الأخواني في مثل

متانة ونعومة الحرير لا في قسوة وصلابة الحديد فالأعضاء، إنما يسلمون له القيادة لأنهم تأكدوا من إيمانه وكفائه وتوفيق الله له.. ووثقوا به قائدًا ومرشدًا، وهو - من ناحيته - يدخل بين الضرورات الإدارية الجافة عنصرًا نفسيًا وعاطفيًا هو "الحب في الله".

إن هذه الصفات قلما توفرت لشخص واحد من قيادات الدعوة الإسلامية، فجمال الأفغاني كان ثوريًا. ولكنه لم يكن منظمًا جماهيريًا، ومحمد عبده ورشيد رضا كانا رجال قلم وفكر وكتابة ولم يكونا رجال عمل وتنظيم وإدارة. وسوف نرى أن "المودودي" منشئ "الجماعة الإسلامية" كان باحثًا وكتابتًا، ولكنه لم يكن رجل جماهير وتنظيم - وبصفة عامة فيغلب أن لا يكون رجل الكتابة والفكر هو رجل العمل والتنظيم، وأن لا يكون واحد من هذين مربيًا روحيًا، وكان الإمام البنا الثلاثة معًا: الكاتب المفكر، الإداري المنظم، المرشد الروحي.

ومكّنت هذه الصفات الإمام الشهيد أن يتوصل إلى صيغة "الأخوان المسلمين" دون سابق وجود، فقد كان هناك هيئات صوفي وهيئات لمقاومة البدع ونشر السنة، وكان هناك "الشبان المسلمون" التي تجمع الشبان على رياضة وثقافة.. وكانت لهذه الهيئات تركزاتها في أقاليم أو مناطق

من العاصمة. وكلن لم تكن هناك هيئة شاملة يمكن أن تصهر جوانب الإسلام المختلفة في بوتقه واحدة. ولكن الإمام الشهيد بانفتاحه ضمَّ أفضل ما في الدعوات الإسلامية مثل ثورية الأفغاني وسلفية محمد عبده ورشيد رضا وتربوية بعض الطرق الصوفية، وكان لابد أن يصقل هذه الجوانب جميعاً حتى لا يحد تنافر أو تلفيق، وقد استوعبها أولاً في نفسه.. ثم نقلها إلى الأخوان وليس شرطاً أن هذه الجوانب كلها ظهرت مرة واحدة في الدعوة لأن الدعوة المنفتحة كانت تتطور تطوراً طبيعياً، أشبه بالنمو العضوي..

العشرون عاماً الأولى:

قبل أن يتخرج الإمام الشهيد من دار العلوم ويذهب إلى الإسماعيلية؛ كانت قضية الإصلاح همّاً مؤرقاً له، فحاول أن يدفع بعضاً من أفضل الشيوخ المعروفين وقتئذ للعمل وللقيام بدور إيجابي، وعندما صدم بالسلبية واليأس لم يستسلم وتابعهم ولاحقهم حتى استطاع بفضل هذه الملاحقة والتذكير استثارة بقية وهنائه من الإيمان في نفوسهم، وكانت نتيجة ذلك إصدار مجلة الفتح⁽¹⁾.

(1) من الخير للقارئ أن يعود إلى هذه المحاولة في "مذكرات الدعوة والداعية" لأنها حافلة بالدلالات. ولولا طولها لنقلناها.

ومن أجل هذا فإنه عندما نقل إلى الإسماعيلية وفكر في القيام بالدعوة - فإنه استبعد العمل مع المشايخ والفقهاء أو الدعوة في المساجد. وانتهى إلى طريقة مختلفة كل الاختلاف عن مألوف وطرق الدعوة الدينية.

ذهب إلى المقاهي. وأخذ يجلس في كل مقهى من المقاهي الثلاث في "حي العرب" يومين في الأسبوع، كما لو كان مرتادًا عاديًا، ولكنه لا يُعَدُّ وسيلة للتعرف إلى بعض الجالسين، والحديث معهم حديثًا عاديًا، لا يلبث أن يتطرق إلى حديث نبوي أو آية قرآنية، يعرضه عرضًا رقيقًا جذابًا.

من هذه البداية المتواضعة وعلى أيدي ستة من عمال شركة قناة السويس تكونت النواة الأولى للأخوان المسلمين - تلك النواة التي ستصبح أكبر الدعوات الإسلامية في العصر الحديث.

واستعراض تطور الأخوان المسلمين خلال العشرين عامًا الأولى - من ٢٨ إلى ٤٨ - حقبة البناء في تاريخ الدعوة. يوضح المراحل التي كانت تشغلها. ففي مرحلة الإسماعيلية - قرابة عشر سنوات - كان الطابع التربوي الصوفي يغلب العناصر الأخرى، وكانت شعب الأخوان مركزه تقريبًا في منطقة القنال وشرق الدلتا. ولم يكن بالقاهرة شعبة إلا عندما انضمت جمعية الحضارة الإسلامية

التي كونها الشقيق التالي للإمام الشهيد - الأستاذ عبد الرحمن إلى الأخوان واعتبرت نفسها شعبة القاهرة..

وفي مرحلة تاليه من ٤٠ - ٤٥ - استهدفت الدعوة حشد الجماهير وجمعها على أساس مسلمّات من العقيدة - وبدأت شعاراتها تتردد في حوارى وأحشاء القاهرة حتى انتقلت إلى شقة كبيرة بميدان العتبة - وكان هذا أول ظهورها "على وش الدنيا" كما يقولون وتركها لحواري وأحشاء القاهرة:

في هذه المرحلة بدأ غزو الجامعة وانضمام أعداد ضئيلة أولاً ثم كثيرة حتى أصبحت الغالبية تقريباً في المرحلة الثالثة من حقبة العشرين عاماً، وبرز العنصر الجهادي في تكوين "الجولة" و "النظام الخاص" الذي كان بتعبير أحد الكتاب الإخوانيين "جيشاً إسلامياً" وبدأ الفكر السلفي يأخذ طابعاً حياتياً، ويتخلص من كثير من حواشيه..

وأخيراً تأتي المرحلة الثالثة من هذه الحقبة، وهي أهمها وآخرها عندما تعرفت الحكومة على قوة الإخوان، إثر نشر الصحفي الصهيوني البريطاني جون كمش تقريراً طويلاً عن الإخوان في الصحف البريطانية، وتبين السياسي المصري الطيب مصطفى النحاس أن الشيخ البنا ليس كشيوخ الطرق الصوفية الذين يجوبون القرى في الموالد والمناسبات

الأخرى. وبدأ نوع من التحفز بين السلطة والأخوان. وحدثت حوادث فردية، لكنها كانت ذات أثر بعيد في وقوع الصراع مثل استيلاء الشرطة على عربة جيب بها وثائق النظام الخاص، ومثل غياب الأستاذ البنا في إحدى الأوقات الحرجة للصراع في الحجاز، بحيث حدث الصدام على غير هوى الأخوان. وفي ديسمبر سنة ٤٨ أعلن النقراشي، وهو سياسي مصري ضيق الأفق - حل الأخوان وكان هذا الحدث أول حدث من نوعه تشهده البلاد، إذ كان في كل قرية مصرية أخوانياً أو أكثر، وفي كل شارع من شوارع المدن بيت أخوانياً أو أكثر. كانت هيئة الأخوان هي أكثر الهيئات حسداً وتمثيلاً للشعب المصري، وكان لديها عقيدة، وبين يدها تاريخ كفاحي لعشرين عاماً. وكان المتطوعون الذين هرعوا لفلسطين يهزمون الإسرائيليين، ويساندون الجيش المصري. فكان حل هذه الهيئة بقرار "عسكري" أمراً في منتهى الفجاجة ونوعاً من التحدي الوقح لمشاعر الشعب. وهذه الملاحظات هي التي جعلت الأخوان لا يتبرأون من مقتل النقراشي الذي تم بإحكام على يد إحدى خلايا النظام الخاص.

إن الدرس الأليم الذي يقدمه اغتيال النقراشي في ٢٨ يناير سنة ١٩٤٩، لا يتعلق بشرعية هذا الاغتيال. فمِمَّا لا جدال فيه أنّ نشر الحكومة للإرهاب وحل أكبر هيئة شعبية

بقرار عسكري منفرد والاعتقال الجماعي الوبائي، يبرر الاغتيال. ولا هو يتعلق بشخص النقراشي، فقد كان حزبياً من هؤلاء الحزبيين الذين لا يساوون شيئاً، وقصارى جهده أن يناور ليصل إلى الحكم، وأن يصانع الإنجليز والسراي لمصلحة مجموعة ضئيلة من البورجوازية الطامعة، ومن الناحية الشخصية، فلم يكن موهوباً البتة. باختصار كان منهم الذين تكسب البلاد بموتهم أكثر مما تكسب من حياتهم. ولكن عندما يشغل مثل هذا الشخص القوميء، رآسة الوزارة - ورآسة حزب ما، فقد يظن بعض المهووسين أن الثأر له إنما يكون باغتيال رئيس الهيئة الأخرى - أي مرشد الأخوان - وقيل أن اغتيال المرشد تم بناءً على مثل هذه الفكرة. ومن هنا يكون على الذين يقومون بخطوات حاسمه أن يحسبوا حساب ردود الفعل كائنة ما كانت - معقولة، أو مجنونة!!

على أننا نؤمن أن اغتيال الإمام الشهيد في ١٢ فبراير سنة ٤٩ كان أكثر خفاء حتى مما أظهرته التحقيقات بعد سقوط الملكية. واكتشاف يد السراي، وإبراهيم عبد الهادي، وعبد الرحمن عمار (وكيل الداخلية) فقد كانت هذه الفترة هي فترة خروج الديبلوماسية السرية الأمريكية وعملها على مسرح المنطقة، وظهور إسرائيل واعتراف الولايات المتحدة بها كدولة بعد دقائق من إعلان "بن جوربون" قيامها وكانت

الفترة التي شاهدت بطولة متطوعي الأخوان في فلسطين
وصعود نجم الأخوان في القاهرة، بحيث أصبحت الهيئة
المؤهلة - في وقت قريب - للقيام بدور حاسم. كما كانت
الفترة التي شاهدت ثورة الميثاق سنة ١٩٤٨ في اليمن التي
نظمها الأخوان وكانت قاب قوسين من النجاح لولا عوامل
طارئة، ومن غير المعقول أن دلالات ذلك خفيت على القوى
الدولية ذات المصلحة في المنطقة، وكانت أكثر هي الفترة
التي نظم فيها عميل الـ C.I.A كرميت روزفلت انقلابات
سوريا، ثم زار القاهرة بعدها. وما لم يلق ما يستحقه من
اهتمام، أو يعنيه من دلالة انتحار الأميرالاي محمد وصفي
رئيس حرس الوزارات، عندما كادت تحقيقات الجيش تلحقه
وكان هو حلقة الوصل بين الداخلية المصرية، والسفارات
الأجنبية. وقضى هذا الانتحار على السر الأكبر في المأساة
كلها، الذي كان يمكن أن يكشف عن خيط ما بين هذا الحادث
الآليم ومندوب الـ C.I.A في السفارة الأمريكية بالقاهرة،
وهذا الضابط الأثيم هو الذي ذهب إلى مستشفى القصر
العيني ليتأكد من وفاة الإمام الشهيد بالفعل وليجهز عليه أن
لم يكن قد مات.

على أن اغتيال الإمام البنّا كان أمرًا مقدورًا، رسم في
قضاء الله وقدره - كان كاغتيال على بن طالب، وختم

الخلافة الراشدة. وعندما يضيّق مجتمع ما بمثل علي بن أبي طالب وحسن البنّا، فإن استشهادهما يصبح قدرًا مقدورًا. وقد استراح الرجلان، ولكن ما أكثر ما حاق بمجتمعهما من المتاعب..

ذلك أن الإمام الشهيد كان يعمل بطريقة مرحلية، وكان قد وصل إلى مرحلة "الحشد" التي جمع فيها الجماهير تحت شعارات ومسلّمات وأصول عامة. وكان يجب أن تأتي مرحلة "الفرز" والتمييز، والتحقيق سواء بالنسبة للأعضاء أو للموضوعات. وكان الفكر الأخواني قد أفضى على الفكر السلفي قدرًا من المرونة والانفتاح، ولكنه كان لا يزال مرتبطًا به. وكانت الخطوة التالية هي الانتقال من فقه المذاهب إلى فقه السنة ثم إلى فقه القرآن. كما كان يجب عرض موقف الأخوان من القضايا السياسية والاقتصادية بنوع من التحديد يسير خطوة بعد ما جاء في "مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي"، ولم يكن الإمام الشهيد قد وصل إلى ذلك عندما حدث الصدام، ولم تكن رغبته أولاً في تقادي الصدام، وثانيًا في الخلاص منه بالمفاوضة، إلا إدراكًا منه أن الصدام وقع قبل وقته، وقبل أن يتم تطوير الفكر، والتنظيم الأخواني بالصورة المنشودة. ولو سارت الأمور كما رسمها، لما حدث الصدام في هذا الوقت، ولكن عوامل طارئة مثل

اكتشاف عربة الجيب التي بها وثائق النظام الخاص. وغيبة الإمام الشهيد نفسه في الحجاز قرابة شهرين في هذه الفترة كانتا من العوامل التي أدت إلى وقوع الصدام في وقت غير مناسب..

ولو لم يحدث هذا الصدام، الذي أدى إلى اغتيال الإمام الشهيد، لتغيرت مصائر المنطقة تماماً، فمثلاً ما كان انقلاب ٢٣ يوليو يقع بالصورة التي وقع بها، وهذا مثال واحد من أمثلة عديدة كان يمكن أن تحدث، لو لم ينجح هذا الاغتيال الأثيم في حرمان أكبر الهيئات المصرية تمثيلاً وتنظيماً من قائدها الموهوب.

السنوات اللاحقة:

مع أن الاغتيال الأثيم للمرشد حرم الهيئة من قائدها، فإنه حقق لها تعاطف الجميع، ووضعها في المعسكر الشعبي المضطهد من السلطة والسراي - فضلاً - إن هذا الاستشهاد كان العامل الثاني (كان العامل الأول هو حرب فلسطين وهزيمة الجيش والذخائر الفاسدة الخ) في زلزلة الملكية، وزعزعة، النظام، وقيام الانقلاب العسكري بعد ذلك.

ولم يكن في الهيئة من يماثل، أو يقارب. الإمام الشهيد، فبعد فترة قصيرة وليّ أمورها الشيخ الباقوري بتوصية كن

الإمام الشهيد كما تُتوقَّلُ وقتنئذٍ، انتخبت الهيئة التأسيسية القاضي حسن الهضيبي مرشدًا عامًا.

لقد وجه البعض النقد للإمام الشهيد لأنه لم يوجد "خليفة" له، وهذه قضية جدلية فإن تعيين خليفة كان سيتضمن قدرًا من الوصاية على إرادة وحرية القاعدة، فضلًا عن أن القائد لا يُصنع، ولكنه "يُخلق" فإله تعالى وحده هو الذي يضع ملكات القيادة في مَنْ يشاء..

وكان الأستاذ الهضيبي رحمه الله قاضيًا ممتازًا، وصل إلى أعلى درجات القضاء. وآمن بالدعوة وبإيع الإمام الشهيد فيما قيل - وإن حالت صفته كقاضٍ دون أن يمارس عملاً، أو حتى أن يظهر في دوائر الأخوان. وجاء انتخابه نتيجة لملازمة خاصة هي تمسك كل واحد من المرشحين الأربعة من أعضاء مكتب الإرشاد العام بنفسه في "معركة القيادة" كما أُطلق عليها، وبالإنجليزية أيضًا: Battle of Leadership زعيم طلاب الأخوان وقتنئذٍ مصطفى مؤمن. وكان هذا التمسك مألوفًا في الممارسات الحزبية، ولكنه كان في دوائر الأخوان شيئًا إدًا. واهتبل الفرصة جناح معين برز وقتنئذٍ في الدوائر الأخوانية، وأطلق عليه - الرَوْضِيُّونَ - لأن معظم شخصياته كانت تسكن حي منيل الروضة، وكان

له اتجاه خاص وفرض الهضيبي، ولم يجد المرشحون الأربعة بُدًا من قبوله.

ولا جدال في أن هذا الإجراء، كان خطأ - فبصرف النظر عن أنه كان من الواجب الأدبي والإسلامي أن يتنازل بعض المرشحين الأربعة للأكفأ فيهم وهم أدري بقدراتهم - فإن الإجراء السليم في حالة عدم قيامهم بذلك هو إجراء انتخابات، ولم يكن هذا ليحدث قفلة لأنه سيتم في إطار "الهيئة التأسيسية"، ولأن جمهور الأخوان عرف بالطاعة والالتزام. ومسئولية هذا الخطأ التاريخي تقع على الإخوة الروضيين الذين كانوا هم أول من دفع ثمن خطئهم.

وظهرت جريرة هذا الخطأ الفادح عندما قام انقلاب ٢٣ يوليو سنة ٥٢.

وقد عالجتنا تلك القصة في قرابة مائة صفحة كبيرة من كتابنا "الإسلام هو الحل"^(١). ومع أن الكتابات الزائفة أو شبه الرسمية تُضائلُ من أثر الأخوان في قيام الانقلاب فإن هذا يعود إلى الاتجاهات المضادة لمعظم الذين سجلوا أحداث تلك الفترة. والذين لا يعجزون عن أن يجعلوا من هزيمة ٥٦

(١) الإسلام هو الحل - جمال البنا - دار الفكر الإسلامي - ص ١٦٦ إلى ص ١٧٥

انتصاراً، ومن انتصار ٧٣ هزيمة، لا يعجزهم قلب الحقائق بالنسبة لما سبق، ولما لحق أحداث ٢٣ يوليو ولكن كائناً ما كان صياح الإذاعيين والطبّالين والزمّارين وكتاب السلطة الذين وُضِعوا رؤساءً للصحف فإن الحقيقة لا تموت" ..

والحقيقة التي لا مرأى فيها أن عبد الناصر رغم أنه اتصل بكل الهيئات والأحزاب، فإنه اعتمد على الأخوان في تكوين الضباط الأحرار، ثم اعتمد عليهم في مساندة الانقلاب، والحقيقة أيضاً هي أن الأخوان كان لهم تنظيم قوي في الجيش وآخر في البوليس، وأن هذه الوقائع التي لم تكن خافية على الإخواني العاق جمال عبد الناصر كانت في أصل تقربه إليهم، وأنها أيضاً كانت سبب نغمته عليهم وتمثيله بهم تمثيلاً لم يشرك به هيئة أخرى..

الشاهد هنا، أن اللحظة كانت تتطلب موقفاً مختلفاً تماماً عما وقفه الهضيبي رحمه الله. فقد وقف موقفاً جافاً - ولكن سلبياً - من الانقلاب وقادته، فلا هو سلك سبيل اصطناعه واحتوائه والتعامل معه بما لا ترفضه السياسة الإسلامية، وضرورات العمل واللحظة، ولا هو قاومه وقضى عليه به عندما كان قادراً على ذلك. وقد اعترفت معظم الكتابات "الأخوانية" التي عنيت بهذه النقطة بخطأ السلبية القائلة حتى

وإن لم تحمل الهضيبي رحمه الله مسئولية ذلك، أو توجه إليه النقد تورعاً والتزاماً..

على كل حال، فإن ما ابتلي به الأخوان من البلاء العظيم، وما امتحنوا به في المعتقلات والسجون، وما قدموه من ضحايا وشهداء كان في حد ذات دليل صوابهم في معارضة عبد الناصر، وأنه كان ديكتاتورا، ولا يفلح الديكتاتور حيث أتى ويقدر ما أكسبه هذا الاضطهاد شعبية ومجداً فإنه كان "الوصمة" التي قضت على العهد وأدانتته..

وفي هذا البلاء أثبت الأستاذ الهضيبي قدراً من الصلابة ثم توفّي ليخلفه الأستاذ عمر التلمساني وهو من الرعيل الأول ووضع سياسة مهادنة السادات حتى تبرأ جراح الأخوان - وعندما توفاه الله امتلأ ميدان التحرير، وهو أوسع ميادين القاهرة والشوارع المحيطة به، بالذين صلوا عليه وقدر عددهم بما بين مائة ألف وخمسمائة ألف وأعلنوا وقتئذ أن من الجائز أن يسجد الواحد على ظهر أخيه إذا ضاق المكان. وحدث التجمع وتم الانصراف بنظام وفي منتهى الهدوء.

وأخيراً انتخب الأستاذ محمد حامد أبو النصر.

* * * *

إننا أولى الناس بمعرفة منزلة، وسابقة، وجهاد دعوة الأخوان. وأنها أعرق وأطيب الدعوات. وأنها قدمت شهداءها لمقاومة الحزبية داخل البلاد.. ولمقاومة الإنجليز في القنال.. ولمقاومة الإسرائيليين في فلسطين. والحق أقول أنني، أكثر من مرة، لا أفتح إحدى الإعداد القديمة لمجلة الأخوان حتى تطالعني صورة شهيد.. وأسأل وأتعجب من إهمال هذه الدعوة لشهادتها ...

وقد عايشناهم من الأيام الأولى للدعوة وأكرمنا الله بالاعتقال معهم عام ١٩٤٨، ولنا صداقات وذكريات مع الرعيل الأول..

ومن ثم فنحن عندما نعرض نقدًا أو نقترح إصلاحًا فإن هذا يكون من منطلق "صديقك من صدِّقك لا من صدِّقك" و "رحم الله امرؤ أهدى إلى عيوبي" و "انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا" وهو شيء لم نقدمه للهيئات الإسلامية الأخرى التي أشرنا إليها لحق الأخوان علينا وخصوصية العلاقة بهم..

عن هذه الروح نكتب وبهذه الروح نرجو أن يُقرأ.
لقد حفلت الفترة من استشهاد الإمام البنَّا حتى الوقت الراهن بالأحداث والفرص.. ففي مستهلها كان الشعب بأسره متعاطفًا مع الأخوان إثر الاغتيال الأثيم، وحل الهيئة والزج بالألوف إلى المعتقلات. ثم قام انقلاب ٢٣ يوليو مرتكزًا

على الأخوان.. وكانت هذه فرصة كبيرة أضعها الأخوان. ومرة أخرى يتعرض الأخوان للاضطهاد والتعذيب ويقدمون شهداء ممن حكمت عليهم محاكم جمال سالم، والدجوي، أو ممن فاضت روحهم في يد الجلادين، واكتسب الأخوان عطف المجتمع خاصة وقد تكشفت سوءات العهد حتى جاءت هزيمة ٦٧ حاكمة عليه، ومنهية له.. فسمحت فرصة أخرى أضعها الأخوان.. وآثروا السلبية..

أن السلبية في الهبئات - كما هي في الأفراد - تعني الصدأ والتآكل الذي ينتهي بما يماثل النشل. وهو في حقيقة الحال نوع من الانتحار الاختياري البطيء..

ولم تقتصر السلبية على النشاط السياسي وما قد يثيره من صدام - ولكن شملت مجال الفكر الإسلامي الذي رفعت لواءه، وسارت به خطوات بعد السلفية التقليدية.

هذا المجال الذي كان يمكن أن تملأ به القيادة الأخوانية الفراغ.. لم يشهد عملاً من أي نوع، ولم يضع واحد من الثلاثة الذين خلفوا الإمام الشهيد إضافة أو مساهمة ذات أصله (1). في الفقه، أو التفسير أو الحديث أو الاقتصاد أو الاجتماع. ولم يقم بهذا أحد مفكري الأخوان مع أن المناخ

(1) باستثناء كتاب "دعاة لا قضاة" الذي صدر باسم الأستاذ الهضيبي.

كان مهيباً له، بل ويتطلبه.. والذي حدث هو النكوص عما وصل إليه الأخوان من مرونة فكرية إلى السلفية التقليدية الجامدة والمتزمتة. وفي بعض الدول العربية والجاليات الإسلامية في دول أوروبية حدث تحالف بين الأخوان والهيئات الوهابية التي تساندها السعودية - لمواجهة اتجاهات إسلامية متحررة، أو صاعدة. أو وقف الأخوان موقف المعارضة من هيئات إسلامية أخرى..

* * * *

إنه لمن العسير أن يستسيغ أي واحد أكذوبة عدم شرعية الهيئة وصبر الأخوان عليها لأكثر من عشرين عاماً انتظاراً لحكم إحدى المحاكم، أو عجزهم عن إصدار مجلة أو تأسيس دار..

هذا أمر لا يمكن أن يفهم، إلا إذا كانت السلبية والاستخذاء، أصبحت السياسة المقررة..

الغريب أن القوة لا تنقص الأخوان، وأن الشارع لم يتخل عن الأخوان، وأن الأحزاب المقررة تغازل الأخوان، وأن الشارع لم يتخل عن الأخوان، وأن الأحزاب المقررة تغازل الأخوان. وأنها جميعاً سعت، أو قبلت - شخصيات إخوانية تدخل انتخابات مجلس الشعب تحت مظلتها. وإن المرحلة الأخيرة لهذا "التحالف" أدخلت قرابة خمسين نائباً من الأخوان.. فإذا كان "المجلس الموقر" قد نسج شبكة من

اللوائح الداخلية التي تحاصر المعارضة، أو إذا كان يحكم بديكتاتورية الأغلبية، أو أن رئيسه يرى أن "المجلس سيد قراره" ليجب بذلك الشرعية والحقيقة.. فقد كان واجب نواب الأخوان أن يتقدموا إلى الشعب باستقالة جماعية يقولون فيها: إننا دخلنا لنخدم - وقد حيل بيننا وبين ذلك. فنحن نستقيل.

وكان عليهم عندئذ أن يركزوا جهدهم في العمل الشعبي وهو مجالهم الأصيل وأن يعتنوا بالتكتلات الشعبية المنظمة كاتحادات الطلاب. والنقابات. والجمعيات الريفية الخ..

لقد خسر الأخوان كثيراً من طلبه الجامعة الذين ضاقوا بسليبتهم، فأنحازوا إلى الذين يرفعون شارات الجهاد. وعوض الله تعالى الأخوان بأغلبية في بعض النقابات المهنية.. لكنهم عجزوا عن أن يقدموا "الوجه الإسلامي" للخدمة التي يفترض أن تقوم بها نقابة مهنية في خدمة عامة كالطب، لأنهم دخلوا الحركة النقابية بفهم سلفي ومزاج بورجوازي، ولا يمكن توقع نجاح مع هذا، فالحركة النقابية لها أصولها ومقوماتها التي يكون عليهم أن يتعلموها، ولم يكن هذا عسيراً عليهم لأن هذا المجال قد خدم في مجال الكتابة والتنظير، وهناك هيئة إسلامية مختصة ليست بعيدة عنهم.

* * *

إننا لنأمل أن يعيد الأخوان النظر في تاريخهم المجيد وتقاليد الإمام الشهيد. فلا يتخذون السلبيّة منهجاً والتفوق أسلوباً. إن هذا وذاك يخالفان جهادية الأخوان وانفتاحهم. وقد أدّت سلبيتهم إلى ازدهار صور الفساد في المجتمع المصري حتى أصبح له "مافيا" قوية وانصاراً أو حماة في أعلى المناصب وتدنتّ المستويات اجتماعية وسياسية واقتصادية وخلقية - إلى الدرك الأسفل وأصبح الزيف والباطل شرعة وحقيقة - وهم مسئولون عن هذا أمام الله.. وأمام المجتمع المصري لأنهم أقوى هيئة يمكن أن تكبح جماحه وتوقف استشرائه..

وليس شرطاً أن يأخذ كفاح الأخوان لهذه الصور من المفاسد صورة العمل السياسي والوصول إلى الحكم للإصلاح - لأن في أيديهم ما هو أدنى وأقوى، وما هو أقرب إليهم روحاً وممارسة وهي الدعوة. ويا ليتهم يعلنون أن الحكم ليس هدفاً. وأن جهادنا الأول ليس بالسيف ولا بالحكم، ولكن "به" أي بالقرآن "وجاهدكم به" أي بالدعوة.. فالأخوان هيئة دعوة.. هيئة ضغط.. هيئة أمر بمعروف ونهي عن منكر. لا يدخل فيها الإصلاح باليد..

إن الملم بتاريخ الهيئات العامة يعلم أن الجمعية القابلية التي ظهرت في بريطانيا في أواخر القرن التاسع عشر

وكانت هيئة دعوة تلجأ إلى إصدار الكتيبات والدوريات والمراجع. وتعد دورات ثقافية.. إن هذه الهيئة أثرت في المجتمع البريطاني بحيث حققت أهدافها في الإصلاح الاجتماعي خلال سبعين سنة بفضل تعبير الفك والرأي العام. وإن تجربتها تلك تفضل تجربة الحزب الشيوعي الذي اغتصب الحكم بتكنيك سياسي. وفرض التطبيق اللينيني على المجتمع الروسي بكل ما أوتي من قوة، وحقق بالفعل تغييرات جذرية. ولكنها - بعد سبعين عاماً فشلت وانعكس المجتمع الروسي كما هو معروف. إن سبعين عاماً من الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة نجحت في التغيير وإن سبعين عاماً من الحكم والتطبيق والتشريع فشلت في تحقيق أهدافها..

وتتفق هذه الرؤية، مع النتائج التي انتهينا إليها في هذا الكتاب عن دراسة بعض الدعوات الإسلامية التي وصلت إلى الحكم. وكيف أن الحكم في حد ذاته لم يحقق طائلاً، وأن الدعوة الإسلامية التي تجعل الحكم غاية بفكرة تطبيق ما أنزل الله تقع في خطأ جسيم لأن الحكم وسيلة. وليس غاية. ولا يجوز للوسيلة أن تكون غاية.. قد تقولون أن الحكم وسيلة وأن الغاية هي تطبيق ما أنزل الله. لكن تجربة التاريخ في كل زمان ومكان - تدلنا على أن الحكم - أو السلطة -

تصبح غاية حتى عندما تراد كوسيلة. ولم يستهدف الرسول في دعوته حكماً.. وإنما نشر دعوته حتى دعته الظروف أن يطبق الشريعة - وكان نبياً يُعصم مما لا يُعصم منه غيره⁽¹⁾..

والدعوات الإسلامية بصفة عامة تميل إلى أن تتسبب للحكم قوة ليست له، وقد تتعجله قبل تهيئة المناخ وإصلاح النفوس. في حين أن هذا الأخير نفسه هو المطلوب. وما لا يمكن للحكم أن يحققه. ولو ركز الأخوان جهودهم في الدعوة لجاءكم الحكم "يجر جر أذياله" ولعل هذا هو ما عناه الإمام الشهيد عندما قال: "نحن لا نسعى للحكم. إن الحكم هو الذي يسعى إلينا". والذي أعلمه، ولعل بعض الأخوان يعلمونه أكثر، أن فكرة التركيز على الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة لم تكن بعيدة عن ذهن الإمام الشهيد خلال الشهور الأخيرة العاصفة التي سبقت استشهاده. وليس معنى هذا أن يقتصر الأمر على إصلاح النفوس بالتربية والعبادة. ولكن إصلاح المجتمع بكشف السوءات والتثديدها وعرض طرق الإصلاح والدعوة إليها.. حتى لا تكون الأخوان هيئة صوفية أو سلفية.. وإنما حياتيه تقوم اليوم بما قامت به في الأمس،

(1) أنظر فصل "دعوات وصلت إلى الحكم" في هذا الكتاب.

عندما استنقذت الإسلام من الركن القصي الذي أبعد فيه إلى صميم الحياة والمجتمع، والجامعة والشباب وقضايا الاقتصاد والاجتماع والسياسة.

إن الأخذ بمثل هذه الفكرة لا يمثل انتكاساً أو تغييراً في الخط الأخواني ولكنه "الرجوع إلى الأصل".

وإذا جاز لنا أن نقترح على الأخوان أمثلة للمجالات الجديدة للدعوة يمكن الإشارة إلى قضية محو الأمية التي أعيت من يداويها، وفشلت فيها كل الأجهزة والهيئات. ويمكن للأخوان أن تركز كل جهودها في حملة تحت الشعار القرآني "اقرأ" فإذا لم تتجح في محوها تماماً، فلا ريب في أنها ستقضي على نسبة كبيرة منها. وسيكون عملها حافزاً ومثالاً لبقية هيئات البلاد، بحيث يمكن، في فترة قريبة - القضاء عليها.

وإسلامياً.. فهل هناك أفضل من "اقرأ" أول لفظة نزلت من السماء إلى الأرض. يحملها جبريل.. إلى محمد ليبلغها محمد للناس...؟

وهناك أيضاً مجال قد لا يمكن لغير الأخوان أن يطرقوه هو إنشاء هيئات "صوفية إسلامية مهنية" لإيجاد طراز جديد من الممرضات اللاتي يدخلن هذه المهنة النبيلة بإيمان وإخلاص وللقربى إلى الله. ويمكن لهذه الهيئات أن تحمل اسم

"الخديجات" أو "الفاطمات" وتضم كرائم الأنسات والسيدات المتطوعات وتقدم لهن دراسات فنية في التمريض ودروس إسلامية روحية. بحيث يمكن أن توجد ممرضات مسلمات يماثلن نظام الممرضات الراهبات الذي سبقت إليه المسيحية، والموقف الإسلامي الأمثل منه هو "نحن أولى به منهم.." كما ضرب لنا الرسول المثل من قبل ...

والأخوان، وعلاقتهم وثيقة بنقابة الأطباء يعلمون أن "عنق الزجاجة" في العلاج المصري هو التمريض. وإن مهارة الطبيب وحدائه المعدات والوسائل، تذهب في النهاية هدرًا لسوء التمريض لأننا ظلمنا الممرضة، فلم تستطع القيام بدورها وتقديم عطائها، ولا يمكن بالوسائل البيروقراطية والرسمية إصلاح هذا الخطأ، لأن القضية ليست فحسب ظلم الممرضة ماديًا، ولكنه أيضًا المفهوم الطبقي المزيف للمجتمع المصري نحوها ونظرته إليها في استغلاء ولا يمكن القضاء عليه، إلا بإحلال مفهوم إسلامي، كالذي أوجده الرسول عندما رفع عاليًا اليد التي خشنها العمل قائلًا "هذه يد يحبها الله ورسوله".

وحملات محو الأمية تحت شعار "اقرأ" وإنشاء هيئات "الفاطمات" و "الخديجات" هي من أفكار "الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل" ونحن نقدمها للأخوان لأنهم اليوم أقدر على التحقيق.

وعن "الإصلاحات" الجزئية لبعض الأوضاع في النظم الأخوانية، فإن من الخير السعي لاكتشاف القيادات الشابه وإفساح المجال أمامها من القاعدة حتى القمة، ويدخل في ذلك استبعاد المبدأ العقيم الذي اتبعته أخيراً. وهو انتخاب أكبر أعضاء الهيئة التأسيسية سناً ليكون مرشداً. إن هذا يمكن أن يساغ لو كان الأخوان هيئة من أصحاب المعاشات أو المحالين على التقاعد.

كذلك يجب أن تفهم القيادات الأخوانية أن البيعة لا تعني استسلام العضو جسماً وروحاً للأوامر.. وأن الطاعة في المنشط والمكره لا تستبعد الشورى - التي يبدو أنها نسيت، فإنما تكون الطاعة فيما انتهى إليه بأعمال الشورى.

الفصل الثاني

الجماعة الإسلامية باكستان - الهند

تاريخ عريق:

قد يكون من الضروري قبل الحديث عن الجماعة الإسلامية أن نعرف القارئ العربي في اختصار شديد "بالمشهد الهندي" والملابس التي قامت قبل "الجماعة الإسلامية"، إذ يغلب أن يكون ذلك جديدًا عليه.

كما أن من العسير أن يتفهم القارئ المؤثرات التي أثرت على الجماعة الإسلامية" دون إلمامه بهذا التاريخ.

فقد بدأت الموجه الأولى للفتح الإسلامي للهند بقيادة "محمد بن القاسم" ذي السبعة عشر ربيعاً من الشاطئ الغربي الشمالي (السند) عام ٩٢ هـ..

وكان من الممكن أن يمضي قدماً لولا المؤامرات التي انتزعت من الهند⁽¹⁾.

(1) وقصة المؤامرات: أن الحجاج بن يوسف الثقفي كان قد سير ابن أخيه محمد بن القاسم على رأس جيش إلى الهند وكان ذلك في عهد الوليد بن عبد الملك وفي تلك الأثناء أراد الوليد خلع أخيه سليمان من ولاية العهد وتولية ابنه فساعده الحجاج في ذلك، إلا أن سليمان تولى بعد موت أخيه الوليد، وانتقم سليمان من الحجاج في شخص رجاله، ومنهم بن القاسم الذي استدعاه من الهند وسجنه.

وجاءت الموجة الثانية مع دخول السلطان "محمود الغزنوي" (٣٨٨ - ٤٢١ هـ) عن طريق الحدود الشمالية الغربية.

والمدة الطويلة ما بين ٩٢ و ٤٠٠ هـ التي تفصل الموجة الثانية عن الأولى توضح لنا جريرة المؤامرات وكيف يمكن أن تكون بعيدة المدى في مصائر الشعوب! فقد كان من الممكن اختصار ثلاثمائة سنة لتمكين الإسلام في الهند..

ودخل مع السلطان محمود الغزنوي الترك والأفغان، وأسسوا الدولة الإسلامية في الهند التي بلغت أوجها في عهد الملك أكبر، وشاه جهان، وأورانج زب.. وظلت قائمة.. ثم أخذت تتدهور حتى دهمتها الجيوش الأوروبية.

وبدأت صفحة التدخل بالاستعمار البريطاني الذي ترك آثاراً عميقة على حاضر القارة الهندية، وكان أصلاً لمعظم مشاكلها.

واختلف المجتمع الإسلامي في الهند عن المجتمع الإسلامي في مصر وسوريا والعراق في أن الفتح لم يعط الهند لغته العربية.

كان هناك كثافة سكانية، وكان هناك تقاليد وأوضاع مؤثله، فضلاً عن أنه - باستثناء الموجه الأولى التي قادها محمد بن القاسم التي كانت عربية خالصة - فإن معظم الفاتحين المسلمين لم يكونوا عرباً، أو لم يكونوا من الذين يحكمون العربية.

وهكذا حرم المجتمع المسلم الهندي من اللغة العربية. وفي دين كالإسلام - معجزته الكبرى وجذره الأصيل القرآن - يكون عدم الإلمام بالعربية نقصاً كبيراً في الإيمان.. فمن لا يعرف العربية يغلب أن لا يصل إلى أعماق العقيدة التي عبّر عنها القرآن بأسلوب فريد يعسر أن يترجم. ولم تقتصر جريرة مؤامرة استدعاء محمد بن القاسم وإيقاف الموجة الأولى من موجات الفتح الإسلامي على تأخر وقوع الموجة الثانية ثلاثة قرون، ولكن أيضاً أنها حالت دون تغلغل اللغة العربية..

وإنه من العجيب أن تتكرر هذه المأساة بالنسبة لإيران.. وتكررت مرة أخرى في الباكستان - دون أن يكون هناك مبرر حقيقي - إلا الغفلة عن أهمية تلك النقطة التي جعلت الباكستانيين يبقون على لغتهم الأصلية، ولو جعلوا العربية لغة رسمية لهم منذ استقلالهم عام ١٩٥٧ لأصبحوا عرباً (لأن العربية هي اللسان) ولأصبحوا أقرب إلى

المجموعة العربية من الصومال وجيبوتي.. الأعضاء في
الجامعة العربية.

أخطاء يظن أنها صغيرة.. وتجرب عواقب مصيرية
خطيرة..

* * * *

وفي نظرنا أن تلك الواقعة فرضت نفسها على مدى
وعمق ونقاء إسلامية المجتمع الهندي، وكانت في أصل ما
تعرض له من مفارقات ومن شذوذ ظهر في سياسة الملك
"أكبر" الذي كاد يمرق من حظيرة الإسلام، وما اتسم به
البلاط المغولي من سرف وطقوس وسياسات بعيدة قلبًا وقالبا
عن الإسلام، كما كانت سببًا في ظهور "رد الفعل" في
محاولات الخلاص التي أخذت طابعًا جهاديًا وتزعمها
علماء⁽¹⁾ كان أولهم وأبرزهم الإمام المجاهد أحمد بن عبد
الأحد الفارقي) الملقب بمجدد الألف الثاني للهجرة الذي عمل

(1) رجعنا في هذا القسم من استعراض تاريخ الإسلام في الهند إلى
الكتيب الذي وضعه السيد مسعود الندوي باسم: "نظرة إجمالية في
تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند" وطبعته لجنة الشباب المسلم
بالحلمية الجديدة وكتب مقدمته الأستاذ محب الدين الخطيب -
رحمة الله - عام ١٣٧٢ هـ.

خلال الفترة الأخيرة من حكم أكبر، وابنه الخليفة جهان كير الذي أمر بسجن العالم في حصن كواليار، وكان سجنه هذا نعمة لأن شهرته سبقته بحيث أصبح السجن وما حوله منطقة إسلامية تطبق تعاليمه. وتنبّه المسؤولون إلى ذلك وتغير مسلك الملك، واستقدمه ولي عهده الذي وليّ الملك باسم شاه جهان ورحب به.

وبذلك استطاع العالم المجاهد أن يوقف عجلة الانحراف التي كانت تمضي قُدماً.

وخلف الإمام المجاهد أحمد السرهندي في قيادة الدعوة الإسلامية الشيخ عبد الحق الدهلوي (1) الذي أحيا علم الحديث في شمال الهند، وشرح "مشكاة المصابيح" بالعربية والفارسية..

وكانت جهود العلماء قبله مُنصبة على فروع الفقه الحنفي والمنطق وعلم الكلام.

ثم ظهر الإمام ولي الله الدهلوي (١١١٤ - ١١٧٦هـ) مؤلف "حجة الله البالغة"، وهو أحد غرر المراجع الإسلامية، والكتاب الموجز "الإنصاف في بيان سبب الاختلاف" ..

(1) نسبة إلى "دهلي" وهي التسمية الصحيحة، وليست "دهلي" كما حرفها الإنجليز.

ووضع ولي الله الدهلوي أساس الفكر السلفي المستتير الذي يعود إلى القرآن والحديث والأئمة، وقد نفع الله به الهند كلها لما رزقه من قبول فكثرت اتباعه وكان أولاده الأربعة امتداداً له ولدعوته.

فقد أنجب أصغر أبنائه "الشاه عبد الغني" الذي مات وهو شاب، ابنه الشهيد "إسماعيل" الذي كان اليد اليمنى للسيد أحمد بن عرفان وخاض معه معارك عديدة ضد السيخ والهنداك المحاربين للإسلام، وحققت انتصارات عديدة في النصف الأول من القرن الثالث عشر للهجرة، ولكنهما هزما واستشهدا في معركة بلاكوت (ما بين كشمير والحدود الشمالية الغربية) وأوقفت هذه الهزيمة المد الإسلامي وحالت دون قيام حكم إسلامي رشيد.

الثورة الهندية وأحمد خان:

اندلعت وقتئذ الثورة الهندية الكبرى.. فقد ثارت مجموعات عديدة من الشعب، وأيدتها فرق من الجيش الهندي (١٢٧٣ هـ - ١٨٥٧ م) على الإنجليز واستطاع الإنجليز قمع الثورة بعد عناء شديد.. وصبوا جام غضبهم على المسلمين الذين كانوا "فرسان الهند" وتمثل فيهم روح الجهاد والقيادة المترسبة من ذكريات الفتح الإسلامي والإمبراطورية المغولية ومقاومة الإنجليز بقيادة تيبو صاحب الذي سقط

شهيداً عام ١٧٩٩. فدبر الإنجليز مذابح استهدفت استئصال عناصر المقاومة من المسلمين ووصل بهم الأمر أن كانوا - على ما روى ذكاء الله الدهلوي - لا يفلتون أي مسلم عليه سمة من جمال أو بسطة في الجسم - كما اغتالوا الأسرة المالكة بعد استئمانها، فسبقوا لينين فيما فعله بأسرة القيصر نيقولا الثاني، ثم وضعوا النظم الإدارية التي تبعد المسلمين عن النشاط العام والخدمة المدنية ومجالات العمل، بقدر ما اصطنعوا السيخ وطوائف من الهندوس ليكونوا شوكة في حلق المسلمين وليسدوا الطريق أمامهم.

وقال مسعود الندوي عن الآثار التي جاءت بها الثورة على مسلمي الهند:

"وكان من جراء الفزع والخوف على مستقبلهم، واضطهاد الحكومة المتتابع لهم أن تحولت حياتهم الدينية والسياسية تحولاً كاملاً بعد الثورة الكبرى (١٢٧٣ هـ - ١٨٥٧ م) وكأني بهم قد أنشأوا أمة جديدة لا صلة لها بالأمة المسلمة الباسلة التي نشرت ظلال الأمن والدعة والسلام في ربوع الهند قروناً عديدة، والتي قاتلت في صفوف المجاهدين منذ وقت قريب ورفعت لواء الحق وأرادت أن تعلي لواء الله في الخافقين".

وفي هذه الفترة المظلمة ظهر السيد أحمد خان، وبدأ أولى محاولات التجديد بعد الثورة. وكان رجلاً مستتيراً دؤوباً صاحب عزيمة قوية، وله بعض الدالة على الإنجليز⁽¹⁾..

وكان الوسيلة التي اختارها تمثل لنا إحدى نقاط الافتراق عن الوسائل التي وضع أصولها مجدد السرهندي وتقوم على: "الجهاد" أو التي وضعها ولي الله الدهلوي وتقوم على الأصول السلفية وتتقية العقيدة.

كما أنها تكشف عن أثر التطور الذي حدث في أعقاب الاستعمار البريطاني وزحف الثقافة الأوروبية..

فقد اختار السيد أحمد خان: "التعليم المدني" الذي لمس أهميته وشاهد عزوف المسلمين عنه.

وهكذا أسس عام ١٢٩٣ هـ كلية "عليكرة"⁽²⁾ التي أصبحت فيما بعد جامعة عليكرة كبرى الجامعات الإسلامية في الهند.

(1) لأنه في أخرج أيام الثورة أضفى حمايته على كثير من السيدات البريطانيات وأنقذهن من الموت المؤكد.

(2) تبعد عن دهلي ٥٥ ميلاً تقريباً.

وفي البداية لم تتقبل العناصر الإسلامية التقليدية هذه الخطوة بقبول حسن؛ خاصة وقد أخذ على أحمد خان بعض الاجتهادات التي أخطأه فيها التوفيق، ولم تكن هذه الاجتهادات تمس صلب العقيدة، ولكن المسلمين رأوها كبيرة؛ فتجراً على إنكار:

الرق في الإسلام.. تعدد الزوجات.. ولادة السيد المسيح من غير أب.. المعجزات كلها.. الجن..

وكانت العناصر الإسلامية قد أسست قبل تكوين عليكرة بسنوات قلائل مدرسة "ديوبند" (1) التي بدأت بمدرس وطالب ثم نمت حتى أصبحت أكبر مدرسة دينية في الهند..

ولعل اتجاه السيد أحمد خان جعل مؤسسي "ديوبند" يتشددون، وبتعبير السيد مسعود الندوي: " ... لكن هؤلاء العلماء أخطأوا من جهة أخرى، فإنهم حافظوا على منهاج التعليم القديم العقيم الذي ورثوه عن شيوخهم وشيوخ مشايخهم منذ قرون وأجيال.

ولم يرضوا بأدنى تغيير في الكتب والمواد المقررة للتدريس أو طرق الإلقاء والإملاء والدرس.

(1) تبعد عن دهلي ٦٠ ميلاً تقريباً.

وكذلك جعلوا أنفسهم في عمى عن كل ما يظهر ويتجدد
فيما حولهم من الأرض..

وكأنني بهم أرادوا أن يعتصموا بدينهم وعقائدهم منزوين
في جوامعهم وزواياهم، وهيهات أن ينالوا بغيتهم، فإن
أعاصير الإلحاد والزندقة التي كانت تهب بين جدران الكليات
العصرية، ما كانت لتذر سكان الجوامع والزوايا في أمانة
منها..

فإنهم مهما اجتهدوا في إغلاق أبواب الجوامع وإيصاد
مصاريعها دون زوابع التفرنج والأفكار الأوروبية العصرية،
فإن هذه الأعاصير داخلة في بيوتهم وحجراتهم وزواياهم لا
محالة.

فإنه ليس من قوانين الطبيعة إخماد النيران المضطربة
بالسكون والعزلة، ولا دفع السيول المتدفقة باللجوء إلى
الحجرات والمخادع..

وكل من أراد ذلك فقد ارتكب الغلطة الكبرى وسيذوق
مغبتها يوماً لا محالة⁽¹⁾.

(1) نظرة إجمالية في تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند وباكستان ص

وفي عام ١٣١١ هـ تكونت جمعية "ندوة العلماء"، و
"دار العلوم" التابعة لها، أي بعد ربع قرن من "عليكرة" و
"ديوبند".

وكانت الفكرة فيها إيجاد منهج وسط يقوم على الكتاب
والسنة دون تجاهل العلوم العصرية، واللغة الإنجليزية،
وكونت "دار العلوم" لتكون مثلاً علمياً يقف بين "عليكرة" و
"ديوبند".

وهذه تجربة حسنة.. فالمنهج في حد ذاته هو المنهج
السليم..

كما كانت ندوة العلماء هي الأولى التي تنبعت إلى أهمية
دراسة اللغة العربية، واستقدمت المدرسين لذلك من الدول
العربية، كما أرسلت إليها بعض الدارسين النابهين.

ولكن يغلب أنها في تقبلها للعلوم العصرية استهدفت
توظيف هذه العلوم لخدمة الفكرة السلفية دون أن يكون لديها
"الحس" الموضوعي اللازم للمعرفة الحقة، والذي لا يخالف
توجيه القرآن.

وتلك نقطة كانت - ولا تزال - يعسر على السلفيين -
إساعتها..

وكانت التطورات السياسية تدفع بالحركة الإسلامية لأن
تعلن رأيها وتحدد موقفها..

فقد نشبت الحرب العالمية الأولى ووقفت بريطانيا ضد تركيا - دولة الخلافة - ثم ذكرت للعود التي أعطتها للملك حسين، وناصرت - بل وأسهمت - في سياسة تقطيع أوصال العالم الإسلامي؛ دع عنك وعد بلفور المشنوم.

وبالإضافة إلى هذه السياسة البريطانية ففي تركيا نفسها ظهر مصطفى كمال متشحا بلباس "الغازي" .. ثم منقضا على الخلافة.. ومنتكرا للإسلام.. وباطشا بعلمائه.. وقاضيا على اللغة العربية كل التقاليد الإسلامية.. وبادئا عهد العسكر العقيم.

أدت هذه الأحداث كلها إلى وجود اتجاهات تقاسمت مسلمي الهند؛ وحفلت الحقبة بعدد من الشخصيات الإسلامية البارزة والموهبة في مجال القيادة مثل: أبي الكلام آزاد، ومحمد إقبال، ومولانا محمد علي، ومحمد علي جنه.. ومجموعة أخرى كبيرة من الأطباء وأساتذة الجامعات والمحامين.

وكانت ثقافة معظم هذه القيادات، والمناصب التي شغلوها أو المهن التي يمتنونها، تجعلهم يفتربون من الاتجاه العصري قدر ما يبتعدون عن الاتجاه السلفي التقليدي.

على أن ذلك لم يوهن من حماسهم لقضية الإسلام، بل زودهم بمنطق وأسلوب كانت الدعوة الإسلامية في أشد الحاجة إليه.

وظهرت وقتئذ القضية الرئيسية التي تملكت اهتمام المسلمين على اختلافهم في الهند؛ هذه القضية هي: موقف المسلمين من استقلال الهند..

كان حزب المؤتمر أكبر وأقوى الأحزاب الهندية يناهز بهند واحدة ديمقراطية تضم الهندوس والمسلمين وبقية طوائف الهند.

وكان الثالث الذي يقود حزب المؤتمر هم: غاندي، وجواهر لال نهرو، وأبو الكلام آزاد "الذي كان رئيس المؤتمر".

وكان أبو الكلام آزاد وقتئذ هو أكبر زعيم سياسي مسلم، وقد أيد بقوة فكرة الهند الديمقراطية الواحدة..

ولكن مجموعات إسلامية عديدة تنبأت بأن الهند الديمقراطية، بأغلبية هندوسية، ذات عداوة قديمة مع الإسلام، لا بد أن تحيف على حقوق المسلمين، ولن يكون المسلمون فيها مواطنين سعداء أحرار، وأن من الخير أن تنقسم شبه القارة (وليست هي بالصغيرة حجمًا أو بالضئيلة عددًا) إلى دولتين: دولة للهندوس، ودولة للمسلمين.

وأيد هذه الفكرة الشاعر محمد إقبال، الذي كان روح الحركة وشعلتها المثيرة، والذي أبدع كلمة "باكستان" وظهر بجانبه السياسي المحنك القدير محمد علي جنه، وظهرت "الرابطة الإسلامية" كهيئة تدعو للدولة الإسلامية الجديدة.

ونعتقد أن دعاة "باكستان" كانوا أقرب إلى الصواب، وأن قادتهم أيضاً كانوا أكثر نبوغاً؛ محمد إقبال كان لا يجارى كشاعر مسلم استطاع بإيمانه وملكاته أن يوظف اللفظ والمعنى، وأن يلهب القلوب والعواطف.

كما أثبت محمد علي جنه أنه مفاوض قدير صعب لم يستطع معه غاندي أن يصنع شيئاً، وأساء إلى منزلة أبي الكلام آزاد - وهو الزعيم الإسلامي الذي كان سابقاً على هؤلاء جميعاً - موقفه من مصطفى كمال أتاتورك؛ فإنه أيد "إصلاحاته" المزعومة!، ورأى أنه في إلغائه الخلافة لم يرتكب أمراً إدّاً!!..

وكانت الخلافة إحدى مقدسات مسلمي الهند..

ومع أن "أبو" الكلام - باستثناء ذلك - كان أقرب إلى الثقافة الإسلامية من محمد علي جنه، الذي كان في الثقافة والمزاج والسلوك سيذا بريطانيا لا يفترق عن أي "باريستر" (1) إنجليزي..

(1) وهو في النظام البريطاني أرقى مستوى للمحامين barrister (١)

إلا أن الذكاء والدهاء جعلاً من "جنه" القائد الأعظم الذي يخرج "باكستان" من أحشاء الهند بعملية قيصرية لم يكن منها بد..

وتلك نقطة تستحق وقفة قصيره..

فإن جنه⁽¹⁾ لم يكن من العلماء المسلمين، بل إن ثقافته الإسلامية كانت ضحلة، وقيل إنه من "الإثني عشرية"، ولما اضطر إلى الإمامة في الصلاة تلعثم، فضلاً عن أنه بالنشأة والثقافة والمهنة كان غربياً أوروبياً..

ومع هذا فإنه كان سياسياً أقدر من "أبو الكلام آزاد" الذي يعد حجة وأستاذاً في الآداب والثقافة الإسلامية.. وكان جنه هو الأحق فعلاً بأن يصبح رجل باكستان الأول..

ولكن هذا لا يعني أنه كان رجل دولة من الطراز الرفيع؛ فقد كان سياسياً ذكياً ماهراً؛ استطاع بمهارته السياسية أن يظهر باكستان على الخريطة والواقع رغم كل الشكوك، والمثبطات، والقوى المعارضة التي ترصدت له..

(1) وعادة ما لا ينطق حرف الهاء .. في آخر الكلمة، وكتابتها - جناح
نوع من التحريف Jinnah

ولكنه لم يكن رجل دولة مع أن الفرصة كانت مهيأة لو كان مؤهلاً لذلك..

ولو أنه كان رجل دولة لأقام دولة إسلامية؛ بمعنى استلهم القيم الإسلامية الكبرى، وأولها العدل؛ ولاهتم باللغة العربية، أو رسم خطة لتكون لغة باكستان على المدى البعيد. لو فعل هذا لاغتنر له قصوره في الثقافة السلفية، أو عدم إحسانه للإمامة في الصلاة، فهذا لا قيمة له للإمام في دولة إسلامية في العصر الحديث.

على أن خصومة السياسيين: أبو الكلام آزاد، وأبو الأعلى المودودي.. لم يكونوا رجال دولة كذلك، لأن إيمانهم كان إيماناً سلفياً صرفاً ولم يكن الإيمان السلفي ليقم دولة في العصر الحديث..

* * * *

مع هذه التطورات برزت المجموعة "المدينة" الإسلامية، وكاد التراث الفكري لولي الله الدهلوي وخلفائه أن ينسى في عجيج المعركة السياسية.

وكان رد الفعل أن يظهر الرجل الذي يحول دون أن يندثر هذا الفكر، فيبعثه، ويجدد في صياغته بحيث يصل به إلى مستوى "النظرية" بعد أن كانت الأفكار الإسلامية مشتتة في الأذهان.

هذا الرجل هو: الإمام أبو الأعلى المودودي.

المودودي: النشأة والتطور:

ولد الإمام أبو الأعلى المودودي في ٣ رجب عام ١٣٢١ هـ - ٢٥ سبتمبر عام ١٩٠٣ في أورنك آباد، وكان أبوه قد درس حينما بجامعة عليكرة ثم تركها ليشغل بالمحاماة والتعليم وفي عام ١٣٢٢ هـ ترك العمل وانعزل عن الناس.. ثم عاد مرة ثانية إلى المحاماة حتى داهمه المرض وأبقاه قعيداً حتى توفي عام ١٣٣٨ هـ.

ونشأ المودودي خلال فترة انعزال وانقطاع والده إلى العبادة والزهد، فحرص والده على تربيته تربية إسلامية، وألحقه بمدارس الثقافة الإسلامية، حيث أتقن العربية والفارسية والفقه والحديث، واجتاز امتحان "مولوي".

وفي عام ١٩١٨ م عمل في إحدى الصحف التي كانت تصدر ببعض المدن الهندية حتى استقر به المقام في دهلي، واشترك في حركة إحياء الخلافة.

وخلال هذه الفترة تعلم اللغة الإنجليزية وطالع كتب التاريخ والفلسفة والسياسة.. إلخ، إما بحكم عمله، وإما لأنه اكتشف عدم إلمامه بها مع أهميتها..

وأقام فترة في بهو بال عكف فيها على المطالعة والبحث..

وتحدد خلال هذه الفترة العمل المهني لأبي الأعلى المودودي الذي كان مهيباً له بحكم النشأة والتربية والمزاج وهو "الكتابة" التي يكون مجالها المنتظم هو: (الصحافة) بالمعنى القديم لهذه الكلمة⁽¹⁾.

وفي عام ١٩٢٨م أصدر كتاب: "الجهاد في الإسلام" الذي رد به على شبهة انتشار الإسلام بالسيف، التي ادعاها غاندي في إحدى المناسبات.

وفي عام ١٩٣٢م أصدر صحيفة "ترجمان القرآن" في حيدر أباد الدكن، وكان شعارها:

"احملوا دعوة القرآن وحلقوا بها فوق العالم".

وكتب عدداً من الكتب، وانتشر اسمه ككاتب ومفكر وداعية إسلامي، وبدأت معالم دعوته تتفتح خلال كتاباته عن: الربا، والحجاب، والتنقيحات، والتفهيمات، ... الخ.

وفي عام ١٩٣٧م قدم المودودي إلى لاهور بناء على دعوة قدمها له العلامة إقبال، ولم يكذب يستقر بها حتى توفي إقبال.

وتوالى التطورات السياسية، وظهرت فكرة القومية الهندية، ووجد المودودي نفسه في خضم الصراع فأصدر كتابيه عن الصراع السياسي ومسألة القومية.

(1) أي الصحافة الثقافية الرسالية الإسلامية

ودفعه هذا الاتجاه للتركيز على قضية الدولة الإسلامية التي ستصبح واسطة العقد في فكره.

وتصدى لدعاة القومية الهندية، وأوضح أن قيام جمهورية هندية يكون الحكم فيها للأغلبية ستقضي على الكيان الإسلامي، وأن المسلمين إذا قبلوا ذلك سيوقعون بأنفسهم على حكم إعدامهم.

وكانت مقالات المودودي في هذا الصدد من أكبر العوامل التي أوهنت حزب المؤتمر وحرمته من تأييد أغلبية المسلمين..

وكان السياسيون المفاوضون قد كونوا "الرابطة الإسلامية" ودعمتها مقالات المودودي بنفس القدر، ولكن العلاقة ما بين المودودي والرابطة لم تكن صفواً، فقد اكتشف المودودي الاتجاه "المدني" لقياداتها، وأنهم يريدون دولة إسلامية بالاسم، وأن الإسلام لديهم كالقومية لدى الهنود، وأنهم إنما يريدون "قومية إسلامية" ودولة إسلامية في مواجهة القومية الهندية والدولة الهندية، فأوضح لهم أن المسلمين ليسوا أمة كالجرمان والإنجليز، ولكنهم المؤمنين بدعوة.

وتطرق إلى ناحية هامة هي أنه حتى عندما تتجمع المقاطعات ذات الأغلبية الإسلامية في دولة واحدة مستقلة،

فسيظل في مقاطعات الهند العديدة أقليات إسلامية قد تزيد في مجموعها عن مجموع مسلمي الدولة الجديدة، وهؤلاء ليس لهم من مخلص إلا ما سمّاه "شهادة الحق" القولية والعملية ولخصها في:

"إن المسلمين عندما قدموا الهند، منذ ألف سنة، لم يكن لهم فيها عدد أو عدة، وإنما رسخت أقدامهم وتغلغلت أفكارهم بفضل العلماء والصوفية الذين قالوا بفرضية شهادة الحق القولية والفعلية، ولولا تقاعس الملوك واشتغالهم بالأمور الأخرى لما كان هناك وجود لمشاكل الأقلية والأغلبية.

وأن الحل الحقيقي لمشاكل المسلمين، سواء في الهند أو باكستان؛ هو التزام الخط الإسلامي وما يمليه من خلق وتماسك واتحاد وقيم.. إلخ".

ولكن الأغلبية - لم تتفهم مغزى دعوة المودودي وأثرت العاجلة على الأجلة - المحددة على العامة وصادق مؤتمر "الرابطة الإسلامية" عام ١٩٤٠م على قرار تكوين دولة إسلامية مستقلة.

وفي السادس والعشرين من أغسطس عام ١٩٤١م تكونت "الجماعة الإسلامية" من خمسة وسبعين رجلاً اجتمعوا من مختلف بقاع الهند بناء على دعوة وجهها عن طريق مجلته "ترجمان القرآن"، وانتخب الإمام المودودي "أميراً" لها..

وهذا هو أول بعث للكلمة الإسلامية القديمة "أمير" بعد أن حل محلها تعبير "الرئيس" أو "الأمين العام".
ونرى هنا تجديدًا يماثل تجديد الإمام الشهيد رحمه الله عندما بعث تعبير "المرشد" من تعابير الصوفية..

عمل الجماعة:

في هذه الفترة أتم المودودي كتبه الهامة: المصطلحات الأربعة في القرآن، الإسلام والجاهلية، المسألة الاقتصادية، وبدأ كتبه: تفهيم القرآن، دين الحق، الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية، شهادة الحق.

وفي الثامن والعشرين من أغسطس عام ١٩٤٧ م تكونت "باكستان"، وبدأت صفحة جديدة من العمل للجماعة الإسلامية..

إن تكوين باكستان كان نهاية لمخاض دموي تمثل في هجرة مئات الألوف من مسلمي شرقي البنجاب حيث سادت الأغلبية الهندوسية، بينما هاجر الهندوس من البنجاب الغربية التي اعتبرت صميم باكستان، وتعرض المهاجرون من هذه الجماعة الإسلامية مثاليًا:

فإنها قاومت بشجاعة اضطهاد الهندوس للمسلمين، وبذلت جهودها لاستقبال مئات الألوف من المهاجرين

البؤساء، بينما نددت بكل شدة باضطهاد المسلمين للهندوس ورفضت فكرة المعاملة بالمثل.

ودعا هذا المسلك المثالي الحكومة لأن تفوض كثيراً من مشاريع خدمة اللاجئين إلى الجماعة الإسلامية طوال أربعة أشهر حتى انقطع سيل اللاجئين وبدأ استقرارهم في وطنهم الجديد.

وخلال عامي ١٩٤٧، ١٩٤٨م قام المودودي بنشاط سياسي مكثف تطلبه تكوين الدولة الجديدة وعرض المودودي فكرته في خطاب بكلية الحقوق عام ١٩٤٨م..

كما قدم في أحد الاجتماعات الغفيرة في كراتشي النقط الأربع للنظام الإسلامي وهي:

باكستان هي ملك لله فقط، وعلى الحكومة الباكستانية أن تقيم نظام البلاد بما يرضي الله^(١).

(١) هناك ترجمة أخرى لهذا البند:

أن الحكومة في باكستان مختصة لله تعالى العلي الأحد، وليس لحكومة باكستان من الأمر شيء غير إنجاز مالكة الحقيقي في أرضه. وهذا النص مأخوذ من كتاب مسعود الندوي ص ١٢٣، ونص المتن من كتاب د. سمير عبد الحميد: أبو الأعلى المودودي فكره ودعوته ص ٢٢٣.

القضاء على القوانين المخالفة للشريعة.

أن يكون القانون الأساسي لباكستان هو الشريعة الإسلامية.

أن تحدد الحكومة الباكستانية سلطانها طبقاً لحدود الشريعة.

وعلى غير المنتظر، فإن تكوين باكستان كان إيذاناً ببداية معركة مريرة وطويلة بين الإمام المودودي وسلطات الدولة الجديدة..

فالمودودي أصرَّ على أن تكون الدولة إسلامية بالمعنى الذي قدمه؛ بينما أثرت السلطات اتجاهاً آخر، وقامت خلال المعارضة العنيفة باعتقال المودودي أربع مرات!!!!
الأولى: في أكتوبر عام ١٩٤٨م.

الثانية: في مارس عام ١٩٥٣م، وفي هذه المرة حوكم المودودي وحكم عليه بالإعدام! ولكن الحكومة تراجعت أمام الضغوط الشعبية والدولية فغيرته إلى السجن مدى الحياة! ولكنها عام ١٩٥٥ م أصدرت عفواً عنه وأطلقت سراحه.

الثالثة: في يناير عام ١٩٦٤، عندما حظرت الحكومة نشاط الجماعة الإسلامية، واعتقلت المودودي مع ثلاثة وستين من قيادات الجماعة، ولكن المحكمة العليا

حكمت بأن هذا الإجراء غير قانوني، وأطلق سراح المودودي ورفاقه، وعادت الجماعة بممارسة نشاطها.

الرابعة: في يناير عام ١٩٦٧، حيث اعتقلت الحكومة الإمام لفتواه عن "تقديم يوم عيد الفطر!!" ولكنها أفرجت عنه بعد شهرين بقرار من المحكمة العليا.

وفي أول نوفمبر عام ١٩٧٢م وبعد واحد وثلاثين عامًا من الكفاح قدم الإمام المودودي طلبًا إلى الجماعة الإسلامية بإعفائه من منصبه كأmir للجماعة الإسلامية لأسباب صحية، وعكف على البحث والقراءة بحيث أكمل "تفهيم القرآن" و "سيرة النبي ﷺ". وفي الثاني والعشرين من سبتمبر عام ١٩٧٩م تُوفي.

* * * *

من هذا العرض لنشأة الإمام المودودي رحمه الله وتطوره الفكري الثقافي وعمله في مجال الدعوة الإسلامية يتضح لنا أن الإمام المودودي لم يستهدف منذ أيامه الأولى أن ينال منصبًا أو جاهًا، ولم يحاول أن يكون محاميًا ضليعًا، أو أستاذًا في الجامعة، أو سياسيًا كساسة الأحزاب، أو شيخًا من الشيوخ بالطريقة التقليدية..

إنه اختار القراءة والبحث والكتابة بالإضافة إلى نشاطه العام والثمار الطيبة التي نتجت عن اقتران العلم بالعمل، وكان من أبرز مواهبه التي ساعدت على نجاح دعوته أنه أوتي أسلوباً سهلاً سائغاً، وأنه لم يسلك أبداً مسلك الفقهاء التقليديين أو علماء الكلام، كما لم يحاول أن يرفع مستوى حديثه عن مستوى القارئ العادي بحيث يشق عليه فهمه.

وكان من أبرز سمات أسلوبه أنه يلجأ إلى الأمثال والأفكار الساذجة لتوضيح فكرته، وأنه عندما يناقش قضية عويصة أو فنية فإنه لا ينساق وراء "الفنية" المعقدة، وإنما يبسطها بحيث يفهما كل واحد.

دعوة الإمام المودودي:

ككل الأفكار الكبيرة، كانت دعوة الإمام المودودي تتسم بالبساطة والوضوح، وتقوم فكرته على مبادئ أساسيات ثلاث:

المبدأ الأول: هو "الحاكمية الإلهية" المنبثقة من أن الله تعالى هو خالق هذا الكون وخالق الإنسان، ومبدع كل شيء في الوجود، وأنه "ما من ذرة في السماء والأرض أو نجوى ثلاثة أو أقل إلا يعلمها الله..". وبناء على هذا المبدأ الرئيسي يتفرع المبدأ الثاني والثالث.

المبدأ الثاني: "العبودية لله وحده" فلا يجوز للإنسان أن يشرك بالله تعالى شيئاً.

المبدأ الثالث: أن كل أوضاع المجتمع الإنساني من سياسة، واقتصاد، واجتماع يجب أن تتم طبقاً لما أراده الله تعالى لها وفقاً لما شرّعه في الكتاب والسنة، وأي قانون أو تنظيم يخالف ذلك يعد نوعاً من مخالفة "الحاكمية الإلهية" ويقرب من الشرك.

وقد يبدو أن هذه المبادئ بديهيات وأنه ما من أحد يعارضها أو يشك فيها، ولكن الدراسة المتأنية للأوضاع القائمة تثبت أن هذه الأوضاع تختلف بل وتتناقض مع هذه المبادئ؛ فطموح الناس هو للشهوات والمناصب والمال والجاه، وهم يتقربون إلى ملوكهم وأمرائهم بما يكاد يشبه الشرك، والقوانين سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية تعارض مبادئ الشريعة، بحيث يكون الإقرار بهذه المبادئ مجرد إقرار نظري، أما الواقع فهو شيء آخر مختلف تماماً.

وكان على المودودي أن يوضح ذلك وأن يبين فساد الأفكار والأوضاع التي لا تقوم على أساس إسلامي.

الجماعة الإسلامية خصائصها وعقيدتها:

لم تكن الجماعة الإسلامية وزملاؤه هيئة كبقية الهيئات، لأنها قامت على أساس بتوفر فيه الإيمان والشمولية..

وأراد المودودي وزملاؤه أن يوجدوا داخل المجتمع المدني الذي غلب على باكستان مجتمعًا إسلاميًا حقيقيًا يتوفر لأعضائه الإيمان والعمل، أو ما أطلق عليه المودودي الشهادة القولية والفعلية، ويخضع لمعايير صارمة هي التي رأى المودودي أنها تتفق مع متطلبات الإسلام.

وأقامت الجماعة في قرية عمرتها بنفسها، واستوطنها صفوة من أعضائها كما لو كانت مدرسة للكبار، وكان من واجبات كل عضو أن يأخذ نفسه بآداب الإسلام وأوامره فلا يعامل أحدًا إلا على الصدق، ولا يعاقد قريبًا أو أجنبيًا إلا على ما جاء به الشريعة من شروط ولا يرضى بالعقود الفاسدة المحرمة في الشريعة، ولو كلفه ذلك قناطير مقنطرة من الذهب والفضة..

فاستقال أعضاؤها من وظائف الحكومة الكافرة - البريطانية - وانقطع المحامون من رجالها عن المحاماة أمام المحاكم التي تحكم بغير ما أنزل الله، وأبوا أن يتعاطوا بالربا فتوقفوا عن التعامل مع البنوك (المصارف).

وتعرض أعضاؤها لكثير من العنت والاضطهاد:

فمن الشبان - وهم الأغلبية العظمى - من طرده أبوه وأخرجه من داره وحرّم عليه أرضه ومتاعه.. ومنهم من

أبى ذوو قريباه أن يُزوّجوه ابنتهم لأنه عمل بسنة النبي ﷺ
وأعفى لحبته التي طالما تعود على حلقتها من قبل.

ومن الشيوخ من ضربه ابنه وأهانته لأنه تخلى عن حياة
الجاهلية في شيخوخته.. إلخ! (1).

هذه هي الشهادة الفعلية، أما الشهادة القولية فهي أن يبلغ
رسالة الجماع لكل من يعرف أو يأنس فيه الخير.

وكان الأعضاء يترابطون فيم بينهم برباط الفكرة، فعلى
أساسها ينتخبون الأمير، وعلى أساسها تكون طاعة الأمير..

وقد لا يكون في هذه النقطة جديد عن مألوف الفكر
الإسلامي، ولكن الجديد فيما أشار إليه الأستاذ مسعود الندوي
في نظرتة الإجمالية من حرية النقد لكل عضو في نظام
الجماعة الداخلي، ويعبر عن هذا المعنى بقوله: "فقد جرى
العمل في نظام الجماعة من يوم تأسيسها بأنه ينتقد بعضهم
عمل بعض، ويستمع الذي ينتقد عمله إلى كلام الناقد بسعة
القلب ورحابة الصدر ويرد عليه بأدب ووقار إن كان يرى
في انتقاد أخيه ما يحتاج إلى الرد والإيضاح، وكذلك واجب
الناقد أن لا يصر على رأيه أو نقده إذا أرشده المنتقد عمله
إلى وجه الصواب في المسألة، وأيضاً من واجبات جميع

(1) مسعود الندوي ص ١٠٣ - ١٠٥

الأعضاء أن يدلوا الأمير على مواطن الضعف أو الخلل أو الفساد في نظام الجماعة في أي فرع من فروعها، وعلى الأمير أن يستمع إلى أمثال تلك الشكاوي ويهتم بالتحقيق في شأنها، وقد جرى العمل بذلك في نظام الجماعة منذ أول عهدها، ولا يزال العمل به جاريًا، وإن أفضى في بعض الأحيان إلى نوع من الخلل في تسيير دولا ب العمل⁽¹⁾.

نقول إن هذه القسمة من قسّمات الجماعة الإسلامية كانت جديدة وقتئذ في عالم الهيئات، وقد استلهمتها الجماعة بالطبع من مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووجوب النصح لعامة المسلمين وخاصتهم.

ويمكن أن تكون "صمام أمن" ضد انتشار الفساد في أوضاع الجماعة وأفرادها، ولكن يشوب تطبيقها محاذير عديدة وشبهات قد تؤدي بأهميتها، ويمكن في بعض الحالات استغلالها والأسلوب بعد، من الأساليب المطبقة في الأحزاب الشيوعية، ويمكن أن تسلطه بعض القيادات على المعارضين لها بحق أو بدون حق.

وعندما قامت الجماعة في السادس والعشرين من أغسطس عام ١٩٤١ م وضعت دستورها، ويغلب أن يكون

(1) ص ١٠٨

المودودي هو الذي وضع بنفسه المواد الجوهرية الخاصة
بالغاية والوسيلة لأنها تكاد تكون قطعة من كتاباته.

وظل الدستور الذي وضع عام ١٩٤١ ساري المفعول
حتى عام ١٩٥٢ أي حوالي أحد عشر عامًا تمت خلالها
أحداث جسام كان منها قيام "باكستان" دارًا للإسلام، فانتخب
أعضاء الجماعة في المؤتمر لجنة لوضع دستور الجماعة.

ولكن لم يمض زمن طويل على وضع الدستور الجديد
حتى شعرت الجماعة إزاء التطورات الحثيثة بضرورة
المزيد من التعديلات، فعينت في السادس والعشرين من
أغسطس عام ١٩٥٢م لجنة حملت اسم "لجنة تعديل
الدستور"، ولكنها لم تتمكن من إنجاز مهمتها لانصراف
الجماعة بكليتها إلى القيام بحملة شاملة لمطالبة بدستور
إسلامي للباكستان، ولاعتقال الإمام المودودي، وصدور حكم
بإعدامه حتى أطلقته المحكمة العليا عام ١٩٥٥ م..

وأصدر المؤتمر العام للجماعة (١٧ - ٢١ فبراير عام
١٩٥٧م) عددًا من القرارات الخاصة بتعديل الدستور كله
ذات طابع إداري.

المهم أن المواد الجوهرية الخاصة بعقيدة وغاية
الجماعة لم تمس منذ وضعت عام ١٩٤١م، ونظرًا لأهميتها
فمن المهم إثباتها هنا:

فتحت عنوان "عقيدة الجماعة الإسلامية" جاء:

المادة الثالثة: عقيدة الجماعة الإسلامية الأساسية هي: لا إله إلا الله محمد رسول الله. والمراد من الجزء الأول من هذه العقيدة أي كون الله إلهًا واحدًا دون غيره، هو: أن كل ما في السماوات والأرض فإله خالقه وربّه ومالكه وهو حاكمه.

ومن مستلزمات هذه العقيدة بعد فهمها والإقرار بها:

أن لا يعتقد الإنسان فيما دون الله وليًا له ووكيلًا، وقاضيًا لحاجاته، وكاشفًا لمشكلاته، ومجيبًا لدعواته، فغير الله لا يملك بتاتا سلطة من السلطات المطلقة.

أن لا يعتقد في غير الله أنه ينفعه أو يضره. وأن لا يتقي أحدًا غيره. ولا يخاف إلا إياه، ولا يطمع إلا منه، ولا يتوكل إلا عليه، فالله وحده مصدر جميع السلطات.

أن لا يدعو إلا الله، ولا يتعوذ إلا به⁽¹⁾، ولا يستعين إلا به، ولا يعتقد في غيره أن له ضلعًا ونفوذًا في التدابير الإلهية، أو أن شفاعته تبدل قضاء الله وقدره فالجميع في مملكة الله، سواء من الملائكة أو الأنبياء أو الأولياء، ليسوا إلا رعيته التي لا تملك شيئًا إلا بإذنه.

⁽¹⁾ في الأصل منه. ولعل الخطأ جاء من ترجمة الأصل الأوردي.

أن لا يَطْأُ رَأْسَهُ أمام غير الله، ولا يعبد إلا إياه، ولا ينذر إلا له، ولا يتعامل مع أحد غير الله ما كان يتعامله المشركون مع آلهتهم. فالله هو وحده يستحق أن يؤدي له كل أنواع العبادة.

أن لا يسلم لغير الله بأنه ملك، أو مالك الملك، أو مصدر السلطة العليا. ولا يعترف لأحد غير الله بحقه في الأمر والنهي بناءً على سلطته الذاتية. وكذلك لا يؤمن بغير الله شارعاً ومقتناً مستقلاً بذاته. ويرفض كل طاعة لا تتبع طاعة الله ولا تلتزم بأحكام الله. فالله وحده هو مالك حقيقي لملكه وخالق حقيقي لمخلوقه. وليس لغيره أبداً حق الملكية والحاكمية بصفة مطلقة.

ويستوجب بعد قبول هذه العقيدة:

أن يتنازل الإنسان عن حريته وسيادته، وأن يتخلى عن اتباع أهوائه، وأن يكون عبداً منقاداً مخلصاً لله الذي آمن به إليها دون منازع.

أن لا يزعم لنفسه مالكاً حقيقياً لأي شيء، بل يؤمن بأن كل ما عنده من الأشياء حتى نفسه، وجوارحه، مواهبه الذهنية، وقواه الجسدية ملك لله عز وجل ووديعة له عنده.

أن يعتبر نفسه مسؤولاً أمام الله، ومحاسباً عنده. ولا يغيبن عن باله، ولا للمحة من البصر، حيث استخدامه قواه

ومواهبه وعند سائر تصرفاته ومعاملاته أنه سوف يحاسب على كل شيء من ذلك.

وأن يجعل رضي الله مقياس ما يحبه، وسخط الله مقياس ما لا يحبه.

وأن يجعل ابتغاء مرضاة الله، والتقرب إليه غاية جهوده ومناط حياته.

وأن يجعل ابتغاء الله، والتقرب إليه غاية جهوده ومناط حياته.

وأن يتخذ هدى الله هو الهدى في أخلاقه، ومعاملاته، وحياته الاجتماعية، والتمدية، والاقتصادية والسياسية حتى في كل أمر من أمور الدنيا، وأن يرفض كل طريق أو ضابط يخالف شريعة الله.

والمراد من الجزء الثاني من هذه العقيدة أي محمد رسول الله: أن محمدًا صلى الله عليه وسلم هو آخر الأنبياء، وبواسطته أرسل الله رب العالمين ومالك هذا الكون الهداية الحقيقية والأحكام المعتمدة إلى الناس كافة، وأمره صلى الله عليه وسلم أن يكون بتطبيق هذه الهداية والأحكام المعتمدة في حياته العملية مثالاً يحتذى وقدوة يُقتدى بها.

ومن مستلزمات الإيمان بهذا الجزء من العقيدة:

أن يقبل الإنسان، بدون تكلؤ، كل ما ثبت من محمد ﷺ من تعليم أو هدى.

وأن يكون له الكفاية، بصدد الأخذ بشيء أو الكف عنه، في أن ذلك مما أمر به رسول الله ﷺ، ولا تستند طاعته على أي دليل آخر سواء.

وأن لا يقبل أحدًا سوى الرسول ﷺ هاديًا ومرشدًا مستقلًا بالذات. ولا تكون طاعته لأحد غيره إلا تابعة لكتاب الله وسنة رسوله، لا منفصلة عنهما.

وأن يتخذ كتاب الله وسنة رسوله مصدرين للاحتجاج والاستناد في كل شأن من شؤون الحياة، وكل رأي أو عقيدة أو طريق يوافق الكتاب والسنة يأخذ به، وكل رأي أو عقيدة أو طريق يخالفهما يرفضه. ويجب أن يرجع إليهما في كل معضلة تتطلب الحل.

وأن ينزع من قلبه كل نوع من العصبية سواء أكانت شخصية، أو عائلية، أو قبلية، أو عنصرية، أو قومية، أو وطنية، أو طائفية. ولا يشغف بأحد حبًا أو تقديرًا يفوق حب وتقدير الحق الذي جاء به النبي ﷺ، أو يدانيه.

وأن لا يتخذ بشرًا سوى الرسول عليه الصلاة والسلام مقياسًا للحق، وكذلك لا يرى أحدًا يفوق الانتقاد والسؤال عما يفعل، وأن لا يقع في العبودية الفكرية لأحد من الأشخاص

سواه ﷺ. بل يضع كل شخص على ذلك المقياس الكامل الذي وضعه الله سبحانه وتعالى. ويضع كل شخص في نفس المكانة التي هي له بموجب ذلك المقياس.

وأن لا يقبل لأحد جاء بعد النبي ﷺ مقاماً يكون الإقرار به أو إنكاره حاسماً لكون المرء مؤمناً أو كافرًا.

* * * *

وتحت عنوان "الغاية التي تستهدفها الجماعة الإسلامية بباكستان" جاء:

المادة الرابعة: أن غاية الجماعة الإسلامية ومناطق جميع جهودها هو: إقامة دين الله (أو إقامة "الحكومة الإلهية" أو "إقامة النظام الإسلامي") واقعاً، وكسب مرضاة الله والنجاة في الآخرة أصلاً.

بيان ذلك: أن "الدين" و "الحكومة الإلهية" و "النظام الإسلامي للحياة" كل تلك الكلمات تعبر عن مفهوم واحد لدى الجماعة الإسلامية. فإنَّ المعنى الذي عبَّر عنه القرآن الكريم بكلمة: "إقامة الدين" (﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ﴾: سورة الشورى: ١٣) تعبر الجماعة الإسلامية عن نفس المعنى بكلمات: "الحكومة الإلهية" (﴿ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ ﴾: سورة يوسف: ٤٠) أو إقامة "النظام الإسلامي للحياة" فإن مغزى تلك الكلمات الثلاث واحد وهو: أن يخضع الإنسان للشريعة التي أنزلها

الله بالوحي عن طواعية النفس في نطاق حياته الذي منح الله له فيه الحرية والخيار، على غرار ما تخضع كل ذرة في الكون للنواميس الإلهية الكونية رضيت أم أبت (أي القوانين الطبيعية التي سنها الله للكون). والخضوع للشرعية الإلهية يتمثل في منهج للحياة يعبر عنه "بالدين" وهو المراد مما يصطلح عليه "الحكومة الإلهية" أو "النظام الإسلامي للحياة".

وليس المراد من إقامة دين الله إقامة جزء معين منه، بل إقامة دين الله كاملاً غير منقوص، سواء فيما يرجع إلى الحياة الفردية، أو الحياة الاجتماعية، أو إلى الصلاة والصيام والحج والزكاة، أو إلى الاقتصاد والاجتماع والمدنية والسياسة. إذ ليس في الإسلام ولا جزء بسيط منه يعتبر غير ضروري. فالإسلام كله ضروري. وعلى المؤمن أن يبذل جهده في إقامة الإسلام كاملاً دون أن يقسمه إلى أجزاء. فالجزء الذي يتعلق بحياة المؤمن الفردية يقيمه المؤمن في حياته بصفة فردية. والجزء الذي لا تتم إقامته إلا بالكفاح الاجتماعي على المؤمنين أن يكونوا لإقامته نظاماً جماعياً ويبدلوا له جهوداً متضافرة.

وإن كان الهدف الحقيقي للمؤمن في حياته ابتغاء مرضاة الله والنجاة في الآخرة. إلا أن هذا الهدف لا يتحقق أبداً إلا ببذل المساعي في إقامة دين الله في الأرض. وعلى

هذا يكون هدف المؤمن الواقعي إقامة الدين، وهدف المؤمن الحقيقي ابتغاء مرضاة الله التي لا تأتي إلا ثمرة للجهود التي تُبذل في إقامة دين الله.

* * * *

وتحت عنوان المنهج الدائم للجماعة الإسلامية جاء:

المادة الخامسة: تتخذ الجماعة المبادئ التالية منهجاً

دائماً لها:

إنها تتظر، قبل أن تقرر أمراً أو تخطو خطوة، ما هو توجيه الله ورسوله في ذلك الباب. أما المصالح الأخرى فإنها تضعها في الدرجة الثانية، وتراعيها بقدر ما يكون لها متسع في الإسلام.

إنها لا تستخدم أبداً لتحقيق غايتها ونيل أهدافها الأساليب والوسائل التي تنافي الصدق والأمانة أو تثير الفساد في الأرض.

أنها تمارس الطرق الدستورية والقانونية للقيام بالإصلاح الذي تنتشده، والانقلاب الذي تستهدفه، وبكلمة أخرى أنها تركز عنايتها على استصلاح الأذهان والسلوك بالدعوة، والإقناع، ونشر المفاهيم الصحيحة عن الإسلام. كما أنها تحاول أن تكتسب تأييد الرأي العام للتغيير الذي وضعته نصب عينها.

لا يقوم كفاحها لأجل الوصول إلى غايتها على النشاط
السري على غرار الحركات السرية في العالم، بل إنها تعمل
كل ما تعمل علناً وفي وضوح النهار.

* * * *

مع أن العرض السابق يقدم فكرة الجماعة بقدر من
الوضوح، فإن هذه الفكرة لا تفهم على حقيقتها، ولا تعرف
الأصول والجدور التي أثمرتها إلا بالتعرف على هذه الفهم
الخاص والمعين لما جاء بها من تعبيرات، وهو ما قدمه
المودودي في كتابه الشهير: "المصطلحات الأربعة في
القرآن: الإله.. الرب.. العباد.. الدين" الذي كتبه في السنة
التي شاهدت تكوين الجماعة الإسلامية.

وقدم المودودي لكتاب المصطلحات الأربعة بمقدمة جاء

فيها:

"إذا كان الإنسان لا يعرف ما الإله وما معنى الرب وما
العبادة وما تطلق عليه كلمة الدين، فلا جرم أن القرآن كله
سيعود في نظره كلاماً "مهملًا" لا يفهم من معانيه شيء، فلا
يقدر أن يعرف حقيقة التوحيد أو يتقطن إلى ماهية الشرك،
ولا يستطيع أن يخص عبادته بالله سبحانه أو يخلص دينه له،
وكذلك إذا كان مفهوم تلك المصطلحات غامضاً متشابهاً في
ذهن الرجل وكانت معرفته بمعانيها ناقصة، فلا شك أنه

يلتبس عليه كل ما جاء به القرآن من الهدى والرشاد، وتبقى عقيدته وأعماله كلها ناقصة مع كونه مؤمناً بالقرآن..

فإنه لن ينفك يلهج بكلمة "لا إله إلا الله" ويتخذ مع ذلك آلهة متعددة من دون الله، ولن يبرح يعلن أنه لا رب إلا الله، ثم يكون مطيعاً لأرباب من دون الله في واقع الأمر.

إنه يجهر بكل صدق وإخلاص بأنه لا يعبد إلا الله ولا يخضع إلا له، ولكنه مع ذلك يكون عاكفاً على عبادة آلهة كثيرة من دون الله.

وكذلك يصرح بكل شدة وقوة أنه في حظيرة دين الله وكنفه، وإن قام أحد يعزوه إلى دين آخر غير الإسلام هجم عليه وناصبه الحرب، ولكنه يبقى مع ذلك متعلقاً بأذيال أديان متعددة، ولا شك أنه لا يدعو أحداً غير الله تعالى، ولا يسميه بالإله أو الرب بلسانه، لكن تكون له آلهة كثيرة وأرباب متعددة من حيث المعاني التي وضعت لها هاتان الكلمتان، والمسكين لا يشعر أصلاً أنه قد أشرك بالله آلهة وأرباباً أخرى، وإذا نبهته إلى أنه عابد لغير الله ومقترف للشرك في الدين لانقض عليك يخمس وجهك.. إلا أنه يكون عابداً لغير الله حقاً وداخلاً في غير دينه بدون ريب من حيث مغزى (العبادة) و (الدين) وهو لا يدري مع كل ذلك أن الأعمال التي يرتكبها هي في حقيقة الأمر عبادة لغير الله، وإن الحالة

التي قد سقط فيها هي في نفس الأمر دين ما أنزل الله به سلطان" انتهى.

وهذه الكلمات تمثل منهجين:

منهج يجهل صاحبه فيخطئ ولا يتعمد هذا الخطأ، بل إن نيَّته صحيحة وسليمة دون ريب، لأنه لا يريد شركاً، وإنما يريد إيماناً بالله..

ومنهج آخر يتلمس الحقيقة، ولكنه لا يأمن التعسف، فيقع في الخطأ ويؤدي إلى الضلال.

وهناك الكثيرون الذين يفضلون الجهل على الضلال.

إن أحداً من الصحابة لم يدَّع أنه يُلمُّ بكل ما جاء في القرآن الكريم كلمة كلمة، وقد آثروا الجهل ببعض ما جاء به بدلاً من أن يتكلفوا البحث ويتعسفوا السبل وما قد يؤدي هذا إلى ضلال، وكلمة عمر بن الخطاب تجاه كلمة "أبا" تمثل ذلك.

وأعاد المودودي سبب هذا الفهم الخاطئ إلى سببين:

"الأول: قلة الذوق العربي السليم ونضوب معين العربية الخالصة في العصور المتأخرة.

والثاني: أن الذين ولدوا في المجتمع الإسلامي ونشأوا فيه لم يكن قد بقيَ لهم من معاني: الإله.. الرب.. العبادة.. الدين ما كان شائعاً في المجتمع الجاهلي وقت نزول القرآن".

وعرض هذين السبيين هو صورة من صور التعسف التي أشرنا إليها، والاجتهاد الفائق الذي قد يقود صاحبه إلى الخطأ..

ومن أقرب الأمثلة على هذا أن المودودي ذهب إلى أن عرب الجاهلية؛ وكذلك قوم نوح، وإبراهيم، ولوط، وموسى.. إلخ كانوا يعرفون الله، ويؤمنون به، ولكنهم "أشركوا" به عندما آمنوا بآلهة أخرى تشفع.. أو: تقربنا إلى الله زُلفَى ودلَّ على هذا آيات كثيرة..

هذا صحيح، ولكن آيات أخرى صريحة في أن هناك من ينكر وجود الله كليةً: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾⁽¹⁾.

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ. أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾⁽²⁾.

والأمر لا يقتصر على خطأ أكاديمي يقع فيه باحث، لكنه استنتاج تترتب عليه عواقب خطيرة، الأمر الذي أدَّى إلى أن يتصدَّى له كاتبان من أبرز الكتاب الإسلاميين..

(1) الجاثية: ٢٤

(2) الطور: ٣٥ - ٣٦

أولاهما: الأستاذ حسن الهضيبي المرشد الأسبق للإخوان المسلمين:

وثانيهما: الإمام أبو الحسن الندوي علامة الهند الذي يماثل - علماً وكفاحاً وفضلاً - المودودي.

قال الأستاذ الهضيبي - رحمه الله - في كتابه المشهور "دعاة لا قضاة" بعد أن أورد الفقرة السابقة من المصطلحات: - "وقد رتب البعض على ذلك الذي قدمناه من كلام الأستاذ المودودي نتائج وبنوا عليها أحكاماً زعموا أنها مقتضى شريعة الله تعالى فقالوا:

إنه لما كان الناس الآن لا يعرفون حقيقة معنى كلمات الإله والرب والعبادة والدين، فإنهم إذ يرددون شهادة "لا إله إلا الله محمد رسول الله" إنما يرددون كلاماً لا يدركون حقيقة معناه، وهم لا ينطقون بالشهادة التي كان ينطق بها العربي حين البعثة؛ لأن هذا كان على بينة من معنى ما كان يشهد به ويقرره. ولذا كان الرسول ﷺ يقبل تلك الشهادة المعلوم مضمونها ومفهومها لمن أداها. ويعتمدها حكماً بإسلامه. أما الآن فإننا لا نستطيع أن نعتمد إسلام من نطق بالشهادتين، ما دام لا يدرك حقيقة مفهومها، وواقع الحال شاهد على ذلك، إذ أن كثيراً ممن ينطقون بالشهادتين يأتون في نفس الوقت أعمالاً هي الشرك بعينه. كما أن واقع حياة الناس يشهد

بخروجهم على أحكام الدين فيما يتعلق بأنظمتهم السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، وسائر شئون حياتهم، مع إصرارهم على النطق بالشهادتين، والزمع بأنهم مسلمون، وخلصوا من ذلك إلى: أن لا يعتبر مسلماً تجوز معاملته على هذا الأساس والصلاة وراءه إلا من تأكدنا من فهمه لحقيقة معاني الشهادتين ومفهومهما.

وزاد البعض على ذلك أنه لا بد بالإضافة إلى تأكدنا من علم الناطق بالشهادتين بمفهومهما أن يقوم عمله شاهداً على صدق ما نطق به، ومؤيداً له حتى يعتبر مسلماً. فإن لم تكن أعماله مصدقة لشهادته فإننا لا نستطيع أن نحكم بإسلامه، فلا نعتبره مسلماً. واحتجوا بالقول المنسوب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام: "ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل".

اعتراض على بعض ما قرره الأستاذ المودودي:

- ونرد أولاً على التقرير بأن معاني الألوهية والربوبية والعبادة والدين كانت شائعة معروفة بين العرب من قبل البعثة وإنها قد ضاعت وتبدلت وانحصرت في معانٍ ضيقة محدودة غير ما كانت تتسع له من قبل.
- فنقول بعون الله: إن هذا التقرير لا يتفق مع الواقع، ذلك أنه أيًا كانت المعاني التي كانت شائعة في الجاهلية لتلك

الكلمات فإن القرآن الكريم قد جاء محددًا ما يقصده من كل منها. معرفًا المفهوم المعني من كل لفظة من ألفاظها. مبيّنًا ذلك غاية البيان، مُجَلِّيًا المعنى المراد بما لا يدع مجالاً للبس أو غموض - وهذا البيان القرآني قد أغنى عن الرجوع إلى أصل تلك الكلمات في اللغة وما كان لها من معانٍ قبل نزوله، ولا يستريب مسلم أن بيان القرآن الكريم هو الأحكم والأوضح والأشمل والأجل، بل هو الذي يتعين الأخذ به والتسليم بمقتضاه سواء وافق ذلك ما كان قبل نزوله أم لا..⁽¹⁾.

واستطرد الكتاب في ذكر الآيات التي توضح معنى "الإله" و "الرب"، والتي تكشف كل الأبعاد - وليس بعض الأبعاد - التي عرضها القرآن الكريم لمعاني الكلمة، وفعل الشيء نفسه بالنسبة لكلمتي "العبادة" و "الدين".

أما رد الإمام الندوي فقد ظهر في كتاب باسم "التفسير السياسي للإسلام في مرآة كتابات الأستاذ المودودي والشهيد سيد قطب" باللغة العربية⁽²⁾ ويكاد يكون الكتاب نقدًا لفكر المودودي في المصطلحات الأربعة..

(1) ص ١٩ - ٢٠

(2) وكان أصله باللغة الأوردية يحمل عنوان "تفهم الدين وتفسيره في العصر الحاضر في مرآة كتابات الأستاذ المودودي والشهيد سيد قطب".

ولا يخالجننا شك في أن الدافع للندوي - كما هو بالنسبة للهضيبي إنما هو الإيمان والخيرة على الحقيقة.

وقد أشار العلامة الندوي إلى نقطة دقيقة جدًا لم يعرض لها كتاب "دعاة لا قضاة" وغمض فهمه على ناقد الكتاب⁽¹⁾ تلك هي "الذوق الإسلامي" ونحن لا نعرف أصل الكلمة في الأوردية، ولعل مترجمها لم يوفق تمامًا، وأغلب الظن أن المقصود بها "الحس" الإسلامي.

فبعد أن أشار العلامة الندوي إلى الحاجة إلى عرض الإسلام وتفهيمة وتفسيره حسب مقتضيات العصر قال:

- "لكن هذا العمل دقيق وصعب بقدر ما هو واجب ضروري فيجب على الذين يحاولون أن يقوموا بعملية عرض الإسلام وتفهيمة وتقريبه إلى القلوب والأذهان أن يلازموا الحيطة والدقة على طول الطريق في تحقيق غايتهم وإكمال مهمتهم حتى لا يتكون - على غفلة منهم عن غير إرادة وقصد لهم - لدى الجيل الجديد الذي يراد تعريفه بحقائق الإسلام وترسيخ عقائده في قلبه أو بقصد استخدامه

(1) لم نقع على كتاب الندوي ولكن على الرد عليه باسم "التفسير الحقيقي للإسلام" تأليف سيد أحمد القادري رئيس تحرير مجلة زندكي (الحياة).

لإعلاء كلمة الله ورفع منار الإسلام ذوق ديني مختلف عن الذوق الديني الذي كان يتسم به الجيل الإسلامي الأول بفضل تلقيه التربية في أحضان النبوة مباشرة".

لم يفهم ناقد الكتاب ما الذي أراده الندوي بتعبير "الذوق الإسلامي"، وبدلاً من أن يجهد نفسه في البحث عن معناه، فإن مضى في طريق المودودي نفسه يثبت أن "الذوق الإسلامي" لدى الصحابة كان هو الحذر من الشرك وتوحيد الله تعالى بالعبادة.. إلخ.

والذي أراده العلامة الندوي بـ: "الذوق الإسلامي"، أو "الحس" الإسلامي هو توفر التعرف على: "طبيعة الإسلام" من كافة أبعادها، وليس من بُعد واحد.

هذه الطبيعة التي تضع في اعتبارها الضعف البشري ونواميس المجتمع والسُنن التي وضعها الله تعالى، والتي تجري المعادلة بين "المثال" و "الواقع"، بين ما يفترض وما يمكن الوصول إليه، وما تتفهمه من عدم تحميل النفوس بما لا طاقة له به، بل وما يجاوز وسعها (والوسع أخف من الطاقة) والتي تضع الآيات عن العذاب بجانب الآيات عن الرحمة، والتي تهتدي - بمجرد الحس والذوق - إلا أن كل وسيلة من وسائل التشدد في التكليف أو القسر في مجال الإيمان، أو التعسف في الفهم تؤدي إلى نتائج مضاده.

وإن الله تعالى - وهذا أصل عظيم - خص نفسه
بالفصل في الخلاقات يوم القيامة.

ولو توفر هذا الحس لدى الإمام المودودي لما انتهى إلى
أن كل معاني "المصطلحات الأربعة" تصب في "السلطة"،
وأن أصل الألوهية وجوهرها هو "السلطة"، وأن كلاً من
الألوهية و "السلطة" تستلزم الأخرى؛ وأنه لا فرق بينهما من
حيث المعنى والروح.

فجانب الآيات العديدة التي استشهد بها المودودي،
والتي تؤدي بالفعل إلى هذا المعنى، هناك آيات أخرى تعطي
مضموناً مختلفاً، فالله تعالى غنيٌّ عن العالمين، وهو سبحانه
لا يعامل الناس بأعمالهم قدر ما يعاملهم برحمته، فهو
الرحمن الرحيم، الغفار التواب وهو تعالى "الحق".

وإنه حتى في إطار السلطة، فإن من الخطأ أن نتصور
سلطة الله بالمعنى البشري للسلطة، أو السلطة بالنسبة للقضايا
الدنيوية.

وهناك نبذة صغيرة تجمل رأي المودودي في الإنسان
بالنسبة لله تعالى:

- " قد سبق لي القول من قبل مرة بعد أخرى أن
الإسلام يستهدف أن يدخل حياة المرء بجميع مظاهرها في
عبادة الله ويصفها بصفتها. الإنسان خلق عبداً - والعبودية

هي فطرته التي فطره الله عليها - فليس له أن يكون حرًا لا في فكره، ولا في عمله، - من هذه العبودية. عليه أن ينظر في جميع مظاهر حياته وجميع أوقاته ما هو رضا الله؟ وما هو سخطه ليتخذ ما كان يرضي الله ويبتعد عما يسخط الله - ابتعاده عن النار - ويسلك المسلك الذي يحبه الله ويجتنب الطريق الذي يبغضه. وإذا رأيت أحدًا قد صيغت حياته في هذا القالب صياغة كاملة فاعلم أنه أدَّى حق عبوديته لسيده ومولاه وأتم الغرض المنشود الآية ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (1).

* * * *

لقد أسهبنا شيئاً ما في عرض فكرة العلامة المودودي عن "الحاكمية الإلهية" و "عبودية الإنسان" وما استخلصه منها من أن أي مجتمع لا يتحقق فيه هذان هو "جاهلية" لأن هذا الثالوث "الحاكمية الإلهية - عبودية الإنسان - الجاهلية" تمثل إضافة العلامة المودودي في الدعوة الإسلامية وعنه اقتبسته

(1) استشهد بها في كتاب الرد على كتاب.. التفسير السياسي للإسلام للشيخ أبي الحسن على الندوي. تأليف سيد أحمد القادري ص ٨٣ " دار المنهل جده. والفقرة المستشهد بها من الجزء الثالث من "خطبات".

كل جماعات "الرافضة الجديدة" بدرجات متفاوتة. ولما كان الرجل أستاذًا وحجة أمضى حياته كلها لخدمة الإسلام. ولما كان إيمانه وأخلاقه ليس محل شك، فإن هذا الثالوث الذي انتهى إليه اكتسب جاذبية كبيرة لجِدِّته، ولظاهر الصدق، ولمنزلة الداعية. ولما كنا نؤمن إيمانًا تامًا لا يتطرق إليك شك أن اجتهاد المودودي في هذا خالفه التوفيق. وأنه بني على مقدمات خاطئة، فإننا أسهبنا في عرض فكرته حتى لا يقال أننا ابتسرناها ابتسارًا، فنقلنا من دستور الجماعة ومن كتاب "المصطلحات الأربعة" ومن كتبه الأخرى..

أما تحفظاتنا على هذه الإضافة كلها فنقوم على:

أولاً: أن العلامة المودودي وقع في "إسقاط" بشري على الطبيعة الإلهية وتصور سلطة الله تعالى وحاكميته كما لو كانت سلطة ملك على شعبه أو قائد على جنده. أو مالك بعبده. وكان من أبرز الأدلة على ذلك الأمثلة العديدة التي أراد أن يوضع بها هذا الفهم، وأوردنا بعضها [أنظر أيضًا ص ٢٩٦] ومثل هذا القياس خاطئ تمامًا لانتفاء التماثل في العلة "كما يقول الأصوليون" إن لم يكن مستبعدًا أصلاً. فالله تعالى غنيٌّ عن العالمين، لا تضره معصية، ولا تنفعه طاعة - وأي مالك ليس غنيًا عن عبده - ولا هو في حصانة من معصيتهم، أو غنيٌّ عن طاعته وعلم الله تعالى الذي يفصل

به بين العباد. ويحكم به على الأعمال يتسامى عن فهمنا المحدود المتأثر بالعوامل الذاتية ونحن يملكنا الغضب لأنفسنا وتأخذنا العزه عن المخالفة - ونحرص على ذواتنا، وأموالنا، ومراكزنا وسلطاننا.. ونحاسب تبعاً لقواعد الحساب.. وهذا كله شيء لا يمكن أن ينسب إلى الله تعالى - فرحمة الله أعظم مما نتصورها - وخزائنه لا تنفد. وهو يكافئ بسبعمائة ضعف وأكثر. وعلمه وحكمته تجعله ينظر إلى المخالف نظرة العارف المتعال: وهم يقولون عن البشر "من يعرف أكثر.. يغفر أكثر..". وأن معاملة الفيلسوف الحكيم تختلف عن معاملة العسكري الفظ.. وهذا كله بالنسبة للأدبيين، فما بالك بالله رب العالمين. إنني لأخشي أن المودودي رحمه الله في حماسته لتدعيم وجهة نظره كاد أن يقرب من تجسيم إن لم يكن مادياً - فهو فكرياً.. وأراد أن تُمحي كل إثاره من إثارات الشرك.. فكاد أن يقع فيما يماثل ذلك عندما كيف الطبيعة الإلهية تكييفاً بشرياً.

ثانياً: أن العبودية لله لا تعني - كما تصور المودودي - انعدام حرية الإنسان في الأرض. والتصور الذي قدمه المودودي للعبودية الإنسانية الذي رتب عليه انعدام الحرية يخالف مخالفة تامة التصور الإسلامي للحياة واستخلاف الإنسان على الأرض وإرصاد الشياطين لغوايته وإرسال

الأنبياء لهديته. وما ينبني على هذا من وجود حرية في التصدي وعقل للتكيف. وكلمة حرية وعقل هما من المحرمات في كتابات وآداب "الرافضة الجديدة" - كما يندر أن نجدهما في كتابات المودودي، وإغفالهما، مع التركيز على مضمون العبودية يخل بالتصور الذي أراده الإسلام، ولو أعطت كتابات المودودي الحرية الإنساني. والعقل الإنساني جزء مما ركزته في العبودية - لاختلف التكيف - ولكان هذا أدعى لهداية الإنسان من تجاهلها..

ولما كانت دعوة العمل الإسلامي، التي تشغل الباب الثاني من هذا الكتاب تعرض بنوع من الإسهاب والتفصيل تصوراً - إسلامياً لوضع الإنسان في الأرض يختلف عن تصور المودودي - فإننا نحيل القارئ عليه..

ثالثاً: يختلف الطابع العام لإحكام المودودي ومنطقاته من الطابع العام الذي نجده في القرآن وفي الحديث. ففي هذين نجد العقيدة وتوجيهاتها تعرض "كمثال" ونجد الطبيعة البشرية بضعفها والعوامل المحددة لها.. تعرض كواقع. وتتجاوز الأحكام مع تلاقي المثال بالواقع.. ومدى إخضاع الواقع للمثال، أو مدى توصل الواقع إلى المثال. ومن أجل هذا يقرر القرآن ﴿لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وكان الرسول أيضاً عندما يبائع المؤمنين يردف "فيما استطعتم" وهذه

اللمسات الإلهية والنبوية في معاملة الإنسان والمعرفة بالطبيعة البشرية لا نجدها في أحكام المودودي التي تنزع نحو تطبيق المثال كاملاً غير منقوص، وتميل بصفة عامة للتشدد. والإسلام دين اليسر. وتريد قيام مجتمع كامل لا يتضمن نقصاً. في حين أن الإسلام افترض وجود التقصير والضعف أمام الإغراء، بل إنه افترض حدوث الكفر. ولم يكن هذا في حد ذاته ليعني الإسلام وقد وجّه الله تعالى نبيه إلى أن لا يحزنه الذين يسارعون في الكفر لأنه تعالى - لا تضره معصية - ولا تنفعه طاعة - فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه.. ومن ضل فإنما يضل عليها ومن شاء فليكفر.. ومن شاء فليؤمن. وقد أراد الله تعالى لهذه الدنيا أن تضم الكفرة - وغير المؤمنين والمعاندين إلخ،.. ﴿ وَلَوْ يُوَاقِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾.

رابعاً: أن الإلحاح على فكرة العبودية لله مع استبعاد أية إشارة إلى حرية أو عقل يمكن أن يوظف لخدمة الحكام والنظم ويفتح الطريق لهما. لأنه مع استبعاد العقل والحرية، تنبهم العبودية، ولا يمكن التفرقة بين أن تكون لله أو لغير الله، ويمكن أن يصبح الإنسان عبداً للخرافة ويختلط عليه الحق بالباطل.

* * * *

بعد العرض السابق لتحفظاتنا على العقيدة الخاصة للجماعة الإسلامية وما قدمته من إضافة في شكل ثالث "الحاكمية الإلهية العبودية الإنسانية الجاهلية" نقول إن مما يثير الدهشة أننا لا نجد في دستور الجماعة ولا الملاحق التي أضيفت إليه طوال ثلاثين عامًا تصورًا محددًا - أو شبه محدد - للدولة الإسلامية. ونحن بالطبع لا نتنظر أن يتضمن الدستور أو ملاحقة تصورًا تفصيليًا للدولة الإسلامية، فهذا بالطبع ما يضييق عنه الدستور - وما لم تجربه العادة. ولكن لما كانت قضية الدولة الإسلامية محورية في فكر الجماعة الإسلامية. وأنها هي هدفها، فكان من المفروض أن يقدم الدستور القسّمات الرئيسية لهذه الدولة - لأن المذاهب الإسلامية تتفاوت في فهم هذه القضية تفاوتًا قد يصل من النقيض إلى النقيض، وكلها تعتمد على أسانيد من القرآن والسنة. وعدم الإشارة في الدستور إلى الخطوط الأساسية للدولة الإسلامية المنشودة تدع الأعضاء في عمية عمًا يمكن أن يصل إليه الاجتهاد، كما أنه يمكن أن يثير الخلاف داخل دوائر الجماعة نفسها - لأنه يتضمن قضايا شائكة وجدلية، كنظم الانتخابات - والأحزاب، والحريات العامة والعلاقات الدولية - والعلاقات ما بين فئات المجتمع: العمال وأصحاب الأعمال. المستأجرون والملاك إلخ..

إن ما يمكن أن يقال في هذا الصدد هو أن العلامة المودودي رحمه الله عالج هذه النواحي على اختلافها بالتفصيل في كتبه، بحيث يمكن القول أنه أصدر كتابًا عن كل ناحية. بل إننا نجد تحت عنوان "الدستور والقانون" أسماء عشرة كتب. وعن التعليم ثلاثة وعن الاقتصاد سبعة إلخ.. ولا جدال في أن هذا إثراء كبير للمكتبة الإسلامية. ويبقى بعد هذا استخلاص القواعد والمبادئ التي تتفق مع فكر الجماعة. وهو عمل ضخم يتطلب تصافر القيادات والخبراء مع القاعدة الجماهيرية العريضة..

رؤية للديمقراطية في الثمانينيات:

ليس لدينا الكثير من الوثائق والكتابات عن التطورات الأخيرة للجماعة الإسلامية. وهذه الجهالة هي جزء من القطيعة الفكرية بين بلاد العالم الإسلامي، وعدم احتفال كثير من الهيئات بالإعلام المكتوب - أو الاتصال خارج أطرها الخاصة. وما تأتينا به أجهزة الأعلام الأوروبية والأمريكية منهم.

ومعروف بالطبع أن الحظوظ قد تقلبت بالجماعة الإسلامية عندما دخلت العمل السياسي. ولكن قلة ما لدينا من مراجع يحول بيننا وبين إصدار الأحكام. وقد وجدنا بين أوراقنا نشرة موجزة بالإنجليزية أصدرتها الجماعة الإسلامية

بعنوان "الديمقراطية والتضامن القومي: مشروع المودودي للإجماع القومي عن الأسس الفكرية بباكستان"⁽¹⁾. وهي بدون تاريخ - ولكنها قطعاً بعد ١٩٨٣ لأن في ظهرها إشارة إلى نشرة سابقة عليها تحمل تاريخ ٨٣. وهي تمثل التطور الفكري الذي وصلت إليه الجماعة وتكييفها لمفاهيمها للتوصل إلى "إجماع قومي".

وبعد مقدمة موجزة، تعرض النشرة خمسة مبادئ لازمة لتهيئة مناخ رأي عام إيجابي هي (١) احترام الحق والعدل (٢) التسامح المشترك (أو المتبادل) (٣) تجنب المعارضة للمعارضة (٤) تفضيل الإقناع على القسر (٥) المصلحة القومية فوق المصلحة الشخصية.

وتلاحظ النشرة أن هذه المبادئ يجب أن تعزز بتحديد طبيعة ومادة القاعدة الصلبة التي يمكن أن يقوم عليها الصرح القومي مع الحصول على أعظم درجة من تأييد وتجاوب الأحزاب. وترى النشرة أن أولى المحددات في هذا المجال هي الاعتراف بسيادة القرآن والسنة. وتعتمد النشرة في تقديرها لذلك أن هذه هي رغبة المسلمين كافة في باكستان.

(1) Democracy and National Solidarity "Moudadis plea for national consensus on Pakiatans conceptual foundations

وإن الذين يختلفون في هذه النتيجة يقعون في أربع فئات. فهناك المسلمون الذين تشبعوا بالفكر الغربي والحضارة الأوروبية - ولذلك تقشعروا جلودهم لمجرد التفكير في العودة للطريقة الإسلامية للحياة. والفئة الثانية تضم المسلمين الذين لا ينكرون انتماءهم الإسلامي، ولكن استغراقهم في الحياة الأوروبية جعل هذا الاتجاه مظهرًا فحسب. وهاتان الفئتان بحكم ميولهما ومزاجهما يصران على اتخاذ النمط "العلماني" والفئة الثالثة لا تنتكر لدينها ولكنها تعتمد على القرآن وحده وتستبعد السنة. أما الفئة الرابعة فهي الأقليات غير المسلمة التي تفضل حكمًا "علمانيًا" لا يقوم على أساس إسلامي.

وترى النشرة أن هذه الفئات لا تمثل إلا مجموعة ضئيلة ومحدودة بالنسبة للأغلبية الكاسحة، وأنه لا يمكن إقامة الدولة على أساس تتبناه أقلية وترفضه الأغلبية. كما عنيت النشرة أنها إنما تعني النص القرآني نفسه - وليس التفسيرات - عندما تتحدث عن القرآن. وأنها تعني بالسنة ممارسات وتوجهات الرسول ككل - وأن من الممكن لكل مذهب من المذاهب الإسلامية بما فيها الشيعة طبعًا الاحتفاظ، بتفسيرها للقرآن والسنة. وأنه فيما يمس الدولة كلها، فسيؤخذ بالتفسير القرآني والرواية الحديثة التي تظفر بالأغلبية، وإن سُمح للأقلية بأن تعرض وجهة نظرها.

وثانية المحددات هي إقامة الديمقراطية وترى النشرة أنها تتسجم مع توجيهات القرآن والسنة. كما أنها أمل الشعب الباكستاني. والديمقراطية تعني أن الدولة لا تنتمي إلى شخص بعينه، أو طبقة، أو فريق، ولكن لكل الناس الذين يعيشون فيها. ومن هنا يكون لهم جميعاً الحق في انتخاب حكاهم وتقرير نظام الحكومة وطريقة سيرها الخ..

والفقرة دفاع عن الديمقراطية - وتفيد لما يقدمه أعداؤها من مزاعم يريدون بها إقرار صور متفاوتة من الديكتاتوريات. ومثل هذا الدفاع قلما كنا نجده في كتابات المودودي التي لا تأخذ بمبدأ الأغلبية - ولا ريب أن التجربة المرة للحكم الديكتاتوري كان لها أثر هام فيما قرره النشرة.

وفي فقرة ثالثة تجمل النشرة "جوهر الديمقراطية في خمسة مبادئ هي (١) مبدأ توزيع السلطة. أي التحديد، والتمييز ما بين السلطات الثلاث للدولة (التنفيذية، والتشريعية، والقضائية) (٢) ضمان الحريات المدنية والحقوق الأساسية وصلاحيه السلطة التشريعية لحمايتها. (٣) عقد انتخابات حرة وتبني الإجراءات القضائية والإدارية التي تكفل عدم المساس بالانتخابات. (٤) حكم القانون أي التطبيق الشامل والفعلي للقانون على الحاكم والمحكوم. وأن تمنح المحاكم السلطات التي تكفل تطبيق أحكامها القانونية

دون تمييز (٥) أن يتمتع موظفو الدولة سواء كانوا في الخدمة المدنية أو في القوات المسلحة عن التدخل في السياسة. وأن يخدموا الحكومة الشرعية التي تفوضها أغلبية الشعب للحكم.

وترى النشرة أن هذه المبادئ الخمسة هي عُمُد نظام الديمقراطية، وإذا فقد أي منها تعطل عمل النظام - بل يمكن أن تستغل بقية المظاهر الديمقراطية للتمكين للديكتاتوريات، فإذا سُمح لسادة الجهاز الإداري والتنفيذي بالتحكم في إدارة العملية الانتخابية؛ فإن النتيجة ستكون الأتوقراطية أو الديكتاتوريات. وبالمثل، فإذا كان بسلطة الحكام كبت حريات الخطابة والتجمع دون إمكان إقامة دعوى قضائية عليهم، فإن ذلك سيؤدي إلى شل الديمقراطية لا يمكن أن تواصل البقاء إذا حرمت من حق نقد حكمها.

وتختم النشرة بالإشارة إلى الانتخابات الحرة والتطبيق الموحد لحكم القانون والظروف الديمقراطية اللازمة لنجاح الديمقراطي من إيمان رجال الدولة بالمبدأ الديمقراطي، وأن هذه البلاد إنما هي ملك لشعبها. وأن لشعبها الحق في اختيار من يحكمهم - وأن الالتزام الأدبي والشرعي على رجال الخدمة المدنية هو الامتثال لذلك والتطبيق الأمين له.

بصفة عامة - فإن النشرة تتحدث في هذا القسم عن الديمقراطية بلغة ديمقراطية ولا تحاول - كما كان دأب العلامة المودودي في كتاباته - أن تقيس كل التعبيرات الحديثة بالمقاييس السلفية.. وإنما لا نجد فيها شيئاً عن الحاكمية الإلهية وعبودية الإنسان، وإن أقل تفريط أو تهاون ينقله إلى "الجاهلية"، وإنما نجد صراحة أن هذه البلاد "ملك شعبيها" وكان التقليد المودودي يؤثر أن تكون "ملك لله".

القضية هي: هل هذا إيمان بالديمقراطية أو أنه مجرد نوع من التكنيك في معركة ديمقراطية. وماذا يكون الموقف عندما يظهر تعارض ما بين الأصول الديمقراطية والأصول السلفية فهل هناك تعارض بين حرية الفكر المقدسة.. وحد الردء؟ وما هي حريات المرأة تجاه الرجل - وهل الإضراب محظور.. إلخ..

على كل حال فإننا إذا أخذنا النشرة كما هي، فإنها تمثل تطوراً كبيراً في تصور الجماعة الإسلامية للنظام السياسي.

* * * *

ملحق بالفصلين الأول والثاني

مقارنة بين الأخوان المسلمين والجماعة الإسلامية

الأخوان المسلمون - والجماعة الإسلامية هما الدعوتان اللتان أثرتا عميقاً على المجتمع الإسلامي المعاصر، وعلى بقية الدعوات، حتى التي انشقت منهما. أما الدعوات الأخرى فبعضها ضئيل القيمة من ناحية التأصيل النظري أو الكيان العملي، كدعوات "الرافضة الجديدة" بتياراتها المختلفة (الجهاد القطبيون - التكفير والهجرة إلخ..). والبعض الآخر وهي الدعوات الجديدة الواعدة في الجزائر والسودان واليمن وتونس.. لا تزال حديثة العهد، تتال حظها من المحن والاختبارات - وسنتحدث عنها في فصل خاص..

وفي الوقت نفسه، فلا يفوتنا أن الدعوتين الكبيرتين - بحكم تاريخهما القديم الذي يربطهما إلى الماضي، وما يملكهما من قصور ذاتي فإنهما يقتربان اليوم لأن يمثلأ "الكلاسيكية" في الدعوة الإسلامية، وهو لا ينفي أنهما كانا منبع النهر الطويل الذي روى تربة الإسلام فترة الجفاف، وأنهم يلقيان بظلهما - وإن لم تكن بإشعثهما - على بعض الدعوات بينما يلهمان دعوات أخرى.

في هذا السبيل، نرى أن إجراء مقارنة بينهما يمكن أن يبلور عملية استخلاص الدروس والنتائج، وقد تعرضنا لذلك عند الحديث عن كل واحدة على حدة، ولكن تقابلهما يعكس نقاط الائتلاف والاختلاف عندما يعرض كل منهما في مرآة الآخر.

والإسلام - إذا كان هو القرآن الكريم والصحيح الثابت من السنة - أمر واحد لا يختلف، ولكن رؤية هذا الإسلام هي التي تختلف وهذا أمر طبيعي - لأن قدرة العيون على الإبصار تختلف، وقدرة المدارك على الاستيعاب تتفاوت، ولأن زوايا الرؤية تتنوع.. وهذه كلها تؤدي إلى أن تكون الصورة مختلفة، ولا يضير الإسلام هذا لأنه يتسع للجميع، ويتقبل الرؤى داخل إطاره العريض.

وقد نتعقد العملية إذا فهم أن الإسلام لا يقتصر على القرآن الكريم والصحيح الثابت من السنة، ولكنه يضم كل التراث الضخم الذي قدمه الأئمة والفقهاء إلخ.. لأن مجال التفاوت سيزداد وسينتقل من "الكليات" إلى الجزئيات..

أضف إلى هذا كله، أن الذي ينظر ويستوعب ليس عيناً أو ذهنًا، مجردًا ولكنه شخص - وُلد في بيئة معينة، وتعرض لمؤثرات معينة بعضها يعود إلى وراثته الخاصة التي حملها من أبويه وبعضها يعود إلى وراثته العامة كمواطن في بلد

معين، وأرض معينة وكذلك في وقت معين.. وهذه الاختلافات في الفرد، والأرض، والوقت لا بد وأن تستتبع اختلافات في الرؤية..

ظهرت دعوة الأخوان المسلمين في مصر، ومصر بلد مؤمن من أقدم العصور كان الدين فيها هو محور الحياة واتسم الإيمان فيها بطابع من الرفق والسماحة والمرونة. بينما ظهرت دعوة الجماعة الإسلامية في الهند، والهند بلد مؤمن أيضاً وللدين فيه جذور عميقة. ولكن الإيمان فيه يتسم بنوع من التشدد الدنيوي آونة و "النيرفانا" الآخروية آونة أخرى وكان لا بد لقائدي الدعوتين أن يحملا بين جنبيها هذه الرواسب العميقة وأن يتأثرا بها، حتى وإن لم يشعرا. فالبنّا فلاح مصري يحمل في لحمه ودمه تراب مصر، وماء نيلها. والمودودي مدني هندي يحمل رواسب الهند وماء "الجانج" وحمل كل منهما إلى دعوته هذا الأثر، فجاءت دعوة الأخوان سهلة، مرنة، شعبية، وجاءت دعوة المودودي عميقة، شديدة نخوبة.

ودعمت ملابسات تنشئة كلا القائدين ذلك. فولد البنّا في بيئة ريفية وتمتع بطفولة سعيدة منطلقة بين الروابي والحقول، وتواترت العوامل يدفع بعضها بعضاً، لتحقيق له الثقافة الإسلامية، والمعرفة الدينية، وليكون دائماً محتكاً

بالناس، حتى يصبح مدرساً في مدينة الإسماعيلية ومن
المقهى - يتجه بدعوته إلى عمال شركة قناة السويس. ومن
سنة من هؤلاء تتكون الأخوان، ويتم هذا كله وهو في
العشرين من العمر.

على حين نشأ المودودي في بيئة مدنية، وعكف طوال
حياته على القراءة والكتابة - ولم يتخذ مهنة أخرى غير
الكتابة. وأخذ يدقق وينقب ويفك ويدرس النصوص حتى
توصل إلى فكرة دعوته. وعندئذ - وكان في الثامنة والثلاثين
من العمر - دعا - من أعماق مكتبه إلى تأسيس الجماعة
الإسلامية ولبّي دعوته ٧٥ شخصاً من كل أنحاء الهند.

وحتى الاسم الذي حملته كل دعوة من الدعوتين، والذي
يبدو وكأنه ابن اللحظة وعفو التلقائية، جاء مطابقاً كل
المطابقة لمضمون كل دعوة. ففي كلمة الأخوان إشارة إلى
تعددية تجمعها أُخُوَّة وتخالطها عاطفة، بينما كلمة "جماعة"
تعطي المعنى الجماعي الذي تحكمه ضرورات الجماعة
وأبرزها الطاعة والوحدة..

وأدت العوامل السابقة كلها إلى أن يفهم البنّا الإسلام فهماً
تخالطه سامحة مصرية، وأن يفهم المودودي الإسلام فهماً
تشوبه لَكَنَة هندية، ويبلور الأمر في النهاية إلى أن يكون
المضمون الإسلامي للإخوان هو "الإسلام للحياة" وأن يكون

المضمون الإسلامي للجماعة هو "الحياة للإسلام" ومن هنا جاء تيسير البنّا للإسلام لكي يتعايش مع الحياة، وجاء تكييف المودودي للحياة لكي تتجاوب مع الإسلام. وكانت دعوة البنّا أفقية جماهيرية ذات طبيعة عملية، بينما كانت دعوة المودودي رأسية. نخبوية ذات عمق نظري.

كان المودودي علامة، وكان البنّا إماماً

وكان لكل دعوة مميزاتها، وقصورها أيضاً. فالمودودي في سبيل المزيد من إحكام نظريته، استعان في بعض الحالات بأحاديث ضعيفة - كما حدث في كتاب "الحجاب" الذي استشهد فيه بأحاديث أكد الشيخ ناصر الألباني أن بعضها مما لا يمكن الاحتجاج به. وأجل البنا عملية "الفرز" والتفاصيل ليُتم عملية الحشد والكتليات..

ولكن يمكن التماس العذر للإخوان لأن مرشدها اغتيل في وقت مبكر، وفي ظروف غير منتظرة - عندما كان في الأربعين من العمر ولولا ذلك لقدر له - بحكم حالته الصحية وأسنان أفراد أسرته - أن يعيش ثلاثين سنة أخرى، كان يمكن فيها أن يستكمل هذا النقص. لأنه كان يعمل بأسلوب مرحلي. وكانت لديه قدرة فائقة للخروج من مرحلة ما والدخول في مرحلة جديدة دون وقوع خلخلة أو تنافر، ويكفي - فحسب - مقارنة لائحة الأخوان (في العشرينيات)

بلائحتها في الأربعينيات ليتبين الفرق الكبير - والانتقال
بجماعة تربوية صوفية إلى هيئة حياتية سياسية. وكان
المفروض أن تأتي مرحلة "الفرز" ومعالجة الجزئيات
والتفاصيل. وهذا ما حال دونه الاغتيال.

ولكن المودودي أمضى ضعف ما أمضاه الإمام البنّا في
خدمة دعوته، وكان هو الذي طلب في نوفمبر ١٩٧٢
الاستعفاء من قيادة الجماعة بعد أن جاوز السبعين فاتسع له
الوقت لأحكام التفاصيل، وفي الوقت نفسه صعب عليه
العدول عنها.. عندما يتضح أن بعضها لم يكن موفقاً. وقد
يصور هذا تماماً أن العلامة أبو الحسن الندوي عندما أصدر
كتابه "التفسير السياسي للإسلام" الذي أشرنا إليه في الفصل
السابق وانتقد بعض مفاهيم المودودي خاصة ما جاء في
كتاب "المصطلحات الأربعة" أرسل إلى المودودي نسخة
شارحاً دوافعه إلى إصداره. فكتب إليه المودودي.

- "يطيبُ لي أن أشكركم لأنكم قمتهم بالنقد والتعليق
على ما اطلعت عليه مما كتبت - والذي يؤدي - في
تصوركم - إلى أخطار كثيرة.. وأرجو منكم أن تقوموا بالنقد
بلا تردد أو تكلف لما ترون في كتاباتي مما يجر الضرر أو
الخطر على الدين وأهله، وإنني لم أرَ نفسي قط فوق النقد -
ولا أنكره. ولكن ليس من الضروري أن أرى كل نقد

صحيحًا - أو أعترف بصدق وصحة الأخطار والمخاوف
المشار إليها من قِبَل الناقدين".

فهذا الخطاب الذي ينم عن روح إسلامية تجعل صاحبها
لا يرى نفسه فوق النقد - ينم أيضًا عن أن صاحبه قد انتهى
بالفعل من صياغة نظريته بحيث لا يكون ضروريًا أن يسلم
بنقد الناقدين. وبالطبع فإن هذا من حقه بعد أن سلخ أكثر من
نصف قرن في التفكير والتحبير..

وقد يتصور البعض أن الصفات المميزة لكل من
الدعوتين اللتين أشرنا إليها يمكن أن يؤديا إلى "تكامل" للدعوة
الإسلامية ولكن مما يحول دون ذلك أنهما - على اختلافهما
- صدرا من مشكاة واحدة، والتزامًا بإطار واحد هو -
"السلفية" حتى وإن ضاق الإطار في حالة الجماعة الإسلامية،
واتسع في حالة الأخوان المسلمين ولا بد للدعوة الإسلامية
المتلى أن تتجاوز هذا الإطار، بل قد يكون عليها أن تنظر
إلى الإسلام من خارج الإسلام نفسه لأنها ما حصرت نفسها
في الإسلام نفسه ووحده. فلن تدرك بعض أسرار الإسلام
التي لا تُرى إلا من أبعاد أخرى أو في ضوء تطورات
حدثت بعد نزول الإسلام. وليست النظرة التي تكشف كل
أبعاد الإسلام هي النظرة الإسلامية.. ولكنها النظرة الكونية..

* * * *

الفصل الثالث

حزب التحرير

لا يعرف الجيل المعاصر شيئاً كثيراً عن حزب التحرير، وربما ترمى إلى سمعه ما قد تتناقله الصحف بين حين وآخر، من إشارات عنه. معظمها، كما هو العهد بها فيما يختص بالإسلام - مشوهة، والحقيقة أن حزب التحرير كان محاولة جادة لوضع صيغة إسلامية شمولية، للنهضة بالأمة. وقد أراد أن يتعلم من الدعوات الإسلامية السابقة عليه وأن يتفادى أخطاءها، ويبدأ حيث إنتهت.. ولكن الإطار السلفي التقليدي كان أقوى من الملكات الإبداعية لمؤسسية، كما لم يكن من السهل تجاوز الظروف السياسية - زماناً ومكاناً - التي أحاطت به إحاطة السوار بالمعصم وكانت جزءاً رئيسياً من استراتيجية وضعت للمنطقة، وحمتها نظم حاكمة ومصالح مكتسبة عاتية. وعندما أراد الحزب الفني أن يشق طريقه. وجد هذه الأوضاع كالصخر في مواجهته، فحاول أن ينطحها - وانطبق عليه البيت المشهور (كناطح صخرة يوماً إلخ..). وكان أسوأ مصيراً من الهيئات الإسلامية التي انتقدها وأراد أن لا يقع فيما وقعت فيه.

وإنما اكتسب حزب التحرير صفاته الخاصة نتيجة لملايسات ظهره وشخصيات قاداته فقد ظهر بعد نكبة ١٩٤٨ التي عاشها مؤسسوه الفلسطينيون واصطلوا بنارها ودفعوا ثمنها غالبًا فتركوا أرضهم وبيوتهم وشرّدوا في البلاد. وكانت هذه الملايسة الدامية هي الدافع المباشر لتكوين الحزب، ومن ناحية أخرى فإن المؤسسين الثلاثة الذين أشرفوا على تكوينه ووضعوا فكرته، تميزوا بإحكام للفقه الإسلامي ومن ثمّ فإن أثر الفقه كان بارزًا في فلسفة وتنظيم الحزب. وفي الوقت نفسه فإن متابعتهم للحركات الإسلامية، وغيرها التي شاهدها المنطقة وقتئذ جعلتهم يجددون، فعلى سبيل المثال، لعله كان الهيئة الإسلامية الأولى التي تحمل اسم حزب وتعلن أن عمله هو النشاط السياسي، وأنه ليس تكتلاً خيرياً أو ثقافياً إلخ..

* * * *

التكوين والسنوات الأولى:

قام الحزب بفضل جهود مشتركة من ثلاث شخصيات فلسطينية نابهة، جمعتها وحدة الثقافة والميول والابتلاء، هم الشيخ تقي الدين النبهاني والشيخ داود حمدان والأستاذ نمر المصري.

وقد عايش هؤلاء الثلاثة الأحداث الجسام التي تعرضت لها المنطقة وقوى التغيير التي تحكمت فيها، فلمسوا آثار الأخوان المسلمين التي كانت بارزة في فلسطين خلال هذه الفترة وألما بنقطة القوة والضعف فيها، وشاهدوا تعثر الحزب القومي الذي أسسه في الثلاثينيات أنطون سعادة للعمل على تحقيق "الدولة العربية" في إطار البيئة الجغرافية (سوريا الكبرى) ومحاولته التلقيفية في إيجاد مكان "للمحمدية" - كما أطلق على الإسلام - في دولة القومية - ثم شاهدوا ميشيل عفلق وإخوانه - الذين لم يكونوا أفضل من أنطون سعادة إلا قليلاً - وهم يكونون على أنقاض الحزب القومي ومن أسلائه حزب البعث، من أمشاج عربية واشتراكية وإسلامية لتحقيق الوحدة العربية، واكتشف الثلاثة ما في هذه التكوينات من ضعف أو تلفيق.

وأهم من هذا أنهم شاهدوا الأخطبوط الإسرائيلي وهو يمد أذرعه ليطوق بلدهم المحبوب، ورأوا أفواج الهجره تتولى، والمستوطنات تزحف: والمحاولات العربية المتعثرة، لصدها. حتى دقت الساعة في ١٥ مايو سنة ٤٨، عندما أعلن قيام دولة إسرائيل وتسابقت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي للاعتراف بها. وما أعقب هذا مباشرة من خروج سبعمئة وخمسين ألفاً من الفلسطينيين من دُورهم، وأرضهم

وأموالهم إلى سوريا ولبنان والأردن. وغيرها. كان منهم الثلاثة الذين كونوا الحزب.

كان الأول من هؤلاء الشيخ تقي الدين النبهاني (١٩٠٩ - ١٩٧٩) من أسرة إسلامية عريقة، ولد في إحدى قرى قضاء حيفا وكان والده قاضياً شرعياً. بينما كان أحد أجداده من الشخصيات الإسلامية المعروفة في تركيا. والعالم الإسلامي.

وبعد أن حفظ القرآن، وتلقى علومه الأولى تحت إشراف والده، سافر إلى القاهرة وانتظم في الأزهر حتى حصل على إجازة العالمية، كما انتسب إلى دار العلوم أيضاً، وحصل على شهادتها. وعاد إلى فلسطين واشتغل بالتدريس في حيفا ثم انتظم في سلك القضاء الشرعي حتى نكبة عام ١٩٤٨ التي نزح في إثرها إلى بيروت..

وكان للشيخ تقي الدين شخصية قوية. وعُرف بصلاية الإرادة، ووزارة المعرفة، وإحكام الفقه الإسلامي.

وكان الثاني الشيخ داود حمدان عن مواليد مدينة اللد. ودرس في الأزهر، وبعد أن عاد عمل كمحامٍ شرعي. وكان واسع الاطلاع، وكتب عدداً من المقالات في مجلة "الرسالة" المشهورة التي كانت منبراً لكبار الكتاب العرب وقتئذ.

أما الثالث - الأستاذ نمر المصري. فقد كان أقل الثلاثة حرصاً على الدراسة الأكاديمية، وفي الوقت نفسه أكثرهم نشاطاً في المجالات العامة والسياسية فكان عضواً بارزاً في كثير من الهيئات والمؤتمرات التي عقدت ما بين الثلاثينيات والأربعينيات - وكان وثيق الصلة بالأخوان المسلمين وعندما اعتزل الحزب - كما سيلي - نقل نشاطه للأخوان وأصبح من الشخصيات المسؤولة فيها.

وعندما وقعت النكبة هاجر الشيخ داود والأستاذ نمر إلى سورية واستقرّاً بدمشق..

وفي دمشق تلاقى الثلاثة "وأخذوا يتدارسون أسباب النكبة. ووضع وقتئذ الشيخ تقي الدين أصول كتاب "إنقاذ فلسطين".

ولم يحمل "إنقاذ فلسطين" طابعاً أيديولوجياً ولكن مقدماته كانت تنتهي إليه. فالنكبة كانت نتيجة قرن من التخطيط الإسرائيلي.. والتدهور العربي. وكان لابد لمجابهة ذلك من إقامة أمة ذاك مبدأ يبلور الغاية الواحدة.

وقد وجد الثلاثة أن مبدأ الأمة الواحدة هو "الإسلام" فالمجتمع العربي هو "أمة إسلامية حياة ودستوراً حتى لغير المسلمين من العرب" وبهذا أصبح المطلوب هو توظيف الإسلام للقيام بهذه المهمة التاريخية، بل وتجاوزها إلى دور عالمي مؤثر في حياة العالم بأسره..

وانفقوا على أن تكون طريقة الدراسة هي الحلقة، فكل واحد يأتي بما انتهى إليه فكره ليعرضه على الآخرين ويكون موضوع نقاش منهم جميعاً. وكان الثلاثة يكونون الحلقة الأولى. ولكن تكونت حلقات أخرى لمعالجة جوانب من المواضيع لم يكن الثلاثة يحكمونها، من ناحية، وبفضل نشاط الشيخ تقي الدين، الذي أصبح بضغط من رفيقيه - متفرغاً، من ناحية أخرى.

وتحدث أحد الذين المُوا - إماماً دقيقاً - بنشاط هذه الفترة عن دور الحلقات فقال⁽¹⁾: "فأصبح الحوار في الحلقات يتركز على مناقشة ودراسة هذه المسودات وتنقيحها، بل إن من الحلقات ما كان يواكب عملية الكتابة نفسها لهذه المسودات وعلى الأخص تلك التي كان يقوم الشيخ تقي بكتابتها. فقد كان كثيراً ما يلزم حلقة تتفرغ لهذه المواقبة، ويحاور حول ما يريد كتابته، فضلاً عن عرضه لما يكتبه عليها أولاً بأول حيث تناقش ما كتبه، ويعد في ضوء المناقشات" ويرى الكاتب أن بعضاً من أهم وثائق الحزب مثل "التكتل الحزبي" و"نظام الإسلام. نظام الحكم. النظام الاقتصادي النظام الاجتماعي خضع لهذه الممارسة.

(1) الأستاذ سعيد خالد الحسن في رسالة منسوخة بالآلة الكاتبة عن حزب التحرير.

ويضيف الكاتب أن مناقضة حلقة ما، كانت تعرض بعد ذلك على الحلقات ككل "وهو ما ينطبق على كتابات الشيخ تقي الدين جميعها، وعلى ما كتبه غيره مثل كتابي الشخصية الإسلامية والدولة الإسلامية اللذين كتب مسودتيهما الشيخ داود.

وشيناً فشيئاً أخذت الحلقات تزداد عددًا، والحوار يزداد غنى، وقد سمح ذلك لأفراد الحلقة الأولى أن يكشفوا آخرين من أعضاء الحلقات الذين "تفاعل الدعوة معهم" أيضاً من غيرهم بأنهم يرون نشاط الحلقات جزء من عملية إعداد فكري قائمة بالفعل. تستهدف تكوين حزب. وبذلك أخذ هؤلاء "الآخرين" يقومون أيضاً بالإشراف على حلقات حوار مماثلة، مُكونين بذلك "الكتلة التي سينمو بها الحزب، وسرعان ما تجاوزت دائرة الحوار مدينة دمشق، حيث بدء نشاط الحلقات، وامتدت إلى آخرين من المقيمين في الضفتين الشرقية والغربية".

وقد عزز امتداد الحلقات هذا تنقل الشيخ تقي الدين، رائد الحوار وشخصيته الأولى، ما بين القدس وعمان ودمشق وبيروت، فبعد إلحاق الضفة الغربية عام ١٩٥٠ بإمارة شرق الأردن، ليظهر ما عرف عندئذ بالمملكة الأردنية الهاشمية - ذهب الشيخ تقي إلى القدس - ونجح في

أن يُعيَّن عضوًا في محكمة الاستئناف الشرعية - ثم انتقل من ذلك إلى عمان ليعمل مدرسًا في الكلية الإسلامية - غير أنه ما لبث أن تفرغ للمشروع بناءً على إلحاح رفاقه، فاستقال من عمله وعاد إلى دمشق حيث أقام بها مع والدته، وأخذ ينشغل انشغالاً تاماً بمشروع الحزب. متخذاً من مخصص مالي محدود وفرَّ له رفاقه ما يستعين به على الإنفاق الضروري من حاجياته، وحاجات أسرته، وأصبح يقضي الجانب الأكبر من وقته في دمشق حيث نشأت "الحلقة الأولى" وحيث ظلت فيها كتلة الحزب، أما الجزء الأخير من وقته فقد كان يقضيه متنقلاً ما بين الأردن ولبنان حيث امتدت حلقات الحوار..

وهكذا نرى أن الحلقات كانت تؤدي وظائف متعددة، فهي أداة لبلورة الفكرة، كما كانت وسيلة لاجتذاب العناصر المتعاطفة، وأخيراً فقد كانت بوتقة لصهر الشخصيات طبقاً لمقتضيات الحزب.

وفي عام ١٩٥٢ نشر الحزب عددًا من الرسائل والكتب التي تمت مناقشتها دون أن تحمل اسم الحزب، لأنه لم يكن قد تقدم إلى المسؤولين، وحملت هذه الكتب اسم الشيخ نقي الدين كمؤلف لها.

وفي ١٤ / ٣ / ١٩٥٣^(١) أرسل مؤسسو الحزب أخطارًا إلى الحكومة الأردنية "بتأسيسهم حزبًا سياسيًا" وبين اسمه ومركز إدارته وعنوانه ومقاصده والمفوضين بالتوقيع عنه، وأرفقه بالنظام الأساسي.

وفي ٢٢ / ٣ / ٥٣ ردّت الحكومة بأن الحزب غير قانوني ومنعت القائمين عليه من أي عمل، وبررت ذلك بأن الحزب "يحصّر الروابط بين أفراد المملكة برابطة الدين مما يدعو للتفريق بين أبناء الوطن الواحد ويخالف حكم قانون الجمعيات، ويلحق بالوطن أفدح الأضرار.."

وفي ١ / ٦ / ١٩٥٣ ردّ الحزب بأنه يعتبر نفسه شخصية معنوية، قامت بالفعل ولا تزال قائمة قانونًا، بغض النظر عن عدم إقرار الحكومة لمشروعية الحزب.

وتعرض الحزب لمضايقات الحكومة. وسجن أعضاؤه البارزون أكثر من مرة، ولكنهم أثبتوا شجاعة وتصميمًا. واكتسبوا تأييد قطاعات عديدة. واستطاعوا أن يكسبوا لأحد

(١) هناك من يرى أن الحزب قد قدم إخطاره للحكومة في ١٦ / ١١ / ١٩٥٢ باسم خمسة من أعضائه هم: تقي الدين النبهائي، داود حمدان، منير شقير، عادل النابلي، غانم عبده، ولم تتضمن الأسماء اسم الأستاذ نمر المصري لأنه لم يكن يحمل الجنسية الأردنية.

أعضائهم كرسي النيابة عن منطقة طولكرم في الضفة الغربية.

ولكن هذه البداية المشرقة، الواعدة بنجاح وإنجاز لم تستمر طويلاً، ومع الستينيات بدأ الحزب يتقلص. وتضافرت العوامل الخارجية، والعوامل الداخلية (أي من داخل الحزب) على أن يفقد الحزب جماهيره ويتوقع في بضعة أفراد..

من الناحية الخارجية، فإن كل نظم الحكم في المنطقة أعلنت عليه حرباً شعواء، وهو نبتة صغيرة، وقبل أن يمد جذوره عميقاً في أرض المنطقة، وكان الحزب يعلن عن هويته الإسلامية بكل قوة، وعن الحل الإسلامي كالحل الوحيد. وعن الطابع السياسي له.. وكان هذا كله يهدد النظم القائمة، وينذر بزعتها إذا سمح له البقاء فتضافرت كل القوى عليه، وألصقت به الاتهامات المزيفة، وزج بقادته إلى السجون.

ولعل هذه الحقيقة المؤسفة تبرز الفارق بين "تكنيك الحزب" و "تكنيك الأخوان". فقد استطاع الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله تحت مظلة النكر. وبفضل العمل في القرى القاصية، وبدعم تحدي النظم والمصالح تحدياً معلناً، أن يتوصل إلى غرس بذرة الأخوان في خمسمائة قرية على الأقل، وموالاة هذه البذرة حتى نمت وأصبح لها جذور

يصعب اقتلاعها. وعندئذ فحسب أبدى الجانب السياسي لدعوة الأخوان. ومع أنه كان يقول دائماً أن الإسلام دين ودولة إلا أن هذا الكلام لم يؤخذ مأخذ الجد إلا في السنوات الخمس الأخيرة من حياة الإمام الشهيد.

أما ما تعرض له حزب التحرير من الداخل، وكان بلا ريب من العوامل التي أدت إلى تقلصه، فهو ما ظهر من خلاف بين الشيخ تقي الدين من ناحية وزميليه الأستاذ نمر المصري والشيخ داود..

فمع ممارسة الحزب لنشاطه بدأت تظهر بعض الخلافات ما بين الشيخ تقي الدين والأستاذ نمر المصري حول كيفية تحديد دور الحزب في مواجهة التطورات السياسية. فالشيخ تقي الدين كان يرى أن كل حدث يتطلب من الحزب عملاً فورياً ويبدو أن هذه الفكرة ما كان يمكن أن تطبق عملياً بطريقة "الحلقة" أو الشورى، أو أن الشيخ وجد أن من حقه - بصفته - أن يقوم بذلك دون الرجوع ضرورة إلى زميليه عضوي القيادة. ولكن هذا لم يكن رأي الأستاذ نمر. وتكتم الأستاذ نمر هذا الخلاف بحيث كان محصوراً ما بينه وبين الشيخ تقي الدين، ولكن الشيخ تقي الدين نفسه، عندما لمس ضيق الأستاذ نمر بمنهجه كتب تعميماً إلى الحزب يشير فيه إلى أن الأستاذ نمر يعمل لإيجاد تكتل داخل

تكتل الحزب. ومن ثم انتقل الخلاف إلى العلن. وبُذلت جهود لتطويق هذا الخلاف كان منها أن تقرر أن ينتقل الشيخ داود من الأردن حيث كان يقيم إلى دمشق ليكون معهما كعنصر توفيق وتهئية. ولكن ذلك لم يُجدِ فقد نشر الشيخ تقي الدين في ١٥ / ١٠ / ١٩٥٥ عقب إعلان مصر لإبرام صفقة السلاح التشكية في ٢٦ / ٩ / ١٩٥٥ بيانًا يتهم فيه عبد الناصر بالعمالة للولايات المتحدة. وحتى لو كان التحليل الذي قدمه الشيخ تقي يؤدي لهذا. فما كان يجوز إعلانه في فترة وصل الحماس فيه لعبد الناصر إلى قمته. وأمام هذا لم يجد الأستاذ نمر المصري بُدًا من تجميد نشاطه.

وما يلقي بضوء على مسلك الحزب إزاء هذه الأزمة أن تنقل هنا ما كتبه الأستاذ سعيد الحسن "عند ذلك بدا لقيادة الحزب أنه من الضروري أن يتم تحديد مهمة القيادة. وهل هي - في حزب يقوم على الإسلام - جماعية أو فردية. وما هو الدليل الإسلامي على ذلك، ولتحديد هذا فقد انهمك الشيخ داود في إعداد مسوِّدة دراسة يعرض فيها أدلة التشريع الإسلامي التي تتصل بالمشكلة التي أثارها الخلاف. أي كيف يجب أن تتم عملية تبني الآراء، والترجيح بينها في الحزب. وهل تفيد هذه الأدلة أن من صلاحيات الإمارة (أو الرئاسة) - ونستطيع أن نضيف عمادة الحزب - أن تحدد للحزب ما

يتبناه من آراء، أو أن يكون العنصر المرجح بينها أن كانت ترجح رأى الأقلية (1).

ويبدو أن دراسة الشيخ داود انتهت إلى أن الإمارة في الإسلام مهمة تنفيذية بحتة، وأن تبني جماعة معينة لحكم شرعي معين تتفق عليه مجموعة من الآراء المبنية على اجتهاد صحيح وفق علم أصول الفقه هو المقدم شرعاً على تبني هذه الجماعة لما يصل إليه الاجتهاد الفردي، أي أن تبني الحزب لما يتفق عليه اجتهاد لجنة القيادة مجتمعة يكون مقدماً على اجتهاد فرد منها. وأن الترجي بين الآراء التي لا تتطلب اجتهاداً في فهم نص تشريعي معين أو القيام عليه إنما هو أدعى قطعاً إلى أن يؤخذ فيه برأي الأكثرية - وليس واحد أو ثلاثة.. أو عشرة..

على أن هذه المذكرة لسبب ما، لم تحسم الموضوع، ورفض الشيخ تقي الدين مناقشتها معتمداً على حديث "إذا كنتم ثلاثة في سفر - فأمروا أحدكم" ومن ثم لم ير مبرراً لإثارة هذا الجدل - ثم اتبع ذلك بنشر تعميم حزبي قال فيه أن بعض الأعضاء قد سقطوا خلال مسيرة الحزب واعتزل الأستاذ نمر والشيخ داود وعدد آخر من القيادات الشابة.

(1) مرجع سابق ص ٧٥

وظن الشيخ تقي الدين أنه استراح منهم، خاصة وأنهم لم يحاولوا إنكفاء الخلاف أو متابعتها في الحزب. ولكن النتيجة التي لا مرء فيها أن الحزب خسر عددًا من أفضل قياداته التي كان يمكن لو بقيت أن تثري الحزب⁽¹⁾.

على أن هذه الأزمة أثارت في نفس الشيخ تقي الدين وأصدقائه قضية الشورى ومدى إلزاماتها وعندما صدرت طبعات جديدة بعد اعتزال المخالفين - لكتاب نظام الإسلام. أضيف إليه في باب الحكم الشرعي نص يجيز للمجتهد أن يترك اجتهاده ويقلد غيره من المجتهدين.

كما استحدثت مادة جديدة في دستور الحزب تفرق بين الشورى والمشورة اعتبرت الأولى ملزمة لرئيس الدولة - ورئيس الحزب - بالتعرف على الآراء المختصة - دون إلزامه باتباع ما ينفق عليه منها. أما الثانية (المشورة) فهي ملزمة للرئيس - ولكنها لا تجب إلا في الأمور التي ليست

(1) أصبح الأستاذ نمر من أبرز قيادات منظمة التحرير كما لعب دورًا حاسمًا في تمكين "حركة فتح" من السيطرة على المنظمة عام ١٩٦٨. كما قام الأستاذ خالد الحسن. الذي كان من أقرب القيادات الشابة إلى قلب الشيخ تقي الدين، بدور رئيسي في تكوين "فتح" وفي عام ١٩٦٨ أصبح رئيس الدائرة السياسية.

من "التشريع، ولا التعريف، والأمور الفكرية، ككشف الحقائق وكالأمور الفنية والعلمية".

* * * *

دعوة حزب التحرير:

كانت الفكرة التي في ذهن المؤسسين للحزب هي كيف يمكن إنهاء الأمة لكي تجابه التحديات - والتحدي الإسرائيلي أحدها - وتنتصر عليها. وقد انتهى المؤسسون إلى أن ذلك لا يمكن أن يحدث إلا بروح جديدة ترفع الأمة فوق حاضرها التعس ومشاكلها وأوضاعها، وتفجر فيها قوة الإيمان. وبدون ذلك لن تستطيع الانتصار على أعداد أشد قوة وأكثر عددًا. أو اختزال سنوات التخلف أو مجاوزة العقبات والعراقيل.

واستبعد المؤسسون كل أفكار الإصلاح الجزئية (إصلاح الاقتصاد - إصلاح التعليم إلخ) .. لأن المجتمع كل واحد ولن يمكن النهضة بجانب منه على حدة.

وانتهى المؤسسون أيضًا إلى أن هذه الروح لن تكون سوى - الإسلام فهو "مبدأ الأمة".

ولا تخلو هذه المقدمات والنتائج من سلامة موضوعية، وقد يفضل تشخيص الحزب فيها تشخيص هيئات إسلامية أخرى.

ولكن ...

القضية كلها تصبح توظيف الإسلام كروح انتهاضية، روح تغيير وتطوير، روح اكتساح، كتلك التي تملكتم المسلمون أيام الخلافة الراشدة وجعلتهم يكتسحون العالم القديم.

كان المفروض أن يجهد المؤسسون أنفسهم ليقدموا الإسلام ثورياً، انتهاضياً، ولكنهم قدموا الإسلام فقهيًا سلفياً. فالثقافة الفقهية المتغلغلة في نفوسهم والروح السلفية التي هيمنت عليهم بحكم دراساتهم في الأزهر، جعلت إرادتهم الثورية تبعاً للفهم السلفي. وبالتالي حُبست في قفص الفقه، ووجد المؤسسون أنفسهم مختارين أو بحكم الأمر الواقع يتخبطون فيه..

وعندما كانت تحدث فرجة في هذا القفص أو عندما كانوا يسمحون لأنفسهم بالتححرر من الفهم السلفي، كانوا يأتون بتجديدات تشذ عن السياق، ولكنها كانت الاستثناء..

وما من حالة تظهر فيها مأساة الفهم السلفي، وكيف يمكن أن يجهض أي محاولة انتهاضية، إذا تطرق إليها كحالة حزب التحرير. فالرغبة المحرقة في الانتهاض والتصدي لقوى القهر والطغيان تقولبت في القالب الفقهي، وفقدت كل ضرامها وحرارتها وأصبحت ترجيحات واجتهادات مذهبية..

ومن خصائص حزب التحرير أنه عُنِيََ ببحث كل القضايا من زاويته - في عدد كبير من الكتب وبروح من التفصيل والمعالجة التي يغلب عليها الطابع الفقهي، مما لأنجده في غيرها. وعدد الكتاب الذي نشره الحزب في ٢٠ من شعبان ١٤٠٥ الموافق ٩ / ٥ / ١٩٨٥ أسماء هذه الكتب فكانت كالآتي:

- كتاب نظام الإسلام.
- كتاب نظام الحكم في الإسلام.
- كتاب النظام الاقتصادي في الإسلام.
- كتاب النظام الاجتماعي في الإسلام.
- كتاب التكتل الحزبي.
- كتاب مفاهيم حزب التحرير.
- كتاب الدولة الإسلامية.
- كتاب الشخصية الإسلامية في ثلاثة أجزاء.
- كتاب مفاهيم سياسية لحزب التحرير.
- كتاب نظرات سياسية لحزب التحرير.
- كتاب مقدمة الدستور.
- كتاب الخلافة.
- كتاب كيف هدمت الخلافة.
- كتاب نظام العقوبات.
- كتاب أحكام البيئات.
- كتاب نقض الاشتراكية الماركسية.

كتاب التفكير .

كتاب سرعة البديهة .

كتاب الفكر الإسلامي .

كتاب نقض نظرية الالتزام في القوانين الغربية .

كتاب نداء حار .

السياسة الاقتصادية المثلى .

كتاب الأموال في دولة الخلافة .

كما أصدر الحزب آلاف النشرات والمذكرات والكتيبات

الفكرية والسياسية .

والنقطة الهامة ليست هي عدد الكتب، أو موضوعاتها، ولكن طريقة المعالجة. فإنها تتسم بطابع تحليلي وفقهي وقد حمل الحزب نفسه عناء إصدار كتاب كبير عن "التفكير" عالج فيه مشكلة المعرفة، والتفكير، والجوانب الفسيولوجية له - داخلاً إليها جميعاً من مداخل إسلامية، ومستخلصاً أحكاماً من المقدمات التي وضعها تتفق مع منهجه في فهم الإسلام. ولكن الأصالة لا تكون بتجاهل الأبحاث الحديثة - وما انتهت إليه، وإنما بالإفادة منها فيما نريد، أما التجاهل فخطأ جسيم، والمفروض في المسلم أن يكون أحرص الناس على المعرفة والحكمة أينما كانت، وأن يعترف لأصحابها بالشكر حتى لو قام بيننا وبينهم شأن العداوة.

* * * *

ويوضح كتاب "حزب التحرير" أن الحزب هو حزب سياسي مبدؤه الإسلام، فالسياسة عمله، والإسلام مبدؤه. وهو يعمل بين الأمة ومعها لتتخذ الإسلام قضية لها، ويقودها لإعادة الخلافة والحكم بما أنزل الله إلى الوجود.

وحزب التحرير هو تكتل سياسي، وليست تكتلاً روحياً ولا تكتلاً علمياً، ولا تعليمياً ولا تكتلاً خيرياً، والفكرة الإسلامية هي الروح لجسمه وهي نواته وسر حياته..".

وهذه الفقرة الأخيرة تمثل موقف الحزب تجاه إحدى "إشكاليات" العمل السياسي الإسلامي. وأنه وقد جاوبه بالفهم المتأصل لدى الإسلاميين عن أن السياسة ما هي إلا صورة أخرى من العبادة فإنه أثر أن يجابههم بهذا "التصريح" القاطع.

وكما أشرنا في فقرة سابقة، فإن هذا التحديد مطلوب، على أن يكون مفهوماً أن طريقة الإسلام في الإصلاح لا تقتصر أبداً على الأسلوب السياسي وإصلاح النظم: ولكنها تضم إلى ذلك إصلاح النفس والقلب. وهذا هو الفرق بين الإسلام والنظم السياسية الأخرى. ولكن إصلاح النفس والقلب ليس هو تخصص الحزب ومجاله، ويمكن استكماله عن طريق هيئات أخرى، أو بالوسائل الخاصة للعضو. وقد كان من الخير - مع هذا - الإشارة إلى أن السياسة

الإسلامية تستلهم القيم الإسلامية وأنها تختلف عن السياسة "الميكيفيلية" ولعله اعتبر أن نصه على أن "الفكرة الإسلامية هي الروح لجسمه وهي نواته وسر حياته" يكفي.

وعن أسباب تكوين الحزب عرض الكتاب ثلاثة أسباب أولاًها هو: الاستجابة لقوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وقد شرح الكتاب هذه الآية بنوع من التفصيل وبيّن أنها تدعو لتكوين مثل هذا الحزب.

ولعل وضع هذا السبب أولاً يوضح عمق المعنى الإسلامي وألويته في الحزب، وبدون ذلك لا يمكن تقديمه على السبب الثاني. وهو إنهاض الأمة الإسلامية وتحريرها من أفكار الكفر وأنظمتها وأحكامه، ومن سيطرة الدول الكافرة ونفوذهم، برفعها فكرياً عن طريق تغيير الأفكار والمفاهيم التي أدت إلى انحطاطها تغييراً أساسياً شاملاً. وإيجاد أفكار الإسلام ومفاهيمه الصحيحة لديها حتى تكيف سلوكها في الحياة وفق أفكار الإسلام، وأحكامه..

ويرى الكتاب أن أسباب هذا الانحدار هي "عوامل التخشية" على فكرة الإسلام، وعوامل التخشية هذه نتجت عن أمور أبرزها.

نقل الفلسفات الهندسة و "الفارسية" ومحاولة التوفيق
بينهما والإسلام. مع وجود التناقض.

دس الحاقدين على الإسلام أفكارًا وأحكامًا ليست من
الإسلام لتثويبه.

إهمال اللغة العربية التي لا يفهم الإسلام إلا بها.

الغزو التبشيري والثقافي والسياسي من الدول القومية
الكافرة..

ويشير الكتاب على المحاولات والحركات التي أريد بها
إنهاض المسلمين وإخفاقها، ويعيد سبب الإخفاق إلى:

عدم فهم الفكرة الإسلامية من قبل القائمين على إنهاض
المسلمين فهمًا دقيقًا لتأثرهم بعوامل التعشبية، وكانوا يدعون
إلى الإسلام بشكل عام مفتوح، دون تحديد للأفكار والحكومة
التي يريدون إنهاض المسلمين، ومعالجة مشاكلهم بها،
وتطبيقها، لعدم وضوح هذه الأفكار والأحكام في أذهانهم،
وجعلوا الواقع مصدرًا لتفكيرهم، يستمدون منه تفكيرهم،
وحاولوا أن يؤولوا الإسلام ويفسروه بما لا تحتمله نصوصه
حتى يتفق مع الواقع القائم، مع أنه مناقض للإسلام، ولم
يجعلوا الواقع موضع تفكيرهم، ليغيروه حسب الإسلام
وأحكامه.

لذلك نادوا بالحرريات والديمقراطيات، وبالنظام الرأسمالي والاشتراكي، واعتبروها من الإسلام، مع أنها تتناقض مع الإسلام تناقضًا كليًا.

عدم وضوح طريقة الإسلام لديهم في تنفيذ فكرة الإسلام وأحكامه وضوحًا تامًا، فحملوا الفكرة الإسلامية بوسائل مرتجلة، وبشكل يكتنفه الغموض وصاروا يرون أن دعوة الإسلام تكون ببناء المساجد وإصدار المؤلفات، أو بإقامة الجمعيات الخيرية والتعاونية، أو بالتربية الخلقية وإصلاح الأفراد، غافلين عن فساد المجتمع، وسيطرة أفكار الكفر وأحكامه وأنظمته عليه، ظانين أن إصلاح المجتمع يكون بإصلاح أفراد، مع أن إصلاح المجتمع إنما يكون بإصلاح أفكاره ومشاعره وأنظمتهم وإصلاحهما سيؤدي إلى إصلاح أفراد، فالمجتمع ليس أفرادًا فقط، وإنما هو أفراد وعلاقات، أي أفراد وأفكار ومشاعر وأنظمة، كما عمل رسول الله ﷺ لتغيير المجتمع الجاهلي إلى مجتمع إسلامي، إذ أخذ يعمل تغيير العقائد الموجودة بأفكار العقيدة الإسلامية، وعلى تغيير الأفكار والمفاهيم والعادات الجاهلية بأفكار الإسلام ومفاهيمه وأحكامه، ومن تغيير مشاعر الناس من الارتباط بعقائد الجاهلية وأفكارها وعاداتها، إلى الارتباط بالعقيدة الإسلامية، وأفكار الإسلام وأحكامه.

أو بالأعمال المادية، وحمل السلاح غير مفرقين بين دار الإسلام ودار الكفر، وبين كيفية حمل الدعوة وإنكار المنكر في كل دار منهما، والدار التي نعيش فيها اليوم هي دار كفر لأنها تطبق أحكام الكفر، وهي تشبه مكة أيام بعثة الرسول، ويكون حمل الدعوة فيها بالدعوة والأعمال السياسية لا بالأعمال المادية، كما حمل الرسول الدعوة في مكة، إذ اقتصر على حمل الدعوة، ولم يستعمل الأعمال المادية، لأنه ليس المراد تغيير حاكم حكم بغير ما أنزل الله في دار إسلام، بل المراد تغيير دار كفر بأفكارها وأنظمتها، وتغييرها يكون بتغيير الأفكار والمشاعر والأنظمة فيها، كما فعل رسول الله ﷺ في مكة.

أما العمل لإعادة دولة الخلافة والحكم بما أنزل الله إلى الوجود وهو السبب الثالث لتكوين الحزب، فلأن الله سبحانه وتعالى قد أوجب على المسلمين التقيد بجميع الأحكام الشرعية، وأوجب عليهم الحكم بما أنزل الله، ولا يتأتى ذلك إلا بوجود دولة إسلامية، وخليفة يطبق على الناس الإسلام.

وكلام الحزب هذا لا غبار عليه في حد ذاته، ولكنه، لا يلم بكل أبعاد القضية، كما أن فكرة الخلافة لا بد أن يتغير مفهومها من المفهوم السلفي القديم إلى مفهوم يتجاوب مع الأوضاع الحديثة. وهو أمر نشك في استساعة حزب التحرير له.

وقد بين الحزب طريقته في تبني الأفكار وهي تقوم على "دراسة واقع الأمة وما وصلت إليه وبواقع عصر الرسول ﷺ وعصر الخلفاء الراشدين وعصر التابعين من بعده، وبالرجوع إلى سيرة الرسول ﷺ وكيفية حمله الدعوة منذ أن بدأ في إقامة الدولة في المدينة، ثم دراسة كيفية سيره في المدينة، وبالرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله وإلى ما أرشد إليه من إجماع الصحابة والقياس وبالاستئثار بأقوال الصحابة والتابعين وأقوال الأئمة المجتهدين" .. وبعد كل ذلك تبني حزب التحرير أفكاره وهي أفكار "إسلامية ليس غير، وليس فيها أي شيء غير إسلامي بل هي إسلامية فحسب لا تعتمد غير أصول الإسلام ونصوصه".

إن هذه السطور هامة لأنها تمثل "سياسة تقرير الأحكام" وأن تكون مصادر هذه الأحكام إسلامية بالمعنى المقرر (القرآن. السنة - الإجماع - القياس) وأن لا تعتمد شيئاً أحد غيرها - وسنورد شواهد على ذلك - تحصر فكر الحزب في الفكر السلفي وترى أن أي شيء غير ذلك "غير إسلامي".

مع أن الإسلام لا يمكن أن يكون "منغلقاً" فهو يعترف بكل الديانات ومن الفقهاء من يقول "شرع من قبلنا شرع لنا" وقال الرسول أن الحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنى وجدها"

ووضع مبدئاً هاماً "نحن أولى به منهم" أراد "به" موسى، أما آيات القرآن الكريم التي تحض على النظر والتدبير في أحوال السابقين والتماس العظة والعبرة منها، فلا حدّ لها. فحصر الإسلام في أحاديث بعينها، أو أقوال الأئمة والفقهاء والمجتهدين تعسف يغفل مبدئاً أساسياً في الإسلام هو أن كل ما يثبت صلاحه ونفعه - كائنًا ما كان - يمكن أن يكون إسلامياً فما يراه المسلمون حسناً، فهو عند الله حسن.

وأنه لمن المؤسف أن يرى المرء كيف أن الحماسة للإسلام تدفع فريقاً من دعائه للتضييق وإصدار أحكام جائرة. فحزب التحرير يرى أن الديمقراطية كفر (ص ٥٦ - كتاب حزب التحرير) لأن الله وحده هو المشرع" ويقرر:

الديمقراطية الرأسمالية:

هي مبدأ الدولة الغربية وأمريكا وهي مبدأ فصل الدين عن الدولة، وفصل الدين عن الحياة، "دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله" وبناءً على ذلك كان الإنسان هو الذي يضع نظامه في الحياة.

وهذا المبدأ هو مبدأ كفر يتناقض مع الإسلام لأن الله هو المشرع.

وهو وحده الذي وضع النظام للبشر، وجعل الدولة جزءاً من أحكام الإسلام، وأوجب أن تعالج جميع شؤون

الحياة بالأحكام الشرعية التي أنزلها. لذلك يحرم على المسلمين أن يعتقدوا المبدأ الرأسمالي أو أن يأخذوا أفكاره أو أنظمتهم، لأنه مبدأ كفر، وأفكاره أفكار كفر، وأنظمتهم أنظمة كفر تتناقض مع الإسلام.

رأي الإسلام في الحريات:

ومن أبرز أفكار المبدأ الرأسمالي وجوب المحافظة على الحريات للإنسان، وهذه الحريات هي حرية العقيدة، وحرية الرأي، وحرية الملكية، والحرية الشخصية. وقد نتج عن حرية التملك النظام الاقتصادي الرأسمالي المبني على النفعية، التي أدت إلى الاحتكارات الضخمة، والتي دفعت الدولة الغربية الكافرة إلى استعمار الشعوب ونهب ثرواتها.

وهذه الحريات الأربع العامة تتناقض مع أحكام الإسلام، فالمسلم ليس حرًا في عقيدته، فإنه إذا ارتد يستتاب فإن لم يرجع يقتل، قال ﷺ "من بدل دينه فاقتلوه"، والمسلم ليس حرًا في رأيه، فما يراه الإسلام يجب أن يراه، ولا يجوز أن يكون للمسلم رأي غير رأي الإسلام.

والمسلم ليس حرًا في الملك، ولا يصح له أن يملك إلا ضمن أسباب التملك الشرعية، فليس حرًا أن يملك ما شاء بل هو مقيد بأسباب التملك فلا يجوز أن يملك بسواها مطلقًا فلا يصح أن يملك بالربا، أو بالاحتكار أو ببيع الخمر أو

الخنزير، أو ما شاكل ذلك من طرق التملك الممنوعة شرعاً. فإنه لا يجوز أن يملك بأي طريق منها.

والحرية الشخصية لا وجود لها في الإسلام، فالمسلم ليس حرّاً حرية شخصية، بل هو مقيد بما يراه الشرع، فإذا لم يقم بأداء الصلاة أو الصيام مثلاً يعاقب وإذا سكر يعاقب وإذا زنا يعاقب، لذلك فالحرّيات الموجودة في النظام الرأسمالي الغربي لا وجود لها في الإسلام، وهي تتناقض مع أحكام الإسلام تتناقضاً كلياً".

وإذا كان هذا هو حظ الديمقراطية، فلا ريب أن النظام الشيوعي أسوأ فهو "مبدأ كفر وأفكاره كفر، ونظامه نظام كفر، وهو يتناقض مع الإسلام تتناقضاً كلياً وجذرياً في كلياته وجزئياته" والنظام الملكي في الحكم ليس نظاماً إسلامياً وكذلك النظام الجمهوري سواء كان رئاسياً كالولايات المتحدة. أو نظاماً برلمانياً كما هو حاصل في ألمانيا الغربية. والنظام الإسلامي الوحيد هو "الخلافة".

ولا يخالجنّا شك أن هذه ليست هي أحكام الإسلام، ولكنها أحكام الغباء وضيق الأفهم وسوء الفهم، وهي تسيء إليه أشد أعدائه.

وكقاعدة عامة. فإن الحزب أما أن يتبع - اتباعاً أعمى ودون ملاحظة للملابسات - أي نص يثبت لديه، سواء كان

حديثاً، أو حكماً فقهيًا أو أن يجتهد فيما وراء ذلك واجتهاده يميل للتعسف، والتضييق، باستثناء فلتات سنشير إلى بعضها فيما سيلي، وقد وضع عام ٦٣ شرحاً لمواد الدستور بعنوان "مقدمة الدستور - أو الأسباب الموجبة له" في ٤٥٧ صفحة (المواد ١٨٢ مادة) نجد فيه لكل مادة سنداً من حديث أو سابقة من أحكام الخلفاء الراشدين، دون أي نظر إلى متغيرات - دون أي احتفال بإظهار المبرر الموضوعي وما فيه من دواع تقنضيه إلخ.

ومن الفلتات التي تشذ عن هذا الحكم مناقشة طويلة لتحريم كنز المادة ١٣٠ ولو أديت زكاته، وكذلك تحريم مواجزة الأرض المادة ١٢٣، وفتح باب التعليم للجميع "ويفتح مجال التعليم العالي مجاناً للجميع بأقصى ما يتيسر من إمكانيات (مادة ١٦٥). وقد اعترف الدستور بالقرآن والسنة وإجماع الصحابة واستبعد القياس من أن يكون مصدرًا للأحكام ورفض إجماع المسلمين، وجلب المصالح ودرء المفسد ورفض العقل، لأن الكلام هو عن الحكم الشرعي أي ما غلب على الظن أنه حكم الله، وهو لا يكون إلا مما جاء به الوحي والعقل لم يأت به الوحي، ولذلك لا يوجد دليل لا ظني، ولا منطقي، على أن العقل من الأدلة الشرعية على الأحكام الشرعية فلا يعتبر من الأدلة الشرعية

مطلقاً. ص ٥٧ مقدمة الدستور وكذلك رفض الاستحسان
والمصالح المرسله.. وقد أثبت هذا كله بحرارة وقوة
وبطريقة توحي أن ما ذهب إليه هو الصواب الذي لا مرأه
فيه!!

ورأى كتاب "الفكر الإسلامي" وهو من تأليف أستاذ
مصري في الجامعة المصرية، ولكنه من كتب الحزب، أن
الرأي يستنبطه المجتهد حكم شرعي على أساس أن الحكم
الشرعي هو الرأي الذي يؤخذ من النص، وهو الذي يعتبر
خطاب الشارع، ومن هنا كان رأي المجتهد خطاباً شرعياً
ما دام يستند فيه إلى الكتاب والسنة، أو إلى ما دل عليه
الكتاب والسنة من الأدلة الشرعية. وندد الكتاب بالذين يدعون
أن الحكم الشرعي هو نص القرآن أو الحديث فقط. ورأى أن
ذلك سيوجد مسائل كثيرة لا يوجد لها حكم شرعي وأشفق أن
"يتحكم فيها العقل فيضع الحل الذي يراه والحكم الذي يوافق
هواه!" مسكين. ومرة أخرى يحذر "من أن يترك للعقل أن
يقرر ما هي المصلحة، بل يجب أن يقرر ذلك الشرع وحده
لأنه هو الذي يقرر المصلحة الحقيقية والمفسدة الحقيقية"
ورأى الكتاب أنه "لا يجوز في حق الرسول أن يكون مجتهداً"
ورفض كل ما أورده الفقهاء أو المفسرون من اجتهاد
للسل أن يكون مجتهداً" ورفض كل ما أورده الفقهاء أو

المفسرون من اجتهاد للرسول يخطئ فيه فيصح الوحي له ذلك.

* * * *

إن مأساة حزب التحرير أن هذا الحزب الذي خرج من أحشاء النكبة، وتعرض لمخاض عسير، وحمل صفة "التحرير"، ولم ينقص دعائه الحماسة والإخلاص، أصبح قفصاً محكماً تسجن فيه الجماهير، والأفكار، والإرادات وكل ما يمت بصلة إلى "التحرير" لأن دعائه لم يعملوا عقولهم، ولكن استخدموا نقولهم. ولم يعمدوا إلى روح الإسلام الحرة الطليقة، العادلة السمحة "العقلانية" في كل شيء، باستثناء ذات الله - وإنما لجأوا إلى فهم عقيم كان هو نفسه وراء استخذاء الجماهير.. وضلال القادة..

ومع أن الحزب كان من الذكاء بحيث يستبعد فكره العمل "الإرهابي" أو "الجهادي من وسائله، قياساً على أنه يعمل في "عهد مكي" فإن هذا لم يشفع له في البقاء. فتحلله كان محتوماً، وكان خيراً أيضاً، فإن حزباً يستبعد العقل من تفكيره الشرعي، عدمه خير من وجوده.

ولكن يظل مع هذا أن المشكلات التي أثارها لا تزال هي مشكلات الساحة والساعة وأن الحلول التي عرضها تراود البعض لأنها على خطأ في معظمها، لم تعالج المعالجة

الموضوعية من الآخرين. فقد انتقد كتيب (1) ما ذهب إليه حزب التحرير عندما أباح تقبيل المرأة الأجنبية ومصافحتها.. فبدلاً من أن يظهر الخطأ الموضوعي في ذلك، فإنه أورد للرد عليه كلمة لابن تيمية: "من استحل النظر فقد كفر بالإجماع!!" فعرض صورة أخرى من صور الشطط، ووجهاً ثانياً للعملة نفسها.. فقد يكون اجتهاد حزب التحرير خطأ. ولكن اجتهاد ابن تيمية أسوأ ويفتح باباً للشُرور أشنع مما يمكن أن يفتحه خطأ حزب التحرير.. فما أسوأ أن تفتح أبواب محكمة التكفير على مصراعيه ولكل صغيرة وكبيرة!

* * * *

(1) نعني به كتيب "الدعوة الإسلامية. فريضة شرعية وضرورة بشرية" ص ١١٠ [دار التوزيع والنشر الإسلامية] وفتوى ابن تيمية مقتبسة من "منار السبيل في شرح الدليل على مذهب أحمد ٢/ ١٤٢. أما فتوى حزب التحرير فكان نصها "ومن قبل قادماً من سفر رجلاً كان أو امرأة، أو صافح أحداً رجلاً كان أو امرأة، ولم يقم بهذا العمل من أجل الوصول إلى الزنا أو اللوط فإن هذا التقبيل وهذه المصافحة ليسا حراماً، ولذلك كانا حلالين لاشيء فيهما" وجاء في تبرير ذلك "الدخول تحت عموميات الأدلة المبيحة لأفعال الإنسان العادية"..

الفصل الرابع

دعوات الرافضة الجديدة

مقدمة

تحت هذا الاسم سندرج عددًا من الدعوات وضعت بذورها في الخمسينيات، وأثمرت في الستينيات، واستشرت في السبعينيات، وانتقلت من مصر إلى معظم الدولة الإسلامية.

وقد رأينا في عرضنا لفكر الجماعة الإسلامية أنها تقوم على "العبودية لله"، وتدعو إلى: "الحاكمية الإلهية"، وتصم المجتمعات التي لا تحكم بما أنزل الله بوصمة: "الجاهلية".. وهذه هي أصول الرافضة الجديدة..

والفرق بين الرافضة الجديدة التي ظهرت في مصر وقامت على هذه المبادئ وبين الجامعة الإسلامية أن الجماعة الإسلامية لم تعتبر أن هذه المبادئ "مقدمات" تستخلص منها "الجهاد" أو "الثورة" ولم تر أن ثورية فكرتها تتطلب ممارسة ثورية تقوم على عنف، أو جهاد، أو حتى هجرة، ولم تر أن النتيجة المنطقية لمبادئها هي تكفير "أمة الجاهلية".. إلخ مما انتهت إليه الرافضة الجديدة.

لأن الجماعة الإسلامية كجماعة نظامية معلنة كان لابد لها أن تعمل بالطرق المشروعة، كما كان العلامة المودودي مفكرًا راسخًا ناضجًا لا يتأثر - بحكم السن والثقافة - بالاندفاعات العاطفية والاتجاهات الثورية، ومن أجل هذا لم تأخذ في باكستان الطابع العنيف الذي أخذته في مصر..

وجاءت نقطة التحول لها في الخمسينيات عندما ترجمت إلى العربية "كتابات المودودي" فساندت وتجاوبت مع فكر كاتب إخواني ذائع كان له دور في فترة "الفراغ الأيديولوجي" التي أعقبت اغتيال الإمام الشهيد حسن البنا، وهو الشهيد سيد قطب رحمه الله الذي صاغ فكرته في كتاب "معالم في الطريق" ..

وصدر الكتاب في أوائل الخمسينيات، وطبع في دار شبه حكومية!، وعندما قام انقلاب ٢٣ يوليو ١٩٥٢م كان بعض ضباطه من المعجبين به والمروجين له..

فكتاب "معالم في الطريق" وأفكار العلامة المودودي التي ترجمت إلى العربية في هذه الفترة استقبلت وقتئذ استقبالا "أكاديميًا" كوجهة نظر جديدة في الفكر الإسلامي دون أن يؤدي الإمام بها إلى رد فعل فوري.

فهل كان ذلك يعود إلى ضرورة انقضاء فترة من
"التخمر الثوري" أو أنه يعود إلى أن أثر فكر ما إنما يحدث
عندما يأتي ظرف مناسب؟

سواء كان هذا أو ذلك، أو هما معاً؛ فإن أثر المودودي
الذي استخلصه كفقيه إسلامي من النصوص، ثم جاء سيد
قطب ككاتب ضليع فصاعه في أسلوب فني بليغ ينضح
بالحرارة والحماسة والقوة لم يصبح مصدر الإلهام وأساس
الفكر لمجموعات من الشباب إلا في فترة الستينيات عندما
احتدمت الخصومة بين الأخوان وعبد الناصر.

وزج عبد الناصر بالألوف من الأخوان في المعتقلات،
وفتحت تلك الصفحة المقيتة الكريهة التي لم يسبق للمجتمع
المصري بها عهد: تعذيب صلاح نصر والبسيوني،
ومحاكمات جمال سالم والدجوي.

* * * *

أ- جماعة التفكير والهجرة

قدمت كتابات المودودي وسيد قطب الأساس الفكري لتلك المجموعات التي أطلقنا عليها "الرافضة الجديد".

وحدث هذا في معتقلات عبد الناصر ورفع رايتها "شكري مصطفى" ..

وتحدث أحد رفاقه في السجن عن تطوره الفكري خلال فترة الاعتقال فقال:

... "فهذا الشاب الطالب في كلية الزراعة جامعة أسيوط قد جاء صدفة إلى السجن الحربي وهو لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره، وعذب مثل الآخرين، وكنت أراه أيام الحربي لماماً ومن بعيد فلم نتجاوز في زنزانة، ولم يشملنا تحقيق واحد، ولكنه كان يلفت انتباهي بكونه واحد من أصغر المعتقلين سناً. لم أقترب منه إلا بعد إعادة التصنيف عقب توعية، وفوجئت به في عنبر الزعماء وهو الغلام الحدث، وفوجئت أنه لا يعرف الكثير أو القليل عن الإسلام اللهم إلا الصلاة، أما الإسلام كبعد عقائدي يجاهد من أجله فلم يكن عند هذا الشاب كذلك حتى يوم التقينا في عنبر ١٢، وإن أردت أن أكون أيضاً دقة أقول إنه لم يكن يبدو كذلك. وكان يسكن في العنبر على مقربة مني، وكان هذا أدعى للأحاديث

الكثيرة بيننا، كنت في أغلبها المتحدث الذي يجب على أسئلته الكثيرة النهمة، فهو يريد أن يعرف قصة الأخوان المسلمين وكيف اعتقلوا؟ ولماذا؟ وما هو الجهاد في سبيل الله؟ وكيف قامت دولة الإسلام في سالف عهدها؟ وما معنى دين ودولة؟ مصحف وسيف؟ كان يسأل ويسأل ولا يفعل أكثر من ذلك وفيما عدا ذلك فهو مهرج مع المهرجين، ضاحك من الضاحكين في مرح بالغ، ولا يظهر اهتماماً كثيراً بشئون السياسة. وكانت ظروفه الأسرية شديدة فقد طلقت أمه، وتزوج أبوه امرأة أخرى، وتزوجت أمه رجلاً آخر، وهو لا يدري أين يذهب بعد الإفراج عنه، وكان كثيراً ما ينتدر بهذه الحالة، ويقول ضاحكاً:

هذا الاعتقال قد حل لي الكثير من المشكلات.

وكانوا قد سمحوا لنا مرة بعمل حفل ترفيه احتفالاً بذكرى انتصارنا في السويس عام ١٩٥٦، وطلبنا أن نمثل مسرحية، ووافقت الإدارة، وكتبت المسرحية وقام بإخراجها الأستاذ محمد حسن ومثل فيها شكري مصطفى دور التلميذ العبيط المدلل من أبيه المعلم الجاهل، وكان اسم المسرحية أشموني أفندي وقد أعجب بها محمد قطب كثيراً وبيّن لنا ما فيها من إسقاط سياسي، وكتبت بتشجيعه مسرحية "البعد الخامس" ولكن هذه قصة أخرى.

كان شكري مصطفى من غير المهتمين بالسياسة رغم كونه معتقلاً معنا في قضية سياسية، ولم يكن أيضاً من المهتمين بالإسلام كبعد جهادي رسالي ينبغي التوضيح في سبيله، وكان يسأل ليعرف، ثم انتابته حالة لم تلتفت نظر أحد فهي كثيراً ما تحدث، ولا نفسرها إلا بسوء الحالة النفسية، فهو يصمت ويستمر في الصمت حتى أنه لا يتبادل الحديث مع أحد بالمرّة، واقتربت منه أيامها وكنت وأنا الذي أجيّب على أسئلته الكثيرة أسأله عن سبب صمته المريب فلا يجيب، ويكتفي بالعود على بطانيته محدقاً في لا شيء، ويأكل في موعد الطعام، ويصلي مع المصلين، وإذا خرجنا إلى طابور الفسحة لا يخرج معنا ويكتفي بالجلوس محيداً في العنبر متأملاً محدقاً حتى يعود الناس، وتطور الأمر معه فصار يصلي في الليل، وكان في العنبر كثير يفعلون هذا، وانضم إليهم وصار واحداً ممن يقيمون الليل.

وكففت عن سؤاله عن سبب صمته واكتفيت بملاحظته عن كذب أحاول أن أدرك ما يفكر فيه بلا فائدة حتى جاء اليوم الذي رفض فيه التوقيع على التأييد، وانحلت عقدة لسانه وصار مرحاً ثرثاراً كما كان من قبل.

وصرت انظر إليه ولا أتحدث متأملاً متعجباً أحاول أن أفهم فينغلق على الفهم، ورآني واقترب مني وجلس بجانبني.

وكان عنبرنا يسمح بهذا لقلّة عدد من فيه - وقال لي
بشوشاً:

لعلك تعجب من عدم توقّيعي على التأييد⁽¹⁾.

في الحقيقة نعم.

تريد أن تعرف السبب.

قلت له ملحاً: لو سمحت.

وتتهد شكري مصطفىّ تنهيدةً طويلةً ملأت عينيه
بالحزن وفارقه مرحةً وبدا جاداً صارماً.

قد رأيت ما حل بنا، وما فعلته حكومتنا معنا، استباحت
أبناءها وضربتهم بالسياط، وقتلتهم واغتصبت الفتيات
والأطفال، قد رأيت بنفسك هذا هنا في هذا المكان، في
السجن الحربي كنا سوياً، وضعوني مع الزعماء ولست كذلك
قد عرفت هذا بنفسك، لقد سمعت منك قصة الإسلام
بالتفصيل، لم أسمعها من قبل - وكلما ازددت معرفة ازددت
غضباً. وأظن أنه إن لم تؤاتني هذه الفرصة للمعارضة

(1) هذه كانت خطابات أو تلغرافات تطلب إدارة المعتقل من المعتقلين
إرسالها للحكومة تأييد لها في مناسبات ما. ولم يكن ليرى بعض
المعتقلين ضيراً في هذا. بينما يرفض البعض الآخر ذلك - ومنهم
شكري مصطفى - رفضاً قطعياً.

وإعلانها لمت كمدًا. أقل ما نفعله لحكومة مثل هذه التي تحكمنا أن نظهر احتقارنا لها. هذا أقل ما ينبغي على فعله. ولو استطعت أيضًا من هذا ما ترددت⁽¹⁾.

وبعد هذا بمدة نرى شكري مصطفى، وهو لا يقف عند هذه الدرجة. لأن سياسات الحكومة وتصرفات السجانين تدفعه نحو التطرف، ونحو الإصرار.. والمضي إلى آخر المدى.

وقد يصور ذلك هذا المشهد الذي رواه مؤلف "البوابة السوداء".

".. وجاء حسن طلعت ببذلته "الموهير" اللامعة وساعته الذهبية وقميصه الحريري، وبحذاء "ساكسون" وجورب لعله اشتراه من المريخ فقد كان يجلس على كرسي أنيقًا جميلًا بهي الطلعة، كأنه مصنوع في مصنع، وبدأ حديثًا سقيمًا سخيفًا، تحدث فيه عن عظمة الإله - إلهه هو - الزعيم الذي لا يقهر، وكيف نجاه الله من المهالك، وكيف تغلب عليها وما زال يحكم ويأمر وينهي ويقتل ويحيي ويميت ويفعل بالعباد ما يشاء.

(1) أحمد رائف "البوابة السوداء" ص ٣٩٩ - ٤٠١

كنا جلوسًا أمامه على الأرض بملابس الاعتقال
المصنوعة من "الخيث" والكل مستغرق في أفكاره وقال:

تأمرت عليه بتحريض من الاستعمار عام ١٩٥٤ فلم
تفلحوا فجاء غزو سنة ١٩٥٦ لإنجاح ما فشلتم فيه ونجاه الله
وتأمرت عليه في ١٩٦٥ ولم تفلحوا فجاء غزو يونيو ١٩٦٧
لإنجاح ما فشلتم فيه، ونجاه الله. ألا يعطيكم هذا العظة
والعبرة بأنه خالد باق لا يموت؟

وتمتم الشيخ محمد عبد الفتاح عارف:

- سبحان الحي الذي لا يموت.

وقال حسن طلعت الذي سمع تمتته:

- ماذا تقول؟

وانفجر الشيخ عارف:

- ألا تستحي أيها الرجل من هذا الكلام الفارغ الذي

تقوله؟

واستعد الحرس الذين يحيطون بنا إحاطة السوار
بالمعصم بالفتك بمن يتمرّد، وصوبت الرشاشات، وكل من
الجالسين أعزل لا يحمل سلاحًا إلا "شيشب" قديم متهرئ
يضعه في رجليه، ويصعب استخدامه في الضرب. وأشار
حسن طلعت إلى الحرس في شجاعة أن كفوا، فكفوا واستأنف
الشيخ عارف كلامه:

- ظلتمت الأخوان عام ١٩٥٤ فعاقبكم الله عام ١٩٥٦، وظلمتموهم في عام ١٩٦٥ فمسح الله بكم الأرض عام ١٩٦٧، وجعلكم سخرية العالم، ولو كان عند الرئيس كرامة لاستقال ولضرب نفسه بالرصاص، ولو كان عندكم إحساس ما قلتم هذا الكلام.

وقال أبو بكر الصديق وهو شاب من المعتقلين كلامًا شبيهًا من هذا، كل هذا وجمهور المعتقلين ساكنين قد تربعوا الأرض تحت تلك الشجرة الضخمة بين مبنى المستشفى ومبنى الملاحظة كشيوخ أثينا الحكماء، يرقبون ما يدور ولا تخلو نفوسهم من راحة لما يسمعون.

ثم قام إليه شكري مصطفى ووجه الكلام إليه كلامًا سريعًا حاسمًا قاسيًا كطلقات نارية من مدفع أتوماتيكي حديث الصنع:

- أنت كافر. ورئيس جمهوريتك كافر. ولئن أحياني الله وخرجت من المعتقل لأقاتلنكم قتالاً شديداً، ولئن مت فسوف يأتي من بعدنا من يقضي عليكم ويدين دولتكم. ولئن هربتم من عقابنا في الدنيا فلن ينج أحد منكم يوم القيامة".

قُضيَ الأمر. ومن هذه اللحظة لم يعد هناك رافة أو مهادنة، واستقر رأي شكري مصطفى وأصبح الشيء الوحيد الذي يكرره:

- "والله لئن كتب الله لي الخروج من هذا الجب لأقاتلهم قتالاً ضروساً بما أستطيع حتى أغيرهم أو أموت شهيداً.." (1).

وقد كان ...

فعندما خرج شكري مصطفى. أسس الهيئة الرائدة فكرياً وعملياً من هيئات "الرافضة الجديدة".

إذا كانت هذه هي المرحلة الأولى في تطور شكري مصطفى، فلا بد أنه بعد أن خرج من الاعتقال عكف على المطالعة والتفكير بحيث أضاف إلى مبادئ المودودي وسيد قطب مبدأ "التكفير"، و "مجاهدة الجاهلية" أو الهجرة" كما تعلق بفكرة "الخلافة" وكتب كتاباً عنها، وفي النهاية أسس الجماعة التي أطلقت عليها جريدة أخبار اليوم "جماعة التكفير والهجرة" ومع أن "أخبار اليوم" قلما تصدق وإنما تبغي الإثارة دائماً، إلا أنها في هذه التسمية رزقت الصدق وكيفت الهيئة تكييفاً حقيقياً..

ولما لم يكن لهذه الهيئة، ولا أي هيئة من هيئات الرافضة قواعد جماهيرية، أو فكر أصولي حقيقي فنحن لا نتابع التطور أو نتقصى التاريخ، وإنما نلم بأبرز القسامات والتطورات في كل هيئة.

(1) أحمد رائف "البوابة السوداء" ص ٥٧٣ - ٥٧٤.

ومن أبرز ما اتسمت به "جماعة المسلمين" كما أطلق عليها شكري مصطفى من واقع أقواله (1) أمام هيئة محكمة أمن الدولة العسكرية العليا (القضية رقم ٦ لسنة ١٩٧٧) والتي نشرت في الصحف يوم ٢١ / ١٠ / ١٩٧٩ م.

إن كل المجتمعات القائمة مجتمعات جاهلية وكافرة قطعاً.

إننا نرفض ما يأخذون من أقوال الأئمة والإجماع وسائر ما تسميه الأصنام الأخرى كالقياس.

إن الالتزام بجماعة المسلمين ركن أساس كي يكون المسلم مسلماً، ونرفض ما ابتدعوه من تقاليد، وما رخصوا لأنفسهم فيه، وقد أسلموا أمرهم إلى الطاغوت وهو: الحكم بغير ما أنزل الله، واعتبروا كل من ينطق بالشهادتين مسلماً.

إن الإسلام ليس بالتلفظ بالشهادتين، ولكنه إقرار وعمل، ومن هنا كان المسلم الذي يفارق جماعة المسلمين كافراً.

الإسلام الحق هو الذي تتبناه "جماعة المسلمين" وهو ما كان عليه الرسول ﷺ وصحابته وعهد الخلافة الراشدة فقط - وبعد هذا لم يكن ثمة إسلام صحيح على وجه الأرض حتى الآن.

(1) من كتاب ذكرياتي مع جماعة المسلمين (التكفير والهجرة): عبد الرحمن أبو الخير. دار البحوث العلمية الكويت ص ٩

وبطلان بعض هذه المبادئ ظاهر لا يحتاج إلى دفاع فلا يدعى فرد لم يضم سوى عشرين أو ثلاثين شابًا أن جماعته هذه هي وحدها - دون كل الجماعات الإسلامية، والمسلمين عامة - هي التي تمثل الإسلام حقًا، وأن كل ما عداها ضالٌّ بما في ذلك جماعة "الأخوان المسلمين" التي تعلم فيها أول ما تعلم، و"الجماعة الإسلامية" في الهند التي يتفق هو نفسه معها في كثير مما ادعاه، وجماعة "الفنية العسكرية" التي سبقتهم على الطريق.

نقول لا يدعي هذا إلا إذا وصل به الغرور درجة أعمته عن كل أثارة من أثارات الاتزان أو الموضوعية.

وقد كان شكري مصطفى له شخصية قوية ونفوذ مؤثر على أتباعه.. وكان يهيمن عليه هو نفسه مزاج عصبي جعل معايير ذاتية خالصة.

من ناحية أخرى فإن فكرة رفض أقوال الأئمة (أئمة المذاهب) ورفض الإجماع والقياس هي أفكار معقولة وقابلة للدراسة، ولم ينفرد بها شكري مصطفى.

إن كل الظاهرية (داوود وابن حزم) يرفضان القياس.. ومن أئمة المسلمين من قال إن أول من قاس هو إبليس!..

ومن أئمة المسلمين من رفض الإجماع..

ولكن من يتصدى لهذا لابد أن يمضي سنوات وفي الدراسة والتمحيص خاصة إذا لم يكتف بالنقد، بل إذا أراد أن يضع بديلاً فيجب عليه أن يتتقف ثقافة عميقة فسيحة ويعيش عمراً طويلاً.

ونحن أنفسنا نضع خطوط "فقه جديد" يستبعد منه القياس والإجماع، ولكننا نفعل هذا بعد خمسة وأربعين عاماً متصلة في الدراسة والبحث، منذ أن ظهر أول كتاب لنا عام ١٩٤٥، وبعد أن جاوزنا السبعين من العمر.

وأفكار التكفير، وإقامة الخلافة.. كلها أطياف من الهوس والهديان..

وقد فهمت سلطات الأمن نفسية شكري مصطفى ونقط الضعف فيه والعوامل المؤثرة عليه، وتبينت أن المبدئية المزعومة والتي هي طابع دعوته إنما هي دلالة على السطحية ووسيلة ليحكم بها السيطرة على أتباعه.

أما في الحقيقة فإنه على نقيض شدته وتعصبه وشنآن عداوته مساومًا، لا يرفض أي صفقة إذا تصور أنها تحقق مصلحة.

وقد توصلت سلطات الأمن إلى هذا إما عن دراسة لنفسيته أو نقلاً عن بعض أعوانها الذين غرستهم في صحابته.

وجاءت أول إشارة إلى هذه الطبيعة عندما سأل شكري مصطفى أحد صحابته: هل لو وجد اليهود [الذين يسيطرون على العالم في رأيه] مصلحة لهم في إقامة الخلافة فهل يقيمونها.. فرد عليه: إنهم إذا وجدوا الرجل الذي يحقق لهم أغراضهم عن طريق الخلافة فإنهم يقيمونها..

ومن هذه الفكرة نبتت فكرة: "العمل من خلال خطة العدو" .. وتضخمت حتى وصلت إلى مستوى "الحسابات الدقيقة للمصالح المشتركة بين الجماعة المسلمة وبين الجاهلية"، وأنه إذا كانت هناك عملية يمكن أن تقوم بها الجماعة بالاشتراك مع العدو بحيث تكسب الجماعة ٥٤% فيها ويكسب العدو ٤٦% منها فيجب أن تؤدي!..

وعندما حاول أحد الأعضاء الاعتراض وإيضاح أن هذه لن تكون سوى صفقة خاسرة، فضلاً عن مخالفتها لأسس الجماعة التي ترفض التعاون مع الجاهلية، وأنهم في النهاية سيستثمرون قال أحدهم: "قبلنا أن نستثمر.. قبلنا أن نستثمر!"⁽¹⁾.

وكان الطعم الذي قدمته السلطات أنها في حاجة لمثل هذه الهيئة التي تدعو إلى الهجرة وتصرف الشباب عن

(1) المرجع السابق ص ٥٩.

المناهج الانقلابية، وأنها مستعدة لدفع تعويض عما نال أعضاءها في الماضي وطلبت إليهم رفع قضية للحصول على التعويض المناسب، وفي مقابل ذلك يقوم شكري مصطفى وصحابته بالقضاء على بقية "الفنية العسكرية" خاصة بعد أن أوقعت بينهما فتنة.

وبهذه الطريقة شنت الجماعة حملة على عناصر معينة في المعصرة والإسكندرية.. وقبض إثر هذه الغارة على سبعة عشر من أعضائها البارزين؛ ولكن هذا لم يثن الجماعة عن أن تمضي في خطتها لتقع في الطعم الأكبر..

هذا الطعم هو اختطاف الدكتور محمد حسين الذهبي وزير الأوقاف الأسبق والشيخ العالم الجليل، ومطالبة السلطات بمبلغ مائتي ألف جنيه والإفراج عن المسجونين..

وكان الشيخ الذهبي على وجه التعيين هو آخر من يجوز لهذه الجماعة المساس به لأنه كان أحد العاملين على إصلاح جهاز الدعوة والدعاة والمنتقدين للوسائل التي تقوم عليها..

ولكن كان هناك عامل غلب على أي عامل آخر لدى شكري مصطفى ذلك هو رغبته المحرقة في "البلاغ".
أي توصيل دعوته وفكرها إلى الجماهير بأي ثمن..
ويمكن لعملية الاختطاف أن تحقق له هذا..

وبالفعل فإن كل أجهزة الإعلام من صحافة وإذاعة وتليفزيون؛ لا في مصر وحدها بل في العالم كله أذاعت النبأ، وتحدثت بالفعل عن هذه الجماعة:

ولكنها تحدثت عنها كعصابة مهووسة.. مجنونة!!.. خاصة بعد أن قتلوا الشيخ وعذبوه فيما قيل.. وقد أكد هذه الفكرة (فكرة أن اختطاف الشيخ الذهبي كانت لكي يتم البلاغ!!) أحد صحابة شكري مصطفى المقربين (1) ..

فهل هناك سفاهة أكثر من هذه السفاهة؟!

إن شكري مصطفى في فعلته تلك أسوأ من مجنون الشهرة الذي أحرق المعبد لكي يشتهر، فقتل إنسان.. أسوأ من إحراق معبد.

الغريب والذي يصور مدى انفصام شخصية شكري مصطفى وغلبة الهوس على عقله أنه كلف أحد أتباعه بكتابة بحث عن الأخوان جاء فيه أن حسن البنّا ماسوني!..

وقدم شكري مصطفى هذا البحث بكلمة اتهم فيها "بالخيانة العظمى" قادة الأخوان المسلمين الذي قادوا رجالهم

(1) المرجع السابق ص ١١٤

إلى التهلكة وفرطوا في أعناقهم وأسلموهم لجلادهم والمشانق
والسجون.

فهل تذكر شكري ذلك عندما أودى بنفسه وبخاصة
رجاله إلى المشنقة يوم التاسع والعشرين من مارس عام
١٩٧٨م.

وطويت صفحة "جماعة المسلمين" التي رأت أنها دون
بقية الهيئات هي التي تمثل "الإسلام"، ويغلب أن تكون كل
هذه الهيئات أقرب منها إلى الإسلام.

* * * *

ب- القطبيون وكتاب معالم في الطريق

يمثل "القطبيون" كما أطلق عليهم تياراً فكرياً نبع في الأخوان المسلمين، وقد ينسبه البعض إليهم، كما قد يراه البعض انحرافاً عن فكر الأخوان المسلمين كما عرضه مؤسسها..

ولكن القطبيين لا يمثلون تشكيلاً أو تنظيمًا له قيادة وعضوية..

وإن كان الشهيد سيد قطب كان المرشد الروحي لمجموعة من الأخوان في الستينات..

وكانت هذه الواقعة هي أساس محاكمات عام ١٩٦٥ الجائرة، التي حكم فيها على زعماء هذا التيار وسيد قطب نفسه بالإعدام.

ولكن عدم وجود تنظيم لا ينفي وجود "كتاب" يمكن أن يقدم الإلهام الفكري والنظري لتنظيم ما هو كتاب: "معالم في الطريق".

ولما كان سيد قطب - رحمه الله - كاتباً محترفاً، فإن صياغة الكتاب جاءت بصورة يمكن أن تكون ملهمة بصرف النظر عن سلامة المضمون..

وهذا المضمون يقوم على أركان ثلاثة كانت الجماعة الإسلامية هي التي قدمتها وهي:

العبودية لله..

والحاكمية الإلهية..

والجاهلية..

فليس في هذا المضمون جديد، ولكن الجديد هو تقديمهن وصياغته والبرهنة عليه. لا بأدلة منطقية أو علمية فهذا ما يستبعد في مثل هذا الكتاب..

ولكن بأدلة "نقلية" .. أو من الإيمان الذي تملك المؤلف فصاغه وثيقة ملتبهة..

والنقد الرئيسي الذي يوجه لفكرة "الحاكمية الإلهية" - وهي واسطة العقد في فكر سيد قطب - هو أنها تجريد للعقيدة عن مضمونها العملي، وإعلاء لهذا التجريد، بحيث يأخذ معنى آخر يختلف عن المعنى الذي تقدمه العقيدة في مضمونها العملي.

"الحاكمية الإلهية" دعوى جذابة تبدو وكأنها ثورة كاسحة، وتغيير شامل..

فإذا قلنا: وماذا تعنيه الحاكمية الإلهية "عملياً"؟ أو: كيف يمكن لها أن تحقق ثورتها الكاسحة؟ لما وجدنا شيئاً في مائتي صفحة من صفحات "معالم في الطريق" إلا هذه السطور:-

"ودين الله ليس غامضاً ومنهجه للحياة ليس مائعاً فهو محدد بشرط الشهادة الثاني "محمد رسول الله" فهو محصور فيما بلغه رسول ﷺ من النصوص في الأصول، فإن كان هناك نص فالنص هو الحكم، ولا اجتهاد مع النص، فإن لم يكن هناك نص، فهنا يجيء دور الاجتهاد، ومن أصوله المقررة في منهج الله ذاته، لا وفق الأهواء والرغبات: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ (النساء ٥٩).

والأصول المقررة للاجتهاد والاستنباط مقررة كذلك - ومعروفة وليست غامضة ولا مائعة - فليس لأحد أن يقول لشرع هذا شرع الله.. إلا أن تكون حاكمية العليا لله، وأن يكون مصير السلطات هو الله سبحانه لا (الشعب) ولا (الحزب) ولا أي البشر" انتهى.

فإذا كان هذا هو دين الله ومنهجه في الحياة على ما قال فإن كل الفقهاء المسلمين السلفيين يقولونه، وليس فيما جاء به أي تجديد.

بل من الفقهاء من عرضوا القضية بأفضل من هذا..
والنتيجة العملية: أن ليس في كل الحماسة والعاطفة والثورة أية إضافة أو تجديد عن المذهب الإسلامي التقليدي..
وقد يسأل سائل: إذا كان الأمر كذلك فلماذا ننقد فكره؟..

السبب: أنه لم يشر إلى هذا التطبيق التقليدي إلا خلال عشرة سطور وسط مائتي صفحة، وأما الباقي كله فكلام يوحي بأن تطبيق الحاكمية غير ذلك البتة..

وإلا فلماذا لم يكف نفسه مؤونة الحديث الطويل، إذا كانت النهاية هي هذه النتيجة.

إن "الحاكمية الإلهية" لأنها "شعار" و "تجريد" يمكن أن توحي بما هو أكثر، بل بما هو خلاف ما انتهت إليه عندما اضطر للحديث عن الفحوى والمضمون.

وعملياً فإن كلمة "الحاكمية الإلهية" كانت وراء استغلال الدهاة.. وضلال السذج: فقد استغلها أدهى الدهاة عمرو بن العاص عندما رفع المصاحف على أسنة الرماح ليعطي باطل معاوية على حق علي. وانخدع بها الخوارج فخذلوا علياً وهو أتقى التقاه ومكنوا معاوية من الانتصار بحجة "لا حكم إلا لله".." حكمت الرجال في دين الله!!"

وعندما بعثت هذه القالة تكررت المأساة واستغلها بعض الأفراد الأذكياء للسيطرة على شرانم من السذج وتحكموا فيهم..

لأن القالة لا تتضمن حدوداً عملية تحكمها..

وإذا كان الخوارج الذين أطلق عليهم القراء - لمواظبتهم على قراءة القرآن، ومواصلة الصلاة - انساقوا

لقتل أحد الصحابة وبقر بطن زوجته.. في الوقت الذي تورعوا فيه عن أكل رطبة ساقطة من نخلة!!!.. بدعوى هذه القالة فليس من العجب أنها دفعت مهووسًا بها لأن يطلق مسدسه في عين أحد الشيوخ الأجلاء..

فإذا كانت الشعارات من نوع "الحاكمية الإلهية".. "العبودية لله" تكسب الجموع وتثير الحماسة فإنها عمليًا لا تعني إلا الضلال والانحراف عندما يأتي الأمر للتطبيق. ولو انتصرت دعوة سيد قطب رحمه الله لأوجدت أسوأ الطغاة الذين يفرضون ضيق الأفق والغباء والتعصب و "اللاعقل" على الناس جميعًا.

وإذا كانت "الحاكمية الإلهية" تعني: تحريم ما حرم الله، وتحليل ما أحلَّ الله، والحكم بما أنزل الله.. فمن الخير أن يقال هذا.

قد قالتها أم الدعوات الإسلامية في العصر الحديث "الأخوان المسلمون" في مقدمة شعاراتهم "الله غايتنا.. القرآن دستورنا.. الرسول زعيمنا".

وقد قالتها الجماعة الإسلامية بمنهجه وتحديد في لائحة نظامها الأساس التي أوردناها من قبل [انظر الصفحات من ٤٨ إلى ٥٣].

كما أنه هو الذي يقول به كل الفقهاء المسلمين بلا استثناء..

وقالة أخرى مضلة هي "العبودية لله" فما المقصود بها عملياً؟..

لأنها عقيدياً ليست محل خلاف..

فإذا أريد بها ألا يكون هناك أرباب من البشر يحلون ويحرمون.. فهذا ما تضمنته دعوة الأخوان وما أشرنا إليه.

وإذا كانت تعني ألا يكون هناك "شفاعة" أو "ولاية" مع الله.. فهذا ما قالته الوهابية وما أقامت عليه دعوتها..

وإذا كانت تعني أن تتأصل فكرة العبودية في النفوس وتتغلغل فيها وتكون دائماً نصب العيون.. فهذا شيء أقرب إلى الرجاء مما هو إلى التحقيق؛ لأن الله تعالى أوجد في نفوس البشر ما يشغلها من شهوات وغرائز، وسلط عليها الشياطين، وحرمها من نقاء وصفاء الملائكة..

وقد استشعر هذا المعنى الصحابي حنظله وظن أن النفاق قد تطرق إليه فذهب إلى الرسول ﷺ، وفي طريقه قابل أبا بكر الذي سأله عن حاله فقال: "نافق حنظله" ولم استفهم منه أبو بكر عن الحقيقة ذكر له أنهم يكونون عند رسول ﷺ وقد تملكهم التقى ثم يؤوبون إلى زوجاتهم فتتملكهم الشهوات، وعندئذ أقر أبو بكر بأن هذا ما يحدث له، فذهب إلى رسول

الله ﷻ وعرضا عليه الأمر فقال: "لو تكونون عند أهلکم كما تكونون معي لصافحتکم الملائكة! ولكن ساعة.. وساعة..".
وليس ما هو أيضاً دلالة من هذا الرد المعجز البليغ..
فالنفس الإنسانية لا يمكن أن تخلص تماماً من شواغل الدنيا..

وحسبها أن لا تبعد عما سنَّه الله تعالى لها..
أو أن توجه مشاغلها لخدمة الأهداف الإسلامية..
وهذا هو ما كان يحدث لعمر بن الخطاب عندما كان يحسب في صلاته "عطاء البحرين"، وقيادة الجيوش.. إلخ
مما كان يهيمن على نفسه من قضايا المجتمع الإسلامي.
ولم أجد في كتاب "معالم في الطريق" بأسره إشارة واحدة إلى "العقل"!!..

وهي سمة يتسم بها دعاة "الحاكمية الإلهية"..
أما العلم؛ فإن الإشارة التي تضمنها الكتاب: هل نحن أعلم أم الله تعالى!، ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.
أما الآية: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَدِينُونَ وَالَّذِينَ لَا يَدِينُونَ؟ ﴾ التي يحتج بها أنصار العلم، فإنه أعادهم إلى صدر الآية: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ

وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿ [الزمر: ٩] .

فنسفت حجتهم نسفاً..

أما الشعب، فقد صب عليه جام غضبه، ورفض أن يكون له من الأمر شيء.. لأن الأمر كله لله..

ونتيجة لهذه التصورات عرض لنا سيد قطب مجتمعين:

مجتمع إسلامي.. ومجتمع جاهلي.

ولا توسط بينهما:

وكل المجتمعات الحديثة - إسلامية وغير إسلامية -

جاهلية.

لأن المجتمعات الإسلامية لا تحقق عماديّ دعوته:

الحاكمية الإلهية.. والعبودية لله.

فهي جاهلية.. حتى وإن ادعت الإسلام..

* * * *

إن هذه الأحكام الساذجة: المسطحة.. المتعسفة.. ليس

لها نصيب من الحقيقة والواقع. لأن المجتمعات الإسلامية..

وإن تخلفت فعلاً عن اتباع كثير من التوجيهات الإسلامية

الرئيسية - فلا يمكن الادعاء أنها جاهلية.. ولا يمكن القول

إنها كافرة.. ولا يمكن أن نجردها من الإسلام.

أما المجتمعات الأوروبية التي ندمغها بوصمة الكفر والجاهلية.. فهل أحسنًا دعوتها إلى الإسلام؟! هل بلَّغناها الدعوة بمثل ما بلغ محمد ﷺ الدعوة لعرب مكة وبمثل الأسلوب الحكيم الرصين، المثابر، المتصل، الذي اتبعه؟!..

يحضرني في هذا الصدد إجابة الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله عندما سأله أحد الأخوان: "هل سيحشر كل هؤلاء الأوروبيين الكفرة في جهنم".

فرد عليه الإمام البنا قائلاً: "لا أدري هل سيحشرون في جهنم أم سنحشر نحن لأننا قصرنا في تبليغهم دعوة الإسلام"..

ونحن أول من يندد بما اتسم به الحكم الأوروبي من وحشية، ولكن عندما نتحدث عن "الوقائع" وليس عن "المذاهب" فإن المجتمعات الإسلامية لم تخل أيضاً من كثير من اللوثات التي نعيها على المجتمعات الأوروبية..

وإذا كان الحكم السياسي الأوروبي قد خضع لضراوة الاستعمار أو نهم الرأسمالية، فإن بعض المثل والقيم لهذه المجتمعات سليمة وحسنة. ومن الظلم أن نحكم عليها ببعض صور الانحراف والشذوذ التي تنقلها الصحف، والتي لا تمثل صميم هذه المجتمعات وأغلبية الناس، إلا كما تمثل السينما المصرية المجتمع المصري.

وقد خضع المجتمع البريطاني في حكم الملكة فيكتوريا لصور من التزمت الخلفي تشبه ما يفرضه الوهابيون على الناس..

إن المسلم الذي تشرب روح الإسلام، التي تقوم أول ما تقوم على العدالة، والتي تلتزم بتوجيه القرآن: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ لا بد وأن يعترف بالمآثر الباهرة للحضارة الأوروبية وعلومها وفنونها واكتشافاتها واختراعاتها والألوف من المفكرين والعلماء والفلاسفة والأدباء..

إن النظر إلى ما يسود العلاقات من ضبط ودقة وصدق وأدب واحترام وإعلاء كرامة الفرد يوحي أنهم يطبقون مبادئ الإسلام المفقودة عندنا وما أخطأته معظم النظم السياسية التي تدعي الإسلام.

فالمواطنون هناك آمنون من أقل افتيات عليهم، لا يزعجهم تدخل السلطة، ولا يعرفون "زائر الفجر" ولا يمس أي واحد بسوء إلا إذا انتهك القانون، وحتى في هذه الحالة لا تساء معاملته ولا يجرّد من لقبه، ويلقن إن كان ما سيقوله يمكن أن يؤخذ عليه.

ويمكن أن يقاضي الدولة إذا أساءت إليه..

وكل شخص يمكن أن يعارض النظام السياسي أو
يصدر صحيفة أو يكون حزباً أو هيئة أو نقابة.

ناهيك عن خدمات الرعاية الطبية والصحية التي تقدم
مجاًناً أو شبه مجاناً لمواطنيها ويحرص كثير من الشيوخ
على الاستفادة منها ويسافرون إلى أوروبا أو أمريكا للعلاج
على أيدي هؤلاء "الكفرة".

فهذه كلها صور من التقدم يتعين علينا الاعتراف
لأوروبا بها، ويكون علينا أن نشكرها لهم لأننا استفدنا منها
وانتفعنا بها..

ولا يخالجننا أقل ريب في أن دعوى: "الحاكمية
الإلهية" .. "الجاهلية" ..

"العبودية لله" بمثل ما عرضها سيد قطب إنما هي
صورة من صور الانحراف في الدعوات الإسلامية.

إن الإسلام على نقیض ما يصورونه: فسيح، ومرن،
ويقوم فيما يقوم عليه على العقل، ويستصحب فيما يستصعبه
الشعب.

وأي دعوة إسلامية تتجاهل العقل والشعب والحرية فإنها
تعمل لحساب الجهل وتقع تحت رحمة الغباء والاستغلال.

وقد حدثت المأساة لأن سيد قطب - رحمه الله - كاتب
وفنان وأديب يصدر عن عاطفة وخيال..

وقد كانت محنة الأخوان أيام الملك فاروق لا تزال ماثلة، وسياسة قادة الانقلاب العسكري مبهمة، فلعله أراد أن يوجههم أو يحذرهم..

فأطلق قلمه السيّال، وسخر خياله الجياش للحديث عن مجتمع يبرأ من الشرور ولما لم يكن رجل العمل والعلم، ولكن الأدب والفن، فقد شط به إلى عالم أقرب إلى الخيال منه إلى الواقع.

وقد كان خيراً لسيد قطب لو أنه كتب في الصور القرآنية كما في: التصوير الفني في القرآن" و "مشاهد القيامة في القرآن" أو سخر نزوعه للمثل الأعلى لمثل ما فعله في "العدالة الاجتماعية في الإسلام".

وعندئذ كان من الممكن أن يُصدر لنا كتاباً عن "الديمقراطية في الإسلام" لعله يتناقض تماماً مع ما ذهب إليه في دعوى "الحاكمية".

بل لقد كان من المحتمل لو أنه دخل مجال الدعوة الإسلامية في غير الظروف المأساوية التي تعرض لها والتي تعرض لها والتي فرضت الغشومة والجهالة العسكرية على البلاد أن يكون داعية للجهاد الإسلامي بالقلم، ورائداً لنشر الفكر الإسلامي بالكتابة.

إذ لن يدق عليه وهو الذي عاش مع القرآن لفترة طويلة
توجيه القرآن للرسول: " .. وجاهدكم به " أي بالقرآن .. أي
بالكلمة، والفكر، والبرهان ..

وما كان أسهل عليه أن يكتشف أن رسالة الإسلام قامت
على: "الكتاب والميزان" أي العلم والعدالة، وأن دور السيف
إنما جاء في ظرف خاص فحسب.

وكان من الممكن لسيد قطب - رحمه الله - وهو من
رواد النقد الأدبي أن يفعل مثل ما فعل الشاعر الناقد ت. س.
إليوت الذي تبنى دعوة مماثلة تماماً لدعوة سيد قطب:

دعوة ترى أن المجتمع الأوروبي مجتمع وثني، وأن
المجتمع المنشود هو المجتمع المسيحي وهو يعني بالمسيحية:
"تجسيد شريعة الله على الأرض".

ويقول بحث عنه: "إن قضية إليوت متبلورة في فكرة
واحدة: الديني ضد العلماني، أو المسيحية ضد العلمنة، وهو
يقسم العالم قسمين: عالم مسيحي، وعالم وثني .. والاشتراكية
والرأسمالية لديه سواء، وهو يرى أن الأدب الحديث قد
أفسدته العلمنة، ويدعو إلى وضع معايير نقدية تختلف عن
المعايير الموجودة، وتتباين إليوت بالسقوط الحتمي للحضارة
اللامسيحية، والانتصار الساحق للمسيحية .. ولا تتنازل منه

مظاهر التقدم، لأن قوى الضبط والربط تتهاوى وبالتالي
ينفسح المجال للتفسح والتحلل⁽¹⁾.

* * * *

كان من الممكن لسيد قطب - رحمه الله - أن يسلك هذا
المسلك، وأن يسلك بقلم كالموسي تلك المهازل الأدبية والفنية.
وكان يمكن أن يضع معايير للنقد الأدبي والفني مستلهمة
من الإسلام..

ولكن الأمر ليس بأمانينا..

وقد أراد الله لسيد قطب أن يظفر بتاج الشهادة..

وأن يرجح هذا خطأه فيما أراد به خدمة الإسلام.

* * * *

(1) مجلة أدب ونقد العدد ٢١ (إبريل ومايو ١٩٨٦) ص ١٢٧: بحث
بعنوان: "المطلق في فكر ت. س. إليوت) بقلم د. منى أبو سنه.

ج- جماعات الجهاد وكتاب "الفريضة الغائبة" (*)

اشتهرت جماعة الجهاد عندما نجح خالد الإسلامبولي وزملاؤه في اغتيال السادات وسط حرسه وفي إحدى مناسبات الاحتفال واستعراض القوة.

وبقدر ما رزق هذا الحدث من إذاعة ونشر لما اتسم به من جرأة وشجاعة و "دراماتيكية"، ولما انتهى إليه من مصرع "آخر فراغة مصر" وصاحب "الصددمات والتحويلات" .. إلخ .. بقدر ما ذاع وانتشر الحديث عن جماعة الجهاد.

وسالت أنهار الصحف أحاديث بعد أحاديث عن هذه الجماعة وشيخه الكفيف عمر عبد الرحمن وكتابها الغامض: "الفريضة الغائبة" الذي اعتبر وثيقة إعدام السادات ووضعه المهندس محمد عبد السلام فرج.

ولم يُعرف عن جماعة الجهاد أو عن الفريضة الغائبة شيء يذكر قبل حادث "المنصة" كما أطلق عليه.

(*) الحديث في هذا الفصل هو عن جماعة الجهاد في مصر، ولا ينطبق بالضرورة على هيئات أخرى تحمل الاسم نفسه.

لأن الجماعة نفسها أحرقت نُسخ الكتاب، ولم يبق منه إلا نُسخ معدودة، ضُمت إحداهما إلى أوراق التحقيق في قضية اغتيال السادات..

وتمكن بذلك المحامون من الإطلاع عليه.

وقدمت إلينا إحدى دور النشر صورة الكتاب المأخوذة من أوراق التحقيق.

وطلبت أن نعلق عليه، ونشرته في كتاب باسم "الفريضة الغائبة جهاد السيف أم جهاد العقل" (1)..

وتعرض تعليقنا عندما طُبع لمضايقات، أدت إلى حذف الكثير منه.. وظهرت آثار ذلك في عدم انتظام السياق، وما تخلل الصفحات من بياض..
وقلنا في مقدمة الكتاب:

- "غفر الله لصاحب "الفريضة الغائبة" لقد أحاطت به وتحكمت فيه فتنة يضل فيها العليم، ويضيق بها الحليم، وتنبهم فيها المعالم، وتنمحي المراسم.. فلا عجب إذا زلت الأقاليم وطاشت الأحلام.

(1) جهاد السيف أم جهاد العقل - جمال البنا دار ثابت القاهرة.

ومن قبل قتل لفيث من المسلمين "عثمان" وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وكفروا عليا، وهو من هو، وتقربوا إلى الله بدمه!..

وقد كان العهد قريبا بالنبى ﷺ والقرآن غضا طريا والآفة والمحبة أقرب إليهم وأمثل بهم..

ومن أجل هذا فإننا كرجال فكر نتصفح التاريخ، ونستعرض الأحداث في القديم والحديث لا نرى فيما رآه صاحب الفريضة الغائبة، وما انتهى إليه إلا فصلا من مأساة التعقيد الاجتماعى عندما تتراكم الأخطاء، وتتشابك التصرفات من حل سقيم أو إرجاء عقيم..

ولا يعد هناك إلا القطع..

ونحن نعذره، ونلتمس له المغفرة، ولا نرى فيما ذهب إليه فكره - على خطئه - شرا محضا، ولا في سبيله - على شططه - سوءا خالصا.

وإن كنا نختلف معه جملة وتفصيلا، ونؤمن أنه لو قدر له ولجماعته النصر لاستحلوا دماء كل معارض، ولأخرسوا أصوات كل مخالف، ولما رأوا فيه إلا فاجرا كفارا.

ولكننا نستلهم أدب الإسلام وتوجيهه: "صِلْ مَنْ قَطَعَكَ، وَأَحْسِنْ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ".

كما نؤمن بحرية الفكر، وحق كل كاتب في أن يكتب ما يمليه فكره كائنًا ما كان".

وليس في كتاب الفريضة الغائبة إلا القليل جدًا الذي يعد جديدًا على فكر جماعات الرفض فهو يضم - تقريبًا - مقدمة وثلاثة فصول..

ففي المقدمة يشير الكتاب إلى أهمية الجهاد وأنه: "السبيل الوحيد لعودة ورفع صرح الإسلام من جديد" وأن: "طواغيت هذه الأرض لن تزول إلا بقوة السيف" وأن الإسلام مقبل، وأنه سيفتح روما كما فتح القسطنطينية".

وتبدأ الفصول وهي باختصار :

الفصل الأول:

يعالج الفصل الأول "إقامة الدولة الإسلامية" وهذه الإقامة "فرض أنكره بعض المسلمين وتغافل عنه البعض" والكتاب يثبت وجوب إقامتها بأن الدولة الإسلامية هي أداة الحكم بما أنزل الله وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولا خلاف أن الحكم بما أنزل الله واجب..

ويرى الكاتب أن إعلان الخلافة الإسلامية يعتمد على وجود النواة وهي الدولة الإسلامية. ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية.

ويتساءل الكاتب "هل نحن نعيش في دولة إسلامية" ويرد بفتوى للإمام أبي حنيفة وبعض أصحابه حول دار الإسلام ودار والكفر، ويجزم بأن "الأحكام التي تعلق المسلمين هي أحكام الكفر، وضعها كفار وسيروا عليها المسلمين" وأن حكام المسلمين في ردة عن الإسلام "لأنهم تربوا على موائد الاستعمار سواء الصليبية أو الشيوعية أو الصهيونية، فهم لا يحملون من الإسلام إلا الأسماء، وإن صلوا وصاموا وادعوا أنهم مسلمون وقد استقرت السنة على أن عقوبة المرتد أعظم من عقوبة الكافر الأصلي. وأن علماء المسلمين قد اتفقوا على أن الطائفة إن امتنعت عن بعض واجبات الإسلام الظاهرة المتواترة فإنه يجب قتالها إذا تكلموا بالشهادتين وامتنعوا عن الصلاة والزكاة وصيام شهر رمضان أو حج البيت العتيق..".

ويجري الكاتب مقارنة بين التتار وحكام اليوم يستشهد فيها بكلام لابن تيمية في هذا الصدد. بل هو يورد "مجموعة فتاوى لابن تيمية في هذا العصر" تتضمن حكم مساعدتهم، وحكم الجنود المسلمين الذين يرفضون الخدمة في جيش التتار، وحكم أموالهم، وحكم قتلهم، وأن قتلهم ليس قتال بغي وحكم من والاهم من المسلمين، وحكم من يخرج للقتال في صفهم مكرهاً إلخ..

الفصل الثاني

آراء وأهواء

يعرض الفصل الثاني "آراء وأهواء" بعض الآراء "للإزالة هؤلاء الحكام وإقامة حكم الله" ويفندها، فهناك من يرى إقامة الجمعيات الخيرية، أو يفضل الانشغال بالطاعة والتربية وكثرة العبادة، أو إنشاء حزب إسلامي، أو الاجتهاد للحصول على المناصب بحيث تُملأ المراكز بالطبيب المسلم والمهندس المسلم إلخ.. ومنهم من يقول إن الطريق لإقامة الدولة هي الدعوة فقط، وإقامة قاعدة عريضة، وهناك من يرى الهجرة أو الانشغال بطلب العلم..

والكاتب يفند هذه المذاهب كلها بمختلف التأويلات.

الفصل الثالث:

يدلل الفصل الثالث على أن "أمة الإسلام تختلف عن الأمم الأخرى في أمر القتال" ومفتاح الفصل أن "هذه الأمة تختلف عن الأمم الأخرى في أمر القتال. ففي الأمم السابقة كان الله سبحانه وتعالى ينزل عذابه على الكفار. وأعداء دينه بالسنان الكونية، كالخسف والغرق والصيحة والريح. وهذا الوضع يختلف مع أمة محمد ﷺ. فالله سبحانه وتعالى يخاطبهم قائلاً لهم ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ

وَيَنْصُرُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ أي أنه على المسلم أولاً أن ينفذ الأمر بالقتال بيده، ثم بعد ذلك يتدخل الله سبحانه وتعالى بالسنن الكونية، وبذلك يتحقق النصر على أيدي المؤمنين من عند الله سبحانه وتعالى.

وبصدد تفصيل ذلك. يشير الكتاب إلى "الخروج على الحاكم" وهو يستشهد بما ذهب إليه ابن تيمية "كل طائفة خرجت عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة فإنه يجب قتالها باتفاق أئمة المسلمين وإن تكلمت بالشهادتين" ثم يناقش الفصل نقطة هامة هي "التفرقة بين العدو القريب والعدو البعيد" - وبعبارة أخرى أيهما أولى بأن توجه إليه الحرب أولاً الاستعمار.. أم الذين يحكمون بغير ما أنزل الله؟ وهو يرى الثاني. ويرد الفصل على من يقول "إن الجهاد في الإسلام للدفاع فقط" وإن الإسلام لم ينتشر بالسيف ويرى أنه "قول باطل" ويستدل على ذلك بخطابات النبي ﷺ إلى الملوك وكذلك بآية السيف التي نسخت ١١٤ آية من آيات المواعدة والصفح والسماح..

ويفند الفصل بعض الدعاوى التي تثبط عن القتال كدعوى أننا نعيش في مجتمع مكّي، ويرى أن "القتال الآن فرض على كل مسلم" وأن الجهاد مراتب وليس مراحل. أما

خشية الفشل فإن الله تعالى يعدنا بالنصر وادعاء عدم وجود القيادة يستدرك بأن توكل إلى الأحسن إسلاماً..

وفي صدد تعزيز موضوع الفصل يورد الكتاب فقرات عن البيعة على القتال أو الموت والتحريض على الجهاد في سبيل الله ويرد على بعض الشبهات الفقهية كوجود جنود مسلمين في جيش العدو ولو من باب الاستكراه بما ذكره ابن تيمية.

وينقل الفصل فقرات عن الأساليب القتالية مثل "مخادعة الكفار من فنون القتال في الإسلام" ويورد أمثلة تاريخية للمسلمين، وجواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم دعوة الإسلام من غير إنذار، وجواز تبييت الكفار ورميهم.. وقطع أشجارهم وقتل ذراريهم إلخ.. ويُختم الفصل بنقل مختصر لأحمد والبخاري وأبي داود عن تنظيم الجيش المسلم..

* * * *

من هذا العرض لكتاب "الفريضة الغائبة" يتضح أنه ليس فيه جديد عن مفهوم جماعات "الرافضة الجديدة".. فهو - مثلاً - يهيم بالخلافة ويرى أنها ركن من أركان الإسلام. "فمن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية". والكتاب يكفر المجتمع الحديث كبقية جماعات الرفض..

ويرفض صور العمل الإسلامي البديلة كإقامة الجمعيات الخيرية، أو التربية.. الخ.

وهذا ما انتهى إليه قبلهم حزب التحرير، وأشرنا إليه.. وربما كان الجديد في الفريضة الغائبة هو تعميق قضية "الخروج" على الحاكم، وأن "الحكام المسلمين أولى بالقتال من المستعمرين".

ولا يتسع المجال لتفنيده هذه الدعاوي، فهذا ما قمنا به في الكتاب، وحسبنا الإشارة إلى النقطة الرئيسية في جماعات الجهاد وهي "الجهاد":

فحتى لو قصرنا التعبير على أضيق معانيه وهو "القتال"..

فهل يتصور استخدام القتال للقضاء على الحكام الذين لا يحكمون بما أنزل الله!..

هل سيمكن لأي هيئة أن تؤسس جيشاً كجيش الدولة فيه دبابات ومدافع وطائرات!؟

أو هل سيأخذ القتال شكل الاغتيالات..؟

إن أي دارس لتاريخ الحركات السياسية يتبين استحالة تكوين جيش.. ويتبين كذلك عقم أسلوب الاغتيالات..

"فالقتال" لا يجدي كأسلوب في اقتلاع الحكام البغاه..

وإذا أرادوا أن يتجهوا بقتالهم نحو الكفرة، وأن يفتحوا روما..

فهل سيمكنهم تحقيق الانتصار بالسيف في عصر الصواريخ والطائرات.. إلخ..

إذا أرادوا حقاً الانتصار فعليهم أن يدرسوا "التكنولوجيا" الحديثة، وأن يعكفوا عليها..

وأن يعلموا أن النصوص وحدها والعكوف عليها دون العمل لن تفيدهم فتياً، وإنما تفيدهم علوم واكتشافات الأوروبيين والأمريكان الكفرة وأهل الجاهلية.

* * * *

مع أن هذه الكلمات المحدودة تكفي لنسف فكر جماعة الجهاد، فإن الجماعة واصلت البقاء!..

واكتسب شيخها (الشيخ عمر عبد الرحمن) الذي أفلت من قضية اغتيال السادات شهرة مدوية..

لأن العملية عملية مناخ يتغذى على الأخطاء..

ولأن فساد النظم لا يقل عن فساد الأفكار..

وما ظلت النظم الحاكمة فاسدة، تتسلح بالإرهاب والديكتاتورية فستظهر أمثال دعوات الرفض على اختلاف صورها..

رغم ما تتسم به من بطلان..

لأنها رد فعل للفساد، والفساد لا يولد إلا فساداً..

ملحق بالفصل الرابع أزمة "الرافضة الجديدة"

أوقعت الرافضة الجديدة - بتياراتها الثلاثة (القطبية - التكفير والهجرة - الجهاد) نفسها في مأزق لم تجد طريقة للخروج منه. فقد رفضت النظم والأوضاع القائمة، وكفرت بها جميعاً.. الديمقراطية. الاشتراكية. البرلمانات. النقابات. الفنون الآداب إلخ.. فسدت على نفسها المنافذ وأصبح وضعها حرجاً فكيف تتصرف - عملياً - إزاء هذا المجتمع الجاهلي - الكافر:

تتقبله؟ بالطبع لا ما دامت قد حكمت عليه بالكفر والجاهلية.

تصلح فيه؟ هذا مستبعد. لأنها ما دامت قد حكمت عليه بالكفر والجاهلية، ورفضته، فلا معنى للإصلاح فيه، فضلاً عن أن فكرة الإصلاح تجافي طبيعة الرافضة الباترة كالسيف، ويمكن أن تميعها وتدخلها في دوامة الإصلاح. والتدرج. والجزئيات..

تتآمر عليه؟ هذا ما فعلته بعضها. وهو سلوك ليس فحسب عقيماً وفاشلاً ولكنه يقضي عليها وينم عن "هوسها" لأنه إذا اعتقدت مجموعة من

عشرين أو مائة أنها تستطيع لو توفرت لديها أسلحة (مدافع وبنادق، وحتى طائرات) أن تسيطر على دولة كمصر، لها مؤسساتها، فلا ريب أن هذه المجموعة قد أصيبت بما يمكن أن نسميه "هوس الجماعات" وستقضي على نفسها بنفسها..

تهاجر منه؟ هذا ما فكرت فيه بعض فصائل الرفض الجديدة والعجيب أن شكري مصطفى ارتأى أن تكون الهجرة للسعودية أو اليمن! و لو أنه اختار باريس، أو هوليدود لوجدت مجموعته حرية لممارسة عقائدها، والدعوة لها أيضاً مما ستجد في السعودية أو اليمن. وستلقاها السعودية لتضعها في "الجب" وعلى كل حال فهذا الحل مستبعد لمجموعات فمن الصعب عليها أن تخرج من بلدها.. وأصعب منه أن تدخل بلداً آخر، ولا بد أن معظم الدول ستغلق أبوابها في وجه هؤلاء المجانين..

تجاهلهم؟ وهذا فعلاً ما حاولته بعضها، وما الجأ بعض المهندسين أو الأطباء.

وتعتزلـه؟ لأن يبيعوا "بطاطا" بدلاً من أن يعملوا في وظائفهم فيعينوا المجتمع الكافر ويتلقوا مرتبات ملوثة بالربا..

ولا يقتصر هذا الموقف على جماعة التكفير والهجرة "المتشعبة" فإن سيد قطب يدعو إلى اعتزال هذا المجتمع "فلا يجوز المشاركة في النشاطات السياسية كالانتخابات والأحزاب ولا يجوز قبول المناصب في ظل نظام لا يحكم بشرع الله ويدين بالإسلام بل لا يجوز، مداهنته أو الالتقاء معه بأي صورة من الصور (راجع تفسير سورة المائدة ويوسف والكافرون في ظلال القرآن).

* * * *

ولا يمكن للرافضة الجديدة أن تخلص من مأزق "الوجود" ضمن مجتمع كافر جاهلي بالحل الذي اقترحه سيد قطب والذي ظن أنه طريق الأنبياء.. "ذلك الطريق الطويل البطيء الذي سارت فيه دعوة الإسلام في كل مرة، والذي يبدوه فرد ثم تتبعه طليعة ثم تتحرك هذه الطليعة في مواجهة الجاهلية لتعاني ما تعاني حتى يحكم الله بينها وبين قومها بالحق ويمكن لها في الأرض ثم يدخل الناس في دين الله أفواجا" في ظلال القرآن - سورة يوسف.

ذلك لأن مسلك الرسول ﷺ في الدعوة وتوجيهاته لصحابته في الأيام الأولى للدعوة لم يتسم بالانعزال الذي يدعو إليه سيد قطب. وما يتبعه من رفض ومقاطعة، ولكنه كان الإيجابية والمشاركة فكان الرسول يعرض نفسه على القبائل، ويدعو كل من يتوسم فيه، ويذهب إلى ثقيف، ولم يعتزل الكعبة بأصنامها، ولكنه كان يدخلها ويصلي فيها. وكان أصحابه يعايشون مجتمعهم، ويبيعون ويشتررون ويعاملون المشركين بالخلق الحسن، ويحسنون إلى من يسيء إليهم. وكانت "العزلة" هي لب مؤامرة قريش على المسلمين، عندما قاطعوهم وكتبوا الصحيفة المشهورة وحصروهم في الشعب..

وعمليا فكيف سيمكن لهذه "النواة" أو "الطليعة" أن تؤثر على المجتمع.. وهي تقاطعه؟ فلو أرادت أن تصدر صحيفة لكان عليها أن تتعامل مع "النقابة" و "شركات التوزيع" ودور الطبع إلخ.. وإذا كانت لن تلي مناصب ولن تدخل انتخابات إلخ.. فكيف ستقيم جسوراً بينها وبين المجتمع - ولو لتبليغ دعوتها؟.

إذا أرادت طليعة أن تشق طريقها. فلا يكون ذلك بالاعتزال أو السلبية - ولكن بالمشاركة والإيجاب. وقد انتشر الإسلام في الصين وماليزيا وأندونيسيا والفلبين بفضل

التجار والصوفيين المسلمين الذين عايشوا هذه المجتمعات وقدموا المثل بالخلق الحسن فإما أن تعايش هذه الطليعة المجتمع.. وإما أن تقنع بوضع الرهبان "في الأديار"..
وهناك مثل عملي وواقعي وفي مجال الدعوة الإسلامية المعاصرة، على ذلك.

فإن أفكار "الرافضة الجديدة" ودعائمتها الثلاث: الحاكمة الإلهية، العبودية لله. الجاهلية هي ما انتهى إليه المودودي رحمه الله قبل أن يكون الجماعة الإسلامية سنة ٤٧ وسجلها في عدد كبير من كتبه - وبوجه خاص المصطلحات الأربعة. وترجمت هذه الكتب إلى العربية وقتئذ. وكان هناك مكتب صغير في شارع راتب باشا في مواجهة المركز الرئيسي للإخوان المسلمين بالحمية باسم "الشباب المسلم" تولى ترجمة كتب المودودي وعرف الأخوان بها. وكان هذا كله قبل الحل الأول للإخوان (آخر ١٩٤٨) وقبل أن يدخل سيد قطب مجال الدعوة الإسلامية. ولا جدال أنه تعرف عليها وتأثر بها بعد عودته من أمريكا في مستهل عام ١٩٥٠.

الشاهد في هذا أن المودودي رحمه الله، بحكم كونه مفكرًا إسلاميًا عكف على المراجع والكتب، وأعمل الذهن والنظر (مثل سيد قطب تمامًا) انتهى إلى دعائم الرافضة

الجديدة. وكان لديه من الإيمان والإخلاص ما لا يقل عن إيمان وإخلاص سيد قطب. ولذلك فإنه حاول في الأربعينيات أن ينفذ الفكرة التي انتهى إليها سيد قطب - إما لتوارد الخواطر أو لأن المراجع واحدة.. وطريقة التفكير واحدة فحاول المودودي في الأربعينيات إيجاد "طليعة" تلتزم بأداب الإسلام، وتعامل المجتمع من هذا المنطلق. وقد أوردنا كلمة للأستاذ مسعود الندوي عن المتاعب ووجوه الحرج التي تعرضت لها هذه الطليعة بما فيها اعتزال وظائفهم، أو قطع تعاملهم مع البنوك إلخ [أنظر ص ٤٥]..

ولكن:

ظهر عملياً أن هذا الأسلوب غير مجدٍ. وأن أمواج المجتمع لا تدع هذه الطليعة وشأنها فيما أن تكسحها كسحاً وتطويها طياً، أو يكون على الطليعة أن تتعامل مع هذه الأمواج وتبدع القوارب التي تعلق وتهبط معها. ووجدت "الطليعة" نفسها وهي تعيش في ثيج الأمواج، وصميم الأحداث وتشارك في حياة المجتمع ووظائفه، وانتخاباته إلخ..

وانتهت تلك الصفحة التي حاولها الفكر والنظر.. وطواها الواقع والعمل. وفي آخر تطور للجماعة - الذي عرضناه عن "مشروع المودودي للإجماع القومي" لا ترى

كلمة من "شنشنة الرافضة" التي سادت كتابات المودودي الأولى..

وقد شاهد المودودي نفسه، بل وتولى هو، بدايات هذا النظر. وقد كان من الفطنة والذكاء بحيث رأى أن الأفكار التي أداه إليها اجتهاده النظري عن "الحاكمية الإلهية. والعبودية لله. والجاهلية" لا تتطلب اتجاهاً انعزالياً. وأن الهيئة كهيئة عامة لابد وأن تمارس "الطرق الدستورية والقانونية للقيام بالإصلاح الذي تنتشه" ثم كان من الذكاء بحيث تجاوب مع التطور الذي حول "الطليعة المنعزلة" إلى الجماعة المشاركة.. ولم نفسح لسيد قطب تكوين هيئة.. حتى يجد نفسه أمام ضرورات العمل التي وجد المودودي نفسه أمامها. ومن هنا فإن أفكاره - وحدها - ودون ملاحظة الاعتبارات العملية خاصة يمكن أن تضلل كثيراً من الناس خاصة الشباب. وتكلفهم القيام بتجربة محكوم عليها بالفشل ما ظلت ملتزمة بأحكامه..

وقد نشأت أزمة الرافضة الجديدة بتياراتها الثلاث أصلاً لأنها كانت مغرقة في التجريد بحيث تجاهلت ضرورات العمل، بعيدة كل البعد عن العصر بحيث خفيت عليها طبيعته وواقعه، والتجريد يجب أن يحكمه العمل، وإلا شط وأصبح نوعاً من شطحات الصوفية أو هيام الشعراء أو هوس المهوسين وهذا بالفعل ما نجده في بعض كتابات الرافضة..

وسوء التجريد أنه يقدم شعارات مجهولة، إما لأن معناها غير معروف، أو لأنها تحتمل أيضاً من معنى، كشعار الحاكمية الإلهية. والعبودية لله.

ومن الأيام الأولى للإسلام وقد ثار الصحابي الجليل أبو ذر على معاوية عندما رآه يقول عن المال العام "مال الله" ووجهه لأن يقول "مال المسلمين" لأنه عندما يقول هذا يتعين من هم أصحاب المال وينغلق باب التحايل الذي كان يريده معاوية "المال مال الله ونحن عباد الله"، إن "نحن" هنا هي معاوية في حقيقة الحال وكأنه استحوذ على "مال الله" لأنه الحاكم ويتكرر الشيء نفسه في الحاكمية الإلهية.

وهذه الشعارات لا تأبه مطلقاً لا لضرورات العمل أو لطبيعة الواقع كأنها في عالم سحري من الحروف والكلمات.. وأسوأ من هذا أنها لا تأبه بالعقل، وكما أشرنا فالعقل الذي هو بتعبير الغزالي "ميزان الله في الأرض" يكاد يكون عندها سبباً، ولا ينكر إلا باعتباره مزاحماً للحاكمية الإلهية..

وأى دعوة تسلك هذا المسلك، أعني أنها تتحي العقل والواقع جانباً تقضي على نفسها. فإذا كانت مخالفة للعقل فسيكون مآلها مستشفى المجانين.. وإذا تجاهلت الواقع. فإنها تعيش في فراغ، أو عالم وهمي وتدخل مرحلة انعدام الوزن..

وفي النهاية لا نجد إلا حبراً على ورق. أو دخاناً في الهواء، أو شطحات وتهاويم و "توسمات" بتعبير شكري مصطفى..

* * * *

وقد حاول بعض أنصار الرفضة الجديدة أن ينالوا من الأخوان المسلمين، ورأى بعضهم أن حسن البنّا "توفيقى".. وحاول آخرون إجراء مقارنة بين البنّا وقطب.

وهؤلاء كخابط ليل يهرفون، بما لا يعرفون..

فحسن البنّا لم يكن توفيقياً، ولكنه نظر إلى جانب المرونة واليسر في الإسلام، ورأى أنهما أبرز جوانبه، ومن السمات التي تميزه عن الشرائع الأخرى، فوظفهما في تعامله مع الأحداث واتخاذ المواقف. وكان في هذا أفضل من الذين يؤثرون التشدد، وأقرب إلى مسلك الرسول الذي "ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن حراماً".

وأما المقارنة بين حسن البنّا وسيد قطب، فهي المقارنة بين مؤسس الأخوان المسلمين العالمية.. ومؤلف "معالم في الطريق" فقد أسس البنّا هيئة عظيمة عاشت رغم مقاومة أربعة حكام، وصمدت لكل ما وجهه إليها هؤلاء من اضطهاد وأثبتت إخلاصها بدم شهدائها في فلسطين، وفي المعتقلات وكل من حاول أن يهدّها "هدنة" ثم انتقلت من مصر إلى

العالم الإسلامي والأوروبي والأمريكي. فبصمات النَّبَا على الأخوان عميقة، وبصمات الأخوان على الدعوة الإسلامية المعاصرة واضحة وضوح الشمس. وهذا كله لا ينفي نقط القصور التي وقعت فيها الجماعة وأشرنا إليها.. ولكنها لا تذهب بتاريخها، ولا تهز مكانتها العامة..

ونحن لا نقلل من أهمية كتاب.. يمكن أن يؤدي إلى ثورة. ولكن معالم في الطريق يعرض حلمًا في يقظة.
قد يقول البعض و "في ظلال القرآن".

أجل، وفي ظلال القرآن أيضًا. وهو تفسير خلال من الإسرائيليات والحشو واللغويات إلخ. التي حفلت بها معظم التفاسير القديمة، ولكنه يظل تفسيرًا بالرأي، ولم يكن عبثًا أن قال الرسول "من قال بالقرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ" ذلك لأنه يحمل القرآن معنى قد يكون صائبًا من ناحية. ولكنه خاطئ من ناحية أخرى، أو ليس هو بالمعنى الوحيد، فالقرآن حمال، وهو لكل الشعوب.. ولكل العصور ولكل الأفهام.

* * * *

الفصل الخامس

قسمات مشتركة بين الدعوات الإسلامية

قسمات الائتلاف بين الدعوات الإسلامية أكبر من قسمات الاختلاف، لأن الأولى "أصولية" والثانية طارئة. والطابع الأعظم الذي طبع الدعوات الإسلامية وجعلها ما هي عليه أنها جميعاً سلفية. وهذا هو الأصل العظيم الذي يجمع بينها - على اختلاف أوقاتها وبلادها - ويجعل الفروق بينها ثانوية.

السلفية:

السلفية منهج وطريقة بقدر ما هي مزاج ونفسية، وهي تمثل تطور الفكر الإسلامي خلال مرحلتين: الأولى: مرحلة الازدهار الإسلامي الأولى خلال القرون الأربعة التي تلت الهجرة وشاهدت وضع الأساس المعرفي في الحديث والتفسير والفقہ. ورموز هذه المرحلة الأئمة الأربعة، ومن هم في طبقتهم.

والثانية: مرحلة الازدهار الإسلامي الثانية خلال القرنين السابع والثامن التي تلت عهد التخلف والتقهقر واحتدام الصراعات المذهبية وظهور الطرق الصوفية بانحرافاتهما ودعاويهما. وحاولت أن تعيد الاعتقاد إلى ما كان عليه في

المرحلة الأولى ورموزها بالدرجة الأولى ابن تيمية وابن القيم. فأتت المذاهب الأربعة "سلف" بالنسبة لابن تيمية. وابن تيمية سلف بالنسبة لمحمد بن الوهاب الذي يعد في بعض المراجع رأس السلفية الراهنة..

وكان للسلفية دور تاريخي خاصة في مرحلتها الثانية التي أصلحت فيها من فساد وتدهور الفكر الإسلامي. ولكنها بعد أن كانت قوة تأسيس أولاً وعامل إصلاح ثانياً - فإنها أصبحت بالنسبة للعصر الحديث عاملاً من عوامل الحفاظ وحناءاً دون الإبداع أو التكيف مع المتطلبات الجديدة والأوضاع التي استحدثها العصر.

وفي حقيقة الحال فإن التراث الضخم الذي خلفه العلماء المسلمون خلال هذه الفترة كان هراً لا يمكن لأي مفكر أن يتعداه، لأنه يمثل جهود آلاف العلماء النابهين المجددين الذين أرادوا القربى إلى الله بعلمهم وعملهم من كل العالم الإسلامي. من سيبيريا "جنة المحدثين" التي خرجت البخاري ومسلم والترمذي والنيسابوري والسجستاني والمروزي والطبري، والأندلس التي خرجت ابن رشد وابن حزم والقرطبي حتى العراق ومدنها الثلاث المنجبة كل مدينة كأنها دولة: البصرة والكوفة وبغداد ممن لا يمكن حصرهم، ومصر التي أوى إليها الشافعي وأنجبت الليث بن سعد. ومكة

والمدينة مهبط الوحي ومثوى الرسول ومقر الصحابة واليمن وعلمائها الأفاضل المجددين.

ونحن لا ننكر هذا بل نعتز به ونفخر به، ونشعر نحو هؤلاء الأسلاف العظام بالتقدير والتوقير والاحترام والإعزاز ولكن وجهة النظر التي سيدور عليها نقد السلفية في هذا الفصل هي أن فكر هؤلاء الأسلاف أصبح تراثاً ضخماً أطلق عليه السلفية فرض نفسه على المفكرين، واعتبر أنه هو التفسير الرسمي الوحيد - إذا جاز التعبير - للإسلام وأن أي مخالفة له تعد مخالفة للإسلام أو خروجاً على الجماعة مع أن هؤلاء الأسلاف لم يدعوا لأنفسهم هذا، بل دعوا الأجيال التالية لكي لا يقلدوهم. ولكن السلفية غير الأسلاف، وقد قوّلت السلفية الأسلاف ما لم يقولوا، بل ذهبت نقبض ما أرادوا. فالشافعي يقول: "اضربوا بقولي عرض الحائط وخذوا بالحديث الصحيح" ولكن الكرخي يقول: "كل آية تخالف قول أصحابنا فإنها تُحمل على النسخ أو على الترجيح والأولى أن تُحمل على التأويل من جهة التوفيق" والعمل هو بما قاله الكرخي وليس ما قاله الشافعي. ولو شاهد السلف ما أحيطت به قبورهم من زخرف وزينة وما يعلوه من قباب لتبرأوا منها ولكنهم لا يملكون هذا وتبقى قبورهم شاهدة على مخالفة السلفية للسلف، وقد مثل هذا عن المتون التي وضعها

بعض الأسلاف فجاء الأتباع واتباع الأتباع وأضافوا إليها تلالاً من الحواشي والشروح عليها بحجة إيضاحها. والله يعلم أنها تشوُّش الفهم وتدخل على المتون ما لم يدر بخلد أصحابها. وقد تضطر السلفية لاجتهاد يخالف صريح الحديث النبوي. فالرسول يعطي لكل من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله صفة المسلم الذي يعصم ماله ودمه ولو قالها متعوذاً، في حين أن السفليين جميعاً يحكمون بالكفر على من "يجحد معلوماً من الدين بالضرورة"، ولابن تيمية في هذا باعٌ طويل ربما حكمت عليه به ظروف الفترة التي عاشها، ومن ثم صدرت مثل هذه الفتاوي "من استحل النظر فقد كفر بالإجماع"⁽¹⁾ "من دعا ميتاً، ولو كان من الخلفاء الراشدين فهو كافر، ومن شك في كفره فهو كافر"⁽²⁾ "ومن اعتقد فيمن لا يفعل الفرائض ولا النوافل أنه من أولياء الله المتقين، إما لعدم عقله أو جهله أو غير ذلك فمن اعتقد في مثل هؤلاء أنه من أولياء الله المتقين وحزبه المفلحين وعباده الصالحين فهو كافر مرتد عن دين رب العالمين. وإذا قال أنا أشهد أن لا إله

(1) منار السبيل في شرح الدليل على مذاهب أحمد ٢ / ١٤٢

(2) استشهد بها الشوكاني في الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد

ونسبها إلى الإقناع ص ٤٦

إلا الله محمد رسول الله كان من الكاذبين" (1) وهناك المئات من أمثال هذه الفتاوى لابن تيمية وغيره تجعل المسلم كافرًا "حلال الدم" تُطَلَّق امرأته ويحل ماله ولا يدفن في مقابر المسلمين.. إلخ.

وقد يقول قائل حسنًا، فلندع السلفية ولنأخذ بالأسلاف وهذا لا يستقيم أيضًا لأننا نرفض المبدأ، وإن لم نعترض على الأسلاف فالأسلاف يصبحون سلفية في مرحلة تالية، وهم متقدمون على من يأتي بعدهم متأخرون عن قبلهم، فلا بد أنهم - ما داموا سلفًا - متأخرون عن قبلهم - فلماذا نأخذ بالتخلف ولا نأخذ بالتقدم بالأصل الذي ليس قبله متقدم أن السلفية يمكن أن تكون نقيصة وليس مفخرة، لأنها شراء الذي هو أدنى بالذي هو خير، ولأن الأصل الذي بنى عليه القرآن الكريم هذه القاعدة هو أن الأسلاف ليسوا معصومين والمعصوم هو القرآن والرسول فيما هو مبلغ عن ربه، ومن هنا لا يخلو الاتباع للأسلاف من خطأ وقصور والاتباع الوحيد الذي يسلم من ذلك هو اتباع القرآن الكريم.

وقد أصبحت السلفية اليوم كالجبل الشامخ، تقف العيون في السفح محمقة فيه، لا مطمع لها أيضًا من أن تتسلقه

(1) ابن تيمية الفتاوى الكبرى - المجلد ٢ ص ٢٢١

وتبلغ قمته. وكان أصحابه يعايشونه أما الذين جاءوا من بعدهم فما كان يمكن لأحد أن يتجاهله أو يجاوزه، فكيف يمكن أن نفهم القرآن دون تفسير المفسرين من ابن عباس حتى الطبري والقرطبي وابن كثير، وكيف يمكن النظر في الحديث دون معاير يحيى بن معين وأحمد بن حنبل حتى ابن الصلاح. وكى نبدع فقهاً بعد أبي حنيفة ومالك والشافعي فضلاً عن حقيقة فرضت نفسها على الفكر الإسلامي تلك هي إغلاق باب الاجتهاد الذي أدى إليه تطور الأحداث وغازة هذا الفكر إلى درجة هددت وحدته واتساقه وسمحت بظهور التناقضات والاختلافات مما لا يمكن لأي قانون (والفقه هو أوسع صور القانون) أن يحتمله وقد بدا لكل العلماء بعد أن بلغ الفكر هذه الدرجة من الخصوبة والإنتاج أن ليس في الإمكان إبداع مما كان فأغلقوا باب الاجتهاد.

وقد قيل لنا مراراً وتكراراً أن هؤلاء السلف - السلف الصالح - من الأئمة الأعلام قد وصلوا من التجرد والورع ومن العلم والتمكن ما لا يمكن لأحد من المعاصرين أن يبلغه، وهناك دائماً سؤال يشهر كالسيف على المعارضين هل أنت أفقه من أبي حنيفة؟ هل أنت أعلم بالحديث من أحمد بن حنبل؟ ونحن لا يخالجننا شك في تجرد وورع وتمكن هؤلاء الأسلاف، ولكن هذا لا يعني أبداً أنهم معصومون، أو أنهم وصلوا إلى ما لا يمكن لأحد أن يصل إليه أو أنهم استوعبوا

المعرفة فلم يتركوا شيئاً لمن يأتي بعدهم. إن المعرفة كالبحر ولا يمكن لأي بحار ولا لمجموعة من البحارين الادعاء باستيعاب البحر وضمه بين جنبيهم. وقد وضع العصر الحديث في أيدي الأخلاف ما لم يضعه في أيدي الأسلاف من مطبعة وفهرسة وتصنيف يمكن بها لهم أن يصلوا إلى ما لم يصل إليه أسلافهم.

* * * *

وكان من الصعوبات التي حالت دون مجاوزة السلفية أنه لا يمكن تجاوزها إلا بعد إحكامها ويغلب على من أحكمها أن لا يفلت من إسارها. أو لا يجد الوقت للبدء من جديد، وكان هذا مازق الشيخ محمد عبده. وعندما كان ينقد مناهج الأزهر ذكره أحد سامعيه بأنه أزهرى فلمس هذا جرحاً غائراً، واعترف بأنه أمضى عشرين عاماً لينظف فكره من "وساخات الأزهر".

لم يكن بوسع أحد أن يتجاهل السلفية وتراثها الضخم، وفي الوقت نفسه لم يكن الرد على السلفية ممكناً بالسلفية نفسها، كانت السلفية أشبه بقصر ضخم له قيمة أثرية كبرى ولكن لا يمكن استخدامه للسكنى، فلا يمكن هدمه لقيمته الأثرية، ولا يمكن استخدامه عملياً، وفي الوقت نفسه فإنه يشغل المكان الوحيد لدينا.

وفي بعض الحالات يكون لدينا الشجاعة لأن نقول
"الحي أبقى من الميت" ولكننا في هذه الحالة نقول الموتى
أبقى.. ونفرضهم على الأحياء..

ولم يتبين السلفيون أنهم في تمسكهم بالسلفية حفاظاً على
الإسلام كما ظنوا ورداً للغارات عليه أنهم يخالفون في
الحقيقية توجيهات الإسلام وأنه مما لا يسقيهم أن نحمي
الإسلام وأنه مما لا يستقيم أن نحمي الإسلام بما نهى عنه
الإسلام، لم يتبينوا هذا لتأصل فكرة قداسة الأسلاف والإيمان
بأن علمهم وصلاحتهم يفوق علمنا وصلاحتنا، ولأن القضية
أخذت طابع المصلحة المكتسبة والوضع القائم بالفعل فأين
تذهب تلك المؤسسات الإسلامية الكبرى من جامعات ومعاهد
وحوزات تدرس الفقه والتفسير والحديث على الأصول
السلفية هل تغلق أبوابها ويشرد علماءها وتطوي مراجعها..
وأهم من هذا كله.. حتى لو استطعنا هذا فبماذا نأخذ..
وما هو البديل للسلفية.

هذا شيء لم توضع خطوطه.. أو ترسي أسسه.

وهكذا لم يعد هناك معدى من السلفية ومن التأثير
بخصائصها.. ووقعت الدعوات الإسلامية كلها في إسار
السلفية والخلاف هو في الدرجة وليس في النوع فالأخوان
في حقبة البنّا كانت أيضاً صور السلفية مرونة واتساعاً، بينما
كانت الوهابية ولا تزال أشدها ضيقاً وتزمتاً.

والحقيقة أن السلفية وصلت من القوة والتغلغل بحيث:
(أ) من غير المنتظر أن يظهر من رجالها من يستطيع التحرر من إسارها أو مجاوزة إطارها، ولو جاز هذا لأحد لجاز للشيخ محمد عبده، ولا يمكن لأكثر خريجي الأزهر استنارة مجاوزة درجة معينة داخل الإطار السلفي.

(ب) أن نفوذها والإيمان بها لم يعد مقصوراً على أعضاء الدعوات الإسلامية فهم جمهورها أو قياداتها فهم سدنتها، ولكنه وصل إلى معظم فئات المجتمع (بما في ذلك الفنانين والفنانات) بحيث لم يعد خيار لها سوى السليم بها. أو أبعاد الإسلام من الحياة العامة. وقصره على الحياة الخاصة أي العلاقة بين الإنسان والله. وإذا كان هناك عذر للذين يقعون في هذا الخطأ الفاحش فهو أنهم لم يروا بديلاً عن السلفية، ولعلمهم لو رأوا هذا البديل لصحوا خطأهم، وهذه الظاهرة توضح لنا ضرورة وأهمية معالجة تلك القضية. وخطأ تجاهلها.

* * * *

وكما قلنا في مستهل الفصل، فإن السلفية منهج وطريقة قدر ما هي مزاج ونفسية، وقد نقلت هذا كله إلى الدعوات

الإسلامي المنهج والطريقة والمزاج والنفسية بالتفصيل
التالي:

قدمت السلفية للدعوات الإسلامية المضمون الإسلامي
أو التصور الإسلامي المقرر والذي اعتبر أنه هو الذي يبرأ
من النحل والأهواء والتخبط، وأنه ما عليه "الجماعة" سواء
كان هذا المضمون في الفقه والأصول التي يقوم عليها من
قرآن وسنة وإجماع وقياس أو تفسير يقول على أسباب
النزول والناسخ والمنسوخ وعلوم اللغة أو حديث يعتمد على
معايير للرجال وجرح وتعديل ودرجات الأحاديث التي تعد
أصلاً في الفقه.. إلخ.

ولم تلحظ السلفية أن مضمونها هذا تأثر بالزمان
والمكان تأثراً يمس موضوعية وصلاحيية المضمون فهي
مثلاً في المجال السياسي تؤثر الطاعة على الفتنة، بينما هي
في المجال الاقتصادي تفضل الحرية على التدخل أما في
قضية المرأة فقد سلطت مبدأ سدّ الذريعة ليشل الحريات
والحقوق التي أعطاه الإسلام للمرأة سدّاً للذريعة ولعل
السلفية لم تستهدف صراحة وقصدًا ممالة السلاطين والتجار
والرجال. وإنها عندما وقفت في صف هؤلاء، وليست في
صف المحكومين والمستهلكين والنساء إنما كانت تعبر عن
روح عصرها. ولا يخالجنّا شك أن قاسم أمين رحمه الله كان

أقرب إلى روح الإسلام.. ولكن ما نادى به كان بعيدًا كل البعد عن السلفية. وكان هذا مبرر الثورة عليه.

وقد أصبح المضمون السلفي هو المضمون المقرر ولم يعد جائزًا لأحد أن يقول أن الطريق التي انتهجتها السلفية، والنتائج التي انتهت إليها بحكم أعمالها لهذه الطريقة ليست بالضرورة أفضل الطرق أو أفضل النتائج، وأن قصارى ما يمكن أن يحمدها أنها كانت أفضل طريقة وأفضل نتيجة في مكانها وزمانها وبحكم ملابساتها، وأنه عندما ينتهي هذا الوقت وهذا المكان وهذه الملابسات فليس هناك ما يبرر الأخذ بها أو الادعاء بأفضليتها، هذا غير جائز ولا يسمح به.

الأخذ بالسلفية يعني الاعتماد على النقل في التعرف على الحقائق والأحكام. فإذا عرفنا بالضبط ما وضعه السلف الصالح فليس علينا إلا الأخذ به وفي هذه العملية لا يكون هناك حاجة لأعمال الذهن أو استخدام العقل وشيئًا فشيئًا يصدأ هذا العقل، ويصبح النقل هو الوسيلة المستخدمة ومن سوء الحظ أن قدرًا كبيرًا من الخزعات والخرافات والإسرائيليات اقتحمت الفكر الإسلامي في وقت مبكر للغاية وتقبلها الأئمة وأثبتوها في كتب التفسير والحديث والفقهاء، وأصبحت جزءًا من التراث السلفي ولم يعد من الممكن التمييز ما بينها وما بين الحقيقة لأنها دخلت في المضمون

السلفي فتعين الأخذ بها. ولأنه من غير المسموح إعمال العقل - إذا كان قد بقي منه بقية - في التمييز والغربة واستبعاد هذه الخرافات.

ولنضرب المثل بواقعة معينة تمثل تمام التمثيل عمق فكرة النقل عند السلفيين ففي اليوم الثاني من رمضان عام ١٩٨٥ نشرت الأهرام (ص ١٢) لمفتي جمهورية مصر الشيخ عبد اللطيف حمزة وهو بقية السلفيين المعروفين كلمه تحت عنوان مفسدات الصوم نصها.

ما هي مفسدات الصوم؟

يفسد الصوم بالجماع في أحد السبيلين على الفاعل والمفعول به والأكل والشرب سواء فيه ما يتغذى به أو يتداوى به. وابتلاع مطر داخل فمه وأكل اللحم النيئ إلا إذا دوّد وأكل الشحم وقديد اللحم بالاتفاق وأكل الحنطة وقضمها، إلا أن يمضغ قمحة فتلاشت، وابتلاع سمسة أو نحوها من خارج فمه في المختار وأكل الطين الأرمني مطلقاً والطين غير الأرمني كالطفل إن اعتاد أكله، وقيل الملح في المختار وابتلاع بزاق زوجته أو صديقه لا غيرهما. إذا فعل الصائم شيئاً من ذلك طائعا متعمداً غير مضطر لزمه القضاء والكفارة. وكذا أكل الصائم عمداً بعد غيبة أو حجامه أو مس قبله بشهوة أو بعد مضاجعة من غير إنزال أو دهن شاربه ثم

أكل متعمداً أو طاوحت مكرهاً على وطئها لأن سبب الكفارة جناية إفساد الصوم لا نفس الوقاع، وقد تحققت من جانبها بالتمكن من الفعل كما لو علمت بطلوع الفجر فمكنت زوجها وهو غير عالم به. ومن مفسدات الصوم أيضاً إذا أكل الصائم أرزاً نيئاً أو عجيناً أو دقيقاً بدون سكر أو ملحاً كثير دفعه أو طيناً غير أرمني لم يعتد أكله أو نواة أو قطناً أو سفراًجلاً لم يُطبخ أو ابتلع حصاة أو حديدًا أو تراباً".

وأثارت هذه الكلمة ثائرة الكتاب، فانتهدها بقسوة ومرارة الأستاذ جمال بدوي في "الوفد" وعقب عليها الأستاذ أحمد بها الدين (٢ / ٦ / ٨٥) بما هو أشد وأنكى وندد بما تكاد تصرح به من فحش وشدوذ مما لم نشأ أن نورده رحمة بالشيخ.

ولكن للشيخ منأى عن هذا ولكنها العقلية النقلية التي جعلته ينقل من الحواشي والشروح وإنما فعل هذا لأنه - رحمه الله - كان رمز السلفية والبقية وقتنذ من شيوخها في مصر.

وتسحب جريرة هذا المنهج النقلى على كافة مجالات الحياة وعندما يتعطل العقل فلا بد أن تسود الخرافة، ولا بد للإنسان الذي لا يملك هذا العقل أو أن هذا العقل أصابه الصداً والتأكل أن ينزل إلى مستوى الأنعام، لأن ما يميزه عنها هو العقل. ويصبح لدينا ملايين المواطنين الذين لا

يعرفون الخطأ من الصواب ولا يميزون ما بين الحق والباطل. ولا يفرقون بين الخير والشر.. وكلما تحل بهم مشكلة يهرعون إلى كتبهم دون أن يطرأ لهم التفكير في المشكلة وإعمال عقولهم لحلها. فإذا لم يجدوا فيها حلال احتاروا وتاهوا و"تورعوا" عن تقديم الحل أو قدموه وهم يتعوزون من الشيطان الرجيم.

من أعمق آثار السلفية على الدعوات الإسلامية أنها نقلتها من "الموضوعية" التي هي طابع الإسلام إلى "الذاتية" التي هي في أصل الوثنية. ولم ينسب القرآن الكريم المسلمين إلى نبيهم فيقول "المحمديين" رغم أن هذه النسبة تزيدنا تشريفاً، لأن الرسول بالنسبة لله تعالى - ليس إلا مبلغاً يبلغ ما يوحي إليه - ولا يأتي بشيء من نفسه وليس له من الأمر شيء فالمنهج القرآني يركز على الموضوع - والموضوع هو الإسلام وليس على الشخص حتى لو كان النبي.. وواضح بالطبع أن السلفية نقيض ذلك لأن النسبة فيها إلى السلف. وعندما يطبق هذا لا تصبح الحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنى وجدها، ولكن الانتماء إلى الأسلاف وأقل ما يقال في هذا أنه حبر على الحقيقة أما الخطر الأكبر فهو إحلال الذاتية محل الموضوعية كمنهج لأن هذا يخالف مخالف جذرية لمنهج الإسلام إذ هو يسمح بعودة الوثنية والشرك بالله

والتمحور حول أشخاص. ولم يكن عبثاً، في هذا المجال بالذات، حملة القرآن الشعواء على الذين قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا.

ونعتقد أن هذا الأثر لم يعط ما يستحقه من الأهمية - وأنه من أكبر أسباب انحراف بعض الدعوات الإسلامية والمجتمعات الإسلامية بصفة عامة.

من أبرز قسّمات "السلفية" التركيز على العبادة وهذا يعود إلى سبب تاريخي، وليس إلى سبب موضوعي. وقد لا يتسع المجال لشرحه هنا - خاصة وأنا عالجناه بالتفصيل في كتاب نرجو أن يصدر قريباً - وما يمكن أن يقال هنا هو أن العبادة هي الوسيلة التي تنفرد بها الأديان لتَهذيب النفس وللقربى إلى الله، ومن هنا فإن لها أهمية وخصوصية لا تنكر ويمكن القول أن ديناً لا عبادة فيه لا يمكن أن يكون ديناً وإنما يكون مذهباً فلسفياً ومن هنا وجدت في الأديان كلها صنوف مختلفة للعبادة.

وجاء الإسلام أيضاً بعباداته. ولكن عبقرية الإسلام أنه لم يقتصر - كبعض الأديان - على هذا الجانب الخاص جداً والهام جداً إلا وهو إصلاح نفس القرد وروحه بالصلاة والصيام والقربى إلى الله، ولكنه جاء أيضاً بعدد من الخطوط والضوابط في الاقتصاد والسياسة والاجتماع. وأنه جعل

العمل مصداقاً للإيمان ومعياراً للحساب من ثواب أو عقاب في الآخرة. بل كاد أن يحقق تجديدًا ثوريًا في عالم الأديان عندما جعل المسلم يدرك بحسن خلقه وطيب معاملته درجة الصائم القائم بل وفضل العمل الصالح على العبادة. ولكن التطور السياسي للإسلام جعل الملك العضوض بعد أربعين سنة من الهجرة يقاوم هذا الجانب من جوانب الإسلام: العدالة في الاقتصاد. والحرية في الفكر والشورى في الحكم وتعرض الأئمة الأربعة لاضطهاد الخلفاء وفي النهاية لم يجد الفقهاء مجالاً حراً لعملهم إلا الجانب العبادي الذي لم يجرؤ الخلفاء على المساس به ولأن المساس به لا يحقق لهم مصلحة.. فتوسع الفقهاء في العبادات توسعاً جعل "الصلاة" مثلاً تستغرق عددًا من المجلدات في موسوعات الحديث والفقهاء.

ونقلت السلفية هذا التركيز إلى الدعوات الإسلامية بحيث أصبحت أولاً وقبل كل شيء هيئات عبادية العبادة فيها هي مفتاحها، وهي ما يميزها عن غيرها، ولا يقتصر على العبادة نفسها. ولكن ما اصطحب بها في الأذهان. من زي أو هيئة - وحركات وسكنات والتزام بالنوافل بعد الفرائض والأدعية والأذكار والأوراد، وقد كانت الوصية الأولى من

الوصايا العشر للإخوان المسلمين "قم إلى الصلاة متى سمعت النداء" ..

وكان هذا الأثر من القوة بحيث إن الدعوات الإسلامية التي استكشفت حقيقة الإسلام وأنه دين ودنيا مصحف وسيف.. إلخ لم تفهم من هذا إلا فرض الجانب العبادي على الجانب الحياتي.

ونشأ في كثير من الدعوات الإسلامية ازدواجية بين الدين والدنيا، العبادة والسياسة، الجانب التربوي الروحي والجانب العملي الحياتي.. ويمكن القول إنها ركزت على الأول، وأن هذا حال دون إحكامها للثاني. وحدث هذا في بعض الهيئات بحيث جاز التساؤل: ألم يكن من الأفضل لو وجدت هيئات إسلامية متخصصة فبعضها يعني بالجانب الروحي النفسي الفردي والعبادي وينفض يديه تمامًا بين النشاط العام والخارجي؟ ويوجد بجانبها هيئات أخرى في مجالات النشاط العام، تعني بجانب معين من هذا النشاط (اقتصاد - عمل - سياسة - صناعة - تجارة.. إلخ) تاركة الجانب العبادي لمن هم أقدر عليه منها فلا تحاسب عليه، كما لا تحاسب جمعية للمعلمين على أنها لا تحكم الهندسة أو اتحاد للأطباء أنه لا يفهم في المحاسبة.. إلخ.

إن العامل الذي لا يجعلنا نأخذ بهذا الحل باعتباره حلاً محيداً هو أنه يحول دون وجود الهيئة ذات الدعوة الإسلامية العامة التي تدعو لإصلاح المجتمع. ولكن مثل هذه الهيئة لن توجد ما ظل الطابع العبادي مسيطراً على الهيئة العامة. والحل الأمثل أن توجد مثل هذه الهيئة على أن تضع نصب أعينها الحديث النبوي "الدواوين عند الله ثلاثة: ديوان لا يعبأ الله به شيئاً وديوان لا يغفره الله. فأما الديوان الذي لا يغفره الله فالشرك بالله، وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئاً فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه من صوم يوم تركه أو صلاة تركها - فإن الله عز وجل يغفر ذلك ويتجاوز عنه إن شاء. وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئاً فظلم العباد بعضهم بعضاً: القصاص لا محالة" (1) فإذا طبقنا هذا لوجدنا أن محل عناية الهيئات الإسلامية الأول يجب أن يتركز في الحيلولة دون ظلم العباد بعضهم بعضاً.. أي القضية العامة والاجتماعية لأن هذا الظلم يعم الحاكم والمحكومين الأغنياء والفقراء الأقوياء والضعفاء وأُس البلاء في القضية الاجتماعية هو الظلم. ومحور الإصلاح هو العدل.

(1) الحديث رواه أحمد في مسنده وأخرجه الحاكم وصححه وفيه مقال ولكن له شواهد تعضده والمقصود بالدواوين صحائف الأعمال أنظر (الفتح الرباني في مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ص ٢٨٨ ج ١٩)

الدعوات الإسلامية - على اختلافها من إنشاء السنة ذلك لأنها تأثرت بالفقه الذي يقوم بالدرجة الأولى على السنة والفقه محبوب تبويباً دقيقاً، ويكاد يكون واحداً في المذاهب المختلفة وهو يتناول الأقوال والأفعال والحركات والسكنات. فضلاً عن الأحكام. فوجدت فيه الدعوات الإسلامية بغيتها. وكان هذا هو أحد أسرار "سلفية" الدعوات الإسلامية.

والسنة هي الأصل الثاني للإسلام بعد القرآن وهذا أمر لا خلاف فيه. ولكن الخلاف إنما يكون في قضايا عديدة أوردتها كتب الحديث والفقه. منها ما يتعلق بالسنة. وقد وضعت مجلدات عديدة عن علم الرواية وأحوال الرجال ودرجاتهم والجرح والتعديل. ومع هذا - أو بمعنى آخر لهذا، حدث نوع من الاجتهاد في إصدار الأحكام فقد يحكم بعض علماء الحديث على راو بأنه ثقة، في حين يراه الآخرون واهياً أو ضعيفاً، لأن العملية أصبحت لها ضوابط عديدة ومختلفة، وبالتالي فإن الأحكام تختلف. وقد يمكن الارتقاء بهذا إلى مثل عمر بن الخطاب وعائشة (وليس إلى المستشرقين أو الذين يريدون هدم السنة) في نقدهما لأبي هريره وإكثاره وسرده.

ومن قضايا السنة ما يتعلق بالمتن ويدخل فيه النسخ والرواية بالمعنى - كما يدخل فيه تحقيق ملابسة صدور

النص لأن هذه الملابس قد يكون لها أثر في الحكم وهو أمر عني بتحقيقه علماء أصول الفقه. فعندما يقول الرسول - على سبيل المثال - "في الغنم السائمة زكاة" فإن هذا القول إذا كان قد صدر من الرسول إجابة لسائل سأل الرسول: "هل في الغنم السائمة زكاة" فإنه يكون قد خصص الوصف بالذكر لأنه المسئول عنه ليكون الجواب مطابقاً للسؤال. وقد يدل هذا على نفي الحكم عن الذات عند انتقاء الصفة "السائمة" وقد يدفع لعدم إعمال - مفهوم المخالفة إلخ.. وقد يروي الراوي عَجْزًا من حديث فاته صَدْرُهُ، ويؤدي هذا إلى خلل في المعنى.

ومن قضايا السُّنة أن الفقهاء يميزون ما يعد ملزمًا من أقوال أو تصرفات الرسول وما لا يعد، فالقرافي وهو من أئمة المالكية يميز بين تصرفات الرسول ﷺ بالفتيا والتبليغ وبين تصرفه بالقضاء وبين تصرفه بالإمامة، وإن أثار هذه التصرفات ومدى إلزامها مختلف. فتصرفه بالفتيا هو إخباره عن الله تعالى بما يجده في الأدلة من حكم الله تبارك وتعالى. وتصرفه عليه السلام بالتبليغ هو مقتضى الرسالة. والرسالة هي أمر الله له بذلك التبليغ. فهو عليه الصلاة والسلام في مقام الرسالة ينقل عن الحق للخلق ما وصل إليه من الله تعالى. فهو في هذا المقام مُبَلِّغٌ وناقل عن الله تعالى. أما

تصرفه ﷺ بالحكم أي بالقضاء - فهو مغاير للرسالة والفتيا لأن الفتيا والرسالة تبليغ محض واتباع صرف والحكم إنشاء وإلزام من قبله ﷺ بحسب ما يسنح من الأسباب والحجاج، ولهذا قال ﷺ "إنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض. فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذه إنما أقطع له قطعة من النار" دل ذلك على أن القضاء يتبع الحجاج وقوة اللحن بها" وأما تصرفه عليه الصلاة والسلام بالإمامة. فهو وصف زائد على النبوة والرسالة والفتيا والقضاء - لأن الإمام هو الذي فوضت إليه السياسة العامة في الخلائق وضبط معاهد المصالح ودرء المفاسد⁽¹⁾.

ويذهب ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث "والسنن عندنا ثلاث: سنة أتاه بها جبريل عليه السلام عن الله تعالى كقوله ﷺ "لا تتكح المرأة على عمتها وخالتها" و "يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب" و "لا تحرم المصه ولا المصتان" و "الدية على العاقلة" وأشباه هذه الأصول، وسنة أباح الله فيها لنبيه أن يسنها، وأمره باستعمال رأيه فيها فله

(1) استشهد بها كتاب السنة تشريع لازم ودائم دكتور فتحي عبد الكريم ص ٧٠ (مكتبة وهبة).

أن يرخص فيها لمن شاء حسب العلة والعذر، ومن ذلك إذنه في لبس الحرير لعبد الرحمن بن عوف لعله كانت به واستثنائه الأذخر من شجر مكة وأمثال هذه الأمور، والسنة الثالثة ما سنّه رسول الله ﷺ تأديباً لنا فإن نحن فعلناه كانت لنا الفضيلة في ذلك وإن نحن تركناه فلا جناح علينا إن شاء الله".

وقال الشيخ محمود شلتوت في كتابه المشهور "الإسلام عقيدة وشريعة". "كل ما ورد عن النبي ﷺ ودونَ في كتب الحديث من أقواله وأفعاله وتقريراته على أقسام.

أدهما: ما سبيله الحاجة البشرية كالأكل والشرب والنوم والنوم والمشي والتزاور والمصالحة بين شخصين بالطرق العرفية والشفاعة والمساومة في البيع والشراء.

ثانيهما: ما سبيله التجارب والعادة الشخصية أو الاجتماعية كالذي ورد في شؤون الصناعة والطب وطول اللباس وقصره.

ثالثهما: ما سبيله التدبير الإنساني أخذاً من الظروف الخاصة كتوزيع الجيوش على المواقع الحربية وتنظيم الصفوف في الموقعة الواحدة والكمون

والكر والفر واختيار أماكن النزول وما إلى ذلك مما يعتمد على وحي الظروف والدربة الخاصة. وكل ما نقل من هذه الأنواع الثلاثة ليس شرعاً يتعلق به طلب الفعل أو الترك، وإنما هو من الشؤون البشرية التي ليس مسلك الرسول فيها تشريعاً، ولا مصدر تشريع⁽¹⁾.

ولولا أن المقام لا يتسع لمزيد من الشرح لعرضنا ما قاله الدهلوي في حجة الله البالغة، وما أشار إليه بعض المحدثين كالدكتور سليم العوّا. وقد عالجتنا هذا الموضوع في كتابينا "الأصلان العظيمان" و "العودة إلى القرآن".

المهم أن الدعوات الإسلامية لم تسلك مسلك المحققين. ولكنها أخذت السنّة كلها بل لعلها ركزت على ما يتعلق بالأكل والشرب والزي والعادات إلخ..

وقد أراد الله تعالى الكمال للإسلام عندما أوجد قرآناً وسنة ليحقق تكاملاً. ولا بد لكي يلحظ هذا التكامل من وضع القرآن والسنّة كل في موضعه. وهو ما يقضي جعل القرآن الأصل قائماً يعود الإلزام بالسنّة إلى القرآن نفسه، ووجود قرآن وسنة يعني اختلافاً في الطبيعة. كما قد يلحظ الاختلاف

(1) الإسلام عقيدة وشريعة ص ٤٢٧ طبعة الإدارة العامة للثقافة العامة بالأزهر.

في الأسلوب والقرآن ينحو نحو الإطلاق والانتهاض ويمثل القيم والكليات والأصول العامة، بينما تعني السُّنة بالتطبيق وتلحظ الحفاظ وتتناول الجزئيات كما قد تلحظ اعتبارات آنية تتعلق بالمجتمع العربي، وما كان عليه وقت الرسول وأنه "حديث عهد بجاهلية".

وكما أشرنا - فإن الدعوات الإسلامية اعتبرت أن كمال الإسلام هو الأخذ بالسُّنة كلها - حتى ما كان منها ضعيفاً في الرواية. غير ملزم في الموضوع، وليس هذا هو الحماس للإسلام أو تحقيق الكمال فيه. كما سبق إلى ذهنها.

من القسامات المشتركة في الدعوات الإسلامية أنها بدرجات متفاوتة - وقعت في يد الطبقة الوسطى التي يطلقون عليها "البورجوازية" صغيرة أو كبيرة فقاعتها الجماهيرية تضم صغار الفلاحين والتجار والحرفيين والطلبة - بينما تضم قمتها نسبة من كبار التجار ورجال الأعمال والاقتصاد الإسلامي.

ونحن لا نتفق مع الشيوعيين في اهتمامهم المسرف بالتأثير الطبقي. ونرى أنهم في معظم ما يُوردونه في هذا الصدد، إنما يزجون به بحكم الشعارات المعلنة. فلم يكن أحد أفراد الطبقة العاملة من مُنظري الاشتراكية، ولا أحد من نظري الاشتراكية من العمال. وكل إشارته إلى "أدب الطبقة العاملة"

"وكفاح الطبقة العاملة إنما" يقم إقاماً عليها فالكفاح الحقيقي للطبقة العاملة هو الحركة النقابية التي تضيق بها الاشتراكية.

وقد أثبت التاريخ وجود أفراد من الطبقة المميزة كفروا بشرة التميز الطبقي ومنحوا ولاءهم للدعوات الشعبية سواء كانت اشتراكية أو إسلامية كما ظهر أفراد من الطبقات القاعدية خانوا طبقتهم لكي يحققوا مطامعهم.

مع هذا - فإن تأثير الوضع الطبقي هو أمر يقرره علم الاجتماع وطبقاً له - فإن وعي الطبقة الوسطى وعي فردي. بمعنى أن الفرد النمطي في الطبقة الوسطى يستهدف رفع مستواه المعيشي بوسائله الخاصة - وطبقاً لما ينتهي إليه اجتهاده وعادة ما يسمح المجتمع البورجوازي للناخبين والأذكىاء بتحقيق طموحهم، وهذا هو سر المبادئ العديدة التي يحفل بها هذا المجتمع - وهناك خيط دقيق يربط ما بينه وبين الحرية والطموح والمنافسة والقوة إلخ.. ويكون هذا إثراء للمجتمع. ولكن يغلب أن يتم هذا على حساب الآخرين - أو دون ملاحظة الآخرين. وقد أوجد الإسلام معادلة ما بين حرية الأفراد وعدل المجتمع. وعندما تضع الدعوات الإسلامية هذه المعادلة نصب أعينها. فإن غلبة الطبقة الوسطى عليها لا تثمر أثراً سيئاً، ولكنها إذا غفلت عنها فسيغلب الوعي الفردي عليها ويمزقها. أو يجعلها تسير في أذيال المصالح الفردية لمجموعة القمة.

وهذا أحد المخاطر التي يكون على الدعوات الإسلامية التنبه إليها. خاصة وأنها مستهدفة لهذا الخطر بحكم نزعة السلفية نحو الذاتية التي أشرنا إليها آنفاً.

وقد يكون من الخير لها أن تجتذب العمال وتجعل الحركة النقابية من قواعدها، ونحن نعالج هذه النقطة من ناحية الوعي لا من ناحية كسب جمهور فعال للحركة، وتأمينها من غدر الحكام، فتلك نقطة أخرى تنبعت إليها الجهة الإسلامية في السودان وكان تأمينها من انقلاب نميري عليها. كما أن إغفال الأخوان المسلمين لها أدّى إلى ادعاء عبد الناصر تأييد العمال له فيما سُمي إضراب مارس ١٩٥٤، رغم أنه كان ضراباً مفتعلاً، نحن هنا نشير إلى أن ضم التكتلات العمالية سيوجد توازناً طبقيًا في بنیان الدعوة الإسلامية، وبهذا يؤمنها من النزعات الفردية - فضلاً عن أن العمال هم جماهير أصيلة في الدعوة الإسلامية لأنهم "المستضعفون" في الأرض الذين ينصرون للإسلام.. وينصرهم الإسلام.

والدعوات الإسلامية "ماضوية الروح" ولا غبار بالطبع على الإعجاب بالماضي العظيم للإسلام أو استلهاًم ثوابته. ولكن الدعوات الإسلامية تريد أن تعيش هذا الماضي. وهذه مغالطة تاريخية فهي - عملياً - لا تعيش القرن الأول

الهجري ولكن القرن الخامس عشر، وعليها أن تعيش هذا القرن، وإلا فإنها تلغي وجودها. كما أن عليها أن تفهم أن الإعجاب بالماضي لا يتنافى مع الإعجاب بالحاضر أو العمل للمستقبل.

فما أعظم ما يحفل به هذا الحاضر من منجزات رائعة للتقدم في مجالات الحياة.

وعلى كل... فإن الله تعالى يحكم بالأعمال لا بالأزمان. وإذا كان هناك حديث يفضل "قرن الرسول" ثم الذي يليه، فالذي يليه فهناك أحاديث عديدة في تمجيد الذين آمنوا بالرسول دون أن يروه. ويصلحون عند فساد الزمن. ولا بد للدعوات الإسلامية أن تتأكد أن حماسها للماضي لن يكسبها الماضي. وسيخسرها المستقبل.

وهناك مفارقة أورثت الدعوات الإسلامية إحدى سماتها المشتركة. فالإيمان بالسلفية وحصر مداركها وثقافتها في السلفية من ناحية، وعجز هذه السلفية عن معايشة الحاضر، وهو أمر لا يتطلب برهنة فيما نرى - جعل فكرها وثقافتها وأحاديثها في وادٍ.. وعملها وممارساتها واهتمامها في وادٍ آخر. وقبلت الدعوات الإسلامية هذا الوضع الشاذ كأمر مقرر لا غرابة فيه، وتحدث الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله عن طلبه بعض المعاهد الأزهرية يدرسون أحكام الصلاة

ثم تقام الصلاة فلا يصلون. وإنما يستمرون في قراءتهم!!
ويدرس كثير من الدعاة الإسلاميين أحكام الطهارة والرفيق
والغنائم كما كانت عليها منذ خمسة عشر قرناً، وبعدها
مباشرة يركبون العربات الفارسة وكل ما يفعله الواحد منهم
هو أن يقول ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾
وينسى أنه يركب عربة لا دابة، وقد تمر به عربته على
النساء العجائز والمرضى الذين ينتظرون الأتوبيس المزدهم
الذي لا موطأ فيه لقدم فلا يذكر الحديث: "من كان عنده
فضل ظهر فليركب أخاه" وقد يدعو إلى الزكاة - وهو لا
يدفعها - ويستحث الناس على الإنفاق وهو من أبخل خلق
الله.. وقد يرى في الشارع من يلبس الأسمال المهلهة في
الشتاء فلا يثير في نفسه شيئاً، وهذا المنظر جعل وجه
الرسول يحمر "كأنما فُقئ فيهِ حَب الرمان" ولكن "سيدنا
الشيخ" لا يتصور أن منظر فقراء في أسمال أمر يدفع بحمرة
الخجل إلى الوجه.

إن الشقة الواسعة ما بين العلم والعمل في الدعوات
الإسلامية تخالف نهج الصحابة الذين كانوا لا يجاوزون حفظ
عشر آيات حتى يعلموا ما فيها من العمل. وعندئذ فحسب،
وبعد إن يروا أثر هذه الآيات التي حفظوها على سلوكهم
ينقلون لحفظ غيرها.

ومن السمات المشتركة في الدعوات الإسلامية أنها تضيق بحرية الفكر - ولا تؤمن بها وإذا كان دُعاتها يقولون غير ذلك - فإنهم يخادعون أنفسهم والناس. فما يقصدونه بالحرية التي يؤمنون بها حریتهم أنفسهم، أو مفهومهم الخاص لحرية الفكر، وآية ذلك أنها ترى من البديهيات مصادرة كل كتاب يخالف ما يعتقدون و "تعزیز" كل من يذهب غير مذهبهم، وإقامة الحد على المرتد - وعلى كل من يجحد معلوماً من الدين بالضرورة، وهذه كلها قيود وأصفاة وأغلال على حرية الفكر فأية حرية يؤمنون بها بعد.

وهم يلصقون بحرية الفكر كل نقیصة أو تدهور أو تحلل. ولا يفهمون أن الحرية أن فتحت باباً لآراء شاذة فإنها تفتح أبواباً تدعو إلى الحقيقة، وإن أدت إلى فساد واحد معلن، فإنها تقضي على عشرات من المفاسد غير المعلنة..

وقد قرأت مقالاً يصور هذه النزعة في صحيفة تصدرها باللغة الإنجليزية جمعية إسلامية باكستانية في إنجلترا. يدور المقال حول دهشة سكان الكواكب الأخرى من كُفر أهل الأرض وعدم إيمانهم بالإسلام. وأن هذا دفعهم ليرسلوا رائد فضاء ليرى ماذا يعبد أهل الأرض. وعاد هذا الرائد بعد أن قام بمهمته وقال لهم إن أهل الأرض يعبدون أوثاناً. منه وثن يُسمى "الديمقراطية" وهناك وثن يُسمى "الاشتراكية" ولكن

أقبح الأوثان جميعاً التي يعبدها أهل الأرض هو وثن يُدعى
"الحرية"⁽¹⁾!!

يعسر على الدعوات الإسلامية أن تتقبل إعادة المرأة
إلى المجتمع بعد أن استطاعت السلفية أن تعزلها وأن تحقق
نوعاً من الفصل العنصري يأباه الإسلام. وأن تجعل من
النقاب جزءاً من الشعائر الإسلامية. وقد وضعته حيناً إحدى
حركات المقاومة الأفغانية في شعاراتها التي اقتبستها عن
الأخوان كما كانت هذه القضية من أسباب انفصال مجموعة
من أعضاء الأخوان وتأسيسهم "شباب محمد" وكانت مجلتهم
"النذير" حافلة بمقالات الحجاب وجاعلة من كلمتي "وليضربن
بخمرهن" شعاراً لها.

وحقيقة الحال أن ليس هناك فرق كبير بين زي الرجل
وزي المرأة في الإسلام، فما من زي "رجالي" يكشف عن
الصدر أو الظهر أو "يشف" أو "يصف" والزي الرجالي
التقليدي الذي يلبسه كل الرجال في العالم إنما يكشف عن
"الوجه والكفين" والمفروض أن يوجد غطاء للرأس يغطي به
الشعر هي القبعة عند الأوروبيين والعمامة عند الشرقيين،

(1) قد تكون هناك استثناءات سنشير إليها في أماكنها، ولكنها تظل
استثناءات.

وهذا هو ما يطبقه الإسلام على النساء مثلهن في هذا كالرجال سواء بسواء، أما ما يجاوز هذا فإنه يعود إلى عادات وأعراف خاصة.

وقد شاع الحجاب في الفترة الأخيرة، واعتبر ذلك انتصاراً للاتجاه الإسلامي كما اعتزلت النشاط بعض الفنانات من المغنيات والممثلات والراقصات. ولا جدال في الدلالة الإسلامية لهذا. كما أن من المحتمل أن يكون من أسباب نجاح هذا أن الحجاب زي عملي وأنه يريح المرأة من عملية تصفيف الشعر المكلفة والمتعبة.. ولا تزال القضية تنتظر حلاً يفصل بين قضية "التبرج" التي نهى عنها القرآن، وبين قضية الزي والاختلاط التي تخضع للمبادئ من ناحية، وضرورات العصر من ناحية أخرى ومثل هذا الحل لا بد أن يأتي من "ما بعد السلفية..".

وكل واحد درس مكانة المرأة في العهد النبوي يعلم حق العلم أن المرأة كانت تحضر الصلوات وتخرج أيام العيد إلى الصلوات. وعليها أن تحج كما على الرجل، ويعلم أن المرأة كانت تحارب مع الرسول ﷺ وإن الرسول منح بعضهم من الغنيمة. وتعلم طبعاً أن أول من أسلم كان من النساء، وأول من استشهد كان من النساء، ويعلم أن من النساء من كان يجير غير مسلمين فيجيز الرسول فعلهن، ويعلم أن الرسول

أمر بأن لا تمنع النساء من الصلاة بالمساجد، ويعلم نبأ تلك المرأة التي تصدت لعمر بن الخطاب في المسجد وعارضته، وأخذ هو بقولها.

كل من يدرس الإسلام يعلم هذا، ويعلم ما هو أكثر، ولكن القضية لم تكن - وأنها لم تعد - قضية إسلام. إنها قضية تقليد أو فهم معين. وقد أصبحت قضية المرأة أكبر مثال لعدم تمييز الدعوات الإسلامية ما بين الإسلام.. وما بين التقليد وتفضيلها التقليد على الإسلام. وكاد التعصب لها أن يجعلها "عقدة" في الهيئات الإسلامية. وقد دعينا إلى ندوات ولقاءات إسلامية في الولايات المتحدة وبريطانيا، وفرنسا وإنجلترا وألمانيا. وفي كل هذه الاجتماعات أبعدت النساء في مكان قصي غير مرئي أو غير معروف، وقيل إن دائرة تليفزيونية مغلقة تربط النساء بما يدور في الجلسة. وفي إحدى هذه المؤتمرات في مدينة مانشستر كان من بين المدعوات شخصيات عامة في مناصب العمل السياسي أو العمل الجامعي، ولكن هذا لم يشفع لهن. فقد أبعدن مع المبعديات. وحرّم المؤتمر من أرائهن وإضافتهن.

ويماثل هذا موقف الدعوات الإسلامية من الفنون، ففي الوقت الذي يمكن أن يكون بعضها دور إسلامي يعزز، أو يثري، الفكر الإسلامي. فلا مناص من النظر إلى بعض

الأخر منها على أساس أنها من "حرث الدنيا" أو هي "لهو الحديث" التي لا تلتزم ضرورة بالمقاييس الصارمة، لأنها إنما تمثل الساعة الأخرى في حديث الرسول "ساعة.. ساعة" وليس معنى هذا أن تشجع الدعوات الإسلامية ذلك، لكن أن تتظر إليه كجزء من ضرورات الابتلاء والاختبار في الحياة، أو "اللمم" الذي سلم بالنفس الإنسانية ساعة ضعفها.. وتكفر عنه الحسنات وأنه بالنسبة لبعض الفئات - كالشباب يقوم بامتصاص جزء كبير من زخم الغريزة والشهوة التي يفرزها الجسم في هذه الفترة، وبدون هذا البديل يمكن أن يقعوا فيما هو أسوأ.

فلا معنى للضييق به أو محاولة استبعاده، لأن له دوراً في المجتمع، فضلاً عن أن محاولات استبعاده ستؤدي إلى مفاسد أكبر من المفاسد المظنون ترتبها عليه.

* * * *

لابد من الإشارة في نهاية هذا الحديث عن القسّمات المشتركة في الدعوات الإسلامية إلى ظاهرة جديدة تلك هي تسرب نفوذ السعودية ودعوتها الوهابية إلى الدعوات الإسلامية - واختراقها لبعضها. وتعود هذه الظاهرة على نفوذ ودعم رابطة العالم الإسلامي، ووجود فائض من خريجي الجامعات السعودية وجهوا إلى الدول الأوروبية

والأمريكية والأسبوية إلخ.. لنشر الدعوة الإسلامية. ومن الطبيعي أن يكون لهذا الاختراق أثر سيء وفي كثير من الحالات أدى هذا التدخل إلى تمييع الدعوة أو تفوقها. أو دخولها في متاهات، أو غلبة العناصر الذاتية والعوامل المادية عليها. ولو أحسنت السعودية وأرادت بمعوناتها وجه الله لقدمت مساعدتها دون تدخل في إدارة أو سياسة الدعوة، ولوجَّهتها نحو إقامة المباني أو تدعيم النشء والترجمة. وقد يكون هذا عسيراً، ولكنه على الأقل حدث في حالة نعلمها قدمت فيها رابطة العالم الإسلامي مساعدتها لهيئة إسلامية، وانتهت علاقتها دون أي تدخل أو متابعة لنشاط الهيئة.

* * * *

في ختام هذا الفصل عن جريرة السلفية التي هي القاسم المشترك الأعظم على الدعوات الإسلامية..

قد يتساءل قارئ لماذا هذه المراجعة أو الحدة في نقد

السلفية..؟؟

والرد أولاً: إنه لحساب الحقيقة. وهي بعد أقل من النبرة التي يستخدمونها تجاه من يخالفونهم، إن لم يحكموا عليهم بالردة ويستحلوا دماءهم..

وثانياً: لأنه لحساب الفكر والعقل، فمن الغباء أن نكون سلفيين نسير وراء ابن تيمية، في حين أن من الممكن أن

نكون قرآنيين، محمديين نستلهم القرآن ونأخذ الأسوة عن الرسول، والغباء يجب أن لا يدلل ويتسامح معه..
وأخيراً فلأني تابعت بنفسى انتشار وشيوع الدمامة والغفلة والاستخذاء والعقلية النقلية جنباً إلى جنب انتشار وشيوع السلفية.

ونحن نؤمن أنه حيث يكون الإسلام، يكون العقل والحرية، والجمال والإقدام، والخير والسلام.

* * * *

الفصل السادس

دعوات إسلامية صاعدة

تمهيد

شهدت الثمانينيات ظهور دعوات إسلامية وثابة تتسم بقدر من الحيوية والفعالية، ويقف بعضها ما بين الدعوات الإسلامية الكلاسيكية (الأخوان والجماعة الإسلامية)، وما بين الصورة المنشودة للدعوة الإسلامية، وقد يبدأ بعضها حيث إنتهى الأخوان..

وقد لا نعدم خيوطاً من التأثير بأفكار "الرافضة الجديدة" أو بقايا أدياء السلفية تجري بين أنسجة بعضها.

ومعظم هذه الدعوات تخوض معركة مريرة مع الدعوات الأخرى أو مع النظم الحاكمة..

وسنعرض هنا لخمس دعوات منها اخترناها لأنها أبرز الدعوات على الساحة، ولأن لنا معرفة ببعضها يُخوّل لنا الحديث عنها بحكم اللمس والخبرة، وهذه الدعوات الخمس هي:

الجبهة الإسلامية في السودان.

جبهة الإنقاذ في الجزائر.

دعوة الشوريين التعاونيين في اليمن.

دعوة النهضة الإسلامية بتونس.

الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل.

أ- الجبهة الإسلامية القومية في السودان

تعد الحركة الإسلامية في السودان التي تقودها الجبهة الإسلامية من أهم وأرجح الحركات الإسلامية المعاصرة، فضلاً عن الأهمية الخاصة للسودان بصفته الدولة التي تحمل الإسلام والعربية إلى أعماق القارة الأفريقية.

وقد تضافرت عوامل عديدة لأن تنجح الحركة، ولأن تقطع شوطاً لما تقطعه معظم الحركات الإسلامية الأخرى..

من هذه العوامل ما يتعلق بالسودان نفسه، ومنها ما يتعلق بظروف الدعوة، ومنها ما يتعلق بقيادتها.. فالسودان بلد مسلم.. ظهر إلى الوجود كدولة مستقلة بفضل ثورة المهدي وتحت رايات تحمل شعار: "لا إله إلا الله" وهو نفسه الشعار الذي دوى بعد ذلك بمائة عام تقريباً، عندما أراد السودان أن يعلن هويته الإسلامية في المسيرة "المليونية" كما أطلق عليها ابتهاجاً بتطبيق الشريعة⁽¹⁾.. وعلى أعلام المهديّة - كما في هتافات المسيرة - لم يكتب أو يرتفع سوى: "لا إله

(1) وهي المسيرة التي نظمها النميري احتفالاً بمرور عام على تطبيق الشريعة، وأطلقت عليها الصحف السودانية هذا اللقب. بعد أن قيل أنها ضمت مليوناً من السودانيين.

إلا الله محمد رسول الله" .. رأينا ذلك بأعيننا وسمعناه بأذاننا⁽¹⁾.

وكان من حسن حظ السودان أنه لم يعرف "البيروقراطية" والمركزية التي تمثلت في جارتها الشمالية.. فقد حال دون ذلك انفساح الأرض، والاعتماد على الأمطار، وأن الرعي كان أغلب من الزراعة.. فلم تظهر النظم المركزية، أو طغيان السلطة وإنما: العرف، والعفو، والتلقائية.

كما لم توجد في السودان "المؤسسة الدينية" التي تبسط نفوذها على الإيمان، كالأزهر في مصر، والمراجع والحوزات في إيران، وإدارة الفتوى في السعودية.. إلخ. وإن كانت قد رزقت أسرتين اكتسبتا قداسة دينية وطاعة صوفية..

وكان يمكن أن يقفا في طريق الدعوة الإسلامية الناشئة، ولكنها - بكياسة - حيدتُهما كما يقولون.. أو أن الأسرتين لم يريا من الحكمة أن يناطحا الحركة أو يدعاها تنطحهما.

(1) رأيناه على رايات المهديّة المحفوظة في المتحف، وسمعناه خلال حضورنا للمسيرة.

ومن الظروف الخاصة بالحركة الإسلامية في السودان أنها وإن تخلفت شيئاً عن الحركة في مصر، إلا أنها رزقت وجوداً متصلًا ونشطاً من الخمسينيات حتى الآن.

وكانت في فترات المحن "تكمن" وتعمل تحت الأرض ولا تسمح للسلطة بضربها، وكانت في هذا تشبه الشيوعيين الذين يعملون تحت الأرض أكثر مما يعملون فوقها، ولعلها تعلم هذا الدرس منهم.

وكان وجود حركة شيوعية نشطة في السودان من العوامل المؤثرة على الحركة الإسلامية السودانية، ولم يكن هذا الأثر شيئاً كله.

وتميزت الحركة الإسلامية في السودان بأنها وهبت قائداً عمل منذ أن كان طالباً في الصفوف حتى دفعته مواهبه لأن يكون "الربان" الذي يمسك بدفتها ويديرها بحكمة واقتدار، وتوفرت فيه الثقافة المدنية والفقهية، فضلاً عن التجارب الطويلة والمريرة مع الأحزاب والحكام والشيوعيين والهيئات الإسلامية الأخرى.

وندعو الله أن يوفقه في مهمته بحيث يخلص من (الموج)، و (السراب) وهما اللذان يوقعان بكل ربان لم يرزق الحنكة والتوفيق.

وقد سجل مسيرة الجبهة في كتابه "الحركة الإسلامية في السودان" الذي استعنا به في بعض ما جاء في هذا الفصل.

* * * *

ظهرت بداية الحركة في الخمسينيات - كثمرة من ثمرات الأخوان المسلمين - على أيدي طلبة كانوا يدرسون بالقاهر، وبفضل الدعاة الذين أرسلهم الأخوان المسلمون إلى السودان، وحملت الحركة اسم "الأخوان المسلمين" وكان هذا نوعاً من التوفيق، إذ قدم نواة سليمة (وكان يمكن أن تتخبط الحركة الوليدة قبل أن تصل إليها) وأضفت عليها بعض صفاتها: كالمرونة، والاعتماد على الطلبة، والتأثر بعاطفة "الحب في الله" ..

وأدى ذلك إلى ألا تتأثر الدعوة الناشئة بهواجس الاستقلال، ولا بنوازع الاستتباع فهذه لم تكن واردة.

ولكن الوارد كان تكييف هذه النواة بما يتطابق مع أوضاع السودان لأنه هاجس موضوعي يتطلبه الوضع.

وقد أدى الاختلاف في الاجتهادات لظهور مجموعتين: أقلية: تمسكت بالصورة والمضمون الأخواني.

أغلبية: سارت بالنواة والبداية بحيث حققت قدرًا من الحفاظ على الثوابت والتجاوب مع المتغيرات، وانتهت بعد

تجارب عديدة لأن تحمل اسم "الجبهة الإسلامية" مما قد نعرض له فيما سيلي.

وكانت المراجع الفكرية للدعوة الناشئة هي كتابات "حسن البنا"، و "المودودي". وعندما وصل فكر "سيد قطب" لم تستسغه الحركة السودانية واكتشفت - بتلقائيتها - ما فيه من تعسف في تكييف الدعوة، وفي أسلوب حملها فلم يرزق شيوعاً.

وعندما ابتلي السودان بأول حكم عسكري⁽¹⁾ تداعت إلى ذهن الحركة السودانية انعكاسات الحكم العسكري في مصر رغم الاختلاف الكبير بينهما: فالفريق عبود (دُعي) تقريباً للقيام بانقلابه من السلطات الدستورية الحاكمة. وأدى هذا إلى أن: (تكمُن الحركة كموناً حاداً لأول عهد حتى كادت تجمد نفسها)..

ولكن الانقلاب لم يكن ضارياً؛ فترك الحركة في كمونها، وسمح للطلاب بقدر من الحركة والعمل بحكم الحصانة الجامعية، وكان روادها من طلاب الخمسينات قد تخرجوا وأصبحوا يشغلون المناصب في الحكومة والإدارة والجامعات فتولوا قيادتها.

(1) الفريق عبود عام ٥٩ - ١٩٦٤

وكانت قيادة شبه جماعية بحكم تساوي القدرات، وعدم وجود "شيخ" كبير يفوقهم سناً وتجربة.

وتبدت أمام الحركة للمرة الأولى قضايا مثل: جدوى الأسلوب التربوي - ماهية الحركة وهل هي هيئة للضغط السياسي أم حزباً يطلب السلطان؟ العلاقة بالسياسة وبالقوى السياسية.

وانتهت هذه القضايا المختلفة إلى مراجعات دستورية فصلت فيها القضايا المختلفة⁽¹⁾.

وفي عهد ثورة أكتوبر (٦٤ - ٦٩) وعودة الحكم الحزبي انطلقت الحركة من كمونها وجاءت الانطلاقة من الطلاب، وطمحت الحركة لأن تصبح محوراً لولاء شعبي منتظم لأول مرة: فأقامت "جبهة الميثاق الإسلامي" مؤسسة على منهاج مکتوب وضعت الجماعة وجمعت حوله الجماعات الإسلامية والأفراد في حركة سياسية موحدة، كما أقامت تنظيمات للشباب والنساء، واحتفظت في الوقت نفسه بقدر من الاستقلال.

(1) "الحركة الإسلامية في السودان" للدكتور حسن الترابي ص ٢٨ وما بعدها.

وحدث في هذه الفترة ما أراح الحركة الإسلامية - مؤقتاً - من عدوها اللدود (الحزب الشيوعي): ففي ندوة أقيمت لمناقشة موضوع البغاء توقع أحد الشيوعيين فقال: إن البغاء كان يمارس في بيت الرسول!!

فاندلعت ثورة الجماهير، ولم تهدأ حتى اقتلعت الحزب الشيوعي وتوصلت إلى حله.

"وفي أخريات هذا العهد استقطلت الثنائية في الحركة بين التنظيم الداخلي وبعض جبهاته الخارجية، ولاسيما بين ما في الجبهة من معانٍ تربوية وسياسية متقابلة، أو من قيادات مشهورة وأخرى مغمورة، وأدت هذه الثنائية إلى خلافات حادة اتخذت صوراً تنظيمية وشخصية هزت كيان الجماعة هزاً شديداً، وانتهت بها إلى الجمود في الحركة العامة في أواخر العهد، ولكنها على الأقل أثارت قضايا القيادة مرة أخرى بين قيادة جماعية أو فردية، وأثارت قضية التوازن بين التركيز التربوي لقاعدة جماهيرية - وكيفها والانتشار الدعوي والسياسي لصفها وولائها وكمها - وأثارت قضية الاجتهاد الذاتي للحركة وعلاقتها بالحركة الإسلامية العالمية، وقد استقرت الأمور في النهاية إلى مراجعات في الدستور في آخر هذا العهد توحدت بها الجماعة وحسمت خلافاتها".

واتسمت الفترة من ٦٩ - ٧٧ بقدر من المجاهدة مع حكم نميري (أو نظام "مايو" كما يقول السودانيون) الذي جاء على أسنة الرماح وبدعم شيوعي.

وتحالف هذان على الإسلام وظناً أنهما سيقضيان على الحركة! وهيئات فقد أبدت الحركة معارضة قوية تجلت في اعتصامات جامعة الخرطوم والتعاون مع الأنصار عندما أغار عليهم "نميري" وسلط عليهم الطيران في مجزرة "جزيرة أبا" ..

وأعقب هذه العداوة مصالحة خلال الفترة من ٧٧ - ٨٤: فقد كاد نميري أن يفشل وانقلب عليه الشيوعيون وكادوا أن يودوا به؛ فتذكر الحركة الإسلامية التي أراد أن ينكل بها وما أبدته من صلابة، فأقام معها نوعاً من المصالحة - كانت مصالحة على دخن - فالجبهة لم تنس ماضية، وهو - أيضاً - لم يبتغ بها وجه الله.

فأصبح كل واحد حليفاً لآخر وللآخر يتربص به.

وإن كان كل واحد قد كسب منها: فاستبقى نميري نظامه المنهار لفترة ما، بينما انتهزت الحركة الإسلامية الفرصة فمكنت لنفسها، وأحسنست استغلال الوقت والإمكانيات، وكان أبرز ذلك: إقامة اقتصاد إسلامي ساند الحركة دون ريب، وترسيخ الحركة وتدعيمها بقطاعات من التنظيمات الطلابية والنسوية والعمالية.

"وأعدت نظم لا مركزية، ورتبت سياسات التطبيق وأوليياتها، ودربت العناصر لتولي تبعاتها، سوى أن الخطة لم تنفذ إلا في هذا العهد لأنها كانت تحتاج لبعض حرية ولتهيئة القاعدة وتوسيعها لاحتمالات اللامركزية"⁽¹⁾.

وكان الفصل الأخير والحاسم في هذه الفترة هو: "تطبيق الشريعة الإسلامية".

وقد انساق نميري إليها نتيجة لازدياد المد الإسلامي، فأراد أن يكسب الشعبية ويجرد حلفاءه (الجبهة الإسلامية) من ورقتهم الراحبة.

وكان النكت بحلفائه من خصائص حكم نميري: فأعلن تطبيق الشريعة وسكب في النيل زجاجات الويسكي الثمينة وأقام محاكم الشريعة الناجزة، ولم يشرك حلفاءه في هذه المبادئات.

ولم يكن حلفاؤه (الجبهة) حريصين على الظهور، لأن التجربة - وإن كانت من المطالب الرئيسية لهم وحققت بالفعل بعض أهدافها فاستتب الأمن وأغلقت تلك المحال التي كانت تباع الخمر الرخيصة الضارة وكانت تكتظ بروادها - إلا أن تطبيقها اتسم بشيء من العجلة فوّت بعض مقاصد الشريعة التي يعلمها الفقيه ويجعلها الحاكم.

(1) المرجع السابق ص ٣٠٤

وبعد مرور عام على التجربة أقام نميري مؤتمراً دولياً دعا إليه ممثلي الدعوات الإسلامية في العالم ليشهدوا شعبيته فيما أطلق عليه "المسيرة المليونية".

وكانت دليلاً لا يدحض على تمسك الشعب بتطبيق الشريعة وحماسه لها..

ولعل نميري قد تطرق إلى نفسه شيء إذ لم يسمع هتافاً واحداً له، أو كتابة على يافطة سوى:

"لا إله إلا الله، محمد رسول الله"

وتبين بعد هذا أن هذه المسيرة الرائعة لم تكن من تنظيم اتحاد الاشتراكي، ولكن من الإسلاميين.

فجن جنونه، وانقلب على الجبهة الإسلامية، وأشبعها تنديداً وتقريعاً، أعاد إلى الأذهان تعبيرات عبد الناصر وحاشيته على الأخوان..

ثم انقض على قادة الجبهة وزجَّ بهم في السجون، متصوراً أن يفعل في السودان ما فعله عبد الناصر بالأخوان في مصر!

ويأبى الله، ويأبى شعب السودان..

فقد كانت الحركة قد دعت قواها بقواعد شعبية منظمة تحركت فوراً وتفاقت المظاهرات والإضرابات.

وقادتها نقابة الأطباء ذات التوجه الإسلامي.

وكان نميري قد عين المشير عبد الرحمن سوار الذهب قائداً عاماً للجيش قبل أن يمضي لإحدى جولاته الخارجية، ولما جُوبِهَ المشير سوار الذهب بالجمهير الهادرة وأريد منه قمعها رفض أن يأمر الجيش السوداني بضرب شعب السودان.

وكانت تلك نهاية نميري:

فقد أعلن سوار الذهب فترة انتقالية لمدة سنة يشرف فيها الجيش على السلطة حتى ينتخب الشعب ممثلين له. وأجريت بالفعل انتخابات عامة حرة في الميعاد المحدد، وسلم المشير سوار الذهب السلطة للممثلين الشعبيين في سابقة لم تُعهد في العسكريين..

ومن سوء الحظ أن رأس هذا العهد زعيم حزبي اشتهر بالمناورة والسياسة الحزبية، ولم يكن الوقت هو وقت المناورة الحزبية..

فساءت الأمور حتى اضطر الجيش فيما سُمي "ثورة الإنقاذ الوطني" بعد أن تدهورت الأمور تدهوراً لا يمكن السكوت عليه.

وقد عرض الدكتور حسن الترابي لبعض ما تعرضت له الحركة الإسلامية بالسودان من مآزق، وكيف خلصت منها فقال:

".. من بعد الوقوف عند المطلقات والمجردات والعموميات والعالميات في دعوة الحركة وفكرها، تطور بها الأمر نحو الواقعية، فالتطور المضطرب في وظائف الحركة نحو التحامها بشأن المجتمع تطور بها من الهموم الخاصة إلى هموم المجتمع وإلى التفاعل مع قواه الفاعلة فتطور خطاها من الإلقاء به مجرداً عامّاً من بعيد إلى تصويبه على حاجات المجتمع وأوضاعه وقطاعاته.

ومن بعد التعويل على الفكر الوارد من الأدب الإسلامي العالمي، اضطرت الحركة إلى التفاعل الفكري مع الواقع المعين، فغدا فكرها من ثم موصولاً بالمكان والزمان، أي بالسودان وبقضاياها المحلية أو بالقضايا العالمية كما تنعكس أصدائها فيه. ومن ثم غدا فقهها للدين علمياً واستقرائياً يتبصر الواقع ويرسم في ضوئه الخطط والتدابير العملية، بل يعتمد التجريب ليتبين ما هو أوفق في سياق ذلك الواقع.

وبدأ الفقه لديها - من بعد التنطع النظري والتحكم القطعي والعموم - ما هو ميسور في طرح قواعد الدين الكلية، يتجه نحو المرونة ويتصوب نحو الأوضاع الراهنة

والقضايا الحادثة، ويتكيف حسب وجوه تطوراتها ووقائع تقاباتها، ويتنزل على دقائقها مفصلاً تفصيلاً. وإذ لم يعد كله خطاب دعوة وجدل يورث الإقناع أو وعظ يجيش عاطفة الإيمان - اكتسب صفة من الموضوعية ومن خطاب البيان الذي يشرح ليهدي العمل وليمهد لتطبيق الأحكام.

فمن القضايا العملية التي أثارها تاريخ السودان وتناولها فكر الحركة متفاعلاً بتوجهه ومنهجه مع الواقع: تصور دستور إسلامي للسودان [١٩٥٦ - ١٩٦٥ م]، وكيفية تحرير المرأة المسلمة ونهضتها بالسودان [١٩٧٤ م] ومشروع نظام للمعاملات الاقتصادية الإسلامية [١٩٧٧ م]، وسياسة تطبيق القوانين الشرعية [١٩٨٣ م]، واقتراح لعلاقات الجنوب السوداني وأوضاع أهله من غير المسلمين [١٩٨٦ م]، والتصور الديني لتعاطي الفن الحديث [١٩٨٢ م]، وفقه السياسة الشرعية في العلاقات الخارجية وفي شئون الأمن والدفاع فيما يخص السودان [١٩٨٧ م].

ولعل من آثار اتجاه فكر الحركة نحو الواقعية والفعلية أنه أصبح فكرًا حركيًا لا يعني كثيرًا بالمناظرات. فمهما ظل محتاجًا للحوار النظري مع اليساريين والليبراليين في القطاع الحديث من الحياة، وأصبح بعد أن اتصل بسواد المجتمع مواجهًا بشيء من الإنكار والجدال من التقليديين - إلا أنه

عزف تمامًا عن الدفاعيات والتبريرات والاعتذاريات الأولى حتى أن بعض المراقبين لاحظوا أن الحركة في السودان اشتطت زهدًا في الحوار النظري مع الأطروحات التي تشاركها الساحة العامة. ومن تفهموا اجتناب المرء مع السلفيين والصوفيين والعلماء في سبيل تأليف الجبهة المسلمة الحساسة للنقد لهم، لم يفهموا كيف تكف الحركة عن التيارات المتجهة للمروق من الملة كالشيوعيين المنكرين للدين وبعض العلمانيين المنكرين للشريعة، واتباع محمود محمد طه المتنبي برسالة ثانية ناسخة لشريعة الرسول ﷺ. ولكن الحركة استخفت بهذه التحديات مهما كانت مثيرة في ذاتها - تقديرًا لكونها في الواقع لا تمثل كبير خطر ولا ضرر ولا تستحق أن تتصرف إليها الحركة بالجدل وتنشغل عما يجدي من تجاوزها بالحركة العملية في واقع المجتمع.

ومن صور المنحى الواقعي في فكر الحركة أنها آثرت التفكير على التفييق، والمشاورات على المجادلات. فهي لا تجنح للتشقيق النظري للقضايا الخلافية، ولا لإلقاء الفتاوى الفقهية الحاسمة، بل تطرح أحكام الشرع كأنها خيارات موازية متراجحة، ثم تبسط حقائق الواقع بتقديرات استقرائية مرنة ثم تدير الشورى حول ماهر مقتضى الدين في الموقف الراهن أو الأمر الحادث.

وقد سلّمت الحركة الإسلامية بالسودان من علة
التنظيرية المفرطة التي أصيبت بها بعض الحركات التي نقل
مفعولاتها وتكثر مقولاتها فتكاد تعيش إسلامها كله نظراً
وفكرًا. وقد تعرضت الحركة ثم سلّمت من اتجاهات كثيرة
راودتها نحو الإيغال في التفيقة والولع بتعاطي الفقيهاة
التقليدية لأكثر مما يستدعي العمل. ومن أمثلة ذلك أنه عندما
كُبت النشاط السياسي والتنظيمي في عهد "مايو" فرغت
عناصر من طلبة الحركة للتلمذ على آخرين فرغوا للعكوف
على كتب الفقه والتبحر في اختصاصها، حتى زين لهم أن
الدين كله في احتمال الفقه المكتوب وتناقله، وأن تدبير شأن
الحركة جميعًا يرجع إلى فتاوى من نصوص ذلك الفقه، وأن
ما خرج⁽¹⁾ من المتن والشارح ليس يُرجى منه صالح، وأن
ما ليس في حرف النص الظاهر ليس وراءه طائل، فنشأت
مدرسة فقهية تقليدية بمشيتها وتلمذتها وأنماطها وآدابها
المعهودة، وبلغ بها العجب بأمرها أن تمثلت نفسها السلطة
الدينية الحقّة التي يمكن أن تتحدى مختلف الأطر التنظيمية
في الجماعة وأن تزدهر سائر المهام الحركية الراتبة، ولكن
أمرها تلاشي بعد سنوات الكبت.

(1) كذا بالأصل ولعلها عن.

وفي تقييمه العام للحركة قال:

ويمكن أن يحاسب المرء الحركة بعمرها الممتد لنحو أربعة عقود، فيحكم بأنها قصرت عن بلوغ ما كان يمكن من التمكن. ويمكن أن يتعزى عما فاتها بما أدركته من كسب يقدر حين يقاس إلى مبلغ القوى المنافسة لها في الساحة الوطنية، أو إلى نيل القوى الإسلامية المثلثة في الساحة الإسلامية العالمية.

فقد عمرت الحركة أصول التدين ومدتها في السودان فصوبت ونشرت المفهومات والمعلومات الدينية، وأحيت شأن القرآن والسنة، وعمرت المساجد وأقامت الشعائر، وقومت الأخلاق وأشاعت الالتزام في السمات والسلوك، ونشرت الدعوة إلى ملة الإسلام. ولا يضارع وقع الحركة في ذلك بالطبع رصيد حركات العلم والتصوف والجهاد السالفة في المجتمع التقليدي، ولكن مغزى الحركة كان كبيراً جداً في حفظ التدين في القطاع الحديث المتعرض للفتنة والرائد لنمط النهضة. فقد ثابتت الحركة بغالب طلاب العلم الحديث إلى الدين وصرفتهم عن مصير المسخ والاستلاب والفسق والإلتهاة إلى الأصالة والاستقامة والجد والعطاء. كما آبت بالنساء إلى الدين بعد الغفلة، وعتقتهم من أسر الأعراف وألهمتهم استقامة ورسالة إيجابية في الحياة بعد خطر الفتنة والضياع. وقد هيأت الحركة عامة المجتمع

لوجوه من حياة التدين في الإطار الحديث. فقومت من أصول الولاء الديني التي أفسدته الطائفية، ووحدت بالإسلام شيئاً ما بين العامة والمنقفين الذين كادوا أن يغتربوا عن مجتمعهم ويغادروه شقين متجانسين. وطورت الحركة صوراً جماعية منهجية حديثة تجسد التقاليد السابقة في فعل الخير وعمل الصالحات على صعيد الفرد والإطار المحدود، ووجوهاً حضرية متطورة لأنماط التدين وأعرافه الساذجة القديمة. وقد بسطت الحركة ثقافة عامة بعلوم الإسلام، وطرحت فكراً توحيدياً تجديدياً واجتهادات نظرية وعملية مؤصلة ولكنه ما انفكت عاجزة أن تقاوم عقابيل الموروثات الجامدة والمجلوبات الفاتنة، ولم تبلغ من آثار تعميق فكرها وتعميمه مثل شأن المذاهب الفقهية في ماضي المسلمين أو المذاهب الوضعية في حاضر العالم. بل إن مستوى النظر التجريدي والتطبيقي في فكرها ما زال قاصراً، ومدى التحرير والنشر ما زال حاسراً، بالنسبة إلى المنافسة الفكرية والحاجة العملية القائمة، وقد سبقت الحركة في الاهتمام بشئون الاقتصاد بينما انحبت غالب حركات الإسلام في الثقافة والتربية السياسية وزهدت وفرطت لغيرها من القوى في تصريف العامل المادي في التاريخ لكن الحركة لما تولد من همومها الاقتصادية فقهاً واقعيًا وافيًا لمسائل التنمية والعدالة، ولا قوة كافية للاستصلاح والاستغناء والاستقلال الوطني. وربما عُد كسب الحركة السياسي جليلاً بما طورت من أساليب الدعوة

والتعبئة والمناصرة والمنافسة والمشاركة والمعارضة والمصالحة والمجاهدة والتدبير الأمني والتخطي السياسي بل يمكن أن يدَّعي لها المرء أنها كسبت من الخبرات وبسطت من السياسات وبلغت من النضج والنفوذ ما لم تقاربه حركة إسلامية أخرى. ويمكن أن نذكر بعض ما تحقق بذلك الجهد السياسي الفعّال. فأول تصدياتها السياسية كانت للحركة الشيوعية واليسارية التي كانت تستشري بقوة مخوفة أن تتمكن من قيادة السودان كما تمكنت من بلاد مثله. ولكن الحركة الإسلامية استخلصت ناشئة السودان من الشيوعية واستنقذت البلاد من غائلة التسلط الشيوعي. ثم تصدت الحركة للنظام اللاديني الموضوع على السودان فزلزلت أصول اللادينية السياسية التي يستصحبها وفرضت شعار الإسلام في الدستور والقانون والنظام العام مهما أعيها إلى الآن أن تجعل الشريعة الإسلامية هي فعلاً أساس السلطان الحياة العامة. وقد قامت الحركة في أواخر عهدها تحاول إرساء أساس جديد للوحدة الوطنية في وطن مزقته العصبية العرقية والطائفية والجهوية، وتحاول حماية هويته الدينية والثقافية وحرمة الإقليمية من هجمة شرسة تستهدف ملته ولغته وقوته ووحدته واجتياح أطرافه واستلاب سيادته. ولم ينحسم بعد مصير السودان توحداً واستقلالاً، ولكن الحركة لم تركز كغيرها للغفلة والعجز، بل قدمت مشروعها لإنقاذ البلاد بمدّ قاعدة للولاء القومي الجامع، واقتراح معادلة

للتوفيق بين الوحدة والتعدد واتخاذ مواقف للعز والدفاع الوطني.

ولم يحتبس أثر الحركة في أفقها المحلي، بل تعداه إلى آفاق العالم. فقد كانت تقتدي بنماذج الدعوة والتربية والتعبئة والفكر والتنظيم والجهاد في صحوة الإسلام العالمية وتعتبر بتجاربها، فأصبحت بعد الاجتهاد مثلاً مستقلاً بين الحركات الإسلامية في العالم ينكر منها ويرضى، ثم انقلبت بعد الاستواء قذوة مقدرتها عامرة وتأثيراتها ظاهرة في كل الساحة الإسلامية. ولئن لم تصبح بعد دولة كاملة تضارع الدولة، فإن تفاعلاتها العالمية ميزتها عن كثير من الحركات وجعلت لها وزناً وحساباً محسوباً لدى الدول " انتهى.

هذا تقييم عادل يذكر الإيجابيات والسلبيات.. ومقارنة موقفها من الفقه الإسلامي بموقف حزب التحرير يوضح الفرق الشاسع بين موقف "ينفهم" روح الفقه ويحسن توظيفه، وموقف يلتزم بنص الفقه، ويسمح له بتقييده.

ونرى أن الحركة الإسلامية في السودان قد وصلت - بقيادة الجبهة الإسلامية - إلى آخر ما تسمح به السلفية الأصولية، ولو جاوزت هذا المدى لما ظفرت بالنفهم.

والتنظير المجرد الذي يستهدف المستقبل لا الحاضر هو الذي يضع المعالم للحركة لتبدأ مرحلة جديدة لا يكتفي فيها "بإصلاح" أصول الفقه، ولكن بالبحث عن فقه جديد للواقع

الذي تعيشه أمتنا كما عاش الأئمة والصحابة ظروف وواقع
أزمانهم..

وهذا كله لا يسمح به الفهم السائد الآن.. (1).

مقارنة:

ومقارنة عمل "الجبهة الإسلامية" في السودان بعمل
المدرسة الأم "الأخوان المسلمين" في مصر توضح لنا كيف
أنقذت الجبهة الإسلامية بإيجابياتها وفعاليتها المجتمع
السوداني من التدني إلى درك الفساد والتحلل، بينما سمحت
سلبية واستخذاء الأخوان في مصر بازدهار الفساد وسيادة

(1) نعتقد أن من الأمور الهامة أن تنتشر الجبهة الإسلامية في دراسات
مستقلة معالجاتها للقضايا التي تعرض لكل الدعوات الإسلامية
حتى تنفيذها بثمرات تجربتها وخبراتها، خاصة وأن معظمها لم
يحسم، كقضية التربية ودورها في الدعوة، وقضية هل الحركة
الإسلامية هيئة ضغط أو حزب حكم؟، وقضية العلاقات فيما بينها
وبين الأحزاب الأخرى، أو الحكم وهل تدخل في تحالف ومصالحة
أو ترفض، ثم أخيراً قضية تطبيق الشريعة وما أسفرت عنه
التجربة السودانية ..

هذه كلها قضايا خاضتها الحركة الإسلامية في السودان وعانتها
وتصدت لها بأكبر مما حدث في معظم الحركات الإسلامية
الأخرى.

الإدعاءات والزيوف من كل نوع وفي كل ناحية، وظهر
"مافيا" تحميها، وهيئات ضغط، ومنفعين كلهم يعملون
لمصلحتهم الخاصة بحيث تقطب المجتمع المصري بين قاعدة
شعبية مطحونة لا تبلغ أجهزة الإعلام ولا تسمع صوتها
وليس لها قواعد المنظمة التي تتحرك!..!

وبين "شلية" المصالح المكتسبة التي وضعت أيديها على
مراكز النفوذ في المجتمع وترفع زيوفها في جراحة وصفافة!..
صحيح أن مصر ليست كالسودان؛ فمصر في وسط
العالم وملتقى ثقافته، وقد ابتليت بالناصرية التي أفسدت كل
شيء، وخلفت ذيولاً وقلبت المعايير والمقاييس.. إلخ.

مع تقديرنا لهذا فإن الأخوان كانوا يستطيعون على الأقل
كبح جماح الفساد المستشري والمفتري..

الجبهة ونظام الحكم القائم:

لا يمكن إنهاء الحديث عن الجبهة الإسلامية دون
الإشارة إلى علاقتها بنظام الحكم القائم..

ولا جدال في أن هناك علاقة وثيقة بين الجبهة وبين
ضباط "ثورة الإنقاذ الوطني".

وقد كان لدى الجبهة الحنكة التي أوجدت هذه العلاقة
قبل الانقلاب، واحتفظت بها، وتستررت عليها بعده ولمدة
عامين تقريباً من قيامه.

وبالتالي فإن نظام ثورة الإنقاذ الوطني محسوب عليها إلى حد كبير..

فهل يمكن اعتبار هذا الحكم إسلامياً؟

وقد يقال قبل الحكم عليه بمعيار إسلامي: هل كان من الضروري أن تأتي "الثورة" في صورة انقلاب عسكري يقوم به ضباط؟.. رغم المثلاث السيئة التي مر بها المجتمع الإسلامي من حكم الضباط.

هذه ناحية لا نعالجها لأنها أقرب إلى الأكاديمية التي لا يتسع لها المجال..

وقد يكون هناك من الظروف ما ألجأ الجبهة إلى هذا الخيار الصعب..

والمهم - في الملاذ الأخير - هو سياسة الحكم، وليس زي الحكم: وهل هو "عباءة فضفاضة" أو "بدلة كافي"!..

وفي نظام الحكم السوداني القائم إيجابيات كثيرة، وقد أنقذ السودان من حكم المناورات الحزبية التي لا تستفيد منها سوى "شلة الحزب" على حساب مصلحة البلاد.

ومع هذا يثور التساؤل:

هل أغرقت ضرورات الحكم مثاليات الفكرة؟..

هل طغى الواقع على المثال؟..

إننا في الوقت الذي نقدر فيه الموقف الصعب الذي تقفه الحكومة إزاء المؤامرات الدولية، والظروف السيئة التي تكتنف السودان، فليس من السهل على السياسي المسلم أن يتقبل تقييد الحريات خاصة حرية الصحافة التي يمكن أن تحل محل "التكتلات" وتقوم بدورها في عرض وجهات النظر دون السوءات العملية لقيام التكتلات⁽¹⁾.

كما أن تجربة النظام الاقتصادي تستحق وقفات عديدة: فمع أن الضباط القائمين بالسلطة فعلاً على جانب من التقشف والتجرد، فإن النظام احتفظ بمجموعة كبيرة من أصحاب الأموال والأعمال من تجار أو مصريين ولم يمسهم فكرة أنهم يمثلون الاقتصاد الإسلامي.. ولم نر فيهم "عثماناً!" أو "عبد الرحمن بن عوف!" دع عنك "أبا بكر!!" الذي تبرع بماله كله.. وقد اضطرت الحكومة إلى اللواذ بصور من الإجراءات التي تكاد تصل إلى المصادرة!!.. وكان يمكن "بالإيمان" الوصول إلى النتائج المطلوبة..

(1) كان يمكن للنظام السوداني الحاكم أن يتعلم من تجربة مصر، ففيها حرية صحافة أصبحت متفصلاً، ولعلها حالت دون الانفجار ولعل النظام كسب منها أكثر مما خسر.

ولعل التحدي الأكبر أمام النظام والجهة هو إبداع اقتصاد إسلامي له "الوجه الإنساني" الذي يجب أن يميز الاقتصاد الإسلامي عن الاقتصاد المادي في الرأسمالية، والاقتصاد الصارم في الاشتراكية (الذي ثبت فشله رغم كل الادعاءات).

أما قضية تطبيق الشريعة فقد كان لدى الجهة من الحنكة والنضج ما تعلم معه أنها ليست بالقضية المستعجلة، على نقيض نميري الذي أراد المزايدة بها وكسب الشعبية..
وقد كان رأينا - الذي عبرنا عنه لبعض الأخوة السودانيين - أنه: إذا كانت قضية تطبيق الشريعة ستؤدي فعلاً إلى انقسام السودان فمن الخير تأجيلها.

* * * *

ب- الجبهة الإسلامية للإنقاذ في الجزائر

إذا لم تستطع الجزائر أن تفخر بماضٍ إسلامي عريق مثل جارتيتها (المغرب وتونس)، فإنها تستطيع أن تفخر أنها اليوم تقود أكبر وأكثر الحركات الإسلامية طموحًا، وأن شعبها - الذي احتله عدو أوروبي/ صليبي لأكثر من مائة وخمسين عامًا ظن أنه قد قضى بعدها على مقومات الشعب - يعبر اليوم أكثر من أي شعب من شعوب الشمال الإفريقي عن تمسكه الوثيق بالإسلام والعربية.

تلك هي معجزة الجزائر، وقد عودتنا الجزائر أن تقوم بالمعجزات..

فلندع الله تعالى أن يبارك مسيرتها وأن يكمل غايتها بالنجاح والتوفيق.

وعندما احتلت فرنسا الجزائر بتعلّة كاذبة وبكيدٍ يهودي/ صليبي عام ١٨٣٠ م فإنها لم تخف منذ البداية أن هدفها هو القضاء على الجزائر كأمة إسلامية وتحويل شعبها إلى المسيحية ولغتها إلى الفرنسية!.. وحضارتها إلى الحضارة الأوربية!..

وأنها لما كانت أرضًا مفتوحة فلم يعد لشعبها فيها شيء! وعليها أن تكون مستعمرة يحكم فيها سادة فرنسيون!..

ويخدمهم فلاحون وعمال جزائريون جهلة!!! ولكنهم يتكلمون الفرنسية ويدينون بالمسيحية ويكون وضعهم كوضع السود في الولايات المتحدة قبل حرب التحرير!!!..

وبهذا تستحوز فرنسا على كل الحسنات والمزايا.. وتأمين المتاعب والقلقل.. لقد كان من الممكن أن تتجح المؤامرة الفرنسية الصليبية لو لم يقف في وجهها سدان هما: الإسلام والعربية:

فحاولت فرنسا أن تهدم أضعف السدين وهو العربية، وكادت أن تصل إلى ذلك فعلاً لولا أن اللغة العربية نفسها مرتبطة بالإسلام.

فاللغة العربية لا تساوي شيئاً لولا القرآن.

بل إنها ما كانت لتوجد اليوم لولا القرآن.. ولحلت محلها لهجات إقليمية كان يمكن أن تصبح لغات كما حدث بالنسبة للاتينية..

ولو انقطعت العلاقة ما بين العربية والإسلام لما استطاعت صموداً أمام إغراء اللغات الأوربية الحية.

فاللغة الفرنسية تتيح للجزائري أن يتكلم مع الفاتحين، ومع أوروبا بأسرها وما يعنيه هذا من مكاسب أدبية ومادية عديدة.

ومن هنا فإن فرنسا - وإن استطاعت أن تجعل اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية في التعامل والتخاطب - فإنها لم تستطع أن تستأصل العربية التي لاذت بجيوب حصينة لم تكن يد فرنسا لتطولها..

تلك هي الزوايا والمساجد والمدارس القرآنية..

فهذه الجيوب، أو قل الحصون، حافظت على نور الشمعة، وحمتها من رياح التغرب العاصفة..

ومن هذه الجذوة المقدسة اشتعلت حرب التحرير..

ذلك أن مؤامرة فرنسا في القضاء على مقومي الشخصية الجزائرية - ألا وهما: العربية والإسلامية وبالتالي إذابة الجزائريين وجعلهم فرنسيين من درجة ثانية أو ثالثة لم تخف على نوي الوعي الإسلامي من الجزائريين فحرصوا على إبقاء هذين المقومين..

لأن في ظلهما وبفضلهما يمكن أن يظهر الوعي السياسي، ويمكن أن تزدهر دعوة المقاومة.. ولكنهما إذا فقدتا فلن يكون هناك نضال.. ولكن الاستسلام..

هكذا كان يفكر الشيخ عبد الحميد بن باديس عندما أسس جمعية العلماء، وعندما جعل هدفه حراسة: الإسلام والعربية.

* * * *

عبد الحميد بن باديس وجمعية العلماء

ولد الشيخ عبد الحميد بن باديس في الرابع من ديسمبر عام ١٨٨٩ م في قسنطينة من أصول تعود إلى المعز بن باديس كبير قبيلة صنهاجة البربرية.

وهكذا أراد الله لداعي العربية والإسلام أن يكون من أبناء الأمازيغ، وأن يمهر مقالاته بلقب الصنهاجي. وأتم حفظ القرآن وهو في الثالثة عشرة، وأمّ المصلين في صلاة التراويح في شهر رمضان لثلاث سنوات متوالية في المسجد الكبير.

وبعد أن تلقى العلم على يدي الشيخ حمدان الونيسي سافر إلى تونس، والتحق بجامع الزيتونة، وكان من أساتذته الشيخ الطاهر بن عاشور زميل وتلميذ الشيخ محمد عبده.

ونال شهادة العالمية عام ١٩١٣ م بعد أربع سنوات وكان سنه ثلاثة وعشرين عاماً. وعاد إلى قسنطينة، ولكنه غادرها ليؤدي فريضة الحج حيث التقى هناك بشيخه القديم الشيخ حمدان الونيسي الذي عرض عليه الاستقرار بالمدينة المنورة، والتفرغ للعلم والأمن من مضايقات الفرنسيين فرد بكلمته المأثورة:

نحن لا نهاجر، نحن حراس الإسلام والعربية في هذا الوطن:
وتعرف هناك أيضاً على صديق سيصبح زميل كفاحه،
وخليفته هو الشيخ البشير الإبراهيمي.

وخلال لقاءاتها العديدة من بعد صلاة العشاء حتى صلاة الفجر طوال ثلاثة أشهر اختمرت الخطوط الأولى لكفاح الشيخ.

وزار عند عودته مصر وسوريا ولبنان.. ويغلب أن يكون قد تأثر بأفكار الشيخ رشيد رضا ومجلة "المنار" التي كانت قد بدأت مسيرتها الطويلة في نشر علم وتفسير الشيخ محمد عبده.

عاد إلى الجزائر فوجد الاستعمار قد عاث فيها فسادًا: فأغلق المدارس، وهدم العربية..

والهيئة الوحيدة التي شجعها كانت: الطرق الصوفية التي ركنت إليه.

فوجد قرابة ثلاثمائة وخمسين زاوية يؤمها مائتان وخمسة وتسعون ألف مريد شعارهم جميعًا:
"من ليس له شيخ فالشيطان شيخه!!!"

بدأ ابن باريس بالدراسة في المسجد الأخضر، وتفرغ للصبيان مساءً يعلمهم في سرية تامة اللغة العربية والعقيدة الإسلامية..

كان ابن باريس يريد موطأً قد ينطلق منه إلى هدف.. وكان تدريس الإسلام هو أفضل المنطلقات فهو الغاية وهو الوسيلة في ذات الوقت، وقد كفل له قدرًا - ولو محدودًا - من حرية العمل..

فالإسلام بطبيعته يتضمن أساسيات العمل السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي.. وكذلك يتضمن: مبادئ الحرية، والعدالة، والكرامة..

وبهذا يمكن أن يقوم بدور سياسي مؤصلٍ إسلاميًا دون أن يقع تحت حظر وتحريم العمل السياسي..
وفي إحدى المناسبات قال:

- "إننا اخترنا الخطة الدينية عن علم وبصيرة على غيرها، وتمسكنا بما هو مناسب لفطرتنا وتربيتنا، من النصح والإرشاد وبث الخير والثبات على وجه واحد والسير على خط مستقيم، ولو أردنا أن ندخل الميدان السياسي لدخلناه جهراً، ولضربنا فيه المثل بما عرف عنا من ثباتنا وتضحيتنا، ولقدنا الأمة كلها للمطالبة بحقوقها، ولكننا اخترنا ما اخترناه لما ذكرناه وبيّنا" ..

وهو منطق يدل على سلام التفكير، فهو يأخذ بما يتفق مع فطرة الشعب، ولو نادى بغير الإسلام لما وجد تجاوباً فطرياً..

ثم إن العمل العام - سياسياً كان أو غير سياسي - لا بد أن يقوم على أساس إيماني لا يتأتى إلا بدراسة العقيدة.
وإذا أرسينا العقيدة فقد أرسينا أسس العمل السياسي، حتى وإن كانت هناك مراحل عديدة يسلم بعضها لبعض:

"فطور للتمهيد، وطور لإزالة الأنقاض، وطور في البناء والتشييد". وكدليل على مقدرة الشيخ ابن باديس على ترجمة نص في موطأ مالك ترجمة سياسية رفيعة شرحه لخطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه في أول خلافته:

"إني وليت عليكم ولست بخيركم فإن رأيتموني على حق.. إلخ"

فإنه استخرج منها ثلاثة عشر أصلاً من أصول الولاية

هي:

الأصل الأول: لا حق لأحد في ولاية أمر من أمور الأمة إلا بتولية الأمة. وهذا مأخوذ من قوله: "وليت عليكم" أي ولاني غيري وهو أنتم.

الأصل الثاني: الذي يتولى أمور الأمة هو أكفؤها لا خيرها (في سلوك الشخص وتقواه) وهذا مأخوذ من قوله: ولست بخيركم: ويعززه قبول أبي بكر، وعمر، وأبي عبيدة إمارة عمرو بن العاص في سرية (ذات السلاسل)؛ وكذلك قبولهم إمارة أسامة.. وهم جميعاً خير من أسامة وعمرو.

الأصل الثالث: لا يكون أحد بمجرد ولايته خيراً من الأمة، وإنما يكفل له ذلك أعماله. وهو مأخوذ من قوله أيضاً: "ولست بخيركم".

الأصل الرابع: حق الأمة في مراقبة أولي الأمر لأنها مصدر سلطتهم.

الأصل الخامس: تأييد الأمة الحاكم عند السداد مأخوذ من قوله "إذا رأيتُموني على حق فأعينوني".

الأصل السادس: توجيه الأمة للوالي ونصحه وتقويمه إذا زاغ في سلوكه. "وإن رأيتُموني على باطل فسدّدوني".

الأصل السابع: حق الأمة في مناقشة أولي الأمر ومحاسبتهم مأخوذ من قوله أيضًا: "وإن رأيتُموني على باطل فسدّدوني".

الأصل الثامن: على مَنْ تولى أمرًا من أمور الأمة أن يبين لها الخطة التي يسير عليها ليكونوا على بصيرة، ويكون سائرًا في تلك الخطة عن رضا.

من قوله: "أطيعوني ما أطعت الله فيكم" فخطته طاعة الله، وهم قد عرفوا ما هي طاعة الله في الإسلام.

الأصل التاسع: لا تحكم الأمة إلا بالقانون الذي رضيته لنفسها. وهذا أيضًا مأخوذ من قوله "أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي

عليكم" فلا يطيعونه لذاته، وإنما لاتباعه
الشرع.

الأصل العاشر: الناس كلهم أمام القانون سواء لا فرق بين
قويهم وضعيفهم.

الأصل الحادي عشر: صون الحقوق.

الأصل الثاني عشر: حفظ التوازن بين الطبقات.

وهذه الأصول الثلاثة مأخوذة من قوله "ألا
إن أقواكم لضعيف حتى آخذ الحق منه
وأضعفكم عندي لقوي حتى آخذ الحق له".

الأصل الثالث عشر: شعور الراعي والرعية بالمسئولية
المشتركة بينهما وشعورهما دائماً بالتقصير
ليستمررا على العمل بجد واجتهاد، فيتوجهان
بطلب المغفرة من الله الرقيب عليهما وهو
مأخوذ من قوله: أقول قولي هذا وأستغر الله
لي ولكم".

* * * *

وقرر ابن باديس أن يدخل مجال الصحافة فأصدر في
عام ١٩٢٥ م (١٣٤٣ هـ) مجلة "المنتقد" تحمل شعار:
[الحق فوق كل أحد، والوطن فوق كل شيء]، ولكن
السلطات الفرنسية أوقفتها بعد ثمانية عشر عدداً..
فأصدر بعدها "الشهاب".

وفي عام ١٩٣٠م اختقلت السلطات الفرنسية بمرور
مائة عام على احتلال الجزائر، وأصدر ابن باديس بياناً باسم
لفيف من العلماء يوجه الشعب إلى مقاطعة هذه الاحتفالات
(بكل هدوء) واستجاب الناس فقاطعوها دون شغب يؤخذون
عليه، وإنما بكل هدوء.

وفي العام الثاني أسس عبد الحميد بن باديس "جمعية
العلماء المسلمين الجزائريين"، وعقد الاجتماع التأسيسي لها
في الخامس من مايو عام ١٩٣١، وانتخب رئيساً لها.

وفي الجمعية كما في دروسه كان الاستعمار يحرم عليه
الاشتغال بالسياسة، ولكن لم يكن لهذا التحريم معنى بالنسبة
لابن باديس الذي مضى بكل همة يقضي على ضلالات
"الطرقية" ويجلي الإسلام الحقيقي، ويهاجم الظلم والطغيان
والقمع والتسلط، ويحي العزائم والهمم. حتى نجحت الجمعية
نجاحاً باهراً وانتشرت مدارسها، وتعرضت خلال ذلك لكثير
من صور الاضطهاد..

وفي عام ١٩٣٨م خاطب الشيخ ابن باديس الاجتماع
العام للجمعية قائلاً: "سلام عليكم يا أعضاء جمعية المسلمين
الجزائريين أجمعين، سلام على مساجينكم في المساجين،
وسلام على متهميكم في المتهمين، وسلام على منكوبيكم في
المنكوبين: سجون، واتهامات، ونكبات.. ثلاث لا تُبنى الحياة

إلا عليها؛ ولا تُشاد الصروح السامقة للعلم والفضيلة والمدنية
الحقة إلا على أساسها..؛ فالיום وقد قضى الله للجمعية بهذه
الثلاث، أثبتت الجمعية في تاريخ الإسلام وجودها" ويتضح
من هذه الخطبة أن الجمعية لم تكن جمعية وعظ وإرشاد؛
وإنما إيقاظ وإنهاض، ومعالجة لروح وجوهر السياسة
والتغلغل فيها.. لا من باب الحزب، ولكن من باب المسجد.
وجعل ذلك لجمعية العلماء صلاحيات الحزب دون
ملاحقاته..

لأن جوهر السياسة الفرنسية في الجزائر كان إذابة
الإسلام، وقد تصدت جمعية العلماء المسلمين لهذا بحكم أنها
جمعية علماء مسلمين.

ومع هدوء ابن باديس وحكمته، فإنه لم يكن هيباً ولم
يخش الدخول في صراع..

غاية ما في الأمر أنه كان يقدم معارضته في قالب
إسلامي موضوعي يفوت على السلطات أن تجد عليه مأخذاً
أو فيه منفذاً بحيث يظهر مدافعاً عن الإسلام وليس متحدياً
للحكومة.

وعندما سافر إلى باريس عام ١٩٣٦م وقابل مع أعضاء
المؤتمر الجزائري الإسلامي العام - الوزير دلادية، قال هذا
لهم: "إن لفرنسا مدافع طويلة".

فرد ابن باديس: "إن لدى الجزائريين مدافع أطول". فلما تساءل عنها دلالية قال ابن باديس "إنها مدافع الله".

ورد ردًا خشنًا صريحًا على مراسل جريدة "التامب" "Le Tempe" قائلاً له: "اسمعوا إننا لن نرضيكم أبدًا، ولن نعمل على إرضائكم.. إننا لا نخشاكم أبدًا، ولن نعمل عمل يوقعنا تحت طائلة أيديكم.. نحن سائرون على منهاجنا وفي طريقنا، لا يضرنا صراخكم، ولا ينفعنا سكوتكم، فقولوا ما شئتم.. وإنما ننصحكم نصيحة خالصة أن لا تعودوا لمثل هذا العمل الممقوت، فسياسة وخز الدبابيس تنتهي غالبًا بفقد الشعب لصبره، وإخراج الحليم عن حلمه، وإننا لنسد في أوجهكم هذا الباب. إلا أن كسرتموه، والأمر بعدئذ لله".

وشينًا فشينًا مع رسوخ قدمه وتطور الأحوال كان يصرح بهدفه الحقيقي وهو الثورة على فرنسا وتحقيق الاستقلال.

وبعد قيام الحرب العالمية الثانية قال لبعض إخوانه: "والله لو وجدت عشرة من عقلاء الأمة الجزائرية يوافقونني على الثورة لأعلنتها" وأخذ العهود على الجنود الجزائريين.. "سأعلن الثورة على فرنسا متى أعلنت إيطاليا الحرب على فرنسا" وكان يرى في جبال الأوراس معقلًا منيعًا يمكن أن تعلن منه الثورة.

ولكن المرض الذي أصابه ولم يفرغ لمعالجته تسبب في وفاته في السادس عشر من إبريل عام ١٩٤٠م.

ويعود نجاح ابن باديس بالإضافة إلى شخصيته، وإيمانه، وذكائه، وعقله المرتب: إلى إحكامه للقرآن..

إن القرآن كان نصب عينيه دائماً..

وكان قد حفظه من طفولته الأولى.. وشرع في

تفسيره..

ونلمس في الكثير من خطاباته المعاني القرآنية

واضحة..

وفضلاً عن هذا كله فقد كان رجلاً حركياً ميدانياً نشطاً

لا يكل ولا يمل.

وروى أخوه (عبد المجيد) أنه كان يلقي في اليوم ثلاثة

عشر درساً بين فقه وتفسير، وكان لا ينام إلا ساعة أو

ساعتين على الأكثر..

فحتى لو اعتبرنا أن هذا الكلام فيه مبالغة، فإنه ينم عن

همة قوية، وعزيمة ماضية، وإقبال على العمل.

لقد كانت الروح المتقدة للشيخ ابن باديس هي "الأتون"

الذي صقل سيوف الثورة وصنع بنادقها، وما هو أهم: حفظ

لقادتها وجنودها الإيمان"^(١).

^(١) رجعنا في هذه الفقرة عن ابن باديس إلى عددي مجلة - المنفذ في

١٤ / ١٢ / ٨٩ و ٢٨ / ١٢ / ٨٩ بقلم ل. س . سيفوس

وقد ذبلت الأحزاب التي قامت بينما أصابت جبهة التحرير سكرة السلطة، والذي بقي وملاً المسرح، وفجر طاقات الشعب هو الروح الإسلامية التي عمل لها ابن باديس.

* * * *

من جمعية العلماء إلى جبهة الإنقاذ:

ليس من شأن هذا الفصل أن يستعرض الثلاثين عاماً التي أعقبت ظهور جمعية العلماء، وكللت بنيل الاستقلال في الستينات، ولا الثلاثين عاماً التالية التي بدأت بالاستقلال عندما كانت الناصرية في أوجها فجراً كاذباً يكاد يكسف بأضوائه المفتعلة فجر الصادق حتى التسعينيات التي نعائشها، فهذا شأن كتب التاريخ.

وحسبنا أن نقول إن الجزائر انتزعت استقلالها من برائث وأنياب الاستعماريين العتاه خلال رب استمرت قرابة ست سنوات ضحت فيها الجزائر بأكثر من مليون شهيد.

وأن هذا الاستقلال - أمنية الأجيال السابقة - لم يكد يتحقق حتى أصبحت الجزائر حقل تجارب مجموعة من الشباب الأغرار الذين لم تتوافر فيهم الحنكة، والتجربة، والنضج، والعمق الإيماني، فوقعوا تحت تأثير عبد الناصر الذي كان قد ساعدهم في معركة الاستقلال مساعدات جسيمة،

وانساقوا في "موضة" هذه الفترة: اليسارية والشيوعية والاشتراكية العربية.. إلخ.

فذبلت الورد التي تفتحت غداة الاستقلال، وأنسيت العهود التي أعطيت خلال المعركة، وتهاوت الآمال التي علقت على النصر، وتملك الأمر "بن بيلاً" حتى ثار عليه "هواري بومدين" الذي لم تغنه دراسته السريعة القديمة في الأزهر شيئاً، فلم يستبن الطريق، واختلطت عليه المعالم حتى مات مخلفاً تركة ثقيلة.

وجاء خلفاؤه فزادوا الطين بلة حتى أصبح سجل المرحلة هو بتعبير كاتب إسلامي: "سجل الفشل الكبير"⁽¹⁾.

وتفشت خلال تلك الفترة كل السنوات التي عرفتها المنطقة نتيجة لسياسات الطغمة الحاكمة سواء كانت جنداً بالأصل، أو ساسة بالاحتراف.

فظهر الفساد، واستغلال النفوذ والرشاوي، والديون، والعمولات، والتدهور والتبعية للاقتصاد الخارجي، والبطالة والأزمات..

(1) الأستاذ فهمي هويدى - الأهرام العدد الصادر في ١٦ / ٧ / ٩١ - ص ٧.

والهَاء الجماهير بما يشغلها ويستهلك فراغها من تشجيع
للفنون والسينما الهابطة ورياضة كرة القدم على حساب العلم
والمعرفة والبناء..

– واستخدام أجهزة الإعلام – وفي مقدمتها التليفزيون –
في ذلك بالإضافة إلى استخدامها في تضليل وخداع الشعب.
ومحاربة الاتجاه الإسلامي الذي وقع عليه عبء
المعارضة وإعلاء صوت الشارع.

ولئن ساد هذا في دول عربية أخرى دون انبعاثه مدوية،
فإن الوعي الإسلامي الجهادي الذي كان يتلمل في أعماق
الشعب الجزائري انفجر مرة واحدة في انتفاضة أودت بالعهد
وقضت على البناء الذي شادته جبهة التحرير خلال ثلاثين
سنة من الحكم، ودفعت بالتيار الإسلامي إلى الصدارة وبوأتها
– مرة أخرى – المكانة التي كان يشغلها عندما كان رمز
الصمود في مواجهة الاستعمار الفرنسي.

الشعب الجزائري عام ١٩٨٨ م وأعلن الرئيس الشاذلي
بن جَديد (وهو بمقاييس الواقع يعد سياسياً معقولاً ويتسم بقدر
من الحكمة والاعتدال) التخلي عن سياسة الانغلاق
والديكتاتورية وحك الحزب الواحد، وأطلق حرية الصحافة،
وأباح التعددية الحزبية..

وتأسس ما يقرب من خمسين حزباً..

ونحن نرى أن هذا أمر طبيعي - بعد طول الكبت - وعلى كل حال فلا يضير وجود هذا العدد، لأن ما يحدث هو أن تنتطب الأغلبية في عدد محدود (أربعة أو خمسة أحزاب)، ولا يكون للأحزاب الأخرى خطورة على استقرار النظام.

وكانت الأحزاب والجماعات الإسلامية هي أبرز الجديد التي كشفت عنه الحرية..

فالأخوان المسلمون الذين لم يكن لهم وجود محسوس تبلوروا في هيئة قوية أخذت أخيراً اسم "حماس" وظهر على رأسها زعيم قدير هو الشيخ "محفوظ نحناح: استطاع أن يجمع ستين ألف سيدة ليسمعن خطاباً للسيدة زينب الغزالي.

ونفض التراب عن تراث "مالك بن نبي" المفكر الجزائري المظلوم الذي تعذب في القاهرة، وتعذب في باريس، وتعذب في الجزائر وأرخت على أعماله أستار النسيان..

ولكن أبرز الهيئات الإسلامية وأكثرها شهرة هي "جبهة الإنقاذ الإسلامية" التي أعلن عن قيامها في مسجد ابن باديس بالقبة بعد صدور دستور الثالث والعشرين من فبراير عام ١٩٨٩ م نتيجة لجهود سابقة استهدفت جمع الجهود الإسلامية المشتتة وكالت في النهاية بتكوين الجبهة وانتخب الدكتور

"عباس مدني" رئيسًا لها، والشيخ "على بلحاج" نائبًا للرئيس. وجمعت الجبهة أشناتًا من الإسلاميين، وتيارات سلفية وجهادية ومتعاطفة..

وقد كان الدكتور "عباس مدني" عضوًا بجبهة التحرير عام ١٩٦٩م، وعضوًا بالمجلس الولائي، وسافر عام ١٩٧٦ م إلى لندن وحصل هناك على دكتوراة في التربية، وعاد عام ١٩٧٩..

وأخذ يلقي المحاضرات في مسجد ابن باديس بالقبة وفي عام ١٩٨٢ م اعتقل إثر الاضطراب الذي حدث في الحي الجامعي "ابن عكنون" بين الإسلاميين واليساريين.

والعنصر السلفي هو العنصر البارز في مجموعة الجبهة، ولا نعدم عناصر جهادية تؤمن بكثير من أفكار "الرافضة الجديدة" وبوجه أخص أفكار الشهيد "سيد قطب" وكتبه وكتب أخيه "محمد قطب" من الكتب الذائعة وذات التأثير في الجزائر.

وجاءت المفاجأة عندما أجريت الانتخابات البلدية في يونيو ١٩٩٠م، إذ اكتسحت الجبهة الأحزاب الأخرى وظفرت بأغلبية كبرى في معظم الولايات (٣٢ من ٤٨ مجلسًا).

وقامت قيامة جبهة التحرير التي كانت تنفر بالحكم، كما قامت قيامة بقية الأحزاب والمتفرنسين واليساريين.. إلخ.

كما ضخمت الصحف الأوروبية - وبوجه أخص الفرنسية - أنباء هذا الانتصار، وذهبت ما شاء لها الخيال أو العداوة في التكهن بمعاينة وما تحمله للجزائر..

وكما نقول دائماً إن النجاح تجربة صعبة، وقد يكون نعمة كما يكون نقمة..

"ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم من الله شيئاً".

ويبدو أن هذا الانتصار أثر عميقاً على كل الأطراف: أثر على قيادة الجبهة، كما أثر على قيادة المعسكرات المضادة لها..

وأخذت الحكومة تضع الخطط للحيلولة دون اكتساب الجبهة مثل هذا الانتصار في الانتخابات النيابية السياسية التي كانت ستجرى في يونيو ١٩٩١م.

وكانت وسيلة الحكومة إلى ذلك تعديل نظام الانتخابات - في ضوء نجاح الجبهة - بما يحول دون تكرار مثل هذا النجاح..

وقيل إن خبراء فرنسيين اشتركوا في ذلك بحيث وضعت تعديلات جذرية وقدمت حجج وتعللات لتبريرها.

ورأت الجبهة أن هذه التعديلات إنما تهدف في الحقيقة إلى استبعادها ووضع العراقيل أمام نجاحها. فتحركت ونظمت مسيرات عديدة احتجاجاً.. كما أعلنت الإضراب العام..

وكانت الجبهة قد دخلت في أعقاب انتصارها في يونيو عام ١٩٩٠ م المجال النقابي وأسس "النقابة الإسلامية للعمل" التي انثالت عليها جماهير العمال، حتى ظن أنها ستحل محل "الاتحاد العام للعمال الجزائريين"..
المهم أن الجبهة استدرجت إلى معركة لم تكن قد تهيأت لها..

لا من ناحية الزمن: فلم يكن قد مضى على قيامها أكثر من عامين..

ولا من ناحية "الهيكلية" أو التنظيم وغربله العناصر ووضع النظم التي تحول دون حدوث تنافر أو انشقاق..
وبحجة هذا الصدام ألقى الحكومة القبض على الدكتور عباس مدني، وقيادات الجبهة، والعناصر النشطة فيها.

ونحن وإن كنا نتابع مشفقين هذه الأحداث فإننا لم نعش في أعماقها، ويكون من العسير إصدار الأحكام وقد يمكن القول أن الجبهة تسرعت وكان عليها أن تدرس البدائل، فإذا لم تجد إلا العمل الجماهيري من مسيرات، ومظاهرات،

وإضرابات، فقد كان عليها أن تضع الخطط الدقيقة لهذه المعركة.

ولكن من الظلم لها أن يلصق بها أنها خالفت الشرعية، فالحرية التي سمحت بها التعددية الحزبية الجزائرية تسمح بما قامت به الجبهة التي تملك الشارع.

ولئن لم تفعل الأحزاب مثلها فذلك لأنها ببساطة لا تقدر على ذلك.. لأنها لا تملك الشارع. ولكنها تفعل ما هو أسوأ: فحزب العمال التروتسكي كان يضع صورة الشاذلي على الأرض ويطؤونها بالأحذية ويصقون عليها ولو كان هذا الحزب يملك ربع ما تملكه الجبهة لما تردد في تنظيم المسيرات وإعلان الإضرابات.

فالخطوة التي أخذتها الجبهة تحاسب عليها بمعيار الفشل أو النجاح.. التريث أو التعجل.. التشاور بدلاً من الانفراد؛ ولكن ليس بمعيار الشرعية لأنها لا تخالف الشرعية.

وما قيل في هذا الصدد إنما أريد به تلويث الجبهة، أو تبرير الإجراءات التعسفية التي اتخذتها الحكومة وكأنها ندمت على ما منحته من حرية، وحنّت إلى العهد القديم.

واستطاعت الحكومة أن تلعب لعبتها بمهارة، وأن تستغل التكوين "التراكمي" للجبهة في استخلاص بعض العناصر لإيجاد قدر من البلبلة.

كما "حيدت" الأحزاب الإسلامية الأخرى التي كانت قد انتقدت سياسة الجبهة والحق أن مستقبل الاتجاه الإسلامي يتعرض اليوم لامتحان عسير سيكون له ما بعده، لأن انتصارات العام الماضي ١٩٩٠م قد أصبحت مهددة بعد أن نجحت الحكومة والأحزاب اليسارية والمتفرسة.. إلخ، ومن ورائها الرأي العام الأوروبي في استنفار كل القوى المعارضة للاتجاه الإسلامي وهي لا تزال قوية خاصة في المدن - وقد شاهدنا دلائل ذلك بأنفسنا - ولاحظ مراسل الشعب (1) أنه لم يجد "فتاة واحدة من اللائي يلبسن البنطلون والزي الأوروبي تتحدث باللغة العربية، فكلهن يتحدثن الفرنسية: في العمل، وفي الطريق، وفي التاكسي!"

وروى واقعة لها دلالتها:

ففي لقاء الحكومة والأحزاب هناك العديد من رؤساء الأحزاب ممن تحدثوا باللغة الفرنسية فقط، وبعضهم تحدث بالعربية والفرنسية معاً، وبعضهم عندما كان يتحدث بالعربية كان يقول كلمات بمعانٍ تختلف عن المضمون الذي يريده، وكان من أبرز الطرق في هذا الشأن ما قاله السيد "عللو" رئيس أحد الأحزاب: أن الأديان سوف تخرب البلاد!! فهاج

(1) مجلة الشعب: عدد ٢ سبتمبر ١٩٩١ ص ٧ مقال "المصير الذي ينتظر الديمقراطية في الجزائر للأستاذ أحمد السيوفي.

عليه كل من في القاعة.. ثم تبين أنه يقصد "الديون" وليس "الأديان"! وفي الحقيقة الوحيدون الذين تكلموا بالعربية فقط وبفصاحة هم زعماء الأحزاب الإسلامية وعلى رأسهم الشيخ محفوظ نحاح ثم الشيخ عبد الله جاب الله⁽¹⁾.

* * * *

فهذا الوضع يدل على أن القوى المعارضة للاتجاه الإسلامي تتجمع للقضاء على الجبهة ولو استطاعت ذلك - لا قدر الله - فسيأتي دور الأخوان وبقية الأحزاب الإسلامية.. فهل فكروا في هذا..؟

البرنامج السياسي للجبهة

وضعت الجبهة مشروعاً لبرنامجها السياسي نشر بمجلتها "المنقذ" في العدد الذي صدر في النصف الأول من ربيع الأول عام ١٤١٠هـ، وإن كان يحمل تاريخاً أقدم هو التاسع والعشرين من رجب ١٤٠٩هـ الموافق السابع من مارس ١٩٨٩م.

كما طبعته الجبهة في كتيب مستقل في قرابة أربعين صفحة، ولا يسمح المجال لعرضه كاملاً، ولكننا سنعرض معظمه حرصاً على إيضاح وجهة نظر الجبهة كاملة، وفيما يلي هذا العرض:

(1) المرجع السابق.

مدخل

من أهم خصائص العمل الإسلامي الهادف الجدية ولتحقيقها فهو منضبط شرعاً وعقلاً ومصلحة وواقعاً مراعاته للفطرة البشرية التي يتعامل معها وحتى لا تقع في الضلال والزيغ أو الشطط في الإفراط والتفريط عولجت المحاور الرئيسية للعمل السياسي للجهة الإسلامية للإنقاذ على أساس الضوابط التالية:

الالتزام بالشرع الإسلامي ومنهجه في العدل والاعتدال والكفاية والشمول حتى يتسنى لنا معالجة جميع القضايا المطروحة وعلى اختلاف أهميتها لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

توظيف العلم ومعارفه واستخدام منهجيته في ضبط المسائل وتحديد المشكلات وتحليلها وكشف الحلول لها وطرق إنجازها واستخدام التقنيات وفنياتها لتتوفر لدى المحاور شروط الخبرة والكفاءة من حيث هي شروط لازمة لكل عمل قويم صالح هادف، وكل هذا تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾.

ضرورة إعادة الاعتبار إلى طموح الشعب الجزائري المسلم التائق للمعالي، الراغب في الخروج من ورطة الاستعمار للتخلص من التخلف بكل أشكاله بفضل إيمانه وقوة قناعته بإسلامه وثقته في ربه عز وجل ذلك الذي يساعده على القفز خارج دائرة التبعية وأشكال الاستعمار الحديث، فلا تكون المحاور إلا مجالات لإرادته ومهداً لعبقريته ومحكاً لتجربته واستمراراً لرسالته..

وحتى لا تثبط عزيمته تتبسط المراحل ضبطاً منهجياً مراعيًا نفسية الشعب كي يستعيد ثقته بنفسه في أسواط تاريخية تحدد مراحلها حسب شروط أو حيثيات القدرة والواقعية والفعالية، وباختصار فإننا ننتقل بعون الله وحده من احترام مشاعر شعبنا وطموحاته.

حفاظاً على مشروعنا السياسي من أن يبقى حبراً على ورق، لابد من استحضار الشروط المنهجية لتطبيق النماذج أو البدائل والحلول باعتبارها خطة عملية سياسية تبقى حافزاً لعمل الجبهة الإسلامية للإنقاذ باعتباره عملاً سياسياً واعياً وجهداً للإرادة الكلية للشعب الجزائري عبر أجياله إلى أن يتحقق المراد بعون الله وتوفيقه.

إن الجبهة الإسلامية للإنقاذ من خصائص منهجيتها أنها لا تعمل في معزل عن الشعب، بل تنطلق دوماً من مبدأ العمل معه في كل خطوة إجرائية تاريخية،

فتكون المنجزات ثمرة لجهده، وهو منهج الصحابة - رضي الله عنهم عندما قالوا له: - لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ولا يتخلى منا أحد.

التزاماً من الجبهة الإسلامية للإنقاذ بروابطها السابقة تحدد علاقاتها، ومواقفها بكل ما بالساحة من الهيئات والجمعيات والمؤسسات في ضوء الوضوح المنهجي لرؤياها العقائدية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والحضارية في النطاق الإسلامي الشامل والمصالح الكبرى للشعب الجزائري وثوابته، وذلك حسماً للمواقف الارتجالية ومنعاً للتصرفات الشخصية وتلافياً للمواقف غير المدروسة الفاقدة للوعي السياسي المطلوب والالتزام بالمنهجية والشرعية من ضوابط الجبهة.

بناءً على ذلك يتم ضمان العدل والاعتدال والدقة والشمول لمحاوَر العمل السياسي للجبهة الإسلامية للإنقاذ حسب الترتيب التالي:

أ- الإطار العقائدي:

إن الشعب الجزائري شعب مسلم عريق في إسلامه ويمثل رسالته التاريخية الحضارية وبناء على ذلك فإن الإسلام هو النطاق العقائدي والضابط الأيديولوجي للعمل السياسي في جميع مجالات الحياة. وإذا كانت الأزمة التي تجتاح العالم وتهز الحضارة من أقوى الأدلة على القصور الأيديولوجي

الذي آلت إليه النظم والأمم، فإن الإسلام هو النطاق العقائدي الأقوم للمشروع السياسي الذي يقوى على مواجهة الأزمة لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

ب- المحور السياسي:

السياسة في مفهوم الجبهة الإسلامية للإنقاذ هي السياسة الشرعية والتي تتمثل في حكمة التدبير وجودة التنسيق وأحكام التوقع ومرونة الحوار للوصول إلى الحق والحقيقة وعدل الإلزام، واعتدال في المواقف بمنهج الصدق لأنها تقوم على الإقناع بدلاً من القهر ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَذَكَرْنَا أَنْتَ مُذَكَّرًا. لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ وتتبنى بالاختيار دون الإجبار لقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تَكْفُرُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وتلتزم الشورى تفادياً للاستبداد لقوله تعالى: ﴿وَأْمُرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾

وقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ ولتجاوز تناقضات سياسية
الإيديولوجيات المستوردة يعمل البرنامج السياسي للجبهة
الإسلامية للإنقاذ على تحقيق ما يلي:

أولاً: للقضاء على الاستبداد تتبنى الشورى، وإزالة
الاحتكار السياسي والاقتصادي والاجتماعي تتبنى المساواة
ومبدأ تكافؤ الفرص السياسية والاقتصادية والاجتماعية،
ولتقادي قمع الحريات العامة تعمل الجبهة على إفساح مجالها
للعبقرية والإرادة الكلية للأمة في جميع مجالات الحياة
وإكفالتها للناس على السواء، وللتخلص من سياسة الحضوة
والحرمان تعمل على وضع معايير للمسؤوليات وضمن
الأمانات وأداء المهام في تشجيع روح العمل الجماعي،
والقضاء على الأنانية والمحسوبية والنزعات الفردانية وكي
لا تقع الجبهة في ذلك تضمن حرية التعبير، وتشجع على
النقد الذاتي وتحدد طرق المحاسبة الإدارية والسياسية
والاقتصادية في كل المؤسسات والنظم وتوعية الشعب
وإشعاره بالمسؤولية حيال ذلك، وتحيي نظام الحسبة
الإسلامي، وتطبق مبدأ من أين لك هذا في حدود الشرع.

ثانياً: ولتحقيق ذلك يصير لزاماً أو مطلوباً من الجبهة
الإسلامية للإنقاذ العمل على تصحيح النظام السياسي ابتداءً
من الميادين التالية:

جعل التشريعات السياسية خاضعة لأحكام الشريعة لقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ﴾ وقوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ مع مراعاة مستجدات مرحلة التعددية الحزبية ليساهم كل طرف بحقه في الإصلاح ابتداءً من المجلس الوطني وسائر المجالس الولائية والبلدية، حتى يصبح جميعها قائماً على الشرعية التي يتبناها الشعب الجزائري المسلم من خلال قناعاته.

إصلاح الجهاز التنفيذي في الرئاسة والوزارة والولاية والدائرة والبلدية.

إصلاح المنظومة العسكرية قصد الرقي بها إلى حماية البلاد والعباد من أي خطر يمس بالسيادة، أو الحريات والحقوق والواجبات ومصالح الأمة الكبرى.

إصلاح السياسة الأمنية، حتى تخلو من كل قهر أو تعسف، وتؤم لمصلحة الأمة في ضوء رسالتها وفي نطاق حرياتها. التي أقرها الشرع وتحديد مهام كل المصالح والمؤسسات، لضمان العدل والاستقرار والسلام.

إصلاح المنظومة الإعلامية فتوظف المؤسسات بما تقتضيه رسالتها الثقافية والتربوية وشروط نهضتها الحضارية، بوعي سياسي ثقافي حضاري يجنب البلاد التبعية الثقافية، ويحفظها من الغزو الثقافي الذي ما زالت هدفاً له.

إصلاح المنظومة الاقتصادية توزيعًا وظيفيًا سياسيًا واقتصاديًا وحضاريًا لإعادة النظر في سياسة الطاقة والمحروقات، وتصدير المعادن وسائر الثروات.

إصلاح السياسة التجارية الداخلية والخارجية، لوضع حد للاحتكار والربا والرشوة والتبذير والضياع.

إصلاح المنظومة الإدارية لتسيير المهام وضمن سير المصالح، وكفالة الحقوق وإزالة عقبة البيروقراطية كما يقال.

إعادة النظر في السياسة الزراعية بكفالة الدعم الفلاحي وضمن العلاقة الوظيفية بينها وبين الصناعة التحويلية، لضمان الاكتفاء الذاتي والتصدير المناسبين لكل من السوق الداخلية والخارجية.

إصلاح المنظومة التربوية لوضع حد للفاقد التربوي واستيعاب جميع الأعمار، وكفالة حقهم في الحد الأعلى من جودة التحصيل، أو النوعية التربوية التي يطمحون إليها، لتجعلهم بحق ورثة حضارة ومساهمين في حمل الرسالة، وعاملين على الاستمرارية نحو الأفضل.

وهكذا بإصلاح جميع النظم وهياكلها ومؤسساتها يتم الإصلاح الشامل للنظام السياسي في نطاق الحل الذي يمثل سياسة التغيير كما تحدده الجبهة الإسلامية للإنقاذ.

إصلاح المنظومة القضائية بإعادة الاعتبار إلى استقلالية القضاء وحصانة القاضي كما حددته الشريعة الإسلامية، لتوفير مناخ العدل الرباني الذي لا تشوبه شائبة الظلم، ولا تشينه شائبة الجور من حيث العدل هو أساس السياسية الشرعية ومبرر الحكم وغاية النظام السياسي.

ضماناً لحرية الأمة وحق التعبير عن إرادتها بأصح الطرق وأسلمها شرعاً وشرعية يعاد النظر في قانون الانتخابات، فلا توكل لغير الراشد كالسفية والصغير وفاقد العدالة الشرعية، ولا يجبر أحد على الانتخاب سواء في خدمة عسكرية، أو في وظيفة أمنية أو إدارية أو غيرها؛ فينتخب جميع الناس بمحض الحرية.

وتحفظ الصناديق بالطرق الشرعية القضائية، ولا توضع إلا أمام شهود عدول يجمع الناس على أمانتهم، وتنظم طرق عد الأصوات وجمعها ونقلها إلى الرأي العام الوطني والعالم، مما يضمن شرعيتها، ولا يترك سبيلاً إلى الشك في صحتها، وعدم تزيفها بحال من الأحوال، وحضور مراقبين ممثلين للهيئات المعنية مع حق الطعن بواسطة القضاء.

بالإضافة إلى تحديد طرق الترشيح للعدال الممثل للأمة والمناسب للتعبير عن المشاركة الفعالة في تسيير أمور البلاد

بإخراج الممثلين الشرعيين في مختلف المجالس، والهيئات التشريعية والتنفيذية والسياسية وغيرها.

ج- منظور السياسة الاقتصادية

تقوم السياسة الاقتصادية للجبهة الإسلامية للإنقاذ على مفهوم يكون بمقتضاه ضمان التجاوب بين الحاجات الاستهلاكية الضرورية، وشروط الإنتاج والتكامل بين النوعية والكمية، ومراعاة نمو الحاجة إليهما في ضوء النمو السكاني والتطور الحضاري، والعمل على تحقيق الاستقلال الاقتصادي، بالإضافة إلى التوازن بين الصادرات والواردات لحماية البلاد من التضخم والمديونية اللتين أمستا تشكلان أخطر التناقضات التي تواجهنا أمام العمل الجاد من أجل تحقيق العيش الكريم، ووضع حد للتبعية الاقتصادية والسياسية والحضارية، ولما تعرضت البلاد لفترة طويلة من النهب لثرواتها لمدة قرن وربع من الاستعمار، كما تعرضت للضياع في فترة النظم السابقة التي أوقعت البلاد في أزمة اقتصادية تعذر فيها التوازن بين الاستهلاك والإنتاج، حتى في أكثر الأمور ضرورة كالدواء والسكن فزاد الاستهلاك وقل الإنتاج وزادت الحاجة إلى استيراد المواد الاستهلاكية والإمعان في التبعية الاقتصادية.

ولتعرض البلاد إلى سياسة خنق الحريات والفضاء على روح المبادرة بدعوى التخطيط وتأخر الخطط الإنمائية وتخلف المنظومة التربوية، تعرضت لفاقد همش الطاقات البشرية ولانخفاض مستوى التحصيل وسذاجة الخبرات وتعطيل المشاريع الإنتاجية، ومنع المؤسسات الصناعية الصغرى، فقلت وظائف الشغل وكثرت البطالة، ونمت العطالة مما زاد التضخم استفحالاً والتناقضات الاقتصادية تفاقماً، وجعل النظام الحالي يفقد القدرة على السيطرة على أوضاع اقتصاد متدهور.

إن سياسة التصنيع التي انطلقت من المركبات الصناعية الكبرى والمصانع التي تعتمد على مواد أولية واصطناعية مستوردة، وخبرات عالية مستعارة وإنتاج غير كاف في جودته وفي وفرته، جعل هذه السياسة تؤول بالبلاد إلى إفلاس اقتصادي خطير، فإذا لم تكن الصناعة مبنية على الاكتفاء الذاتي سواء في التشغيل أو الاستهلاك أو التصنيع، فإن هذه الصناعة لن تزيدنا إلا فقراً وإمعاناً في التبعية، وهو ما جعل الصناعة عندنا عالية على الاقتصاد بعدما كان مبررها كفاية البلاد، وتشغيل الطاقات من الشباب والخبرات، بالإضافة إلى ما سبق سوء التسيير وضياع التسويق.

إن الاستثمار من أهم الوسائل العملية لتطبيق الخطة السياسية الإنمائية الشاملة خاصة في شعب يعيش طفرة سكانية جعلت ثلثي السكان شبابًا - أقل من ثلاثين سنة - فإذا لم تكن السياسة الاقتصادية قادرة على التكريس المالي في ميزانية الدولة، مما يجعل الاستثمار في مستوى الحاجات المستقبلية لإعداد شروط الاستقبال في مختلف مستويات مناصب التشغيل، والوظائف يصبح الأمر من الخطورة ما يجعل أجيال الأمة تخشى من المستقبل الذي يتهددها بالبطالة والفقر المفضيين إلى الهامشية الحضارية.

لهذه الأسباب كلها تتخلص الجهود السياسية الاقتصادية في المحاور التالية:

وضع سياسة رشيدة للزراعة.

إعادة النظر في سياسة التصنيع الحالية، كي تصبح ذات مردودية مناسبة للمطلوب.

إعادة النظر في التجارة وهياكلها وسياستها الاستهلاكية، ونظام التسويق ووسائل التوزيع إلى غير ذلك.

إعادة النظر في السياسة المالية والنقدية لضمان استقلال القرار السياسي سواء في الداخل أو في الخارج.

أن الجبهة الإسلامية للإنقاذ وهي تتطرق من منطلق إسلامي لإنقاذ الإنسان والحضارة تعتبر الاقتصاد سواء في

إنتاجه أو استهلاكه، وسواء في استثماره الاستهلاكي أو الحضاري الأشمل، ما هي إلا عامل من عوامل خدمة الإنسان والرقي به إلى ما يطمح إليه من سعادة في الدارين ومكانة وظيفية تاريخية وحضارية، من هذا المنطلق العقائدي والأيدولوجي الاقتصادي تعالج المحاور التالية في نموذج اقتصادي إسلامي في جميع مجالات الحياة كالزراعة والصناعة والتجارة والسياسة المالية، والخطة الإنمائية الشاملة.

١- الزراعة:

الزراعة من أهم موارد البلاد وذلك لما منحها الله من سعة في المساحة، واعتدال في المناخ وتتنوع في التضاريس.. بالإضافة إلى أن الجزائري بطبعة مرتبط بأرضه ارتباطاً نفسياً وعضوياً جعله من أنجح الفلاحين إنتاجاً نوعاً، وكما در على البلاد أرزاقاً طائلة وجعلها تعرف بالتصدير لأشهر الأسواق العالمية استهلاكاً. هذا بالنسبة لما تم إصلاحه واستغلاله في الشريط الشمالي، وفي عمق الهضاب العليا من الأراضي الخصبة. أما الهضاب العليا والأراضي الصحراوية الصالحة للزراعة التي لم تستصلح بعد لافتقارها إلى سياسة واعية للري، جعل البلاد لا تستغل كميات الأمطار التي أدرّها الله على البلاد، مما

جعل المياه الجوفية لم تستخرج والأودية، والأنهار تهدر فتكب في الشطوط في عمق الصحراء، وفي البحر من الناحية الشمالية.

أن السياسة الزراعية التي أدخلت الأراضي من فلاحها وضيعت الوقت على الأمة والبلاد بعدم إنجاز السدود وتحويل الثروة المائية إلى الأراضي التي تطلبها، ورط البلاد في تخلف زراعي لم تعرفه في تاريخها القديم والحديث.

إن المعطيات الطبيعية المذكورة آنفاً تتوقف ثروتها على سياسة رشيدة، تعد المشاريع الكبرى لأحسن استفادة بالمياه وأجود استغلال للأراضي، وذلك بإصلاحها حسب الطرق العلمية والتقنيات ذات الكفاءات والفعاليات التي قد تجعل الصحراء ترتوي بأمطار الشمال، وتجعل أسواق الشمال تغني بغلال الصحراء. فإذا تكاملت الطبيعة في تنوعها، كيف لا تتكامل السياسة في إنتاجها وفق الحاجات الاستهلاكية والأسواق العالمية، فعندما تتوفر الجودة للمنتوج الزراعي تقوي الحظوظ للتفوق في الأسواق العالمية للمنتوج الزراعي. وتتلخص الجهود السياسية الزراعية للجبهة الإسلامية للإنقاذ في الإجراءات التالية بعون الله وتوفيقه:

تصاغ السياسة الزراعية في السياسة الشرعية العادلة لوضع حد لأخذ الأرض غصباً من أصحابها، وعملية

توزيعها بالطرق الإقطاعية لقوله عليه الصلاة والسلام: "من ظلم شبرًا من الأرض طوّقَهُ اللهُ من سبعِ أراضين" رواه البخاري ومسلم عن عائشة.

جدية استصلاح الأراضي بالطرق الفنية التكنولوجية وتوزيعها على ذوي الاستحقاق بشرعية خلية من المحسوبة والحظوة، وسائر حالات التعسف والظلم، أي أن يكون توزيع الأراضي عادلًا وفق المعايير التي تُحدد بعد في نطاق الشرع.

العناية بتربية المواشي حيث تستغني البلاد في أقرب وقت ممكن عن استيراد اللحوم والألبان ومشتقاتها. إعادة النظر في سياسة التوزيع والتسويق في الداخل والخارج.

تدعيم الزراعة والصناعة التحويلية وتشجيع المركبات الإنتاجية الصغرى والمتوسطة، حسب حاجات الزراعة كي لا يتعرض منتوجها إلى إتلاف.

إنشاء المخازن الكبرى لخرن المنتوجات الزراعية احتياطاً وتحسباً للأزمات والحروب والعاهات.

وضع خطة زراعية ضامنة للمصالح حتى لا تكون الحاجات الآجلة على حساب العاجلة ولا العكس.

إن السياسة التي لا تأخذ بعين الاعتبار سنين القحط في سنين الرخاء سياسة عمياء ليس لها من الحكمة شيء قال تعالى: ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾.

إنشاء مراكز للبحوث العلمية الزراعية في مزارع نموذجية لتطوير علم الزراعة وتقنياتها.

إرجاعاً لثقة الجزائري بنفسه، ومساعدة له على رفع مستواها في الخبرة تصلح المؤسسات التربوية الزراعية وفق حاجات البلاد إلى أرقى الخبرات التقنية والزراعية، وفي حالة ما إذا كانت وسائل الاستقبال غير كافية تدعم وتثري وتساند بما يكون محققاً للمراد.

وضع خطة صناعية زراعية لتطوير العتاد الزراعي حتى تكون الزراعة في بلادنا في مستوى التطور العلمي والتكنولوجي للبلدان التي تتنافسنا في الأسواق العالمية، باعتبار أن نوعية الإنتاج مرتبطة بنوعية الإنتاج مرتبطة بنوعية التقنية ومستوى تفوقها، مع ضرورة تلبية الحاجات الوطنية المحلية بدلاً من تسويقها في الخارج فلا تكون التجارة على حساب الزراعة.

هذا وإنَّ للجبهة الإسلامية للإنقاذ أنْ تحدد العوامل الأساسية المؤثرة في الميدان الزراعي سلبيًا أو إيجابًا، فذلكم

فقط في مجال عالم الأسباب، وهي تدرك أن توبة الشعب الجزائري التي تجسدها هذه الروح التي انطلقت من أعماق ضميره في شوق إلى العودة للإسلام، فإن الله سبحانه وتعالى قادر بذلك أن يدرّ علينا خيراته وأنعمه وأفضاله لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ. مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ. إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ على أن ذلك لا يبرر الاتكالية، وعدم الجد في توفير الأسباب لقوله عليه الصلاة والسلام: "اعقلها ثم توكل".

٢- الصناعة:

في بلد يطمح شعبه إلى وضع حد للتبعية ويأمن دينه بإعداد العدة من القوة المطلوبة على مستوى الفعالية الحضارية الكونية لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ﴾ تعتبر الصناعة من الشروط الضرورية للنهضة الحضارية.

غير أن الصناعة في منظور الجبهة الإسلامية للإنقاذ على أهميتها لا تكون على حساب الزراعة كما حصل بالماضي، بل بالعكس تعمل على مسانقتها والتكامل معها، لا تكون على حساب الإنسان المسلم في قيمته وقيمة نفسيته

ومكانته كالذي يحدث في البلدان الرأسمالية في أمريكا وغيرها أو الذي يحدث في البلدان الشيوعية كروسيا ومن على شاكلتها، وإنما هي صناعة للإنسان الصانع أداتية حضارية كونية ذات فعالية سواء أكانت للمجالات السليمة أو للضروريات العسكرية، لحماية حمى أمة لا إله إلا الله محمد رسول الله، وحماية الحق والحريات في العالم.

وتتلخص السياسة الصناعية في المحاور التالية:

جعل الصناعة في الجزائر تتكامل فيها قوى الإنتاج الصناعية وغيرها.

لمواجهة مشكلات البطالة ضرورة الإكثار من مناصب الشغل، عن طريق تشجيع المعامل الصغرى والمتوسطة، على أن توظف هذه المراكز في ضوء حاجات البلاد الاستهلاكية، إلى حد الكفاية دون أن تفتقر إلى المواد الأولية الأجنبية، التي تتعارض مع مبدأ الاستقلالية الاقتصادية، أو بمعنى آخر تكوين صناعة متكاملة في إنتاجها وتصنيعها، على أن لا تكون على حساب النوعية.

تشجيع التنوع الوظيفي للهياكل الصناعية والمؤسسات ل جعل الصناعة عندنا قادرة على الاكتفاء الذاتي فيشغل بعضها بعضًا في سلسلة محكمة حلقاتها، منسقة وظائفها متوازنة إنتاجياتها متجاوبة أدواتها بالقدر الذي يكفي البلاد مؤونة الحاجة إلى الخارج.

إنماء الخبرات التكنولوجية يرفع مستويات المؤسسات التربوية الصناعية من معاهد وجامعات ومراكز بحوث، حتى تلبى حاجة البلاد إلى النهضة الصناعية.

مراعاة حاجة ثروات البلاد الطبيعية إلى صناعة مصنعة متكيفة مع مستجدات التطور الصناعي والتكنولوجي الذي تشهده الحضارة على مستوى السباق سواء في التسلح أو في التسويق أو في الاستهلاك.

إنشاء معامل نموذجية للبحوث العلمية والتكنولوجية تعمل على إعداد ذوي الكفاءات العليا والعبقريات المتفوقة من العلماء والتقنيين وذوي التخصصات الدقيقة، سواء في العلم أو في التكنولوجيا خاصة في علوم الصناعة، أو مالها علاقة بها، كالفيزياء والرياضيات والكيمياء ومختلف أشكال الهندسات المعمارية والفضائية وتشجيع الذكاء والعبقرية والميول والقدرات على التفوق والإبداع.

وإذا كان تسيير المؤسسات من أهم عوامل ازدهار الصناعة؛ فإن منهجيته الإسلامية تقضي بأن تسوده روح الجماعة عن طريق الشوري والاحترام المتبادل، والشعور بالمسؤولية من طرف جميع العاملين في المؤسسة وفقاً لقوله عليه الصلاة والسلام: كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته.

ضرورة إعادة الاعتبار إلى العامل ومراعاة نفسيته وكفالة حقوقه، وتوفير الشروط النفسية الصحية والاجتماعية والأمنية والنقل والترقية والتعويضات والتشجيعات والسكن، وسائر متطلبات الحياة الكريمة لقوله عليه الصلاة والسلام: "اعطوا الأجير حقه قبل أن يجف عرقه" وكذلك قوله: "من أمسى كالأمن عمله أمسى مغفوراً له".

إعادة النظر في سياسة الجمارك في ضوء تحقيق وحدة المغرب العربي، وتشجيع إنشاء سوق عربية وإسلامية مشتركة لنخرج من الحصار الجمركي التقليدي الذي صار عائقاً لضرورة التبادل الوظيفي للمنتوج الزراعي والصناعي، وتبادل المصالح وتكامل الثروات والإمكانات والطاقات البشرية والطبيعية على مستوى أوسع عبر البلاد الإسلامية، وللتخلص من المضايقات التي تفرضها علينا الدول المنتجة الثرية كالذي حدث لليبيا بسبب الموقف الأمريكي، والذي حدث لقبرص التركية وللبترول الإيراني، وهو ما يثبت ضرورة التكامل الاقتصادي سواء في الإنتاج أو في الاستهلاك على مستوى أوسع مغاربي وعربي وإسلامي، دون أن نغفل التفتح على جيراننا الأفارقة لتعميق سياسة الوحدة الأفريقية.

إنشاء مؤسسات إدارية ذات الاعتمادات المالية لرعاية المبادرات الصناعية للبحث والاكتشاف والتجديد والتطوير في مختلف ميادين الصناعة والتكنولوجيا، مع تسهيل التعامل سواء في الداخل أو الخارج، وذلك برفع الحواجز الجمركية أمام هذه المبادرات وتخفيف أو إعفاء المشاريع من هذا النوع من الضرائب غير المباشر.

إعادة النظر في سياسة الملكية العامة للحفاظ عليها من الوقوع في يد الأجنبي، أو ذوي الحظوة لقوله تعالى في شأن المال: "كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم".

وضع معايير تحدد مجالات تدخل الدولة في الملكية الصناعية وحماية مبادرات القطاع الخاص على أن لا يتحول هذا الأخير إلى محتكر، أو يتعدى حدود المصلحة العامة فيصير طفيلياً اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً.

وضع معايير لحماية الجودة، وحق المستهلك هذا وأن الجبهة الإسلامية للإنقاذ على ضوء هذه السياسة، ستعمل دوماً بعون الله وتوفيقه على مراقبة وتجديد هذه السياسة وفق المستجدات ومطالب الصيرورة الإنتاجية والاستهلاكية، لمعرفة مدى ما تحقق من الأهداف والمقاصد والحاجات، ضمن سياستها الإسلامية الشرعية الشاملة، حتى تكون الصناعة متجاوبة مع غيرها من المحاور المكونة للبرنامج

السياسي المتكامل، واكتشاف المعوقات والموانع التي تظهر في الميدان عند التطبيق قصد معالجتها وتحقيق الخطة الإنمائية الشاملة في أوانها ومكانها بالدقة العلمية السياسية الشرعية التي تنتهجها الجبهة.

٣- التجارة:

التجارة كما تتصورها الجبهة الإسلامية للإنقاذ هي شرايين الاقتصاد فيها يوظف الإنتاج وعن طري توجه الثروات، وبواسطتها تتكامل المصالح، وبفضلها يكون التوازن المفضي إلى تحديد القيم المادية في نطاق الشرعية الإسلامية والمصالح المتبادلة؛ فلا تكون مصلحة المنتج على حساب المستهلك، كما لا يكون العكس، ويكون ربح البائع على الزبون، ولا يصح العكس أيضاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ ولقوله عليه الصلاة والسلام: لا ضرر ولا ضرار، ولتحقيق هذه المقاصد تنضبط التجارة حسب سياسة للإنقاذ وفق الطرق التالية:

أولاً: إصلاح المنظومة التجارية، بإزالة الاحتكار والربا والوسطاء، وجميع أشكال الطفيليات الاقتصادية كالغش وإخسار الميزان وبيع الغرر.. لقوله عليه الصلاة والسلام: " من غشنا فليس منا".

ثانيًا: إعادة تنظيم التوزيع والعمل على تحقيق لا مركزية المؤسسات.

ثالثًا: تغيير سياسة التسويق لتحقيق اللامركزية، وإزالة السوق السوداء وتشجيع التنافس والوفرة. وتيسير أو توفير حاجات الطلب الضرورية، وإعطاء الأولوية للسوق الداخلية عن الأسواق الخارجية في توزيع المنتجات الوطنية.

رابعًا: إعادة النظر في سياسة التسعير بمقارنة الغلاء والتضخم وفقًا للقاعدة - لا ضرر ولا ضرار.

خامسًا: التوفيق بين البيع والشراء، ويتم حسب ما تنص عليه الشريعة الإسلامية، لضمان المصالح وصيانة القيم.

سادسًا: إعادة الاعتبار إلى نظام المساهمة، وتشجيع ظهور الشركات التجارية الحرة لتنشيط الاقتصاد، وتيسير طرق التوزيع وتحقيق الوفرة.

سابعًا: إعادة الاعتبار إلى الضوابط الشرعية والمنهجية الفقهية في إبرام العقود التجارية، وتنظيم الشركات وضبط المعاملات في كل المستويات، للحفاظ على المصالح وتأمين الحقوق المبررة للواجبات.

ثامنًا: إيجاد المؤسسات الإعلامية الاقتصادية والتجارية لمساعدة التجارة والمنتجين والمستهلكين على التعرف على البضائع والمواد الاستهلاكية ومراكز

توزيعها وطرق الحصول عليها، قصد تسهيل التبادل التجاري بين المستهلك والمنتج؛ حتى يجد كل إنسان حاجته على قدر مستواه وكفايته.

تاسعاً: وضع جهاز استقبال إداري تقني اقتصادي للإشراف على هذه المؤسسات.

عاشراً: وضع سياسة التجارة الخارجية بناءً على متطلبات استقلالية الاقتصادية وحمايته بالشروط التالية:

ضبط التعامل التجاري الخارجي وفق الحاجة والوفرة في الداخل؛ حتى لا يكون التسويق الخارجي على حساب السوق الداخلي أو المنتج أو المستهلك.

منع احتكار التجارة، إلا في حالات استثنائية تكون الدولة ملزمة بذلك؛ لضمان المصالح الكبرى السياسية والاقتصادية وغيرها.

ضرورة مراعاة التدرج في تحقيق حرية التبادل التجاري، للمحافظة على الميزان الاقتصادي الضروري الذي يكون بين حجم الصادرات والمستوردات، وأن تعطي الأولوية في المراحل المبكرة من هذه السياسة إلى المواد المصنعة والضرورية صحياً ومعرفياً لفك الحصار عن عبقرية الأمة، وإرادتها للمساهمة في الحظوظ الحضارية، والجهود الرسالية لتؤدي مهمتها حيال الإنسانية، والعمل

على إقرار السلم بالمفهوم الإسلامي والعدل، ومناصرة الشعوب الضعيفة والأمم المتضررة بالسياسة الاستعمارية، والتخفيف من وطأة التبعية والتخلف والفقر والجوع والمرض والجهل والضلال، وإن استلزم ذلكم سياسة الكفاف.

يخضع ميزان الصادرات والواردات إلى معيار الخطة الإنمائية الحضارية البعيدة المدى؛ كي لا تحوّل المواد الأولية الصناعية الحضارية كالطاقة والمعادن إلى مواد استهلاكية آنية، مما يجعل سياسة الجبهة الإسلامية للإنقاذ تتصف بالأحفاد وتراعي حاجتهم لزمانهم، مما يجعل النهضة الاقتصادية والحضارية ذات النفس الطويل عبر الأجيال في المستقبل.

وضع ميزان بين الصادرات والواردات من نفس النوع لحماية المنتج الوطني، مع مراعاة ضمان الجودة، وأن يؤدي إلى دعم الدولة للمنتج المحلي.

يعتبر المنتج المصدر للخارج من أهم الميادين التي تتبلور فيها إرادة الشعب الجزائري لفرض وجوده بجهد واجتهاده لكسب الثقة بالجودة، مع الاعتدال في الأسعار حب مقتضيات السوق العالمية المبنية على التنافس.

ضرورة إعادة النظر في العلاقات مع الصندوق النقدي الدولي، وسائر الهيئات المالية والتجارية المتورطة في الأزمة الحالية، وإثارة مشكلة المديونية في ضوء المستجدات

السياسية والاقتصادية والاجتماعية، التي تطرحها سياسة الجبهة الإسلامية للإنقاذ.

ومن ثمّ فالسياسة التجارية للجبهة الإسلامية للإنقاذ تكون مكملة ومتكاملة مع سياستها الزراعية والصناعية في نطاق اقتصاد محقق للاستقلال والوفرة والنماء والتجاوب مع متطلبات النمو الاجتماعي والثقافي والحضاري.

٤ - المالية:

تشكل السياسة النقدية أخطر العوامل التي تساعد على التحكم المنهجي في الاقتصاد قصد حماية الثروات من الضياع؛ لضمان النمو والازدهار كمقصد من مقاصد السياسة الاقتصادية للجبهة الإسلامية للإنقاذ، وذلك تتضبط السياسة النقدية للجبهة الإسلامية سب الطرق التالية:

إعادة النظر في القيمة النقدية لإعطائها قيمتها الحقيقية الموحدة، سواء في الخارج أو الداخل حسب الشروط المالية، وحيثيات التبادل التجاري بين الصادرات والواردات، مما يشكل الحوافز الحقيقية للإنتاج، على أن ذلك يخضع إلى التحديات الشرعية الإسلامية للسياسة النقدية.

إعادة النظر في تسعير العملة داخلياً وخارجياً لحماية القدرة الشرائية لدى المواطن في الداخل والخارج أو تقوية الحافز لجهد المنتج وحماية القيم الاقتصادية.

ولضمان القرار السياسي سواء في الداخل أو الخارج
تعتمد ميزانية الدولة على المصادر التالية:
الثروات الطبيعية.

المنتوج الزراعي والصناعي والتجاري، والاعتماد على
توفير شروط الاكتفاء الذاتي، وعدم الاتكالية على الغير، مع
ضرورة ضمان العدل.

وبناءً على ذلك يعاد النظر فيما يلي:
سياسة الضرائب الجمركية.

اعتبار الزكاة والأوقاف من الموارد الشرعية للدولة ما
التزمت الدولة بالسياسة الشرعية.

وفي حالات التأزم الاقتصادي أو الاجتماعي يكون
صندوق التكافل الاجتماعي والقرض الشرعي. إن الدول التي
تستلّف من مواطنيها لعدلها، خير من تلك التي تغتصب
أموالهم، أو تعتمد على أسلوب التضخم أو المديونية
الخارجية.

تشجيع الجزائريين وسائر المسلمين من ذوي الثروة في
الخارج، بما في ذلك المهاجرين، على وضع أموالهم في
صالح تحريك الاقتصاد الوطني ليحقق الكفاية المطلوبة، وهو
من ضروب الجهاد بالمال، وذلك سواء عن طريق القرض،

أو عن طريق التبرع أو الاستثمار، على أن الدولة تلتزم بجميع الضمانات للحفاظ على أرزاق الناس.

إعادة النظر في سياسة البنوك قصد ضمان ثروات الدولة وأرزاق المواطنين، وسائر المساهمين في إثراء البلاد عن طريق الاستثمار؛ لضمان حرية القرار السياسي سواء في الداخل أو في الخارج.

إنشاء بنوك إسلامية وصناديق للقرض والتوفير الخالية من الربا بكل أشكاله الضامنة للمصالح العاملة على ضمان روح التكافل، والتعاون والرقي الاجتماعي والنمو الاقتصادي. وبناءً على ذلك تحدد في كل سنة ميزانية الدولة حسب الحاجات العاجلة والآجلة. بميزان يضمن التحسن التدريجي والنمو الاقتصادي بالسرعة المطلوبة حسب حيثيات المستجدات السياسية والأحداث التاريخية، سواء في الداخل أو في الخارج، على أن سياسة الميزانية تلتزم بأن تصرف المالية حسب سلم الأولويات الذي يحدد حسب المستجدات، باستثناء الزكاة التي تصرف لما حدده الشارع الحكيم لها.

تعديل وسيلة الجباية التي صارت فوق مستوى طاقة المواطنين وصارت عاملاً من عوامل الغلاء الفاحش والتضخم، وسياسة نهب المواطن، واغتصاب ماله باسم القانون والمصلحة العامة، وكأن المصلحة العامة في أضرار

الموطن، وتكليفه ما لا يطيق، فلا بد من وضع حد من هذا التعسف لدفع عجلة النماء العادل.

السياسة الاجتماعية:

تتعلق السياسة الاجتماعية للجبهة الإسلامية للإنقاذ من مبدأ تكريم الإنسان الذي ورد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾، وذلك بدءًا بكفالة الحقوق والحريات التي كفلها الشارع الحكيم، المحققة لنموذج "خير أمة أخرجت للناس" بالتساوي لجميع الناس، باعتباره النموذج القائم على التكافل الاجتماع المانع صراع الطبقي والطائفي.

ومن ثم فإن السياسة الاجتماعية للجبهة الإسلامية للإنقاذ تتمحور في العناصر التالية:

أ- حق الوجود:

من أبعاد التكريم الرباني للإنسان أن جعل وجوده نعمة، واتخذ مهمته مبررًا لوجوده، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ. مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا. إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ فببر الله الوجود بالعبادة، ولم يببره بالكسب الذي اعتبرته النظريات

الحديثة ابتداءً من مالتوس إلى ماركس عالية على الاقتصاد وظيفيًا في الكون. كما أبرز التكريم في علاقته بربه أيضًا من علاقته بالأكوان التي سخرها له فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

وإذا كان الإنسان - بحكم التكريم - هو محور الكون بفضل فعاليته؛ فإن هذه الفعالية ليست بالفعالية الحيوانية التي لا تتجاوز حدود الاستهلاك؛ بل هي فعالية كونية تتجاوز الحاجات الفردية والجماعية الآتية إلى الأبعاد الحضارية من حيث هو - أي الإنسان - يصير صانعًا للحضارة وليس أبدًا عالية عليها. ولذلك فإن ما رفع من شعارات لتحديد النسل ما هو إلا مسُّ بكرامة الإنسان، وهدر لقيمه واستلاب لاستحقاقه للمكانة الأولية في الكون. يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِّنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرِزُقُهُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ على أن الأمة مطالبة بكفالة الرعاية والعناية لجميع المواليد بالتساوي في حظوظها، ويعد الحرمان من ذلك مسًّا بقيمة الوجود.

ب- حق الرعاية والعناية:

إن حق الرعاية والعناية في جميع مراحل النمو من النطفة إلى آخر مراحل الرشد والاكتمال وأرقى مستويات التحصيل مرتبط بقيمة الوجود، باعتباره وجود رسالي تاريخي حضاري. ومن ثمَّ فإن الحق في التربية حث شرعي

يتضمن الواجب الذي يخول المسؤولية التربوية لكل من الأم والطفل المعنى بالتربية؛ ولذلك فهي حق وواجب في أن واحد لقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ فربط النص الشرعي بين حق الإيجاد وحق التعلم لمضمون الرسالة إشارة إلى أن الرسالة من مبررات الخلق، وأن التعلم المحقق لجدارة حمل الرسالة واجب بحكم أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ولذلك فإن سياسة الجبهة الإسلامية للإنقاذ تقوم على مبدأ كفالة هذا الحق للجميع، بمقتضى مبدأ المساواة في الإسلام وهو ما يتطلب الشروط الإصلاحية التالية للمنظومة التربوية ابتداء من السياسة التعليمية السائدة الآن المتورطة في كل أوضاع الأزمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والحضارية..

١- السياسة التعليمية:

أ- إذا كانت السياسة التعليمية جزءاً من سياسة الدولة عامة؛ وإذا كانت السياسة التي تنتهجها الجبهة الإسلامية هي السياسية الشرعية فإن السياسة التربوية ملزمة بكل ما أزمتهها مقاصد الشرعية الإسلامية، من ضرورة كفالة حق التربية لجميع من

في الوطن دون تمييز عنصري، أو طائفي أو عرقي
أو ديني أو نوعي..

ب- اعتبار التربية كما هي حق للفرد، هي حق للأمة
بضرورة مراعاة جميع مصالحها..

ج- تحدد ميزانية التربية في نطاق ضمان العدل
والنوعية معاً..

٢- ميزانية الدولة للتربية:

تحدد لتحقيق التوازن بين الحاجة التربوية وبين التمويل،
باعتبار التربية من أهم ميادين الاستثمار..

٣- التوجيه التربوي:

يتقيد بالقيم التالية:

الميول والخبرات للحصول على أرقى الكفاءات..

القيم الإسلامية كعدم الاختلاط ونظام الآداب
والمعاملات الاجتماعية التي ينبغي أن تكون وفق الضوابط
الشرعية.

مراعاة التوظيف على مستوى الكسب، وعلى مستوى
المهمة الرأسالية والحضارية، كمجال لمساهمة الجيل المعد
لذلك، ومواجهة البطالة وتغطية الوظائف المختلفة المستويات
في التعقيد التكنولوجي الوظيفي.

ضبط سياسة الامتحانات حسب هذه المعايير كلها للتخفيف من الفاقد التربوي وعطالة الخريجين، بعد إنهاء مرحلة التربية والتكوين. ولتلافي ما حصل تمنح فرص جديدة للمتواجدين في الشارع والذين طردوا من المعاهد التربوية، إنْ بواسطة الامتحان وإنْ بغيره، قصد كسبهم للمشروع الاقتصادي والرأسالي الحضاري الذي أعد لهم، وذلك بإعداد مؤسسات خاصة لهم من ثانويات وجامعات شعبية استدرائية، قصد ضمان ترقيتهم الاجتماعية.

٤- المحتوى التربوي أو المنهج:

يعاد النظر في المحتويات التربوية في نطاق حاجة البلاد إلى النهضة الشاملة، وذلك عن طريق ضمان التوعية التربوية المطلوبة في كل المستويات وجميع التخصصات.

إعادة النظر في المحتوى التربوي؛ من أجل تصفيته من الأيديولوجيات الغازية والمفاهيم التي تحمل قيماً تتعارض وقيم الأمة الإسلامية، وذلك لصيانة الشخصية وتحقيق الأصالة وتشجيع روح الإبداع.

إعادة النظر في الطرق التربوية الشائعة عندنا، والتي تعمق هوة التقليد الأعمى، مما جعل جامعاتنا تستهلك المعارف، بدلاً من أن تنتجها، وصارت تكوّن المتعلمين بدلاً من العلماء العارفين. وإعطاء الصبغة الإسلامية للتخصصات التكنولوجية مع ضمان أعلى المستويات التربوية للخبرة التكنولوجية، لتجنيب البلاد الحاجة إلى الخبرات الأجنبية.

٥- إعداد المعلمين:

إعادة النظر في وضع المؤسسات التربوية بإعداد المعلمين لمختلف المستويات التعليمية، وذلك لضمان أعلى المستويات في الخبرة، وأرقى النماذج في المسلكية، باعتبار المعلم والمربي قدوة، ليس فقط لتلاميذه، بل للأمة بأكملها، وذلك يعني إعادة الاعتبار إلى رسالة المربي وقيمه ومكانته في الأمة الإسلامية اقتداءً برسول الله ﷺ مع ضرورة رد الاعتبار المادي، ليتكافأ مع الواجبات الجسام المطلوبة منه في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ الأمة، باعتبار أن الواجب يكمن مبرره في الحقوق. فكلما زاد الطلب النزعي في المهمة زاد حق مردودها المادي والمعنوي على صاحبها.

٦- النظام الاجتماعي في المؤسسات التربوية:

يعد النظام الاجتماعي في المؤسسة التربوية من أهم الشروط التربوية لتكوين شخصية التلميذ والطالب، بحيث يكون المجتمع التربوي نموذجاً سليماً ممثلاً للأمة.

ضرورة توفير الشروط النفسية والمادية والاجتماعية في الحياة التربوية داخل المؤسسة، مما يجعل الشخصية الإسلامية تنمو في شكل متكامل شامل، صحياً ونفسياً وعقلياً وثقافياً واجتماعياً وأخلاقياً.

٧- السلم التعليمي من الحضانة إلى ما بعد الجامعة:

إعادة النظر في السلم التعليمي من المدرسة إلى الجامعة في ضوء المستجدات السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وجعل الانتقال من مرحلة إلى أخرى خاضعاً إلى الشروط التربوية لا غير. مع تعريب كل المراحل الجماعية التي لم يتم بعد تعريبها.

٨- مرحلة الإلزام:

رفع مرحلة الإلزام إلى التعليم الثانوي.

٩- الوسائل التعليمية:

إعادة النظر في الكتب المدرسية بناءً على مقاصد الشريعة، ومتطلبات التربية الإسلامية.

١٠- المنظومة التربوية الرياضية:

إعادة النظر في السياسة التربوية الرياضية، بحيث تصير وسيلة لنمو الجسم والرعاية النفسية والأخلاقية، مع مراعاة أحكام الشريعة الإسلامية.

١١- التربية الإعلامية:

إعادة النظر في جميع برامجها ومقاصدها، كي تتحول من وسيلة غزو فكر ثقافي إلى وسيلة مناعة ثقافية وقناعة إيمانية وجدارة فنية، تتبلور فيها عبقرية الأجيال، وقدرتها على الإبداع والتفوق.

١٢- سياسة المنح في الداخل والخارج:

تضبط سياسة المنح، بحيث تكون لمن هو أيضاً استحقاقاً، سواء في الجدارة أو في الحاجة.

١٣- النظام الإداري لسياسة تسيير المؤسسات في كل المستويات:

يعاد النظر في سياسة التسيير الإداري؛ بحيث يكون ثمة اعتدال في المركزية واللامركزية، على أن تعتمد الروح الجماعية، ويجمع بين المعاهد التربوية والإدارية، مما يبسر مهمة المعلم والمتعلم معاً ويخدم مصلحة البلاد.

١٤- سياسة التوظيف في الميدان والتسيير والبحث:

يعاد النظر في سياسة التوظيف في الحقل التربوي سواء في التسيير، أو الممارسة الميدانية للعملية التربوية والبحث لتحقيق النوعية.

ج- حق الانتخاب والترشيح والمشاركة في التسيير:

إن الإسلام دين الحرية، باعتبار هذه الأخيرة تقوم على المسؤولية من حيث هي تعبير على الإرادة الخيرة الواعية، القائمة على القناعة الإيمانية والمناعة الأخلاقية الوجدانية من ذلكم قوله تعالى: ﴿فَطَرَتَ اللهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ وقوله ﷺ: كل مولود يولد على الفطرة، وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: متى استعبدتم الناس

وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً. فالإنسان بناءً على هذا المنظور العميق الإسلامي للإنسان، يجعل هذا الأخير مسؤولاً، وبمقتضى هذه المسؤولية يستحق الحقوق التالية:

حقه في الانتخاب أو اختيار القيادة.

إن حقه في الانتخاب يخوِّله حقاً للترشيح، ما دام قد توفرت فيه الشروط التالية: الإسلام - العدالة - القدوة - الكفاءة أو الجدارة - الميول الشخصية والاستعداد النفسي والحديثات الموضوعية التي تتطلبها المستجدات.

حقه في التسيير وهو تولى المسؤوليات الإدارية والمهنية، وهي تقوم على التقوى والجدارة والمسلكية لا غير؛ فبموجب ذلك يكون الموظف أو المعين للمسؤوليات مسؤولاً أمام الله، ومسؤولاً أمام الأمة، ومسؤولاً أمام المصلحة التي يشرف عليها، أو يكون عنصراً مسيراً منها، وذلك حتى لا تضيع الأمانات بضياع المسؤولية قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ وقال عليه الصلاة والسلام: كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته".

٤- توفر الثقة بموجب اشتغال الشخصية المسؤولة على الصفات السابقة الذكر. والثقة هنا بمعناها الشرعي والأخلاقي المهني والسياسي.

د- إفساح المجال للمبادرة:

تتكون الأمة في مستوى مواجهة المستجدات السياسية والاقتصادية، الثقافية والحضارية، لا بد من فك القيود التي قضت على روح المبادرة في شعبنا العصامي، الذي كاد يحال إلى اتكالية خطيرة، لا بد من الحريات التي تفسح المجال أمام المبادرات الإنتاجية الإبداعية في جميع مجالات الحياة، وهو شرط نفسي تفرضه طبيعة المرحلة لتأهيل الأجيال المقبلة للمهام الكبرى التي تنتظرها، على مستوى الرسالة والحضارة والتاريخ.

هـ - ضمان الأمن على الدين وعلى النفس والعقل والعرض والمال:

إن الإسلام من مقاصد شريعته ضمان المصالح ومن ضرورياتها كفل الإسلام الضرورات الخمس، والتي لا يكون الإنسان إنساناً إلا بها وهي:

كفالة الدين.

النفس.

العقل.

العرض.

المال.

فكفالة هذه الضرورات توفر شرطاً نفسياً لا يكون الاستقرار إلا به.

و- إصلاح الأسرة الجزائرية في نطاق الشريعة الإسلامية:

اعتنى الإسلام بالأسرة عناية لم يعرفها دين ولا فلسفة ولا نظام، لا قديماً ولا حديثاً، وذلك لخطورة وظيفتها في الأمة ونجمل هذه العناية فيما يلي:

الرعاية والعناية بالطفل إلى سن الرشد.

ضمان التكافل الاجتماعي إلى حد الإيثار.

ضمان التماسك الاجتماعي بواسطة التماسك الأسري، وإذ اشتملت الأسرة على هذه الخصائص وأدت هذه المهام في مختلف العهود والعصور منذ عهد الرسول ﷺ إلى اليوم، فإن ذلك ليعد من أهم نتائج اهتمام الشرع بها، ولئن تعرضت الأسرة إلى التضرر من جراء ظروف الاستعمار بشكليته القديم والحديث؛ فإنها لم تستسلم لسياسته، وبفضلها استطاع الشعب الجزائري أن يواجه في غياب الدولة، وأن يثور في وجه الأعداء. ونتيجة لما تعرضت له الأسرة من سياسة التعذيب والانحلال والفقر والجهل؛ فإن إصلاحها ليعد من أوسع ميادين سياسة الجبهة الإسلامية للإنقاذ، ولذلك فهي تقترح إزالة العقبات التالية:

توفير الشغل لأصحاب الأسر، لإيقاف الهجرة التي اتخذت سبيلاً لتفكك الأسرة.

إعادة النظر في سياسة الإسكان لتوفير المسكن لتوفير المسكن الكريم لبيت الزوجية، منعاً للتشرد وسائر آفات غياب السكن، التي عرفته البلاد بحظر البناء وتعطيل المجتمع من تشييد عمرانته وفق حاجاته الآنية والمستقبلية التي تمليها ضرورة نموه السكاني في مرحلة النمو الشامل.

العناية بالمهاجرين وتيسير عودتهم إلى بلادهم، وذلك بتوفير ما جعلهم يلجأون إلى الغربية ويتجرعون مرارتها وغصة الآمها، ووحشة البعد عن الوطن.

العناية بالأم، خاصة التي ترعى الأطفال، تُسعف - في حالة الضرورة - بمساعدة توظف لذلك وتعطي منحة للأمومة، حيث يعتبر عملها البيتي وظيفة اجتماعية وتربوية تتقاضى عليها جارية بنفس المستوى الذي يتقاضاه العامل في المعمل أو في الحقل أو غيرهما، مع مراعاة مستوى الخبرة والكفاءة والجدارة بالنسبة إلى التربية البيئية. ويقوم بمهمة التوظيف والإشراف والتوزيع للموظفات، جهاز من التكافل الاجتماعي، يضمن جميع الشروط الأمنية والأخلاقية والنفسية..

العناية بالمرأة: نظرًا لسمعة المرأة المسلمة التي اكتسبتها في عهد الرسول ﷺ وبما توصلت إليه في نموذج أمهات المؤمنين ومنهن عائشة رضي الله عنها بعلمها - حتى كانت رواية لأكثر من ألفي حديث - ومشاركتهن مع الرسول في غزواته وموقف أم سلمة بالحديبية - مما دل على وعيها السياسي - وفي عصور النهضة العلمية والفكرية، مشاركتها بعقريّة النابغات في الفكر والأدب والفقه والسياسة والطب، وفي عهود كثيرة كانت استماتتهن في المواقف الجهادية في المغرب والأندلس، وفي عهد احتلال الجزائر، وثورّة نوفمبر التي برزت فيها مجاهدات مؤمنات أحييت أمجاد المرأة المسلمة، فإن مهمتها في هذه المرحلة - وقد أصبحت تمثل أكثر من ثلثي نسبة الطلبة الجامعيين وتلامذة الثانويات - فإن الجبهة الإسلامية للإنقاذ تعتبر هذه الطاقة من العوامل النفسية والاجتماعية والثقافية الجديرة بالاهتمام، قصد توجيهها الحكيم، وتوظيفها الرشيد في الخطة الإنمائية الحضارية الشاملة، وذلك بتخصيص المرأة بالعناية التالية:

رفع مستواها العقائدي وجودة تكوينها المسلكي.

رفع مستوى وعيها السياسي والتربوي والحضاري.

إعادة الاعتبار إلى مكانتها الإسلامية بحفظها من التعسف والانحلال وأفة التقليد الأعمى.

توعية المجتمع كي يدرك أهمية طاقتها وعظيم رسالتها.
من أجل ذلك كان الإسلام وما يزال الدين الذي لم يميز
المرأة عن أخيها الرجل، بكل ما كرم به الإنسان وشرفه
وفضله، لقوله عليه الصلاة والسلام: النساء شقائق الرجال
وقوله: " استوصوا بالنساء خيراً".

إعادة النظر في سياسة المنح العائلية خاصة للعمال، أو
الذين مستوى دخلهم لا يكفي لضمان ضروري من الغذاء.
رفع مستوى جرایة المتقاعدين الذين جمدت جرایاتهم
وصارت لا تكفي - أمام التضخم الذي آلت إليه البلاد -
وأرامل الشهداء وذوي الحقوق.

العناية بالعجزة والمعوقين بتحديد جرایات تكون في
مستوى كفالتهم الاجتماعية، التي تحفظ لهم كرامتهم،
وتجعلهم في مأمن من الضیاع أو الإهمال أو التفریط، مما
يجعلهم يشعرون بدفء احتضان أمتهم لهم. والجدير
بالملاحظة أن هذه العناية لجميع المستحقين بدون تمييز نوعي
أو عنصري أو طائفي أو ديني..

إعادة النظر في سياسة السجون وطرق معاملة
المساجين لضمان كرامتهم ورعايتهم جسمياً ونفسياً واجتماعياً
وتربوياً: إسلامياً ومعرفياً ومهنياً وإعدادهم للإدماج الوظيفي
في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بعد خروجهم.

وضع ميزان بين الجراية المناسبة للجهد والخبرة وبين القدرة الشرائية التي تستجيب للحاجات الاستهلاكية عموماً.

الإصلاح الاجتماعي الشامل:

يعد نظام الحسبة في الإسلام من أحكم الطرق الشرعية لضبط العلاقات بين الناس في الميادين التالية:

الشارع.

السوق.

المحور الثقافي والحضاري..

إن السياسة الثقافية والحضارية من منظور الجبهة الإسلامية للإنقاذ، تتلخص في حماية الأمة من الغزو الثقافي والقهر الحضاري، مما يجعل الأمة على أتم استعداد للنهضة بثقافتها الإسلامية وحضارتها خاصة فيما يلي:

الدين وشريعته.

الأخلاق الإسلامية وقيمها.

الفكر الإسلامي وعبقريته.

حرية المبادرة الذكية العملية والشرعية وإشراقاتها.

وهي ثقافة تكامل فيها العقل مع الشرع والأخلاق مع الفن والعلم نظرًا وتطبيقًا، إنها ثقافة خبرة أمة وإرهاصة تاريخه وفعاليتها. إنها مجموعة الشروط النفسية والكنوز

التاريخية والآفاق المستقبلية؛ حيث تصبح مجالاً تتزعرع فيها أجيال من العبقريّة، إنها سر استمرارية ومبرر الوجود الكلي لخير أمة أخرجت للناس، أمة الرسالة أمة الحضارة.

وخلاصة القول فإن هذه المقاصد النفسية والتاريخية تتحقق بضمان الشروط التالية:

ضرورة مراعاة نفسية الأمة من حيث هي أمة ذات استحقاق لحياة العزة، حياة المشاركة الفعالة في الجهد الحضاري على أوسع مدى، وذلك بإفصاح مجال الحرية أمام المبادرات العبقريّة.

ضرورة الاعتبار إلى الدين الإسلامي، كنظام حياة ضامن لسعادة الدارين، ومحقق لمقاصد ومبررات التكريم الذي سبق ذكره.

إعادة الاعتبار إلى العلم وتقنيته، حتى يعود إلى مكانته في الأمة تلك التي أعطاهها له القرآن الكريم والسنة، برد الاعتبار إلى العلماء، من حيث هم أهل الذكر، وهم أولوا الأمر فلا يبيث أمر عظيم من أمور الأمة إلا بعد استشارتهم، وفي ضوء حكمتهم وفي نطاق توجيهاتهم، ما أطاعوا الله ورسوله وأجادوا وأصلحوا وبينوا.

تشجيع تعميم استعمال اللغة الوطنية في سائر أنحاء القطر بدون استثناء؛ لضمان التفاهم بين الجزائريين وحفاظاً

على وحدة القطر، ولأنها لغة القرآن والسنة وهذا لا يعني نبذ ما سواها مما يساعد على تيسير التجاوب وإثراء العلاقات الثقافية، وبهذا تصير الثقافة مانعاً من موانع التصدع لوحدتنا، وحامي حمى الأمة الثقافي والحضاري من الغزو الفكري والحضاري، ومصدراً من مصادر الثروة الإيمانية والأخلاقية والفنية والعلمية والتكنولوجية، مما يجعل البلاد تضمن لأجيالها مستقبلاً زاهراً تطورت فيه أصالته، وتفوقت بالتجديد عبقريته، ليكون من ورثة الرسالة وبناء الحضارة، وتحقيقاً لذلك يعاد النظر فيما يلي:

البرمجة الإذاعية والتلفزة، ونظام المكتبات وقاعات العرض، والمراكز الثقافية والمسرح.

المركبات الرياضية والفنية ودور السينما.

تشجيع المجالات العلمية المتخصصة والعامة.

توفير الكتاب الإسلامي والعلمي والتقني، مما يجعل المكتبات في مستوى حاجة المعاهد والجامعات ومراكز البحوث، إن السياسة الإعلامية للجبهة الإسلامية للإنقاذ هي الميدان الذي تتجسد فيه حرية التعبير، وحق الأمة في استنشاق الهواء النقي من حيث هي نافذة على العالم، ناقلة لأخباره، معرفة بأحداثه، موصلة لعلومه ومعارفه وتقنياته وفنياته في أحدث أطواره. على أن الخناق الذي عانت منه

الأمة في البلاد حرمها من حقها في حرية التعبير والاتصال الحر بالعالم؛ كي تعيش ظروفه وتستغل علومه وتقنياته، وتوظف أجود فعاليته، وتستفيد من أرقى خبراته وثمرات عبقريته وتواكب تطور اكتشافاته، وتدرّك أرقى مستويات وعيه الحضاري والتربوي، مما يساعدها على التجاوب المثمر ويؤهلها للمشاركة الفعالة في حل مشكلات الإنسان الحديث ومعالجة قضايا مستجدات العصر، ووضع حد لتشويه الإسلام، وقمع المسلمين ومنعهم من توصيل بيان الإسلام والدفاع عنه، والذود عن كل المسلمين شعوبًا وأمة.

ولذلك فإن الجبهة الإسلامية للإنقاذ تعتبر المرحلة الراهنة مرحلة من أعلى مكاسبها حرية التعبير عن ذاتيتها الحضارية الرسالية، ومن ثمَّ يُعدّ الإعلام شرايين الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والحضارية، الذي فتح على العالم لكي تصبح علاقتنا به ثرية فعالة، لا تعطي إلا من جيد إنتاجها في نطاق رسالتها الربانية، ولا تأخذ إلا ملامح من علوم وتقنية، ولا تستورد إلا ما جدَّ، مما يصلح لمواجهة ما تسجد من الحاجات المناسبة للصراع الثقافي والحضاري المعزز للإرهاصات التي تجعل عبقرية أجيالنا محققة للمراد من الاستقلالية الثقافية والحضارية، ومن ثمَّ فالأجهزة الإعلامية هي مصفاة الخبرات ومعيار للمعلومات، وتمحيص للأخبار وإلزام للمعرفة الإعلامية وتبليغ لكلمة الله.

ولتحقيق ذلك تعمل الجبهة الإسلامية للإنقاذ على إصلاح ما يلي:

الصحف على اختلافها من يومية وأسبوعية إلى شهرية أو دورية، تشجع على كشف الحقائق والبحث عنها وعرضها للموضوعية، تساعد على معرفة واقع البلاد في مختلف المجالات، وحتى على مستوى العالم، بل تذهب سياسة الجبهة إلى أبعد من ذلك فتشجعها (أي الصحافة) على التخلص من عقدة النقص حيال وسائل الإعلام الأجنبية؛ كي يستعيد ثقة الشعب بها على اختلاف مستويات الثقافة، وذلك لضمان حصانة الصحفي، وإعادة الاعتبار إليه بناءً على أهمية رسالته المذكورة آنفاً.

تشجيع التخصص في الصحافة في جميع مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والحضارية، سواء في الداخل أو في الخارج. إن المعلومات التي تظفي على الأسلوب الصحفي في بلادنا أمسى من أخطر عوامل سيطرة العموميات والمستوى الرديء الثقافي، والذهاب بالوعي السياسي والحضاري. إن تجهيل الشعب الجزائري في إسلامه وعملية تشويبه قصد تنفيره وتحريفه لمن أخطر السياسات الاستعمارية التي سنت على الإسلام أيام الاستعمار وما تزال إلى اليوم. ولذلك تلفت الجبهة نظر الشعب

الجزائري الغيور على دينه إلى ضرورة إنشاء جرائد
وصحف تكون في مستوى وظيفة الدعوة الإسلامية المعطلة،
وترشيد صحوته المظفرة وإجلاء

لتضليلهم وتزويدهم، وتحذير الرأي العام تأليبه على
الإسلام والمسلمين، إن غياب الصحافة الإسلامية الحرة ترك
ثغرة خطيرة نفذ منها الغزو الثقافي لعرقلة سير النهضة
الإسلامية التي هبت الشعوب لحمل لوائها، وانطلقت الأمة
بجدية لتحقيق آمالها بعد إزالة آلامها لتضع حدًا لسياسة
استعمارية، تركتها ضحية لخططها الماكرة وأعراضها
الحاقدة.

إن من يريد الغناء في كل وقت سيجده، ومن يريد
الأفلام يلقيها، وأما من يريد أن يبحث عن دينه كي يفقه أو
ينشد علمًا كي يتعلمه وينتفع به لا يجده، لأن وسائل الإعلام
ضاقت وأوصدت نوافذها أمام طلاب حرته، والحقيقة
والراغبين في الإسلام والشرعية، والباحثين عن العلم
والتقنية.

ولنفادي هذه الأوضاع المتردية ترى سياسة الجبهة
الإسلامية للإنقاذ ضرورة إصلاحها؛ كي تصبح صالحة
تربوية ومصلحة اجتماعية ومقنعة عقائديًا وفكريًا ومشوقة
أدبيًا وفنيًا، فلا يكون الجمال على حساب الخير، ولا تكون

الأخبار على حساب الحقيقة، ولا يكون التوجيه على حساب الأمانة.

في ضرورة إثراء وتدعيم وكالة الأنباء الجزائرية بالكفاءات، وأعلى الخبرات وأرقى التقنيات كي تكون في المستوى المحقق للمراد من الحرية الإعلامية.

هذا برنامج طموح يعبر عن رؤية شاملة لمختلف مجالات المجتمع.

لا يتسع المجال بالطبع لمناقشة كل ما جاء في هذا البرنامج - وفيه الكثير الطيب - لكننا سنعرض نقطة أو نقطتين يمثلان معالجة البرنامج لبقية القضايا، وما ينطبق من حكم عليهما يمكن أن يسري أيضاً على النقط الأخرى. فعندما أشار البرنامج إلى العمال قال: ".. ضرورة إعادة الاعتبار إلى العامل ومراعاة نفسيته وكفالة حقوقه، وتوفير الشروط النفسية والصحية والاجتماعية والأمنية والنقل والترقية والتعويضات والتشجيعات والسكن، وسائر متطلبات الحياة الكريمة لقوله عليه الصلاة والسلام: "اعطوا الأجير حقه قبل أن يجف عرقه"، وكذلك قوله: "من أمسى كالأل من عمله أمسى مغفوراً له" فهذه الفقرة تتم عن نفسية الجبهة وفهمها السلفي لقضية العمل والعمال - وهو فهم لا يكفي مطلقاً لتعقد المشكلة، وما استجد من علاقات لم يكن للمجتمع

الإنساني عهد بها قبل الثورة الصناعية - ويبدو أنه ما لم يكن هناك حديث نبوي فليس هناك حاجة لإيجاد حل!

وصياغة الفقرة توضح أنها من وضع عناصر بعيدة عن العمال أنفسهم، وأنها إنما تتوحيّ اكتساب العمال - كما تفعل كل الأحزاب - بإزجاء الوعود، ورص الكلمات دون التورط في تقريرات محددة. ومن غير المعقول أو المقبول أن لا ترد كلمة "نقابة" في فقرة عن العمال!

فبأي صفة تقيم الجبهة نقابة وتدعو العمال للانضمام إليها إذا لم يكن في برنامجها إشارة واحدة إلى النقابية. وكيف تدعو العمال للإضراب دون الاعتراف بشرعيته!..

لقد كان المفروض والجبهة تعيش في خضم المعركة أن يهديها ذلك إلى النص على حرية تكوين النقابات، وحرية ممارسة الإضراب كوسيلة للانتصاف.

وتشجيع المفاوضة الجماعية كوسيلة من وسائل الشورى في الإدارة.

ولكن لما لم يكن هناك حديث نبوي مباشرة أو إشارة سلفية منطبقة؛ فلم تكلف الجبهة نفسها عناء التفكير.

وفي الفترة الخاصة بالصحافة ثناءً جميل على الصحافة ودورها .. إلخ، دون إشارة إلى حرية إصدار الصحف دون

ترخيص من السلطات، وحرية إبداء الآراء دون خضوع للرقابة، مهما خالفت هذه الآراء سياسة النظم الحاكمة.. فهذا هو ما يهتم الصحافة والصحفيين، وما يمكن الصحافة من أداء دورها..

فيبدو أن الجبهة تزجي الكلمات المعسولة، والثناء الجميل والوعود المشرقة، دون أن تشير إلى الطرق العملية للتطبيق، ودون أن تترجمها إلى إجراءات عملية، ودون أن تلتزم بحلول معينة محددة وواضحة، وليست إنشائية وعامة.

كما أنه ليس لديها الحس بأن كثيرًا من القضايا يجب أن تعالج في ضوء المستجدات، وليس في ضوء المأثورات.

إننا نأمل أن يكون في المحنة التي تعرضت لها الجبهة ما يدفعها لإعادة النظر في برامجها؛ فتستكمل ما فاتها وتعديل في "التكتيك" و "الاستراتيجية" معًا في ضوء ما تلقته من دروس.

* * * *

من المهم الإشارة إلى أن الأضواء وإن تركزت على الجبهة - فإنها ليست الوحيدة في مجال العمل الإسلامي:

وقد قال الشيخ عبد الله جاب الله رئيس هيئة "النهضة الإسلامية" في حديث له: "...وجمعيتنا النهضة، والإرشاد والإصلاح أسستنا قبل الجبهة الإسلامية للإنقاذ بسنوات

عديدة، وقادتها يعرفون ذلك، كما يعرفون أنفسهم وأبناءهم، والجبهة الإسلامية تريد أن تكرر الفكر الاستبدادي، وتتنظر نظرة أحادية للأشياء، وتجعل المسلمين تحت مظلة واحدة!، وهذا الطرح فيه تأثير برواسب الفكر الاستبدادي لدى المسلمين في عهد الانحطاط!، ومن واجب المسلمين أن يحرروا الفكر الإسلامي من الاستبداد!"⁽¹⁾.

وتعد هيئة الأخوان المسلمين في الجزائر من أقوى التكتلات الإسلامية وأكثرها تنظيماً وانضباطاً، وقد حملت أولاً اسم "جمعية الإرشاد والإصلاح الوطنية".

ولمناسبة الذكرى الثالثة للانتفاضة الفلسطينية في ١١ / ١٢ / ١٩٩٠ م (وهي توافق الذكرى الثلاثين للانتفاضة الشعب الجزائري في ١١ / ١٢ / ١٩٦٠م) عقدت الجمعية اجتماعاً كبيراً في هذا اليوم، أعلن فيه الشيخ محفوظ نحاح رئيسها ميلاد جمعية سياسية تحمل اسم "حركة المجتمع الإسلامية" ويرمز لها بالحروف الأولى منها (حماس) تيمناً باسم حركة حماس الإسلامية الفلسطينية.

(1) مجلة الواحة ١٥ جمادي الثاني ١٤١١ هـ - ١٣ / ١ / ١٩٩١ م
ص ٣.

وفي هذا الاجتماع الذي حضره مندوبون من هيئات إسلامية أخرى استعرض الشيخ محمد أبو سليمان ناشب رئيس الجمعية الخطوات التي اتخذت للتوصل إلى "تحالف" ما بين التكتلات الإسلامية الرئيسية الثلاث (الجهة - حماس - النهضة) والتي أشرف عليها الشيخ سحنون.

ويبدو للأسف الشديد أن هذه المحاولات لم تكفل بالنجاح، رغم أن التحالف هام، بل حيوي للجميع.

فهم جميعاً في خندق واحد، وما يوهن أي واحد منهم سينعكس على الآخر، وهي معانٍ يفترض ألا تغيب عنهم.

فضلاً عن أن جمع الشمل مقصد إسلامي بالطبيعة، طالبت به الجماهير، وتولته قيادة هي امتداد جمعية العلماء، وشخصية تتمتع بالاحترام والتقدير، لأنها تربط هذا الحاضر بالشيخ عبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمي هي شخصية الشيخ أحمد سحنون.

وفي زيارتنا للجزائر في يناير ١٩٩١ م كان من أول ما قمنا به زيارة الشيخ والإلاح عليه في جمع الشمل، ولم الصف.. فقال الرجل مخلصاً: إنه ليس له من عمل سوى هذا، وأنه يعمل له ليل نهار..

ونحن نناشد الأخوة: في الإسلام متسع للجميع، ولن يضيق بأحد، ولا أقل من أن نتبع المبدأ الذي كان يكرره

الإمام الشهيد حسن البنا "نتعاون فيما نتفق عليه، ويعذر بعضنا فيما نختلف فيه".

* * * *

ج- دعوة النهضة في تونس

ليس لدينا للأسف الشديد مادة مفصلة وموثقة عن الدعوة الإسلامية الحديثة في الشمال الإفريقي. إن الاستعمار الفرنسي نجح في قطع وشائج الأخوة التي كانت تربط مسلمي المغرب بمسلمي المشرق، ثم جاءت النظم العسكرية أو الاشتراكية ... إلخ فلم تحاول أن تعيد الجسور.

فظل الأمر كما كان تقريباً، رغم أن الدعوة الإسلامية في الجزائر وتونس تمثل نجماً صاعداً في سماء الدعوات الإسلامية.

حركة النهضة في تونس: كان لتونس وضع إسلامي يميزها عن جارتها: ليبيا والجزائر فقد كانت القيروان مركزاً مرموقاً للعلم الإسلامي في القديم، خلقتها بعد عهد طویل جامعة الزيتونة التي أشبهت إلى حد ما الأزهر.

وظهر من تونس رجالاً لهم ذكر في العصر الحديث مثل: خير الدين التونسي الذي وُلِّيَ "الصدارة" في الدولة العثمانية، وحاول أن يحيي رميمها، ومثل: الشيخ الخضر

حسين الذي ولي مشيخة الأزهر في مصر. ومثل الطاهر بن عاشور.

ولكن من سوء حظ تونس أن ولي أمرها في الحقبة الحديثة رجل لا يؤمن بالإسلام وقيمه وشريعته، وإنما يؤمن بفرنسا وقانونها وحضارتها..

وهذا "الحبيب بورقيبة" كان نموذجاً هزياً للبرجوازية الأوروبية، وأصبح في آخر عمره معتوهاً حقيقياً، وكان مجرداً من الموهبة بالمرّة.

ومع هذا حكم تونس قرابة ثلاثين عاماً أراد أن يستأصل منها النفوذ الإسلامي الذي كان يقف ضد ما يريد من تجديد.. وإلى حد ما نجح في ذلك بحيث صدق ما قاله عالم الاجتماع التونسي الدكتور عبد الباقي الهرماسي: "من دون كل البلدان العربية كانت تونس البلد العربي الوحيد الذي هاجمت فيه النخبة المغتربة بشكل مفتوح الإسلام المؤسسي، وحطمت قاعدته الأساسية باسم برنامج الإصلاح الاجتماعي والثقافي.

فتحت اسم هذا الإصلاح سجل: اجتثاث الزيتونة، والقضاء على نظام الأحباس، وإلغاء قوانين الأحوال الشخصية، وتعطيل دور المجالس الشرعية..".

ولكن تجربة التاريخ في المنطقة تثبت أن الإسلام أقوى من كل الطغاة، ولهذا فقد أخذت بدايات وهنأنة، تظهر في مستهل السبعينات في بعض الدروس في جامع الزيتونة.. وظهر عندئذ عدد من الأشخاص قُدر لهم أن يقودوا التوجه الإسلامي أمثال الشيخ عبد الفتاح مورو الأستاذ أحمد نده، وغيرهم.. وكان من أبرزهم الشيخ راشد غنوشي الذي كان قد تلقى دراسته في سوريا في أواخر الستينات، وتعرف هناك على "الفكرة الإسلامية" التي كانت أحد روافد الأخوان المسلمين.

وعاد إلى تونس ممثلًا بالحماسة، فبدأ عملاً منظمًا مع مجموعة صغيرة في جمعيات تحفيظ القرآن.. ولكن السلطات اكتشفهم وطردتهم منها!!..

فبدأوا دعاية في الجامعة جذبت عددًا من الطلاب..

وتعرض النظام وقتئذ لهزة نتيجة تحدي الاتحاد التونسي للشغل - وهو أعرق وأقوى هيئة جماهيرية ذات ماضٍ في الكفاح الوطني - للنظام.

ولم يستطع بورقيبه أن يسيطر على الأمور إلا بصعوبة، وبعد أن تدخل الجيش لسحق حركة الاتحاد، وبعد فترة أعلن النظام قبوله للتعددية الحزبية، وانتهز الإسلاميون الفرصة وأعلنوا قيام حركة "الاتجاه الإسلامي" في السادس

من يونيو عام ١٩٨١، وشكلوا مكتبًا سياسيًا رأسه الأستاذ راشد الغنوشي، وأعلنوا البيان التأسيسي لحركة الاتجاه الإسلامي.

البيان التأسيسي لحركة الاتجاه الإسلامي.

توطئة:

يشهد العالم الإسلامي - وبلادنا جزء منه - أبشع أنواع الاستلاب والغربة عن ذاته ومصالحه؛ فمنذ التاريخ الوسيط وأسباب الانحطاط تفعل فعلها في كيان أمتنا، وتدفع بها إلى التخلي عن مهمة الريادة والإشعاع، طورًا لفائدة غرب مستعمر وآخر لصالح أقلية داخلية متحكمة انفصلت عن أصولها وصادمت مطامح شعوبها.

وكان المستهدف الأول طوال هذه الأطوار كلها هو الإسلام، محور شخصيتنا الحضارية وعصب ضميرنا الجمعي، فقد عزل بصورة تدريجية بطيئة وأحيانًا بشكل جريئ سافر عن مواقع التوجيه والتسيير الفعلي لواقعنا، فهو رغم يروزه عاملاً محددًا في صنع الجوانب المشرقة من حضارتنا وفي جهاد بلادنا لطرد المستعمر، قد بات اليوم أو كاد مجرد رمز تحقّق به المخاطر ثقافيًا وأخلاقيًا وسياسيًا نتيجة ما تعرض له في المرحلة المعاصرة والأخيرة خاصة من إهمال واعتداء على قيمه، وعلى مؤسساته ورجاله.

وإضافة إلى هذه المعطيات التي تشترك فيها بلادنا مع سائر بلاد العالم الإسلامي عرفت تونس في أواخر الخمسينات وطيلة عشرينيَّتي الستينيات والسبعينيات - رغم حصولها على وثيقة الاستقلال - أوضاعاً خصوصية اتسمت بالتأزم واحتداد الصراع الاجتماعي، وتعطل سبل النمو الشامل. وقد تركز هذا الوضع نتيجة أحادية الاتجاه السياسي المتحكم (الحزب الدستوري) وتدرجه المتصاعد نحو الهيمنة على السلطة والمؤسسات والمنظمات الجماهيرية من ناحية، ونتيجة ارتجالية الاختيارات الاقتصادية والاجتماعية، وتقلبها وارتباطها بمصالح دولية تتعارض مع مصالح شعبنا الوطنية من ناحية أخرى.

في هذا المناخ ظهر الاتجاه الإسلامي بتونس في بداية السبعينيات بعد أن توفرت له كل أسباب الوجود، وتأكدت ضرورته، وقد ساهم هذا الاتجاه من مواقعه في إعادة الاعتبار للإسلام فكرياً وثقافة وسلوكاً، وإعادة الاعتبار للمسجد، كما ساهم في تنشيط الحياة الثقافية والسياسي فأدخل عليها لأول مرة نفساً جديداً في اتجاه تأصيل الهوية والوعي بالمصلحة، وتأكيد التعدد بتجسيمه واقعيًا.

وقد عبر الاتجاه الإسلامي من خلال نشاطه ومواقفه العديدة عن التحامه بذات أمته وتجسيده آمال شعبه وتطلعاته،

فالتفت حوله قطاعات عريضة من المحرومين والشباب
والمثقفين. وكان نموه السريع مجلبة لاهتمام الملاحظين
وترصد القوى والأنظمة السياسية في الداخل والخارج.
ورغم سعيه الرصين المتعلّق لتلمّس أنجح سبل التطور
والتغيير؛ فقد تعرض هذا الاتجاه إلى سلسلة من التهم الباطلة
والحملات الدعائية المغرضة نظمتها ضده السلطة الحاكمة
ووسائل الإعلام الرسمية وشبه الرسمية بلغت هذه الحملات
حد الاعتداء تعسفاً على وسائل إعلامه قصد منعه من إبلاغ
صوته وتطورت بعد ذلك إلى أشكال أشد قهراً؛ فقدمت
عناصره إلى المحاكمات، وتكثفت ضد أفراد التتبعات
والتحقيقات، وفتحت أمام شبابه السجون والمعتقلات حيث
الضرب والتعذيب والإهانة.

إن استمرار أسباب تخلف الوضع السياسي والاقتصادي
والتقافي في مجتمعنا يرسخ لدى الإسلاميين شعورهم
المشروع بمسئوليتهم الربانية، والوطنية والإنسانية في
ضرورة مواصلة مساعيهم، وتطويرها من أجل تحرير البلاد
الفعلي، وتقديمها على أسس الإسلام العادلة، وفي ظل نهجه
القويم.

وقد يذهب البعض إلى أن هذا العمل هو من باب إقحام
الدين في دنيا السياسة، وأنه مدخل إلى احتكار الصفة

الإسلامية ونفيها بالتالي عن الآخرين، إن هذا الفهم فضلاً عن كونه يعبر عن تصور كنسي دخيل على ثقافتنا الأصلية يكرس استمرارية (حديثه) لواقع الضياع التاريخي الذي عاشته أمتنا.

على أن حركة الاتجاه الإسلامي لا تقدم نفسها ناطقاً رسمياً باسم الإسلام في تونس، ولا تطمح يوماً في أن ينسب هذا اللقب إليها. فهي مع إقرارها حق جميع التونسيين في التعامل الصادق المسؤول مع الدين، ترى من حقها تبني تصور للإسلام يكون من الشمول؛ بحيث يشكل الأرضية العقائدية التي منها تتبثق مختلف الرؤى الفكرية والاختيارات السياسية والاقتصادية، والاجتماعية التي تحدد هوية هذه الحركة، وتضبط توجهاتها الاستراتيجية ومواقفها الظرفية. وبهذا المعنى تكون "حركة الاتجاه الإسلامي" واضحة الحدود والمسئولية غير ملزمة بكل صنوف التحركات، والمواقف التي قد تبرز هنا وهناك - إلا ما يقع تَبَنِيهِ منها بصورة رسمية - مهما أضفى أصحاب هذه التحركات على أنفسهم من براقع التدين ورفعوا رايات الإسلام.

وتأكيداً لهذا الوضع من ناحية، وتكافؤاً مع جسامه المهمة ومقتضيات المرحلة من ناحية أخرى، فإنه يتعين على الإسلاميين دخول طور جديد من العمل والتنظيم، يسمح لهم

بتجميع الطاقات وتوعيتها وتوظيفها في خدمة قضايا شعبنا وأمتنا. ولا بد لهذا العمل أن يكون ضمن حركة مبلورة الأهداف مضبوطة الوسائل ذات هياكل واضحة وقيادات ممثلة.

إن "حركة الاتجاه الإسلامي" التي حالت بينها وبين جماهيرها المسلمة العريضة ظروف القهر والإرهاب، لتأمل أن تكون مساهمة جماهيرها أعمق وأشمل في مستقبل الأيام.

المهام:

تعمل هذه الحركة على تحقيق المهام التالية:-

بعث الشخصية الإسلامية لتونس حتى تستعيد مهمتها كقاعدة كبرى للحضارة الإسلامية بأفريقيا، ووضع حد لحالة التبعية والاعتراب والضلال.

تجديد الفكر الإسلامي على ضوء أصول الإسلام الثابتة، ومقتضيات الحياة المتطورة، وتنقيته من رواسب عصور الانحطاط وآثار التغريب.

أن تستعيد الجماهير حقها المشروع في تقرير مصيرها، بعيداً عن كل وصاية داخلية أو هيمنة خارجية.

إعادة بناء الحياة الاقتصادية على أسس إنسانية، وتوزيع الثروة بالبلاد توزيعاً عادلاً على ضوء المبدأ الإسلامي

(الرجل وبلاؤه، الرجل وحاجته) أي (من حق كل فرد أن يتمتع بثمار جهده في حدود مصلحة الجماعة وأن يحصل على حاجته في كل الأحوال) حتى تتمكن الجماهير من حقها الشرعي المسلوب في العيش الكريم بعيدًا عن كل ضروب الاستغلال، والدوران في فلك القوى الاقتصادية الدولية.

المساهمة في بعث الكيان السياسي والحضاري للإسلام على المستوى المحلي والمغربي والعربي والعالم، حتى يتم إنقاذ شعوبنا والبشرية جمعاء مما تردت فيه من ضياع نفسي وحيث اجتماعي وتسلط دولي.

الوسائل:

لتحقيق هذه المهام تعتمد الحركة الوسائل التالية: -

إعادة الحياة إلى المسجد كمركز للتعبد والتعبئة الجماهيرية الشاملة، أسوة بالمسجد في العهد النبوي، وامتدادًا لما كان يقوم به الجامع الأعظم جامع الزيتونة من صيانة للشخصية الإسلامية، ودعمًا لمكانه بلادنا كمركز عالمي للإشعاع الحضاري.

تنشيط الحركة الفكرية والثقافية من ذلك: إقامة الندوات، تشجيع حركة التأليف والنشر، تجذير وبلورة المفاهيم والقيم الإسلامية في مجالات الأدب والثقافة عامة، وتشجيع البحث

العلمي، ودعم الإعلام الملتزم حتى يكون بديلاً عن إعلام الميوعة والنفاق.

دعم التعريب في مجال التعليم والإدارة مع التفتح على اللغات الأجنبية.

رفض العنف كأداة للتغيير، وتركيز الصراع على أسس شورية، تكون هي أسلوب الحسم في مجالات الفكر والثقافة والسياسة.

رفض مبدأ الانفراد بالسلطة (الأحادية)، لما يتضمنه من إعدام لإرادة الإنسان، وتعطيل لطاقات الشعب ودفع البلاد في طريق العنف، وفي المقابل إقرار حق كل القوى الشعبية في ممارسة حرية التعبير والتجمع وسائر الحقوق الشرعية والتعاون في ذلك مع كل القوى الوطنية..

بلورة مفاهيم الإسلام الاجتماعية في صيغ معاصرة، وتحليل الواقع الاقتصادي التونسي؛ حتى يتم تحديد مظاهر الحيف، وأسبابه والوصول إلى بلورة الحلول البديلة.

الانحياز إلى صفوف المستضعفين من العمال والفلاحين، وسائر المحرومين في صراعهم من المستكبرين والمترفين..

دعم العمل الثقافي بما يضمن استقلاله، وقدرته على تحقيق التحرر الوطني بجميع أبعاده الاجتماعية والسياسية والثقافية.

اعتماد التصور الشمولي للإسلام، والتزام العمل السياسي بعيدًا عن اللائكية والانتهازية. تحرير الضمير المسلم من الانهزام الحضاري إزاء الغرب.

بلورة وتجسيم الصورة المعاصرة لنظام الحكم الإسلامي، بما يضمن طرح القضايا الوطنية في إطارها التاريخي والعقائدي والموضوعي مغربيًا وعربيًا وإسلاميًا، وضمن عالم المستضعفين عامة.

توثيق علاقات الأخوة والتعاون مع المسلمين كافة: في تونس وعلى صعيد المغرب، والعالم الإسلامي كله.

دعم ومناصرة حركات التحرر في العالم.

وبعد فترة شن النظام حملة من الاعتقالات ضمت الآلاف من الإسلاميين خلال شهر مارس عام ١٩٨٧ وقدم قادة الحركة الإسلامية إلى محكمة أمن الدولة التي رأسها قاضي يُدعى "الهاشمي الذمال" من نوع "جمال سالم" و "والدجوى" في مصر و"المهداوي" في العراق، وغيرهم من قضاة السياسة الفجار.

ومورست خلال الاعتقال صور مقبّية من التعذيب
أشبهت ما مارسه عبد الناصر في مصر وحافظ الأسد في
سوريا.

وأصدرت المحكمة أحكامها بإعدام اثنين أتهما في
أحداث انفجارات وعنف، وسُجن قادة الحركة، واشتدت
حملات البحث عن المحكوم عليهم غيابياً.

واهتزت السلطة، وتبدت رعونة بورقيبه وتخريفه،
وأقال بعد ذلك وزيره الأول وعيّن خلفاً له وزير الداخلية
زين العابدين بن علي، الذي كان أول ما فعله أن قبض على
بورقيبه وأودعه في مكان بعيد، أراح تونس من نزواته..
وطويت صفحته كأن لم يكن بالأمس، وأنزلت تماثيله ولم
تسكب عليه دمعة واحدة، على أن زين العابدين نفسه لم يكن
أقلّ عداوة للإسلاميين من بورقيبه فبعد أن أفرج عن
الإسلاميين غداة توليه الحكم، وبعد أن قدم شيئاً من معسول
القول والوعود، حاول أن يبطش بهم، ولكن بعضهم كان
خارج تونس - ومنهم راشد الغنوشي- الذي أصبح يقوم
بدوره السياسي من السودان أو فرنسا أو غيرها من الأقطار.

والحرب سجال!!.. فقد أباح للشيوخيين تكوين حزب..
وحرّم على الإسلاميين ذلك!!.. بحجة أن التونسيين
مسلمون، ولا يجوز لحزب واحد أن يكون مسلماً!!..

وبناءً على هذا القياس لا يجوز في أية دولة تأخذ
بالنظام الديمقراطي أن يظهر فيها حزب ديمقراطي حتى لا
"يحتكر" الديمقراطية!!!..

* * * *

إن الظاهرة اللافتة في حركة الاتجاه الإسلامي - أو
النهضة كما أصبحت تُسمى - هي تركيزها على الحرية..

فهل هي قسمة "تونسية" في حركة إسلامية؟..

إن من النادر أن نجد حركة إسلامية تقول:

".. لذا نحن دخلنا الحياة السياسية في تونس من أجل
تحقيق الحريات في تونس، وليس من أجل إقامة حكم
إسلامي.

يجب أن نحترم إرادة الجماهير إذا اختارت منهجاً غير
منهجنا، فنحن لا نشكل وصايا على المجتمع.

فإذا اختار مجتمعنا أن يكون يوماً ملحدًا أو شيوعيتا فما
نملك نحن⁽¹⁾.

(1) مقتطف من حوار للأستاذ الغوشي مع مجلة "المجتمع الكويتية"
يونيو ١٩٨١، استشهد بها في مجلة الفرقان (الدار البيضاء -
المغرب) العدد ١٢ جمادي الأولى / جمادي الآخرة ١٤٠٨ هـ ص
١٦.

هذه نبذة غير مألوفة في الدعوات الإسلامية، ونحن
بالطبع نتمنى أن تكون صادقة، ولا يجوز لنا أن نأخذها على
غير محلها، وتكون عندئذ تطوراً هاماً في الفكر الدّعوة
الإسلامية.

* * * *

د- الشوريون التعاونيون في اليمن

اليمن: حتى ثورة ٤٨

تتمتع اليمن بمنزلة فريدة في العالم الإسلامي، فمنذ عهد سحيق وجد بها مجتمع مدني ينظم سياسياً على أساس قومي ويتمتع باستقرار، وحضارة تقوم على الزراعة بصفة أساسية.

وتظهر فيها ملكة مثل "بلقيس" يتحدث عنها القرآن حديثاً يستحق أن يجعلها من رواد الديمقراطية، إذ يُروى على لسانها: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾: ناهيك بأنها سيدة تجلس على عرش الملك.. وهي صفات لا نجدها إلا في مصر القديمة وحضارتها العريقة..

ولما كانت اليمن مرتفعة - جبلية - فإن مناخها معتدل والأمطار تسقط عليها فتقاوم الجفاف في المنطقة، وبهذه الأمطار تروي اليمن زراعة مزدهرة، وتختزن الباقي في سدود مثل سد مأرب المشهور.

ولليمن طراز فريد في العمارة وطريق البناء وطلاء الجدران عرضياً، بألوان زاهية، تتم عن حاسة فنية كامنة في الشعب اليمني.

وكما تميزت اليمن في تاريخها القديم، فإنها تميزت أيضاً في تاريخها الحديث:

فهذه هي الدولة الوحيدة التي يعتنق معظم علماءها - أو أبرزهم - المذهب الزيدي الذي يُنسب إلى الإمام زيد بن علي (زين العابدين) بن الحسين بن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

ويمكن القول إننا نجد فيه أفضل ما في السنة والشيعنة على السواء.

ويكفي في التدليل على ذلك أمران: الأول: فتح باب الاجتهاد من العهود الأولى حتى الآن والثاني: وجوب الثورة على الأئمة الظلمة، واعتبار السكوت عليهم نوعاً من الاستخذاء. ولهذا نجد في سادات اليمن وقادتها دماء الشهداء ممتزجة بمداد العلماء.

وقد انطبق هذا تمام الانطباق على أسرة عريقة عرفت بالعلم والكفاح لستة قرون متوالية هي أسرة "آل الوزير"، وهي الأسرة التي أرادت أن تضع اليمن على مشارف العصر، وأن ترسم مكاناً لليمن على خريطة الدول الحديثة.

ذلك أن اليمن كانت قد ابتليت بظروف معينة أدت لأن يحكمها الإمام يحيى حميد الدين، الذي كان يؤمن بالانغلاق والبعث عن عالم العصر.

والوجه الحسن لمثل هذه السياسة وقتئذٍ أنها حالت دون تغلغل نفوذ أجنبي، أو هيمنة استعمارية كم حدث لمصر أيام (الخدوي) إسماعيل باشا الذي فتح الأبواب على مصراعيها للأجانب، أو لدويلات الخليج التي اكتسبت كيائها الخاص بمعاهدات مع بريطانيا.

ولكن الجانب السيئ أنه أغلق على اليمن الأبواب، وأمسك بيده المفاتيح!

وظلت اليمن تتعامل بعملة "ريال ماريا تريزا"!! وتعيش حياة القرون الوسطى؛ حتى اضطر الإمام يحيى لإرسال بعض البعثات إلى مصر والعراق وسوريا؛ فدخل بصيص من نور العصر اليمن..

وتلاقت رغبة هذه النواة التي تعرفت على عالم العصر مع رغبة بعض العلماء الذين ضاقوا بسياسة الإمام يحيى الديكتاتورية، المخالفة لأصول المذهب الزيدي الذي ينص على الشورى، ويوجب الثورة على البغاه.

ورزق الاثنان تأييدًا من الأخوان المسلمين في مصر، وبهذا بدأت خيوط حركة جديدة تظهر، وأمسك السيد "علي بن الوزير" - وهو شخصية إدارية وسياسية وعلمية بارزة - المجتمع اليمني، وإن كان قد دفع إلى الصدارة بأخيه الإمام عبد الله الوزير.

وأدت ظروف المعركة إلى أن يقتل الإمام يحيى وأن يهرب ابنه الإمام أحمد.. بينما أقام الثوار لأول مرة في العصر الحديث في اليمن ثورة الميثاق أو الدستور، ووضعوا دستوراً لحكم اليمن يتفق مع الأصول الإسلامية الشورية.

كانت ثورة ٤٨ أصدق تعبير عن إرادة شعب اليمن الواعي، لأنها تنبعث من أصول وجذور الشعب ممثلاً بعقيدته وموروثاته وحضارته، وقادته الطبيعيين من علماء أو طلبة.

وفي الحقيقة فإن ثورة ١٩٤٨ م لم تكن أمل اليمن فحسب، بل إنها كانت أمل المنطقة كلها في قيام حكم شورى إسلامي، يحقق أفضل ما في العصر الحديث، دون أن يشذ عن أصول وجذور الشعب.

ولعل هذا نفسه هو الذي حفز العروش العربية، ونظم الحكم والقوى المستفيدة من الأوضاع القائمة للتأمر على الثورة، وإعادة الحكم الفردي مرة أخرى، وتمكين الإمام أحمد من ضرب الثورة، وإعادة الحكم الفردي والتكبير بقيادة وزعماء ثورة ١٩٤٨ م، فأعدم خيرة علماء اليمن وأخلص رجالها، وأكثرهم مروءة وغيره، وبالرغم من حملة الإعدام والتكبير استطاع قلة من أبناء قادة الثورة الهرب من السجون وحمل الفكرة.

لم يكن من السهل علي الإمام أحمد أن يعيد عقارب الساعة إلى الوراء، ولم يكن الله سبحانه وتعالى ليضيع دماء شهداء حكم الشورى هباءً، فاضطربت الأمور، ثم دخلت المنطقة كلها في دوامة الحكم العسكري والنظام الشمولي، وعمدت النظم القائمة إلى خداع الشعب برفع الشعارات المدوية، وتقديم الوعود المغرية والزائفة، واصطناع قيادات التنظيمات من نقابات أو اتحادات طلبة.. الخ، وبذلك هيمنت على الأمور واستتبدت بالسلطات، فإذا وجه إليها نقد رفعت شعاراتها وكرّرت دعاويها.. كأن الشعارات والدعاوي تغني عن الحق والواقع شيئاً. وقامت ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ م ضد طغيان بيت حميد الدين، وتولّى العسكر كل شيء، وبذلك انتقلت عدوى الحكم العسكري إلى اليمن، وظهرت كل سوءات هذا الحكم، فاضطربت الأمور، وأدّى هذا إلى التدخلات الأجنبية، التي جعلت أرض اليمن مسرحاً لصراع القوى الطامعة في السيادة، وزعامة المنطقة.

ظهر اتحاد الشوريين التعاونيين:

عقب فشل ثورة ١٩٤٨، خيم على البلاد جو كئيب مثبط من الهزيمة واليأس والقهر، وبقي من نجا من السجن حائراً تائهاً لا يدري ماذا يعمل، لكن بصيصاً من الأمل شرع يأخذ طريقةً في تبديد ذلك الجو، تمثل في أمرين:

أولهما: تشكيل "عُصبة الحق والعدالة"، وهي أول تنظيم سياسي ثوري عقب فشل ثورة ١٩٤٨، أسسها إبراهيم بن علي الوزير، ومحمد عبد الواسع الواسعي، والعقيد طه مصطفى، والعقيد أحمد الجرموزي - معلم الجيش آنذاك - وأحمد الحافي - أحد أبرز ضباط الكلية العسكرية الذين تخرجوا على يد الرئيس جمال جميل - وأحمد أبو طالب وعبد الكريم الغسالي، وعلى أبو الرجال، وعلي محمد مفضل، ويحيي الوزير، ومحمد أحمد مفضل، ومن المشايخ على سبيل المثال لا الحصر: الشيخ المنصوري من بني جبر، وحسين قائد سراج، والنقيب حمود أبو راس وغيرهم كثير.

ثانيهما: صدور جريدة "السلام" من كارديف ببريطانيا التي أصدرها المجاهد الكبير الشيخ عبد الله علي الحكيمي رحمه الله، فكانت أول صوت يشق ظلام الليل الرهيب؛ فيبعث في الأمة روح الأمل، ويثبت العزيمة. وكان كلا الأمرين استمراراً لثورة ٤٨ مضموناً وجهاً.

وقد قامت بين تنظيم عصبة الحق والعدالة وبين الشيخ الحكيمي علاقة مباشرة وسريعة، أصبح أحد أهم مهام التنظيم

هو توزيع الجريدة في اليمن، وموافاتها بالأخبار عبر مركز أقيم في منطقة البيضاء لهذا الغرض.

أما التنسيق والتعاون السياسي فعبير المناضل المجاهد البارز المرحوم محمد الواسعي الذي كان - بحكم كونه تاجرًا - يتردد على عدن.

أزعج هذا التحرك السلطة إزعاجًا شديدًا، فما لبثت أن اعتقلت إبراهيم بن علي الوزير ومحمد الواسعي، وبذلك انتقل النشاط إلى السجن نفسه، وفيما بعد تم اعتقال كثير من أعضاء العصبة وعذبوا..

بعد هذه الفترة، كان الاتحاد اليمني قد أنشئ في مصر عقب وصول الشهيد محمد محمود الزبيري إلى القاهرة بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، من مجموعة من الشباب الذين كانوا يدرسون في القاهرة، بالإضافة إلى أشخاص من الأحرار الأوائل الذين كانوا في مصر، كالأستاذ يحيى أحمد زيارة والدكتور حسين فيض الله الهمداني، كما ضم أيضًا بعض الشخصيات الرسمية مثل عبد الرحمن أبو طالب، ويحيى المضواحي وغيرهما..

ثم التحق به كل من عباس بن علي الوزير وإبراهيم بن علي الوزير، بعد التمكن من القرار من داخل السجن في

رحلة مشهورة، ثم ما لبث أن لحق بالقافلة أحمد محمد نعمان عقب حركة ١٩٥٥.

لم يكن هذا الخليط ليشكل في الواقع بناءً متماسكاً، وقد ضاعف من أسباب ذلك تدخل المخابرات المصرية في شئون الاتحاد اليمني الذي ما لبث أن أصبح تجمعاً لفئات متناقضة.. أضف إلى ذلك أن البناء الإداري كان صورة من الأوضاع نفسها، حيث سادت الارتجالية وعدم التنظيم، وأصبحت القرارات السياسية تتخذ بشكل فردي دون مشورة ولا مشاركة، الأمر الذي أدّى إلى نشوء معارضة داخل الاتحاد، تطالب بإعادة التنظيم بحيث يكون صورة للمستقبل المنشود من ناحية، وقادراً على قيادة السفينة من ناحية أخرى، وقد تزعم المطالبة بالتصحيح كل من: إبراهيم الوزير وعباس الوزير، ومحمد الرباعي، ومحمد أنعم غالب، واسكندر ثابت وعلي عاصم.. إلخ.

ولما رفضت قيادة الاتحاد اليمني ذلك، قرر المعارضون لسياسة الاتحاد اليمني الفردية تنظيم أنفسهم؛ فعمد البعض منهم إلى تشكيل حزب جديد على الأسس التنظيمية التي كانوا يطالبون بها الاتحاد اليمني، وقد مر هذا التنظيم بمرحلتين:

الأولى: حزب الشعب، ثم وضع القانون الأساسي لاتحاد الشورويين التعاونيين الذي أقر من قبل أعضاء حزب الشعب، وتقرر أن يعلن في القاهرة وعدن، ولكن السلطات الاستعمارية البريطانية رفضت إعطاء التصريح، بيد أن الشيخ أحمد عبد الرقيب حسان كان لديه ترخيص بحزب أطلق عليه حزب "الشورى"، فما لبث الشورويون التعاونيون في عدن، وعلى رأسهم الأستاذ على عبد العزيز نصر أن انفقوا معه على استخدام الاسم المرخص به ليشتغل تحت اسمه "الشورويون التعاونيون" ونتيجة لهذا الاتفاق، وصل عدن كل من: عباس بن علي الوزير، ومحمد الرباعي من القاهرة، وتم إعلان حزب الشورى الذي اختار الأستاذ على عبد العزيز نصر أميناً عاماً له. وقد كان هذا التنظيم نقلة نوعية من التنظيمات السياسية، ولقي نجاحاً طيباً في المهجر اليمني، وتمكّن أن يقيم خلايا في الداخل (في الشمال) تحت إشراف قيادة الداخل المشكلة من: أحمد العماد - رحمه الله - وعلي عبد الله الواسعي - وطه مصطفى وزير وقاسم الوزير، وقد ضم كثيراً من العناصر الوصية كالأستاذ علي أبو الرجال وأحمد ضيف الله وآخرين.

استخدم حزب الشورى جريدة "الزمان" متخذاً إياها منبراً للتعبير عن أفكاره، كما أصدر نشرة داخلية خاصة بمشاكل ومظالم المواطنين، وكانت توزع على نحو جيد.

غير أن إعلان السلطات الاستعمارية عزمها على إنشاء ما سُمي باتحاد الجنوب العربي قد عجل الصدام بين هذه السلطات وبين الحزب الذي كانت "الوحدة اليمنية" أحد أهدافه.. وعليه فقد طلبت السلطات من الحزب إعلان بيان بتأييد قيام اتحاد الجنوب. وقد رفض الحزب ذلك بصراحة، فكانت النتيجة أن هجمت السلطات على مقر الحزب وأغلقتة وصادرت ممتلكاته، ولاحقت أعضائه لإلقاء القبض عليهم، حيث فر عباس والرباعي، واختفى الأستاذ علي، وتفرق الأعضاء الآخرون، منهم من عاد إلى الشمال، ومنهم من بقي في عدن..

إذا كانت الضربة الموجهة لحزب الشورى قد أصابته في عدن، فإن هيكله في الداخل ظل سليماً نتيجة لأنه كان سرياً، فلم يتأثر من الناحية التنظيمية بالضربة، وإن كان قد تأثر نشاطه وفعاليتته نتيجة لذلك، كما أن وجود "إبراهيم الوزير" في القاهرة هو ومن معه، قد كتب أيضاً الاستمرار للفكرة، (للسوريين التعاونيين) وإن لم يكن لحزب الشورى.

وانصرف الشورويون التعاونيون في الداخل والخارج إلى التركيز على تفجير الثورة، والانهاك في الإعداد لها، وف تصور شامل وواضح تتضمنه وثائقه، وحين شعر بالاقتراب من ساعة الحسم رأى أنه من الضروري، أن تتوحد القوى السياسية في جبهة وطنية واحدة، تحقق للثورة عمقها السياسي..

من ناحية أخرى كانت القوى الوطنية على اختلاف مشاربها، تمر بمرحلة من التشرذم وغياب القواسم المشتركة التي يمكن أن تُلقى عليها جميعًا من أجل إنجاز مشروع الثورة..

بدأت المبادرة من القاهرة حيث طرح إبراهيم بن علي الوزير مشروع التقاء القوى الوطنية في جبهة متحدة، وكنواة لذلك فقد طرح مشروع اتحاد القوى الشعبية اليمينية، وقد بدأ الإعداد له عام ١٩٥٩ م بعد فترة قصيرة من إغلاق حزب الشورى، وقد طُرح المشروع على بعض القوى بالقاهرة وعدن والداخل، ووضع في نفس الوقت مشروع البيان الأول الذي وافق عليه الذين وافقوا على فكرة الاتحاد في القاهرة، بالإضافة إلى الشوريين التعاونيين، منهم: المرحوم أحمد المطري، وعبد القوى العبسي، وأحمد محمد الشجني وعبد عثمان، كما طرحه الأستاذ علي عبد العزيز نصر على

المجموعة في عدن، فوقَّع عليه سبعون شخصاً من العاملين في الحقل الوطني منهم: أحمد دهمش (رئيس نقابة الصحفيين) وعبد الله الوصابي وحسن بلکم الذي حمل البيان إلى القاهرة، وأمین هاشم.. إلخ.

في سنة ١٩٦٠، بعد أن استكملت التوقيعات على البيان الأول، شكلت لجنة من: أحمد الشجني، أحمد المطري، وعبد القوی العبسي، وغيرهم، لصياغة القانون الأساسي، اقتباساً واختصاراً من القانون الأساسي لاتحاد الشوريين التعاونيين.

ثم صدر القانون الأساسي لاتخاذ القوى الشعبية اليمينية، وهو يتضمن أهداف الاتحاد ووسائله وهيكله التنظيمية، وأعلن البيان الأول في ١١ / ٧ / ٦٢ وطرح في كتيب ووزع في الداخل والخارج.

وهكذا فإن اتحاد القوى الشعبية اليمينية، هو من ناحية، استمرار لنضال طويل، وخاصة لتجارب غنية تراكمت، وصقلت عبر هذه المسيرة الجهادية الثورية؛ حيث تبلورت عناصرها الديمقراطية والشورية والعدالة الاجتماعية بشكل واضح في غايات ووسائل، من هنا يمكن، علمياً أن ترجع نشأته من حيث الاستمرارية إلى أعقاب فشل ثورة ١٩٤٨، إلا أنه من الناحية العملية فإن اتحاد القوى الشعبية اليمينية بشكله الراهن قد أعلن عنه في عام ١٩٦٠م.

ومن ذلك اليوم والاتحاد بقيادته أو أعضائه أو مؤسساته، على اختلاف الظروف يواصل نضاله الثوري التقدمي من أجل تحقيق أهدافه المعلنة، على أنه يجب الإشارة هنا إلى

خاصية تميز الاتحاد عن غيره من التنظيمات، هي أنه لا يجعل الوصول إلى الحكم هدفاً من أهدافه، بل إن هدفه هو أن تصل أفكاره ومبادئه للناس، وأن يحكم الشعب نفسه⁽¹⁾.

دعوة ومبادئ الشوريين التعاونيين

اتحاد القوى الشعبية اليمنية (الشوريون التعاونيون) حزب إسلامي، يعتبر نفسه جزءاً من حركة اليقظة الإسلامية العالمية ويمثل مصالح وتطلعات شعبنا اليمني العظمي، وأمتنا الإسلامية المجيدة.

والإتحاد تجمع طوعيٌ لعدد من المجاهدين في سبيل الله والعقيدة الإسلامية الخالدة، الملتزمين بكتاب الله وسنة نبينا محمد ﷺ..

والقاعدة التي يرتكز عليها جهاد الإتحاد هي القرآن الكريم، وصحيح السنة النبوية، بوصفهما السبيل الأوح للعودة كما كنا خير أمة أخرجت للناس، نؤمن بالله واليوم الآخر، وندعو إلى الخير، ونأمر بالمعروف، وننهي عن المنكر، ففي هذه القاعدة الربانية خير أداة لفهم الحياة ونواميسها، ولتحرر الإنسانية جمعاء من العوز والمرض،

(1) الحركة الإسلامية في اليمن لاتحاد القوى الشعبي اليمنية، تأليف الدكتورة عبده سعيد المغلس من ص (٣٥ - ٤٥) (بتصرف)

ومن الخوف وتسلط الطواغيت، وأحسن منهج عمل وأفضل دليل سلوك للمستغلين والمحرومين والمستضعفين.

وفيها الحلول المثالية لقضايا القهر والتخلف والجهالة، وعلاج واستئصال بواعث التجزئة والاستغلال المالي والطبقي والعرقى.

والاتحاد بقيامه على أساس العقيدة الإسلامية السمحاء، وعلى سنة الرسول ﷺ فإنما هو يعمل باستمرار على تطبيقهما تطبيقاً صحيحاً حقاً، وعلى تحقيق الالتقاء والتفاعل الدائمين بين الفكر الإسلامي الحر، وبين مختلف العلوم والمعارف المتجددة والمتطورة.

والاتحاد يتعلم ويستفيد من التجارب الإنسانية والجهادية لجميع الأمم، والبلدان التي كافحت، ولا تزال تكافح من أجل تحريرها الأخلاقي والاجتماعي، وذلك طبقاً للتوجيه النبوي "الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها" وذلك فيما لا يتعارض مع الثوابت الإسلامية.

الهدف دولة القرآن:

الهدف الأساسي للاتحاد، هو تحقيق دولة القرآن، من حيث تطبيق أحكام كتاب الله وسنة الرسول ﷺ، والشورى في الأمر الشورى الملزمة، والعدالة الإسلامية في المال والحكم والأهلية للحكم، واستهداف الخير في كل شيء، وبخاصة

القضاء على استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، وعلى كافة أشكال القهر والتمييز، والعصبية، والمذهبية البغيضة الجاهلية.

الوسائل:

(١) الحرية للجميع:

حرية جميع أبناء الشعب في تنظيم أنفسهم والتعبير عن أفكارهم وتأطير قواهم في أي شكل يريدون (جمعيات - أحزاب - نقابات - اتحادات - هيئات.. إلخ) ضماناً لحقوقهم السياسية والاجتماعية باختلاف وجوهها.. ذلك لأن كل حضارة، أو تقدم هي في النهاية مجموعة الشروط والضمانات التي يقدمها مجتمع ما لأبنائه؛ حتى يتمكن الإنسان من تحقيق نفسه.

(٢) الدعوة والحوار:

امتنالاً لقوله تعالى ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾.

(٣) بناء الإنسان اليمني:

وفق منهج الإسلام، وتربية المجتمع على حماية حقوقه وحماية المؤسسات الديمقراطية، وجعل ذلك جزءاً من سلوكه وحياته اليومية.

(٤) إرساء السلوك الديمقراطي:

وذلك من خلال:

ترسيخ الثوابت الديمقراطية واحترام الرأي والرأي الآخر، وتجنب التعصب الفكري والإساءة إلى الأحزاب الأخرى.

احترام الشرعية الدستورية، وانتقال السلطة سلمياً عبر صناديق الانتخاب، وفق الضمانات التي تحمي عملية الانتخاب من أي انحراف.

العمل على بناء دولة المؤسسات، والفصل بين السلطات، واستقلالية القضاء.

الحفاظ على الوحدة الوطنية، وتماسك الجبهة الداخلية ومحاربة الطائفية، والعنصرية والمناطقية.

تحييد القوات المسلحة والأمن، واعتبارهما مؤسستان وطنيتان مهمتهما حماية الشرعية الدستورية، والديمقراطية ومكاسب الشعب.

الفصل بين أموال الحزب الحاكم والمال العام، وكذلك بين ممتلكاته وممتلكات الدولة.

عدم تحيز وسائل إعلام الدولة لصالح الحزب، بتحويلها إلى وسائل إعلام قومية تعبر عن مصلحة الأمة، لا مصلحة الحزب الحاكم.

عدم استخدام العنف أو التلويح به أو الإكراه⁽¹⁾.

* * * *

وقد حال الحكم العسكري دون أن يتحرك "الشوريون التعاونيون" بصورة فعالة وملموسة.. فقد حرم عليهم العمل في الداخل وطوردوا في الخارج.

ولم يكن العمل السري أو التأمري من الممارسات المقبولة منهم، وظلوا كذلك حتى الفترة المعاصرة عندما أعلنت الوحدة، وظفرت البلاد بقسط من الحرية، فأعلنوا دعوتهم داخل اليمن، وقاموا بنشر مجلة باسم "الشورى".

ومن واقع لمسنا الخاص، يمكن القول إن قادة "الشوريين التعاونيين" هم أشد الدعاة الإسلاميين إيماناً بالحرية مع الحفاظ على سمت الإسلام، وروح وجوهر الإسلام. وهي الصفات التي يتطلبها اليمن كقطر إسلامي عريق يتوق للحرية..

(1) انظر الحركة الإسلامية في اليمن - مرجع سابق من ص ٣١ - ٥٤ بتصرف.

هـ- الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل

الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل هيئة قريبة العهد فريدة الطبيعية، تعد وحيدة من نوعها بين الهيئات الإسلامية، وهي تضم المنظمات النقابية، وتستهدف إصلاح هذه المنظمات؛ بحيث يمكنها القيام بالدور الذي يمثل التحدي في المجتمعات الإسلامية اليوم، وهو "التنمية" والسباق الصناعي والإنتاجي الذي ينتظم العالم، وقيام العلاقات ما بين العمال وأصحاب الأعمال على سلام اجتماعي، والطريق إلى تحقيق ذلك هو أن تستلهم هذه المنظمات القيم الإسلامية. وفي الوقت نفسه فإن الاتحاد يقوم بدور في إصلاح الفكر الإسلامي. لأنه يدفع بالطبيعة العملية للإسلام جنباً إلى جنب النزعة النظرية التي تقوم على مقولات، وبهذا يحقق نوعاً من التوازن في الفكر الإسلامي ويجعله أقرب إلى الكمال.

لماذا يجب أن نهتم بالحركة النقابية:

يغلب على الدعوات الإسلامية العزوف عن النقابات، وقد قال أحد الأخوان "السودانيين مرة " كنا ننظر إلى النقابات كما لو كانت رجساً من عمل الشيطان"، وهو الموقف التقليدي للدعوات الإسلامية بحكم فهمها للإسلام. وقيامها على جمهور البورجوازية الصغيرة.

وهو موقف خاطئ موضوعياً وإسلامياً.

فمن الناحية الموضوعية فإن النقابات هي أكبر التكتلات الجماهيرية في معظم - إن لم يكن في كل - الشعوب لأنها تضم الشعب العامل: رجالاً ونساءً تبعاً لأعمالهم ومهنتهم، وهي القوامة على العمل والإنتاج. فهي الأكبر عددًا والأهم نوعاً بين كل الهيئات.. ومن أجل هذا كانت قبلة أنظار الشيوعيين والحكام. فدخلها الشيوعيون وجعلوها تسير في اتجاهاتهم، واصطنعها الحكام فأمنوا ثورة الجماهير عليهم بل ضمنوا جمهوراً مؤيداً بأهون الأسباب. وقد حدث هذا وذلك لعزوف الهيئات الإسلامية مما أدّى إلى وجود فراغ أيديولوجي استغله الشيوعيون والحكام كلُّ بوسائله الخاصة.

وقد نذكر هنا كيف أن المؤتمر النقابي في عدن كان هو الهيئة التي أسلمت هذا البلد للشيوعية، وكيف أن إضراب عمال النقل بالقاهرة في مارس ١٩٥٤ كان التعلّة الرسمية لعودة جمال عبد الناصر وانقلابه على الأخوان. وكاد السودان أن يقع في قبضة الشيوعية الحمراء عندما اعتنق اتحاد العمال الشيوعية وساق البلاد حتى كاد أن يوقعها فيها - لولا رحمة الله بالسودان..

فانظر إلى جريرة عزوف وسلبية الدعوات الإسلامية نحو الحركة النقابية، وكيف أدت إلى هذه النتائج الحاسمة في مصير الدول..

ومن الناحية الإسلامية فإن النقابات هي أقرب الهيئات إلى الإسلام..

إن جمهورها هو "العمال" والفقراء والمستضعفون في الأرض، وأمثال هؤلاء هم الذين آمنوا بالإسلام؛ عندما تجهم له أثرياء مكة وتجار قريش.

وأسلوب النقابات في العمل وهو "الاتفاقيات الجماعية" ما هو إلا تطبيق عملي حديث للآية ٢٨٢ من سورة البقرة^(١).

ومطلبها في أن يكون لها صوت في إدارة الصناعة ليس إلا الشورى التي حض عليها القرآن. وهدفها وهو العدل والإنصاف، هو الهدف الذي يدعو إليه الإسلام والمحور الذي يدور عليه.

(١) انظر تفصيل ذلك في كتابنا "الإسلام والحركة النقابية ص ٧٥ -

لقد أثبتت كتابات الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل وبوجه خاص كتاب "الإسلام والحركة النقابية" هذا كله فقلب رأسًا على عقب المفاهيم والاتجاهات التقليدية للدعوات الإسلامية نحو الحركة النقابية.

ومن الناحية التاريخية والواقعية، فإن أسلاف النقابات وهي "الأصناف" كانت ذائعة ومزدهرة طوال الحكم العباسي، وكان لها صلة بالمحتسب كما كان لكل صنف أحد الأولياء من الصحابة أو شيوخ الصوفية كشفيع للصنف.. وذهب أحد الكتاب إلى أن أوروبا نقلت هذا النظام عن المسلمين؛ عندما شاهده خلال الحروب الصليبية.

فليس هناك ما كان يدعو الهيئات الإسلامية للعزوف عن النقابات، أو التجهم لها لا من ناحية الطبيعة، ولا من ناحية الإسلام ومبادئه، وكان الموقف السليم هو العكس، أي كان واجبًا على الدعوات الإسلامية مناصره النقابات، ودعمها لتحقيق أهدافها الإنسانية الشعبية.

تأسيس الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل:

آمن بهذه الأفكار كاتب إسلامي ومحاضر عمالي هو الأستاذ جمال البناء، الذي كان في أوائل السبعينات خبيرًا استشاريًا بمنظمة العمل العربية بالقاهرة.

وبحكم اتصالاته السابقة ووظيفته أيضاً؛ فإنه اتصل بعدد من القيادات العمالية في دول إسلامية، تجاوب معه بعضهم، بحيث تهيأت أسباب عقد مؤتمر تأسيسي في مدينة جنيف في يونيو سنة ١٩٨١.

وإنما اختيرت جنيف واختير هذا الميعاد لأنه مكان وميعاد المؤتمر السنوي لمنظمة العمل الدولية بجنيف، والذي يحضره مندوبو العمال في ١٥٠ دولة. ويعقد خلال شهر يونيو من كل عام. وبهذا الحل تخلص الاتحاد من معظم صعوبات تمويل مؤتمره التأسيسي.

وخلال المدة من ٦ إلى ١ شعبان سنة ١٤٠١ هـ (٨ إلى ١٢ يونيو ١٩٨١م) اجتمع في جنيف ممثلون لمنظمات نقابية في السودان والباكستان وبنجلاديش والمغرب والأردن بهيئة مؤتمر تأسيسي للاتحاد الإسلامي الدولي، للعمل بناء على دعوة وجهها إليهم الأستاذ جمال البناء، داعية هذا الاتحاد والأمين العام للهيئة التأسيسية له.

وتضمن جدول الأعمال:

مناقشة مشروع دستور الاتحاد.

انتخاب قيادات الاتحاد.

تعيين المقر الرئيسي للاتحاد.

إعلان التكوين الرسمي للاتحاد.

وخلال عدد من الجلسات التي عقد بعضها في أبهاء
وصالات وكافيتريا "قصر الأمم المتحدة" بجنيف؛ حيث كانت
تُعقد اجتماعات مؤتمر العمل الدولي، أو قاعة البلدية التي
استؤجرت لذلك خاصة، عقد المندوبون عددًا من الجلسات
ناقشوا فيها مشروع الدستور، الذي كان قد أعد سلفاً باللغة
العربية والإنجليزية، ودارت المناقشات بالعربية والإنجليزية
وأدخل عدد من التعديلات.

وفي الجلسة الأخيرة للمؤتمر - يوم الجمعة ١٠ شعبان
سنة ١٤٠١ (١٢ يونيو سنة ١٩٨١) أنهى المؤتمر أعماله
بإعلان تكوين "الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل".

وبهذا تحقق - في جو هادئ بعيدٍ عن الدعايات
واللافتات والمظاهر التقليدية التي ترتبط عادةً بمثل هذه
المناسبة - هذا الإنجاز العظيم، وهذا الأمل الذي طالما بدا
بعيداً.

وقد تم المؤتمر التأسيسي بسهولة وبسر، ولولا توفيق
الله ما تهيأ هذا لأن داعية الاتحاد لم يكن لديه الإمكانيات
المالية ولا هو قاطن في جنيف. فقد قبض الله للمؤتمر موظفًا
كبيراً بمكتب العمل الدولي سوري الجنسية تعاطف مع فكرة
المؤتمر، واكتسب بحكم اتصالاته استضافة "المؤسسة الثقافية"
للمندوبين. كما قام هو نفسه بالإجراءات التمهيدية، والاتصال
بالسلطات المختصة في جنيف. ولما كان لا يستطيع القيام

بذلك باسمه (لأنه موظف دولي) فقد تمت كل الاتصالات باسم كريمته! وعندما وصل الأستاذ جمال البنا جنيف قبل عشرة أيام عن ميعاد المؤتمر؛ لم يحتج إلا لإجراء اتصال تليفوني مع أحد رجالات الأمن بوزارة الداخلية السويسرية، للتأكد من أن الاتحاد ليس له طابع سياسي معين.

وفتح الاتحاد له حسابًا في بنك كريدت سويس، وهو أحد أكبر بنوك سويسرا بمبلغ خمسين دولارًا، قيد له من هذا المبلغ ٤٥ دولارًا!!

المفاهيم - الوسائل - الغايات:

للاتحاد الإسلامي الدولي للعمل فهمه الخاص بالنسبة لعدد كبير من القضايا الإسلامية، ولم يكن ليُعقل أن يكتل العمال ليضعهم في قبضة فهم ضيق للإسلام، يجني عليهم أو يجعلهم أداة في يد الحكام. من هنا فإنه عني في دستوره بتخصيص الفصل الثاني للمفاهيم، والفصل الثالث للغايات والوسائل.

فتحت عنوان المفاهيم جاء:

المادة (٤)

ليقوم هذا الاتحاد على أساس تلاقى وتفاعل الإسلام والعمل طبقًا للمفاهيم التالية:

المادة (٥)

١-الإسلام هو نهاية مسيرة البشرية للتعرف على الله وخاتم الأديان السماوية وبلورتها، وهو لا يستشعر حساسية نحو الأديان الأخرى، ولا يفرق بينها، لأنه يرى أنها كلها من الله، وأن أنبياءها رسل مُكرَّمُون. وقد تحدث نبي الإسلام عن بقية الأنبياء كأخوة، وعن الدين كبناء متكامل إلا ثغرة جاء الإسلام ليسدها.

وإنما حدث الخلاف، نتيجة لتحريف رجال الدين، ورغبتهم في احتكار الدين واستغلاله لمآربهم.

والإسلام يؤمن تمامًا بحرية الاعتقاد للمسلمين ولغير المسلمين، ويحترم حق كل واحد فيما يعتقده - ويرفض أي تدخل في مجال العقيدة، ما لم يؤد ذلك إلى إساءة محققة إلى المجتمع، ويكون التدخل منصبًا على العمل وليس على الفكر. ولا يقر الإسلام أية وصاية بين الإنسان والله، ولا يعترف بأية صورة من صور الكهنوت.

الإسلام في مفهوم الاتحاد - هو القرآن الكريم والصحيح الثابت من السنة النبوية - وفهمهما فهما سليمًا. دون تعسف أو ترخص أو تقييد بمذهب دون آخر.

المقوم الذي يعني به الاتحاد بوجه خاص من بين المقومات الإسلامية الأخرى، ويتطلب الإيمان به كشرط للعضوية هو "العدل الإسلامي" لأنه الأساس والمعيار في تحديد العلاقات وتعيين الحقوق والواجبات؛ بحيث يستبعد التحكم والاستغلال.

والعدل - فيما يرى الاتحاد - هو الطابع الرئيسي للإسلام والقيمة الاجتماعية له، ومهما اختلفت الاجتهادات أو تفاوتت الأفهام؛ فسيظل هو العدل الذي لا يمكن الخلط بينه وبين الظلم والاستغلال الكريه.

ويتميز العدل الإسلامي بموضوعيته وقداسته الناشئتين من أنه مُنزَلٌ من الله، وليس من الدولة أو الأفراد. وبهذا يستعصي على التلاعب والتحايل، ويصبح ملزماً للدولة والأفراد على سواء.

المادة (٦)

(أ) المقصود بالعمل في هذا الاتحاد هو العمل بالمعنى القرآني، وليس العمل بالمعنى التقليدي الضيق، أو الاصطلاحي الشائع الذي يحصر العمل في العمل المأجور أو العمل الاقتصادي. وقد جاءت كلمة العمل ومشتقاته في القرآن مقرونة في معظم الحالات بالصالحات، أو كمبرر للثواب والعقاب في الحياة الدنيا وفي الآخرة - مما يدل على

شموله، وعمومه لكل صور العمل، وطبقاً لهذا فيمكن من ناحية المبدأ لكل الذين يعملون سواء كان عملهم يدوياً أو ذهنيًا لقاء أجر أو كسب أو غير ذلك، أن يمثلوا عن طريق منظماتهم في الاتحاد.

ومع هذا فستظل النقابات باعتبارها الهيئات التي تضم بالفعل معظم العاملين هي عماد الاتحاد دون تفرقة بين عمال يدويين وذهنيين، يعملون في قطاع عام أو خاص أو حكومة أو خدمات.

وبجانب العضوية العاملة للنقابات. يعمل الاتحاد لتوثيق علاقاته باتحادات الطلاب وجمعيات ربات البيوت والجمعيات التعاونية والروابط الفلاحية والمنظمات الإسلامية الأخرى.

إن هذا التجديد في بنيان الاتحاد وتنظيمه سيكفل له الخروج من قوقعة البلوريتاريا، وعقدتها التي كادت أن تصبح إحدى حفريات القرن التاسع عشر، وتناقض تطور حركة العمالة في المجتمع الحديث، وسينفي عنه بعض الحساسيات تجاه فئات الشعب العاملة الأخرى، وانعزال الحركة النقابية عنها، وسيضمن له مشاركة العناصر الشابة المثقفة المؤمَّنة في تحقيق المصلحة الواحدة.

(ب) ينبني أيضاً على الأخذ بالمعنى القرآني لكلمة العمل أن يكون للعمل إخلاقيات في المضمون والأداء؛ بحيث

يكون العمل أداة بناء وخدمة ورعاية، وإشباعاً للاحتياجات المشروعة، ويستبعد منه كل صور الإفساد والهدم والتخريب والاستغلال، كما يجب أن يؤدي بما توجهه القيم الإسلامية والضمير الإسلامي من إخلاص وأمانة.

إن اليد العاملة المسلمة يد بناءة طاهرة أمانة.

المادة (٧)

الأبعاد الرئيسية للعمل هي:

العمل هو المورد الرئيسي - ويكاد يكون الوحيد - لإعاشة العامل، ولهذا فيجب أن يكفل الأجر مستوى معيشياً معقولاً للعامل، فإذا كان مستوى المهارة لا يسمح بذلك فإنها لمسئولية الدولة الإسلامية تدريب العمال - وإعادة التدريب لبلوغ هذا المستوى. وحتى يتم ذلك تكمل الأجور من الزكاة أو غيرها من موارد الدولة تحقيقاً للتكافل الاجتماعي.

لا يقل عن ذلك أهمية أن العمل أداة إشباع الشخصية، وإثبات وجودها وطريقها للمساهمة في حياة المجتمع، وتقديماً لإضافتها الخاصة ولتحقيق ذلك يجب أن تتخذ الإجراءات التي تحقق قدر المطلوب التلاؤم ما بين العمل والقبالية بوسائل التوجيه المهني وإعادة التدريب.

وتقدم الحركة النقابية المشورة للجهات المسؤولة،
وتقوم بمسئولياتها تجاه ذلك.

العمل هو الإطار الذي ينظم العاملين على أساس المهنة
أو الصناعة أو الخدمة أو غير ذلك؛ ليتمكن تسوية علاقات
العمل تسوية جماعية تتوفر فيها الشورى بالصورة الكاملة؛
أي الشورى ما بين العمال وقيادتهم - وما بين قياداتهم
وأصحاب الأعمال وتقوم على أساس العدل الإسلامي؛ بحيث
يمكن أن تؤدي الواجبات بالأمانة، وتحدد الحقوق بالعدالة.

العمل هو وسيلة المجتمع الفعلية للبناء، ولتوفير
الاحتياجات في مجالات الإسكان والغذاء والكساء والخدمات
والرعاية والثقافة، ولاستدراك تخلفه كما هو وسيلة تزويد هذا
المجتمع بالقوة التي تحميه وتكسبه المنعة، وتحول دون
الافتنات عليه.

المادة (٨)

يؤمن الاتحاد بوجوب رابطة وثيقة تربط بين الإسلام
والحركة النقابية، وتحقق نوعاً من التكامل السعيد المنشود -
ذلك لأن الحركة النقابية ستجد في الإسلام العقيدة المثلى،
التي تقوم على الإيمان بالله، أصل القيم والمثل الموضوعية -
وأن العدل - وليس الرغبات الذاتية هو أساس العلاقات
والحقوق والواجبات. وسيجد الإسلام في الحركة النقابية

الهيئة التي تؤمن به وتنصره؛ عندما يتجهم له الأغنياء
والفئات المميزة.

ويؤمن الاتحاد أن من أكبر أسباب تدهور المجتمعات
الإسلامية الحديثة أن الإسلام فقد هذه العلاقة، وأن جمهوره
اقتصر على مثقفين نظريين أو فلاحين مشنتين أو طبقة
وسطى، عنيت بالطقوس والجوانب الفردية؛ إذ أدى ذلك لأن
يفقد الإسلام جمهوره الطبيعي، وأن تطمس الجوانب
الاجتماعية والتحررية فيه.

وتحت عنوان الأهداف والوسائل جاء:

الأهداف والوسائل

المادة (٩)

يعمل هذا الاتجاه للأهداف الآتية:

تمثيل قوة العمل المسلمة على الصعيد الدولي، وفي
المحافل الدولية، والعمل لتحقيق مطالبها.

ويدخل في ذلك العمال المسلمون المهاجرون الذين
يعملون في دول أخرى، أو يعملون في بلادهم تحت
سيطرة غيرهم، ويتعرضون لاضطهاد عنصر أو
ديني.

مساندة المنظمات المنضمة في الدفاع عن حقوقها، وتحسين ظروف العمل، ورفع المستوى المادي والاجتماعي والفكري لأعضائها، وتأمين حاضرم ومستقبلهم.

الدفاع عن الحرية النقابية، وحماية قيادات العمل النقابي، وتمكينهم من مواصلة القيام بواجباتهم.

مقاومة كل صور التحكم، والاستغلال في أوضاع العمل، والدعوة لاستلهاام القيم والمثل والممارسات الإسلامية عند تحديد المبادئ التي تحكم قضية العمل ووضع تشريعاته، وإقامة علاقات العمل على أساس العدل الإسلامي، وشعار الواجبات بالأمانة والحقوق بالعدالة.

نشر وإذاعة العلم والمعرفة، وتشجيع القيام بمختلف مناشط تعليم الكبار والثقافة العمالية، والتدريب المهني؛ حيث إنها السبيل لترشيد العمل النقابي، وتنمية شخصية الفرد ومهارته، وحسن تعرفه على الحقوق والواجبات "إن المعرفة قوة والجهل مهانة والعلم مفضل على العبادة في الإسلام".

الدعوة لمحو الأمية والإشراف على تنظيم حملات لذلك، تحت شعار الآية الكريمة "اقرأ" والاستعانة في ذلك بكافة الجهود.

تشجيع نشر اللغة العربية، وتعليمها بين الشعوب الإسلامية حيث إنها لغة القرآن والحديث وهي اللغة الأم للمسلمين جميعاً.

مناصرة قضايا التحرر في العالم، وتعزيز الأخوة الإسلامية.

المادة (١٠)

يعمل الاتحاد لتحقيق الأهداف المشار إليها في المادة السابقة بالوسائل الآتية:

الحكمة والإقناع والموعظة الحسنة، كأسلوب عام ودائم ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

ويدخل في هذا استخدام مختلف وسائل الاتصال والنشر والإعلام، وإصدار الصحف والنشرات، واستخدام وسائل الاتصال الجماهيرية، وعقد الندوات والحلقات.. إلخ.

في المرحلة الانتقالية - أي ما بين الأوضاع القائمة والأوضاع الإسلامية المنشودة، يمارس الاتحاد الطرق الفنية التقليدية، أي الاتفاقيات الجماعية والتوفيق والتعديل التشريعي.. إلخ.

ولا يستبعد الاتحاد من نطاق العمل النقابي المشروع
مختلف وسائل الضغط، على أن لا يلجأ إليها إلا بعد
استنفاد كل الوسائل الأخرى، واتخاذ الإجراءات التي
تقلل قدر الطاقة آثارها السيئة على الجمهور.

عند انتهاء المرحلة الانتقالية يصبح العدل الإسلامي أي
المستمد رأساً من القرآن الكريم، والصحيح الثابت من السنة.
هو الحكم الذي يلتزم به الجميع حكومات وأصحاب عمال
وعمال.

يرفض الاتحاد تماماً الدخول في المهاترات السياسية
والحزبية الخاصة بسياسات الدولة الأعضاء أو حكوماتها؛
حيث قد ثبت أن هذا النوع من النشاط يفرق الوحدة،
ويستهدف هيمنة مجموعة من المنظمات على الاتحاد تحقيقاً
لمآرب سياسية، أو تنفيذاً لمخططات حكومية - بعيدة عن
اختصاص الاتحاد والمهام التي قام من أجلها.

كما يرفض الاتحاد الدخول في مناقشات مذهبية
إسلامية، أو يحاول تغليب أحد المذاهب القائمة على
المذاهب الأخرى.

مع أن الاتحاد لا يرفض التعاون مع الحكومات
والهيئات، لتحقيق أهدافه إلا أنه يظل مستقلاً تمام الاستقلال

عن كل الحكومات والهيئات، وسياساتها الخاصة، ويرفض أن يكون لمثل هذا التعاون أثر على حريته واستقلاله.

عناصر الإبداع في الاتحاد⁽¹⁾:

أولاً: إن ربط الحركة النقابية بالإسلام يعني ربطها برسالة حضارية عظيمة أسهمت في بناء الحضارة الإنسانية وقدمت نظاماً اجتماعياً واقتصادياً متكاملًا، وصنعت أرفع النماذج الإنسانية بدءًا من الرسول العظيم؛ حتى الخلفاء الراشدين.. والصحابة المهديين ثم من تبعوهم بإحسان. ولم يخل منهم مصرٌ من الأمصار وزمن من الأزمان.

ثانيًا: إن هذا الربط سيقضي على الخواء الروحي، والفراغ النفسي الذي تستشعره العضوية النقابية؛ لما تقتصر على النقابية التقليدية من طابع مادي - مهني - ويجعل بعض العناصر النقابية النابذة تتحاز للنظرية الماركسية التي تقدم تأصيلًا للتطور الاجتماعي يرتبط بالعمل، كما سيحصن الحركة النقابية من تسلل الشيوعيين إليها، واستخدامهم لها أداة لتحقيق السياسات والمخططات الشيوعية، وإثارة القلق والاضطراب في المجتمع. وفي الوقت نفسه فإنه سيعصم

(1) ما جاء في هذه الفقرة مأخوذ عن رسالة الاتحاد بعنوان "الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل يبدأ المسيرة" من ص ٧ إلى ص ١٥.

القيادات النقابية من الاستخذاء أمام الحكومات، والاستسلام لما يمكن أن يلوح به الحاكم من ترغيب أو ترهيب، بحيث لا تكون الحركة النقابية ما هي عليه الآن في كثير من الدول ألعوبة الحكومة وأداتها، لتحقيق السياسة التي تراها، بصرف النظر عن اتفاق ذلك مع إرادات العمال. أو مقتضيات العدالة.

ثالثاً: إن هذا الاتحاد يقدم أساساً للسلام الاجتماعي وفيصلاً في علاقات العمل تتقبله النقابات، ولا يستطيع أصحاب الأعمال أو الحكومات رفضه. ذلك هو العدل الإسلامي. وبهذا تتحول "المطلبية" و "الفئوية" إلى "موضوعية" و "مبدئية" وينتفي الصراع الطبقي.

وللمتخرسين أن يقولوا أن العدل الإسلامي ليس إلا كلمة أو شعاراً. إن الحرية ليست إلا كلمة.. والمساواة ليست إلا كلمة وإنصاف العمل. وديكتاتورية البلوريتاريا.. ليست إلا كلمات وقد وضع الإسلام الضوابط العريضة، والمحكمة للعدل في وضوح وتمييز؛ فبعد أن عمق حاسة العدالة بالآيات والأحاديث التي لا تُحصى لتكون حامية للعدالة وكاشفة لإساءة التطبيق حرم الاكتناز والربا وكافة صور الاستغلال، وأوجب الزكاة والإنفاق، وأقام المجتمع الإسلامي على أساس التكافل الاجتماعي، ووضع الخلفاء الراشدون

الأمثلة والسوابق عند التطبيق، ولو طبق هذا كله، أو حتى بعضه لتحققَت العدالة ولانْتَفَى الاستغلال - فلا يلومنَّ أحد الإسلام، وإنما يلوم الذين لا يريدون تطبيق الإسلام، أو أخذ توجيهاته مأخذ الجد.

إن استكشاف "العدل الإسلامي" وتأصيله باعتباره الطابع الرئيسي للإسلام والمحور الأساسي للعلاقات عامة، وعلاقات العمل خاصة، يمثل تجديدًا حاسمًا وجذريًا في مجالي الفكر العمالي والإسلامي، فهو في مجال الفكر العمالي يحل الموضوعية المبدئية محل المطالبية الذاتية. وهو في مجال الفكر الإسلامي ينقل مركز الثقل من الدائرة التقليدية المقررة. دائرة العبادة أو الفضيلة إلى دائرة العدالة.

رابعًا: إن استلهام الإسلام سيعيد إلى العمل أخلاقياته التي أهدرها العصر الحديث، وضحَّى بها عندما تعارضت مع الأساس المادي، الذي قام عليه المجتمع الليبرالي والاشتراكي على سواء. وستنسحب هذه الأخلاقية على مضمون العمل؛ بحيث لا يكون إلا طيبًا حلالاً تُستبعد منه كل الممارسات الشائنة أو الضارة أو التي تقوم على استغلال أو غدر أو سرف أو قسوة إلخ.. كما ستنسحب على الأداء بحيث يتسم بالإخلاص والإتقان وأداء العمل حقه.. وعلى ما يوجد العمل من علاقات؛ بحيث لا تكون لحمته أو سُداه

الحقد من العمال على أصحاب الأعمال، أو الاستغلال من أصحاب الأعمال للعمال.. لأن الإسلام يحرم هذا وذلك، ويجعل حقوق أحد الفريقين واجبات الفريق الآخر. فإذا لم يتحقق هذا تمامًا، فإن التحقيق الجزئي يحسم أسوأ ما في الموضوع، أو يمكن من أداء الواجبات بالأمانة.. ونيل الحقوق بالعدالة.

وأخيرًا فإنه سينسحب على العمل النقابي، فيقضي على الانتهازية المتفشية فيه.

خامسًا - إن الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل - على نقيض الاتحادات العمالية التقليدية، يفسر كلمة العمل تفسيرًا واسعًا، ويأخذها بالمعنى القرآني؛ بحيث تضم كل الذين يعملون سواء لقاء أجر أو كسب أو غير ذلك؛ فيمكن للفلاحين وللجمعيات التعاونية وللجمعيات ربات البيوت أن تنضم إلى الاتحاد، كما أنه لا يفرق بين عمل يدوي وعمل ذهني. واتحادنا في هذا لا يلتزم فحسب بتوجيهات القرآن، بل هو أيضًا يتفق مع سير حركة العمالة واتجاهاتها الحديثة التي تزيد من عمالة الخدمات والياقات البيضاء والتوزيع إلخ.. قدر ما يبعد عن الشعارات أو الممارسات التي كانت ذائعة في القرن التاسع عشر، ولا مكان لها في هذا العصر.. ونحن اليوم نسمع عن أحدث حركات التجديد النقابية - التي

يقوم بها عمال بولندا - أنها تستهدف تكوين نقابة للفلاحين. فالاتحاد الإسلامي كان في اتباعه للتوجيه القرآني أصدق حساً وتمشيًا مع العصر من التنظيمات النقابية التقليدية التي تقتصر عضويتها على الإجراء فحسب.

ثامناً: إن هذا الاتحاد رغم حداثة العهد وصغر الحجم، فإنه قد خدم فكرياً ونظرياً بما لم تخدم به اتحادات أخرى أعرق عهداً وأكبر حجماً وأيضاً مالاً. فحتى قبل أن يُعلن التكوين الرسمي للاتحاد كان أمام المندوبين ثلاث كتب تشرح فكرة الاتحاد، وتعالجها من مختلف المنطلقات والزوايا. الأول الكتيب التعريفي الذي يعرض الفكرة العامة للاتحاد ومبررات تكوينه، والوسائل والغايات والعضوية إلخ، والكتاب الثاني هو "أزمة النقابية" وهو يستعرض أزمة النقابية في المجتمع الرأسمالي، باعتبارها النقيض الجدلي للرأسمالية، الذي يوجب عليها أن تعاشها، وأن تقاومها في الوقت نفسه. أن تكون "دكتور جيكل" و "مستر هايد" وما ينشئه هذا الدور المزدوج والمتعارض من مفارقة، وفي المجتمع الشيوعي الذي يجعل النقابات "السير ناقل القوى" وهو التشبيه الرسمي والمقرر للنقابات في التنظير الماركسي والسوفيتي، وهو ما يجر الحركة النقابية من أي استقلالية أو أصالة أو مبادأة، وما يربطها ربطاً ميكانيكياً بالحزب،

ويجعلها أدواته في توصيل أوامره للجماهير.. والكتاب دراسة فنية خالصة تنتهي إلى أن العلاج الوحيد لأزمة النقابية هو الإسلام، ويضرب المثل لذلك بدعوة الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل.. أما الكتاب الثالث فهو "الإسلام والحركة النقابية" وهو يفند ما يدّعيه البعض من تعارض ما بين الإسلام والنقابية، ويثبت أن الإسلام يدعو إلى النقابية، وأن الاتفاقيات الجماعية التي هي عماد العمل النقابي في المجتمعات ذات الاقتصاد الحر، هي ما توجبه الآية ٢٨٢ من سورة البقرة، وأن المجتمع الإسلامي القديم أقر "أسلاف" النقابات، ووكّل إليها اختصاصات تفوق الاختصاصات التي تقوم بها النقابات الآن. والحق في آخر هذين الكتابين مشروع دستور الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل.

فأي اتحاد موجود يمكن أن يفخر بمثل هذه الدراسات والمعالجات الفنية والنظرية لفكرته.. رغم ما يتوفر لمعظمها من أموال وخبرات ورجال.

تاسعاً - إن قيام الاتحاد على أساس إسلامي لا يثير أية حساسية، ولا يكون عقبة أمام عالميته، خاصة في العالم الإسلامي الذي تكون الأغلبية الساحقة فيه من المسلمين، وتكون النقابية الإسلامية فيه مثل الاقتصاد الإسلامي،

والسياسة الإسلامية والآداب والنظم الاجتماعية الإسلامية لا تثير شيئاً لأنها تنطلق من دين وعقيدة الأغلبية الساحقة.

وبالنسبة للدول الأخرى التي لا تدين بالإسلام، أو تكون بها أغليات غير إسلامية، فمن المحقق أن الإسلام أقرب إليها من "الاشتراكية العلمية" التي لا ترى في الأديان كافة سوى "أفيون الشعوب"، وتعمل جاهدة للقضاء عليها، سواء كانت إسلاماً أو مسيحية، فلماذا تتقبل هذه المجتمعات نقابية ماركسية معادية لدينها، ولا تقبل نقابية إسلامية متسامحة مع دينها. إن سماحة الإسلام جزء ثابت من التاريخ الإنساني والعالمي. وقد اعترف به حتى أعداء الإسلام. لأنه مما لا يمكن أن يُجدد؛ فالتتكر لمثل هذا الاتحاد، سواء جاء من نقابيين مسلمين أو غير مسلمين، لا يمكن أن يعود إلا إلى الجهالة من ناحية، أو الجمود على الأوضاع، والعزوف عن كل تجديد من ناحية أخرى.. وهي اعتبارات لا تعنيننا. وقد أصدر التاريخ حكمه عليها في الماضي.. وسيصدر عليها حكمه في الحاضر.

وقد تضمّن دستور الاتحاد مادةً تتيح للمنظمات غير الإسلامية الانضمام والحق في العضوية الكاملة، إذا تعهدت باحترام دستور الاتحاد والإيمان بالعدل الإسلامي.. وليس في هذا مفارقة، بل إنه أمر طبيعي لأن الإسلام جاء بعد الأديان

الأخرى، وهو يعترف بها وينسب الخلاف إلى التحريف في النصوص وإرادات رجال الدين. والإسلام بعد ليس حكرًا للمسلمين، إنه إرث للبشرية بأسرها.

عاشراً - إن الاتحاد يعلن بصراحة أنه لا يتدخل في سياسات الدول الأعضاء، ولا يتورط في خلافاتها ومنازعاتها، لأنه لم يقدّم لتعميق هذه الخلافات والوصول بها إلى الجماهير.. إنه قام للوحدة ولجمع الصفوف - ولا يمكن أن تجتمع الصفوف والخلافات السياسية قائمة، إلا بتجاوز هذه الخلافات كلية، وليس من اختصاص الاتحاد، ولا مما يدخل في سلطته الحكم على هذه الخلافات.. ولا يعني دخول هذا الميدان إلا التمزق والتحزب والخضوع لفريق.. ومعادات فريق.. والسوابق الشاهدة على جريرة التورط الحزبية والتيارات السياسية على الحركة العمالية الدولية عديدة، من أول اتحاد عمالي دولي ظهر مع بداية القرن، حتى تمزق الاتحاد الدولي للعمال العرب منذ بضع سنوات.

ومن عناصر الإبداع أيضاً أن الاتحاد توصل إلى حقيقة غريبة، فعندما كان يصدد البحث عن الشواهد الإسلامية عن العمل في الإسلام، اكتشف أن معالجة الإسلام نفسه من منطلق العمل يمكن أن يثري الإسلام بقدر ما يثري الإسلام العمل. ومن هنا كان استكشافه لفكرة المقاصّة التي تقوم على

الآية ﴿.. إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ والحديث "...واتبع السيئة الحسنة تمحها" وتفضيله لهذه الوسيلة القرآنية النبوي على الوسيلة الفقهية "سد الذريعة" واستكشافه أيضاً أن العمل هو "مصدق الإيمان ومعيار الثواب والعقاب في الآخرة" وتفضيله التيسير والتسهيل بصفة عامة على التعسير والتشدد، وإيثار منطق العمل على منطق الفروض النظرية التي يقوم عليها الفقه الإسلامي، ويذهب الفقهاء فيها مذاهب خيالية، وأن أسلوب "الشورى" يجب أن لا يقتصر على مجال السياسة كما تفهم الدعوات الإسلامية القائمة، ولكن أن يمتد ليشمل الشورى في الإدارة. وأن أي كسب دون عمل فهو ربا حتى وإن انتقى الاستغلال الذي ظن أنه مبرر تحريم الربا، وأن إضرابا تقوم به نقابة انتصافاً، أو لمطالبية وطنية، يمكن أن يكون صورة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فهذه أحكام جديدة، أمكن التوصل إليها بمعالجة الإسلام من منطلق العمل.

مطبوعات الاتحاد:

العمل في المجال الثقافي، وبوجه خاص بطريقة الكتاب هو أبرز اهتمامات الاتحاد، لأن العمل الحركي والتنظيمي يصطدم بالنظم والأوضاع من ناحية، ويتطلب نفقات مالية لا تتوفر للاتحاد. ومن ثم فإنه ركز على الكتاب. وما ينشره

الاتحاد يتفاوت ما بين رسائل صغيرة في ٤٨ صفحة، وكتب
متوسطة الحجم ما بين ١٠٠ و ٢٦٠ صفحة.

وفيما يلي بيان بهذه الكتب:

الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل (كتيب تعريفي).

الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل يبدأ المسيرة.

الإسلام والحركة النقابية.

أزمة النقابية.

رسالة الإسلام.

أخت الصلاة المهجورة (الزكاة).

الحركة النقابية من منطلق إسلامي.

الخيار الصعب (قضية التنمية).

الحساسية الدينية.

وجوه الائتلاف والاختلاف.

الدولة العصرية.

رؤية لمضمون الحكم بالقرآن.

محكمة العدل الدولية الإسلامية.

الاتحاد الإسلامي الدولي في عامين.

العودة إلى القرآن.

لا حرج (قضية التيسير في الإسلام).

نحن ودعوتنا.

لست عليهم بمسيطر قضية الحرية.

الشورى في الإدارة.

الحركة العمالية الدولية.

عمال السودان والسياسة.

الحرية النقابية (٣ أجزاء)

العهد.

تعميق حاسة العمل في المجتمع الإسلامي.

نحو حركة نقابية مثقفة.

الحركة النقابية السودانية تجد نفسها.

1- Islam and Trade Unions.

2- The International Islamic Confederation
of Labour.

3- Towards Islamic Labour and Unionism
Three Papers by

Dr. Ismail al Faruqi.

And Gamal al Banna

وللاتحاد نشرة غير دورية عنوانها "الله أكبر".

وقد أدت هذه الكتب إلى نشر فهم إسلامي لقضية العمل لم يكن موجودًا قبل الاتحاد. وظهرت آية ذلك في عناية بعض الدعوات الإسلامية بالحركة العمالية، وتغيير مسلكها التقليدي القديم. والحق أن الاتحاد وما قام به من اتصالات وندوات ثقافية في مختلف الدول الإسلامية، وهذه الكتب التي بعث بها إليها، أوجدت رأيًا عامًا إسلاميًا جديدًا حول العمل. ولكن هذا الرأي الجديد يدخل في صراع مع الفهم القديم، والرواسب والأفكار والتقليدية، وقد خدم الاتحاد الحركة النقابية في السودان بوجه خاص، وكذلك إلى حد ما في المغرب.

ويضم الاتحاد منظمات واتحادات عمالية في السودان وباكستان والمغرب والأردن وبنجلاديش، ولا يهم الاتحاد بوجه خاص كثرة عدد الدول، ولكنه يعني بتعميق الفكرة، ولو في بلد واحد. لأن تعميق الفكرة في بلد واحد أفضل من نثرها على سطح دول عديدة.

ولم يتوصل الاتحاد بعد إلى مقر رئيس لحساسة دعوته بالنسبة للحكومات العربية، ولأنه ظهر مع ظهور أحكام الطوارئ في مصر. ورفض السلطات دخول عمال مصر في معسر الدعوة الإسلامية. ولهذا قنع بمكتب اتصال في جنيف وبمكتب رئيسه في القاهرة. ويتلاقى مندوبو الاتحاد سنويًا في جنيف خلال حضورهم لجلسات مؤتمر العمل الدولي.

وقد حرص الاتحاد منذ يومه الأول أن لا يقع تحت تأثير حكومة أو منظمة، وأوضح للمنظمات المنضمة له أن الاتحاد "ملتقى" إسلامي، وأنه يقبلها جميعاً ما دامت تمثل اتجاهاً إسلامياً ولكنه لا يناقش ولا يفضل اتجاهاً على اتجاه داخل الاتحاد، ولا يسمح بمجادلات مذهبية فيه.

ولو قدرت الدعوات الإسلامية هذا الاتحاد قدره وتعاونت معه بإخلاص، لكان ذلك أعظم خدمة تقدمها نحو نفسها، ونحو بلادها ونحو الإسلام ولكن ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.

* * * *

الفصل السابع

دعوات وصلت إلى الحكم

الدعوات التي تعرضنا لها في الفصول السابقة دعوات ذات صفة شعبية، تعمل لتحقيق أهدافها بوسائلها، التي قد يكون منها الحكم، ولكن لم تسنح لها فرصة الحكم.

وهناك دعوتان سنحت لهما فرصة الحكم ومارسناه بالفعل هما الوهابية التي هي المذهب المطبق في الحجاز منذ سبعين عاماً تقريباً، والجعفرية التي هي دعوة الثورة الإسلامية التي تحكم إيران منذ عام ١٩٧٩. وهاتان الدعوتان من الدعوات العريقة - فللوهابية تاريخ يعود إلى مائتي عام وللجعفرية تاريخ يعود إلى ألف عام. ولكن العراقة بقدر ما تكون ميزة فيمكن أن تصبح نقيصة، إذا لم تجدد نفسها بما يتماشى مع الأوضاع.

وغرضنا من كتابة هذا الفصل ليس هو الاستعراض الأكاديمي لخصائص الوهابية والجعفرية، أو تعريف القارئ على دقائقهما، فهذا ما يتطلب كتاباً أو أيضاً، وما يخالف نهج هذا الكتاب. ولكن غرضنا - ونحن بصدد دعوات وصلت إلى الحكم - أن نثبت بمنطق الوقائع أمرين.

أولهما: إن الحكم في حد ذاته ليس هو - كما يتصور الكثير من الدعاة الإسلاميين - الوسيلة التي تمكن الدعوة، وتعمق جذورها وتصل بها إلى الانتشار والنجاح والتحقيق.

إن الحكم يمكن أن يكون بلاءً وخطرًا محققًا، وكارثة، للدعوة، ما لم تكن مؤتلة تمامًا. لأنه ما أن تصل الدعوة إلى الحكم حتى يقوم صراع ما بين الدعوة والسلطة، ويغلب أن تنتصر السلطة، وتتغذى على الدعوة حتى تأتي عليها، ولا تحتفظ منها إلا بالقشور التي تكفل لها نوعًا من التغطية المذهبية أو "الكامو فلاج"، وبهذا تكون الدعوة قد ضحت بنفسها على مذبح الحكم. ولو أنها لم تصل إلى الحكم لما تعرضت لهذه المحنة، ولاكتسبت قوة، ولا اتسعت قاعدتها بدلاً من أن تدق قمتها..

وقد تحاول بعض الدعوات استعجال الوصول إلى الحكم بالتحالف مع هيئات أخرى قد لا تشاركها الإيمان، وإنما تنفق معها في إرادة الوصول إلى الحكم. وهذه الممارسة هي أبعد شيء عن طبيعة الدعوة.. وتكاد تؤدي بها إلى الانسلاخ منها..

ولكن يحدث أن تحالف الدعوة حكامًا يؤمن بها، ويقوم نوع من التعاون ما بين الدعوة التي تقدم الفكر، والحاكم الذي يجرد السيف، فإلى أي مدى يكون حساب الكسب والخسارة؟

يغلب أن يؤثر هذا التحالف على الدعوة. ويمكن أن تكون الخسارة في النهاية أكبر من المكسب. لأن فترة التحالف ستقتضب مدة العمل مع الشعب، ومد وتعميق معاني وأفكار الدعوة - وستمضي هذه المدة في خدم السلطة أو - على أفضل الأحوال - التعاون مع السلطة.

ومن الحقائق التاريخية أن الدعوتين موضوع هذا الفصل بدءًا حياتهما "الرسمية" بتحالف ما بين الداعية والحاكم، الفكر والسياف. ففي حالة الوهابية قام هذا التحالف ما بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب. ومحمد بن سعود أمير الدرعية. وظل حتى الآن ما بين آل سعود. وآل الشيخ. وفي حالة الجغرافية، فقد حدث هذا عندما اتصل الشيخ صفي الدين - وهو أحد شيوخ شيعة أردبيل برئيس قبيل "الآف قيون لو" أوزون حسن. اتصالاً انتهى بامتراج المذهب الشيعي بالقوة العسكرية. وإلى هذين الحلقين يعود ظهور الدعوتين على منصة الحكم - ويعود أيضاً ما اتسم به التطبيق من قصور.

ذلك لأن أسلوب السلطة.. يختلف عن أسلوب الدعوة.. فالسلطة لا يمكن أن تقوم بدعوة، وإذا دعت، فسيأتيها أبعد الناس عن حقيقة ما تدعو إليه، سيأتي إليها الأفاقون والانتهازيون والوصوليون. وهو ما يحدث إذا حاولت السلطة

أن تؤسس حزباً أو هيئة، وشواهد ذلك عديدة.. لعل آخرها محاولة عبد الناصر تكوين هيئة التحرير، ثم الاتحاد القومي ثم الاتحاد الاشتراكي. وقد أخفقت جميعاً وكانت فشلاً وهيئات "سلطوية".

فالسطة كدعوة فاشلة، ولهذا فإنها تلجأ إلى وسيلتيها الخالدين اللتين يرمز لهما بذهب المعز وسيفه، فليديها الإغراء والترغيب والمناصب والنفوذ إلخ.. وليديها الترهيب والسجون والمصادرة والاضطهاد. وكل وسيلة من هاتين مفسده، ولا يمكن أن تأتي بخير.

والنتيجة أن السلطة تفشل إذا إرادت أن تقوم بدور الداعية. وأنها تفسد النفوس إذا استخدمت وسلتيها. فعملها يدور بين الفشل والفساد.

وقد ظن الشيوعيون أن الكلية هي أصل الشرور، وأنها هي التي تغري الرأسماليين بالتحكم والطغيان إلخ.. فجعلوا هدفهم القضاء عليها بالسلطة - ولكنهم نسوا أن السلطة أسوأ من الملكية. وهكذا فإنهم أرادوا اصطيد الملكية بالسلطة، ولكن السلطة صادتهم، وأفسدت عليهم محاولتهم القضاء على الملكية، أو جعلت القضاء على الملكية بالوسيلة السلطوية أسوأ من الملكية نفسها (رغم أنها سيئة).

ولا يتحدث القرآن الكريم عن السلطة أبدًا، وعندما يتحدث عن "الحكم" فيغلب أن يقصد القضاء، أو حكمًا يقوم على القضاء. لأن الحكم الإسلامي هو الحكم بالقرآن، والقرآن هو أسمى قانون. فالحكم الإسلامي له طبيعة قضائية. وإذا أراد القرآن الحكم مطلقًا، فإنه ينسبه إلى الله تعالى ﴿إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ﴾.

ولم يحدث أن تحالف الرسول مع أحد رؤوس العرب رغم كل ما لفي من أعراض واضطهاد. ولما عرض عليه بعضهم أن يسلم على أن يكون له من الأمر شيء، رفض الرسول وكان يقدم دعوته للناس جميعًا. وكانت البيعة الأولى له من سبعين رجلاً وامرأة.. وبعد أن آمنت الجماهير جاء دور انتخاب النقباء. فأسلوب الدعوة النبوية كان أسلوب أصوليًا سليمًا. كان الحكم هو النهاية.. هو الذي طلب الرسول. وانتظره.. ولم يكن البداية المطلوبة أولاً.

وكان الذين تعاطفوا مع الإسلام، في مكة والمدينة هم الجماهير، وكان الذين تنكروا له، في مكة والمدينة أيضًا هم الكبراء والأثرياء والحكام..

وستجد في الحديث عن الوهابية، والجعفرية أن الحكم كان على حساب الدعوة، وليس لحساب الدعوة، وأن الحكم كسب من الدعوة أكثر مما كسبت الدعوة من الحكم.

وما من دعوة أساء إليها الحكم كالجعفرية، ذلك أن إيران كانت سنية حتى دهمها الحكم الصفوي سنة ١٥٠١، ودخل الصفويون في حرب ضروس مع العثمانيين الذين كانوا يمثلون السنة - ودفعت هذه الحرب الصفويين لأن يلصقوا بالسنة - مذهب أعدائهم الألداء - كل نقيصة - كما عمدوا إلى المبالغة التي تصل للخيال في تمجيد آل البيت، ونسبة المعجزات إليهم دعماً لدعوتهم..

وحتى لو استبعدنا هذا العامل الاستثنائي، فسيظل دائماً من الخير للدعوات أن نعتد على وسائلها الشعبية التي تقوم على الحكمة والموعظة الحسنة والإقناع القلبي والأسوة.. من أن تستعين بالسلطة والحكم وذهب المعز وسيفه فتنفسد القلوب وتدخل عليها عنصراً، لا يمكن التعرف معه على حقيقة إيمان المؤمنين. وهل هو إيمان قلبي أو هو خوف أو هو طمع..

ثانيها: والأمر الثاني الذي نريد البرهنة عليه بعرضنا لتجربة الدعوتين في الحكم، أن الدعوة ما لم تكن دعوة متكاملة، تقدم ما يمكن أن يكون "نظرية"، يمكن في ضوئها تحديد المواقف تجاه التحديات واستلهاً الحلول، وتعيين الأهداف، سواء القريبة أو البعيدة؛ فإنها لن تستطيع أن تملأ الفراغ أو تؤدي دور "الدعوة الحاكمة"، وسيضطر أصحابها إلى تفتيق الحلول تفتيقاً، قصارى ما يمكن أن يصل إليه وهو محاولة تحقيق الأهداف دون المساس بالسلطة، بالمصالح المكتسبة، بالأوضاع التي قامت نتيجة للسلطة. فإذا أدى

المضمون الموضوعي للحل إلى مساس بالوضع الذي تقولبت فيه الدعوة، عندما استحوزت على السلطة، فإنه يستبعد ويعد مخالفاً للدعوة، وإن لم يكن مخالفاً بها. ولكن ماساً بالسلطة.

وهذه الإثارة عن قصور الدعوة تطبق على الدعوات الإسلامية بوجه عام، إذ هي تتجاهل كثيراً من القضايا الاجتماعية العامة الهامة (العمال - النساء - الاقتصاد - الفنون والآداب إلخ..). حتى لا تضطر للإعلان عن مواقف مرفوضة من الآخرين، أو تضطر لتقبل مواقف ترفضها هي. وهذا الموقف - موقف التجاهل على سؤئه - أفضل من موقف دعوات أخرى لم يكن في حسابها أصلاً، وبإديء ذي بدء - كل هذا التعقيد الاجتماعي والسياسي والاقتصادي. ومن المفارقات أن من بين هذه الدعوات الأخيرة الدعوتين اللتين قدر لهما أن تصلا للحكم. فأخر الدعوات تأهيلاً للحكم هي التي تقلدت الحكم بالفعل!!

فماذا يمكن أن تقدمه "الوهابية" لتحديات العصر، وهي التي تدور حول التوسل والشفاعة والصفات والقباب والقبور.. وماذا يفهم "المتحجرون" من الوهابيين إزاء قضية العلاقات الصناعية - أو الفنون الإدارية. أو جواز الإضراب أو قيام الأحزاب.. وماذا يمكن "للجغرية" التي تقوم على الوله بال البيت وأفضليتهم - وتنتظر الإمام الغائب - صاحب الزمان - وتدور عواطفها كلها حول العتبات المقدسة، أو ذكرى استشهاد الحسين التي يسير فيها "المتولّهون" صارخين، ناديين إلخ.

إن دعوة كالجغرافية قامت أصولها المذهبية على اقتراضات تاريخية كانت مائلة من ألف عام، ثم انطوت تماماً، أو دعوة "كالوهابية" ظهرت في بيئة صحراوية بدائية.. لا يمكن لهذه أو تلك مجابهة تحديات العصر، أو فهم لغته أو مجابته بما يكفل لها الانتصار..

وسنرى في استعراض تجربة الوهابية والجغرافية في الحكم مصداق الفرضين الذين قسمناهما، ألا وهما:

الأول: أن الاعتماد على الحكم في نشر الدعوة [كم حدث في حالتي الوهابية والجغرافية] يحمل للدعوة مخاطر جمة ويلوث صفاءها ونقاءها، كما قد يفسد الدعاة أنفسهم، أو يحولهم إلى أحكام، أو يحملهم بأوزار الحكام.

الثاني: أن الدعوات الإسلامية لم تصل إلى مستوى النظرية المتكاملة التي يمكن أن تجابه تحديات العصر. فبعضها يتجاهل المشكلات، والبعض الآخر ليس لديه فكرة عنها. وعليها أن تعترف بأن ما كان يصلح من ألف عام، أو ما ظهر في بيئة صحراوية بدائية، أو نتيجة لوقائع تاريخية عفى عليها الزمان.. لا يمكن أن يصلح الآن. وأن عليها أن تخرج من موقعه الدعوة الضيقة إلى الإطار الإسلامي الفسيح بدون أن ترى في هذا حرجاً أو غصاصة، فإنها من قبل، ومن بعد - دعوات إسلامية.

أ- الوهابية

للحجاز - لأن هذا هو الاسم التاريخي للبلاد، فما عهدنا دولة تحمل اسم ملكها⁽¹⁾، وعهدنا بالملوك يحملون أسماء دولهم - لأن الملوك بالدول، وليست الدول بالملوك، وضع خاص بين الدول - ومنزلة متميزة. ففيها أول بيت وضع للناس لعبادة الله، وفيها روضة من رياض الجنة يثوي بها جسد الرسول. وشاهدت الفلوات ما بين مكة والمدينة رواح وغدوات الرسول والصحابة.. وكتب عليها تاريخ الإسلام حروفه الأولى.. ولا يمكن لأي بقعة من بقاع الأرض أن تفخر بمثل ذلك.

ومن ناحية أخرى فالحجاز صحراء غير ذي زرع، عاش معتمداً على معونات الدول الإسلامية التي رأت في هذا واجباً عليها، وكان يستمد من موسم الحج ما يفرج كربته. وما يسد حاجته.

وجاء وقت كان أعيان هذا البلد من وزراء أو تجار "مطوقين".

(1) باستثناء "روديسيا" التي حملوها اسم سيسيل رودس - وهو من أكابر مجرمي الاستعمار البريطاني، وقد خلصت من اسم هذا الزنيم وأصبح اسمها "زيمبابوي".

وكان الحجاز يتبع السلطنة العثمانية، وكان لدى الأتراك على غشومتهم ضعف نحو الحجاز. فلم يبخلوا عليه بالمساعدات، وانهلوا على الحرمين بالذهب والفضة والتحف.. ولكن نظام حكمهم كان عقيماً وأوجد نوعاً من الازدواجية ما بين الباشا التركي.. وزعماء القبائل أو بقية آل البيت النبوي.

وكان فهم الإسلام قد تدهور إلى تقليدية ضيقة أو صوفية خرافية وساد حديث الأولياء والأوتاد والأقطاب، وانتشرت أفكار الشفاعة والتوسل لشفاء الأمراض، أو قضاء الحاجات وتسوية المشكلات..

وكان الإمام تقي الدين بن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨ هـ) قد حاول أن يقضي على هذه الخرافات في مصر والشام، واكتسبت دعوته شهرة كبيرة، وكان الشيخ يتصف بقدر كبير من الجرأة، لعلها كانت مطلوبة لنسف النمل المتعالي من الخرافات، ولكنها أثارت عليه العلماء والسلطين، الذين كان قد بادأهم بالهجوم "ولم يقتصر على ذلك بل هاجم بقلمه ولسانه كل الفرق الإسلامية كالخوارج والمرجئة والرافضة والقدرية والمعتزلة والجهمية والكرامية والأشعرية وغيرها، وطعن كذلك على الرجال الذين يعتبرون حجة في الإسلام، فقال على منبر جامع الصالحية؛ أن عمر بن الخطاب وقع في كثير من الأخطاء، وقال أيضاً؛ أن علي بن أبي طالب أخطأ ثلاثمائة مرة، ولم يتردد في مهاجمة كثير من الأعلام الذين سبقوه، وانهقد إجماع الناس على تفردهم بالعلم والتفقه

في الدين والفلسفة فهاجم الغزالي بشدة، كما هاجم محي الدين بن عربي وعمر بن الفارض والصوفية بوجه عام، ودعا الناس في كثير من الجرأة والقوة إلى إصلاح شأنها، وتقويم أمرها، ووصف للناس سبيل هذا الإصلاح والتقويم، بأن نصحهم بالرجوع إلى القرآن والحديث، والاكْتفاء بنصيتهما كما فعل مارتن لوتر؛ حين دعا المسيحيين إلى إصلاح شأن دينهم بالرجوع إلى الكتاب المقدس وحده⁽¹⁾.

وليس الغريب أن ابن تيمية قد عورض، وحورب، وسُجن، إن الغريب أنه لم يُقتل، لأن ما قاله على رؤوس الإِشهاد كان يمكن أن يؤدي إلي قتلهِ. وإنما تعود نجاته إلى عارضته، ورباطة جأشته، وتمكنه التام من العلوم الإسلامية، وكان يمكن أن تتج دعوة ابن تيمية لولا أن الناس شغلوا بحرب التتار، وأن بساطة دعوة ابن تيمية وتجريدها - على صحتها النظرية - ما كانت - تتمشى مع درجة التعقيد التي وصل إليها المجتمع المصري والشامي وقتئذٍ، وإنما كانت تصلح لمجتمع بسيط فطري الطبيعة، كمجتمع الحجاز مثلاً، وقد كان هذا من أسباب اهتداء محمد بن عبد الوهاب إليها، قدر ما كان من أسباب نجاحها هناك.

(1) الشرق الإسلامي في العصر الحديث - حسين مؤنس ص ١٨٨ -
١٨٩، وقد عاد في هذا الاقتباس إلى دائرة المعارف الإسلامية -
وجزيرة العرب في القرن العشرين - حافظ وهبة.

محمد بن عبد الوهاب:

ولد محمد بن عبد الوهاب المشرفي التميمي النجدي (١١١٥ - ١٢٠٦ هـ - ١٧٠٣ - ١٧٩١ م) ببلدة العيينة القرية من الرياض، وتلقى علومه الأولى على والده دارساً شيئاً من الفقه الحنبلي والتفسير والحديث، حافظاً القرآن وعمره عشر سنين يذهب إلى مكة حاجاً، ثم سار إلى المدينة ليتزود بالعلم الشرعي، وفيها التقى بشيخه محمد حياة السندي (ت ١١٦٥ هـ) صاحب الحاشية على صحيح البخاري، وكان تأثره به عظيماً. وعاد إلى العيينة، ثم توجه إلى العراق عام ١١٣٦ هـ - ١٧٢٤ م ليزور البصرة وبغداد والموصل، وفي كل مدينة منها كان يلتقي بالمشايخ والعلماء، ويأخذ عنهم وغادر البصرة مضطراً إلى الإحساء ثم إلى حريملاء. حيث انتقل إليها والده الذي يعمل قاضياً" (١) ..

وفي هذه الفترة تعرّف محمد بن عبد الوهاب على دعوة ابن تيمية فأعجب بها، وتجاوبت بساطتها وصرامتها مع طبيعته البدوية، ووجد فيما اتسمت به القطع والحسم، والوضوح والصراحة ما يمكن أن يحسم شأفة مظاهر الخرافة التي سادت العقيدة، والتي رأى فيها ابن تيمية نوعاً

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة - الندوة العالمية للشباب الإسلامي - الرياض ص ٢٧٣.

من الشرك، وأفتى بكفر من يعتقدُها وقتله مثل قوله في الإقناع: " إن من دعا ميتاً، وإن كان من الخلفاء الراشدين، فهو كافر، وإن من شك في كفره فهو كافر" وقوله في الرسالة السُّنِّيَّة "أن كل من غلا في نبي أو رجل صالح وجعل فيه نوعاً من الإلهية مثل أن يقول يا سيدي فلان - أغثني أو انصرني، أو ارزقني أو أجرني وأنا في حسبك ونحو هذه الأقوال؛ فكل هذا شرك وضلال يُستتاب صاحبه، فإن تاب نجا وإلا قُتل..".

مثل هذه الأحكام في جُرأتها أعجبت محمد بن عبد الوهاب؛ فتبناها، ووجد فيها ما يتسلح بها ليقضي على ظاهرة بناء القبور ورفع القباب والتمسح بالأضرحة والتشفع بالأولياء. وبدأ في نشر دعوته عندما كان في حريملاء عام ١١٤٣ هـ - ١٧٣٠ م. ولكنه ما لبث أن غادرها بسبب تأمر نفر من أهلها عليه لقتله.

"فتوجه إلى العُيُيْنَة وعرض دعوته على أميرها (عثمان بن معمر) الذي قام معه بهدم القبور والقباب، وأعانه على رجم امرأة زانية جاءته معترفة بذلك.

أرسل أمير الإحساء عريعر بن دي إلى أمير العُيُيْنَة يأمره فيها بأن يمنع الشيخ عن الدعوة، فغادر الشيخ البلدة كي لا يخرج أميرها.

توجه إلى الدرعية مقر إمارة آل سعود، ونزل ضيفاً على محمد بن سويلم العريني عام ١١٥٨ هـ حيث أقبل عليه التلاميذ وأكرموه..

الأمير محمد بن سعود الذي حكم خلال الفترة (١١٣٩ - ١١٧٩ هـ) علم بمقدم الشيخ فجاهه مرحباً به، وعاهده على حمايته وتأييده، وجرى بينهم الحوار التالي:
الأمير: أبشرك ببلادٍ خير من بلادك، وأبشر بالعز والمنعة.

الشيخ: وأنا أبشرك بالعز والتمكين، وهذه كلمة "لا إله إلا الله" من تمسك بها وعمل بها ونصرها، ملك بها البلاد والعباد، وهي كلمة التوحيد، وهي ما دعا إليها رسل الله كلهم، فالأرض يرثها عباده المسلمون..

ثم اشترط الأمير على الشيخ شرطين:

أن لا يرتحل عنهم، وأن لا يستبدل بهم غيرهم.

أن لا يمانع الشيخ في أن يأخذ الحاكم وقت الثمار ما اعتاد على أخذه من أهل الدرعية..

أما عن الشرط الأول فقد قال له الشيخ: ابسط يدك أبايعك الدم بالدم والهدم بالهدم.

وأما عن الشرط الثاني فقد قام له: لعل الله أن يفتح لك الفتوحات؛ فيعوضك من الغنائم ما هو خير منها⁽¹⁾.

الأفكار والمعتقدات:

ما هي الأفكار والمعتقدات التي يمكن القول أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب انتهى إليها أو تبناها؟ ويمكن أن نقول إنها "الوهابية"؟ تقول الموسوعة الميسرة:

كان الشيخ المؤسس حنبلي المذهب في دراسته لكنه لم يلتزم ذلك في فتاواه إذا ترجح لديه الدليل فيما يخالفه، وعليه فإن الدعوة السلفية اتسمت بأنها لا مذهبية في أصولها، حنبلية في فروعها.

دعت إلى فتح باب الاجتهاد بعد أن ظل مغلقاً منذ سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ.

أكدت على ضرورة الرجوع إلى الكتاب والسنة، وعدم قبول أي أمر في العقيدة ما لم يستند إلى دليل مباشرة، وواضح منهما:

اعتمدت منهج أهل السنة والجماعة في فهم الدليل والبناء عليه.

(1) المرجع السابق ص ٢٧٤

دعت إلى تنقية مفهوم التوحيد مطالبة المسلمين بالرجوع
به إلى ما كان علي المسلمون في الصدر الأول للإسلام.
توحيد الأسماء والصفات: وهو إثبات الأسماء والصفات
التي أثبتها الله لنفسه، وما أثبتها رسوله ﷺ له من غير تمثيل
ولا تكيف ولا تأويل.

التركيز على مفهوم توحيد العبودية ﴿ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ
وَأَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ "النحل ١١٦".

إحياء فريضة الجهاد، فقد كان الشيخ صورة للمجاهد
الذي يمضي في فتح البلاد ينشر الدعوة ويزيل مظاهر
الشرك التي انحدر إليها الناس.

القضاء على البدع والخرافات التي كانت منتشرة آنذاك
بسبب الجهل والتخلف من مثل:

زيارة قبر يزعمون أنه قبر الصحابي ضرار بن الأزور
وسؤاله قضاء الحاجات.

زيارة قُبَّةٍ يقولون إنها لزيد بن الخطاب.
التردد على شجرة يقولون إنها شجرة أبي دجانة،
وأخرى تُسمى الطرفية.

زيارة مغارة تُسمى مغارة بنت الأمير.

تقسيم التوسل إلى نوعين:

توسل مرغوب فيه، وهو ما كان بأسماء الله الحسنی.
توسل مبتدع منهی عنه، وهو ما كان بالذوات الصالحة
"بجاه الرسول، بحرمة الشيخ فلان..".

منع بناء القبور وكسوتها وإسراجها وما إلى ذلك من
البدع التي تصاحبها.

التصدّي لشطحات الطرق الصوفية، ولما أدخلوه على
الدين من أشياء لم تكن فيه من قبل.

تحريم القول على الله بلا علم (وأن تقولوا على الله ما لا
تعلمون) "الأعراف: ۳۳".

إن كل شيء سكت عنه الشارع فهو عفو، لا يحل لأحد
أن يحرمه أو يوجبه أو يستحبّه أو يكرهه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾ "المائدة ۱۰۱".

إن ترك الدليل الواضح والاستدلال بلفظ متشابه هو
طريق أهل الزيغ كالرافضة والخوارج ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل
عمران: ۷].

إن النبي ﷺ ذكر أن الحلال بين والحرام بين وبينهما
أمور متشابهات، فمن لم يفتن لهذه القاعدة وأراد أن يتكلم
عن كل مسألة بكلام فاصل فقد ضلّ وأضلّ.

ذكر الشيخ في بيانه لأنواع الشرك ومراتبه أنه:
شركٌ أكبر: وهو شرك العبادة والقصد والطاعة
والمحبة.

شركٌ أصغر: وهو الرياء لقوله ﷺ في حديث رواه
الحاكم: "اليسير من الرياء شرك".

شركٌ خفي: قد يقع فيه المؤمن وهو لا يعلم، كما قال
ﷺ: "الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النملة السوداء
على صفاةٍ سوداء في ظلمة الليل".

لقد عملت هذه الدعوة على إيقاظ الأمة الإسلامية فكرياً
بعد أن رانت عليه سجنٌ من التخلف والخمول والتقليد
الأعمى.

العناية بتعليم العامة، وتنقيفهم وتفتيح أذهان المنقفين
منهم ولفت أنظارهم إلى البحث عن الدليل، ودعوتهم إلى
التنقيب في بطون أمهات الكتب والمراجع، قبل قبول أية
فكرة فضلاً عن تطبيقها.

للشيخ مصنفات كثيرة أهمها (كتاب التوحيد فيما يجب
من حق الله على العبيد) و (كتاب الإيمان) و (كشف
الشبهات) و (آداب المشي إلى الصلاة) و (مسائل الجاهلية)
وعدد من المختصرات والرسائل التي تدور حول أمور فقهية
وأصولية أكثرها في التوحيد.

الجزور الفكرية والعقائدية:

لقد ترسم الشيخ في دعوته أعلامًا ثلاثة استن طريقتهم وهم:

الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١ هـ).

ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨ هـ).

محمد بن القيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١ هـ).

فكانت دعوته صدىً لأفكارهم، وترجمة لأهدافهم في واقع عملي^(١).

واستعراض "الأفكار والمعتقدات" هامٌّ لأنه يوضح أن التركيز هو على زيارة القبور، والتوسل والشرك والصفات إلخ. وليس هناك أي إشارة إلى قضايا تتعلق بالاقتصاد أو السياسة - وهذا التركيز في الوهابية ستظهر جريته عندما ستتحول السعودية من صحراء بلقع كما كانت أيام الشيخ - إلى أكبر دولة مصدرة للنفط في العالم.. إذ لن تجد الدولة الجديدة في الوهابية ما يفيدها في وضع سياساتها ونظمها. ولم يجد الوهابيون أنفسهم فيها ما يجعلهم يلزمون قادة "السعودية" جادة الشرع بالنسبة للشورى، والعدل والحريات إلخ.. كما سيلبي في فقرات تالية.

(١) الموسوعة الميسرة ص ٢٧٦

التاريخ والتطور:

لا يتسع المجال بالطبع لاستعراض تاريخ الوهابية، فقد حكمت الدرعية في حياة الشيخ. وحاربت القبائل المجاورة وضمّت معظم الجزيرة العربية، وكتب محمد بن سعود إلى السلطان العثماني بأن لا يرسل "المحمل"، وهاجم سعود الثاني بن عبد العزيز بن عمر بن سعود، الذي تطلق عليه بعض المراجع الأوروبية "تمر الجزيرة العربية" — حدود العراق وشرق الأردن — ولكنه ابتل بالحملة المصرية التي أرسلها بناء على أمر السلطان العثماني، محمد علي، وكانت تحت إمرة ابنه طوسون، واستطاع سعود أن يهزم طوسون بفضل حرب المناوشات والأكمنة ولكنه توفي هذه الفترة، وأوصى ابنه عبد الله أن لا يدخل في حرب مكشوفة مع المصريين، الأمر الذي لم يحافظ عليه؛ عندما استترجه إبراهيم باشا — ابن محمد علي الذي خلف طوسون — فهزمه إبراهيم، وأسره وأرسله إلى القاهرة التي أرسلته إلى الأستانة، وأعدم هناك.

ولكن هزيمة الوهابية أمام الحملة المصرية كانت جولة واحدة من جولات عديدة، فقد انقلب الحظ على محمد علي نفسه، وعلى الدولة العثمانية.. وتآمرت عليها الدول الأوروبية، وظهرت مرة أخرى الوهابية.

وفي الفصل الأخير لها، استطاع عبد العزيز آل سعود أن يستحوذ على الجزيرة العربية، وأن يدخل مكة والمدينة المنورة بعد سلسلة من الحروب تحالف فيها مع آل الشيخ —

أي أحفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب — فأعاد الحلف القديم الذي تم بين جده الأعلى محمد بن سعود، والشيخ محمد بن عبد الوهاب، وبفضل هذا الحلف عادت الدعوة الوهابية قوية، وأمن بها كثير من أهل نجد الذين عرفوا بالبدواة والجفاء، وحملوا لفترة ما اسم "الأخوان" أو "الغطط"، وما كانوا يترددون في أن يضربوا بالسيف من يقول "سيدنا" محمد، وذكر الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، في كتابه "القضايا الاجتماعية الكبرى في العالم العربي (١٩٣٦)" أنه: "في الحملة النجدية التي شنت الغارة على شرق الأردن منذ نحو عشر سنوات (أي حوالي ١٩٢٧) هجم بدوي من الغطط في جملة من هجموا على قرية تدعى "أم العمد" ليجاهد في سبيل الله أعداء الدين من المرتدين الذي يُجيزون زيارة القبور وطلب الشفاعة من أصحابها، فرأى امرأة في حجرها ابنها؛ فنادت تستغيت وتطلب الأمان، ولكن لا أمان للمرتد فذبح الطفل أولاً، ثم ذبحها وهو يهمل ويكبر وينشد النشيد المعروف:

هبت هبوت الجنة رائح فين يا باغيها^(١)

ولاقى الملك عبد العزيز منهم عنناً في الأيام الأولى لحكمه؛ عندما حرّموا التليفون والراديو والتصوير الفوتوغرافي إلخ. وجاء وقت كان الطبيب المصري

(١) ص ١٥١

والمهندس المصري يمتحن "ماذا تقول في آيات الصفات!!"
ولكن الملك عبد العزيز روضهم شيئاً فشيئاً. وبعد عناء
طويل..

وكان من الوسائل التي استطاع بها الملك عبد العزيز
أن يسيطر على القبائل، أنه عمد إلى كل قبيلة تقريباً من
قبائل الحجاز، فأصهر إليها، وكان بعد استكمال العدد
الشرعي لأربعة زوجات يطلق واحدة فواحدة ليتزوج
بأخرى، وأنجب من كل واحدة عدداً من الأبناء وتزوج
هؤلاء الأبناء - وقد أصبحوا أمراء - وأنجب كل واحد منهم
أبناءً، أصبحوا بدورهم أمراء. وهكذا تكونت قبيلة ملكية تمثل
قبائل الدولة، ويمثل كل قبيلة منها أمير - على الأقل - في
هذه القبيلة. وقبل ظهور البترول كان هذا الرباط فخرياً
وأدبياً، وعندما ظهر البترول كان في البترول متسع للجميع..
وبهذه الطريقة أوجد الملك عبد العزيز طريقة جديدة في
النظم السياسية وتقلد زمام الحكم، يمكن أن نسميها "القبيلة
الملكية" أو "قبيلة العقال الذهبي".

وقبل ظهور البترول كان الحكم القبلي، والفكر الوهابي
يكفيان دولة صحراوية فقيرة محدودة في كل شيء، لا ترتبط
بالعالم إلا عبر موسم الحج.. وكانت العلاقات ما بين الحجاز

والدول الإسلامية وثيقة؛ فكل طرف يحرص على الآخر بحكم الأخوة الإسلامية..

ولكن البترول الذي تفجر في السعودية غير كل شيء في هذه الدولة - خاصة بعد حرب رمضان سنة ٧٣ التي قفرت بئمن برميل البترول من ثلاثة دولارات إلى أربعين دولاراً، فتدفق نهرٌ ذهبيٌّ على الحجاز، وأصبحت السماء تمطر ذهباً وفضه ودولارات..

وكان الحجاز قد شاهد شيئاً كهذا منذ ألف عام؛ عندما انهالت ثروات كسرى على المدينة، وعندئذ قال عمر بن الخطاب للمسلمين "إن سئتم نكيل لكم كيلاً، أو نزن لكم وزناً" ووزع كل شيء على المسلمين، حتى بساط كسرى الثمين، قُطِعَ قطعاً ووُزِّعت، ولكن الوهابية لم تتضمن شيئاً بالنسبة للبترول والدولارات، ولم يستطع آل الشيخ أن يقترحوا على "السعوديين" شيئاً أو يقفوا في وجه السفه، والتبذير التي جعلت "العربي" وجهاً قبيحاً في العالم أجمع..

كما لم يكن لدى آل الشيخ في التراث الوهابي شيئاً عن الشورى، فليس ما يمنع من أن تكون الشورى الوحيدة هي شورى "مجلس العائلة" في القبيلة الذهبية..

ولم تجد ما تقوله بالنسبة للأخوة الإسلامية. وأن البيت الحرام للمسلمين جميعاً سواء العاكف فيه والباد، وأن ليس

لآخر أن يصد المسلمين عنه باشتراط التأشيرات والضرائب ومختلف صور التحكّات.. وما الفرق بين الحكم السعودي اليوم والذين قال فيهم القرآن.. ﴿ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ٣٤ الأفعال..

لقد أراد السعوديون اكتساب شعبية، والظهور بمظهر التواضع، فأطلق الملك على نفسه "خادم الحرمين الشريفين" وهي مفارقة لدعوة قامت لتجريد المساجد من الزخرف والزينة، وهدم القباب عليها، ومارست هذا أول عهدا بالحرمين.. ولا يريد الإسلام ممن يملك أن يكون خادماً للحرمين، وإنما أن يكون خادماً للمسلمين أو للإسلام، وإنما يكون الملك خادماً للحرمين أمر يقرب ما بين الملك السعودي والشاه الصفوي المتيّم والهائم بالعتبات.

ولم تُعن الوهابية، أقلّ عناية، بقضية العدل لا في المجتمع السعودي نفسه، أو بالنسبة لاستغلال السعوديين للوافدين على بلادهم طلباً للعمل، وممارستهم لأسوأ صور التحكّم واستغلال الحاجة، والعنصرية المقيتة التي تجعل السعودي فوق المسلم المصري أو السوداني. وتضع "الأمريكي" في أعلى المستويات.. والمسلم في الحضيض، وتبيح للتجار والمقاولين أن يعيشوا على عرق العامل عن

طريق ما يُسمى "بالكفيل" وهي بقية من بقايا النخاسة القديمة. نهى عنها الإسلام وأطلق عليها القسامة - وكان جديرًا بالوهابيين أن يطالبوا بالغائها، لأن النهي عنها جاء في أحد المراجع الإسلامية التي حققها أحد شيوخهم⁽¹⁾.

أما عن كرامة الإنسان والحريات، فهي قضية مغلقة لا تفهمها، ولا تسيغها الوهابية، ولم يكن عبثًا تلك الظاهرة التي تثير الانتباه. أن يكون أول ما يبحث عنه رجال الجمارك في المطارات والمواني السعودية هو "الكتب" فإذا عثر أحدهم على كتاب فكأنه عثر على مخدرات ويتعرض للمساءلة، ويتعرض الكتاب للمصادرة.. فكيف يمكن أن يرجى خير من نظام يناصر العلم والمعرفة العدا.. ويعلنها حربًا شعواء على الكتاب..

هل معنى هذا أن الوهابية لم تحقق شيئًا.

(1) هو تيسير الوصول إلى جامع الأصول، بتحقيق الشيخ حامد الفقي. والنهي عن "الكفيل" كما يسمونه، والقسامة (بالضم) كما سماها الرسول جاء في حديث عن أبي سعيد الخدري قال: "قال رسول الله ﷺ إياكم والقسامة، قلنا: وما القسامة..؟ قال الرجل يكون على الفئام من الناس فيأخذ من حظ هذا وحظ هذا" الجزء الرابع ص ١٤٥.

بالطبع حققت..

فإنها أوجبت تطبيق الحدود، وكما كان من إنجازات الشيخ محمد بن عبد الوهاب أنه "رجم" زانية اعترفت بالزنا، فإن ما يحرص عليه الله هو القطع في السرقة.. وتطبيق بقية الحدود. والحدود إذا جردت من مضمونها الإسلامي لم تعد أكثر من عقوبات رادعة زاجرة، وهي تأتي بفائدة الردع، وكانت مطبقة في أوروبا طوال القرون الوسطى.

ماذا أيضاً؟

إنها أوجبت على الناس جميعاً حضور الصلوات في المساجد، أو على الأقل، إغلاق المحال. وهو "إنجاز" هزيل يمكن لأي "بلدية" أو "نقابة" أن تحققه، لأن البلديات والنقابات هي التي تحدد ساعات العمل وأوقات الإغلاق أما جرّ الناس جرّاً إلى المساجد.. فهي عملية شكلية لا تحقق القربى إلى الله.

وقد ترى الوهابية أن من مآثرها أنها ألزمت النساء الحجاب الثقيل، وحرّمت عليهم قيادة السيارات. وأنها قضت على كل صور اللهو من سينما أو مسرح أو غناء [إلا الدف] وهو أمر تزيد سوءاته، عن حسناته، ولا نرى أنه يستحق شرحاً أو إيضاحاً.

ولكن قد ترى الوهابية أن أعظم إنجازاتها أنها قضت على مظاهر وصور "الشرك" وهذا أمر عظيم - ولكنه لا يحتاج صولجان الدولة وسلطانها، بل إن تدخل الدولة قد يفسده. ويمكن لأية هيئة متطوعة أن تقوم به..

* * * *

إن الوهابية تعرض لنا مثلاً لدعوة تقوم على تطهير "العقيدة" كما تفهمها من مظاهر الشرك.. دون أن يكون لها أي أثر بالنسبة لقضايا المجتمع الكبرى في السياسة والاقتصاد والاجتماع. وإنه يمكن أن يوجد في مجتمعها أسوأ صور الظلم والفساد والاستغلال والسّفه.. دون أن ترى أن إصلاح هذا يدخل في عملها..

إنه الإفلاس، إفلاس أغنى دولة في المنطقة.

ب- الجعفرية (1)

الثورة الإسلامية الإيرانية التي قادها آية الله الخميني عام ١٩٧٩ تُعد من أكبر.. ولعلها أكبر الأحداث الإسلامية التي مرّت بالعالم الإسلامي طوال القرن العشرين. هذا القرن الذي شاهدت بداياته حضيض الاستعمار الذي سقطت فيه الدول الإسلامية، حتى قامت الحرب العالمية الثانية فحررتها منه، وإن كانت قد أوقعتها في إيسار استعمار آخر، وشاهدت في وقت واحد ظهور إسرائيل كدولة، وصعود الدعوة الإسلامية عام ١٩٤٨، ثم تلت ذلك موجة الانحسار وظهور طُغمة العسكريين وتلفيقاتهم السياسية، ولعبة "القط والفأر" مع الدعوات الإسلامية..

في هذا المناخ المتقلب المضطرب، الذي يغلب اليأس فيه الرجاء، لمعت - كشهاب ثاقب - بارقة الثورة الإيرانية، وسطعت، وملأت الآفاق نوراً..

(1) أثرنا تعبير الجعفرية على تعبير الأثنى عشرية، لأن الأمام جعفر الصادق هو رأس هذه الفرقة من الشيعة، وقد كان رجل دين، ودولة، وتوفرت له صفات نادرة، وأن ألصقت به دعاو لا أصل لها.

ولا يعود الأثر الكبير للثورة الإيرانية إلى أن إيران دولة كبيرة المساحة، كثيرة العدد، غنية الموارد، ذات حدود استراتيجية وموقع هام، ولكن أيضًا إلى الملابس "الدراماتيكية" التي أحاطت بالثورة. فمن ناحية وجد حاكم متغطرس وصل به الصلف والزهور والغرور أن يصفع رئيس وزرائه في حفل عام! ويظن نفسه ملك الملوك - شاهنشاه - الذي يجلس على عرش الطاووس. ونصب هذا الدّعي نفسه عدوا للإسلام ورموزه، نصيرًا لما ظنها الحضارة الأوروبية ورموزها، وكان مجردًا من المواهب بالمرّة. ولكنه استطاع بموارد النفط الضخمة، وبتأييد الولايات المتحدة أن يرأس أكبر قوة عسكرية في المنطقة، وأن يؤسس جهاز مخبرات رهيب "السافاك" وفي مناسبة للاحتفال بذكرى قيام الإمبراطورية الفارسية القديمة - صنع ما صنعه الخديوي إسماعيل؛ عندما افتتح قناة السويس، فدعا ملوك وأمراء أوروبا إلى مهرجان يفوق "ألف ليلة وليلة" وكانت الأطعمة والأشربة تأتي من "ماكسيم" في باريس بالطنائرات..

في مواجهة هذا الطاووس المختال، المزين بالذهب والماس، المدجج بالسلاح، المحمي بالسافاك، المدعم بأمريكا ظهر شيخٌ واهن الجسم، في الثمانين من العمر، لا يملك إلا سجادة صلّاته. ويقيم في بلد بعيد.. استطاع كأنما بمعجزة -

أو بتوفيق السافاك - البلاط - أمريكا التي وقفت مشدوهة
فاغرة الفم..

قالت إحدى الصحف إن عودة الخوميني من باريس إلى
إيران لا تماثلها إلا عودة لينين من سويسرا إلى روسيا،
ولكن الحقيقة كانت أعظم من ذلك بكثير، فلم ينتظر لينين
على محطة السكة الحديد إلا مجموعة من حزبه، قلقة،
متربصة، وكان عليه أن يعمل طوال عشرة شهور ليصل إلى
الحكم وسط معارضات وثورات لا حد لها. أما الخوميني فقد
وجد بحرًا من البشر.. كأنما خرج كل الشعب الإيراني
لاستقباله وسط حماسة لم تسبق، وأسلمه السلطة بالإجماع،
ولم يشذ إلا الذين لوّثوا أيديهم بدماء الشعب من السافاك أو
البلاط أو لصوص وحاشية الشاه المخلوع.

وفي حقيقة الحال، فإن الثورة الإيرانية تكاد تكون أعظم
الثورات في العصور الحديثة - بمعايير الثورية بما في ذلك
الثورة الفرنسية ١٧٨٩ والثورة البلشفية سنة ١٩١٧ فالشعب
كله اشترك فيها. وغيّرت الثورة تغييرًا جذريًا الحياة قبلها.
فقد كانت طهران - كباريس - مدينة أوروبية فيها كل
مظاهر الاستمتاع والانطلاق الأوروبي. وبعدها أصبحت بلدًا
إسلاميًا يلتزم بمقاييس الحفاظ الإسلامي. وقبلها كان الخبراء
الأمريكيون والإسرائيليون يفتقدون مناصب الحكم والإدارة..
فحل محلهم الفقهاء بعمائمهم ولحاهم..

نعم، لم يحدث هذا في إيران - منذ أن خرجت الرايات
السود من ألف عام لتقضي على الخلافة الأموية. وتحل
الخلافة العباسية..

* * * *

وفي مصر تلقينا هذه الثورة بكل الحب والإعزاز
والحماسة والتشجيع.. لم نهتم بأية تفرقه فقهية أو تحليل
عقلاني، لأنها لمست وترًا حساسًا في نفوسنا، فرأينا ثورة
"العمامة" على "القبعة" وعودتها إلى مجال الصدارة
والسياسة.. ويا لها من عودة انبثقت من أعماق الماضي
القديم.

* * * *

كان على الثورة الإيرانية أن تتصدى للوقائع الصلبة.
وفي الأيام الأولى بدا كل شيء ميسرًا بفضل دفعة
الحماسة الدافقة، وجدة التجربة..
ولكن الثورة الناشئة لم تترك طويلًا..
فالقوى العالمية التي أخذت على غرة بانتصارها، دبرت
لها مكيدة تجهضها، فدفعت أحد عملائها من الطُغمة
العسكرية ليشن عليها حربًا ضروسًا تحت لافتة "قادسية
صدام"..
ويا له من زيف.. وادعاء..

إن كل حرف في كلمة "قادسية" يتبرأ من كل حرف في كلمة "صدام".

وتدفقت أموال النفط من السعودية والخليج، وبعثوا من حريات التاريخ كلمات: المجوس.. التتار.. الفرس.. ووقفت أمريكا وراء الجميع..

كان الخوميني يريد أن يخلص العالم من شخص شرير بمعنى الكلمة..

ولكن العرب - على بُكرة أبيهم!.. وقفوا وراءه.. ودفع الكويتيون البخلاء الممسكون بسخاء.. وأنفق السعوديون بسفه في سبيل إبقاء هذا الشرير..

فتركه الخوميني.. ليكون لهم حزناً، وليحرق آبارهم وقلوبهم ويفعل بهم الأفاعيل.. ثم يعود ليدمر كل ما أقامه هو نفسه تدميرًا!

وإذا كان الخميني قد تجرع كأسًا من السم - فإن سهامًا من سهام دعائه أصاب صدام فأصماه، وجعله أمثلة يتعوذ أقل الناس منها..

تُصمُّ السميع وتُعمي البصير، ويسأل من مثلها العافية..
وزهق باطل صدام..

وعادت إيران، ولكن بعد أن خسرت ثماني سنوات فقدت فيها دفعة الثورة، التي كان يمكن أن تحقق لها الكثير، كما فقدت أمامها ورمزها.

ومع هذا تظل إيران - دولة إسلامية منتصرة تملك ما لا تملكه أية دولة إسلامية أخرى..

إن مصر يمكن أن تنافسها في عدد السكان، ويمكن أن تفوقها بالعربية، ولكن ليس لديها إمكانيات النفط، أو الموارد الطبيعية.

والحجاز يمكن أن يفوقها في البترول والعربية، وبالمشاهد المقدسة.. ولكن ليس هناك شعب.. والشعب هو أقوى القوى..

ولدى إيران شعب من خمسين مليون. يتسم بالذكاء.. وصفه الأثر "لو كان العلم في الثريا لناله ناس من فارس" وقدم لصحبة الرسول رجلاً ورعاً ذكياً أحبه الرسول حتى قال "سلمان منا أهل البيت" وخدم الثقافة الإسلامية، وأنجب لها عباقرتها في الحديث والتفسير والفقهاء، وحتى اللغة العربية..

وبيننا وبين "الشيعة" وشائج عديدة..

فإذا كانت الشيعة تفخر بأنها تنتسب إلى فارس الإسلام النبيل، وصفيّ الرسول الأثير الإمام علي بن أبي طالب.. فنحن أيضاً ننتسب إليه ونفخر به..

وإذا كانت ترى في الإمام أبي عبد الله الحسين سيد الشهداء.. ورمز الفداء.. فنحن أيضاً نعتبره كذلك..

وإذا كان رأسها المباشر هو الإمام جعفر الصادق، فإن جعفر الصادق هو إمام من أئمة السنة..

وإذا كانت ترى أن "الإمامة" من أصول العقيدة.. فنحن - أيضاً - نؤمن أن الإسلام يعتبر الحكم رسالة سامية ومهمة مقدسة، وليست - كما تتظر إليه الديمقراطية - كرة تتقاذفها الأحزاب ومغنماً يطمع فيه الطامعون. وإن "الإمام" يجب أن تتوفر فيه صفات معينة.. فالفرق بيننا وبين الشيعة يكاد يكون في "الدرجة".

وفي الدعوة الشيعية بعد صيحة تنتظمها وتسير معها منذ أن ظلموا علياً حقه، وسيروا الجيوش لحربه، وحقه كالشمس في رابعة النهار، ثم تتبعوه حتى خضبوا لحيته بدم رأسه، وراح شهيداً في أشرف ساعة من أشرف فجر يوم "١٧ رمضان" حتى الفترة الراهنة. تلك الصيحة هي الثورة على الظلم والتطلع للعدل والتنديد بالطغاة، والعالين في الأرض والمتحكمين في الناس، وما يضعونه من ملك عضوض ونظم كسروية وقيصرية، والانتهاض بال جماهير المسحوقة المغلوبة على أمرها لتثور وتحطم عنها إصرها والإغلال، وتعيد مرة أخرى الخلافة الراشدة، فكأنها دعوة المظلومين ضد الظالمين وعندما سنحت الفرصة للزيدية - وهي إحدى فصائل الشيعة للحكم في طبرسان وفي اليمن - أعادوا مرة أخرى تقاليد الخلافة الراشدة، وعندما قامت

الثورة الشيعة في إيران؛ فإنها أطاحت بأحد الطواغيت ثم نطحت طاغوتاً آخر حتى زعزت قوائمها وزلزلت دعائمها..

وقد يعترض معترض، ماذا تقول فيما تحفل به بعض كتابات الشيعة من المزاعم الفظيعة والدعاوي الشيعة.. وما تتضمنه من غلو في حب الآل، وتنديد ببعض الصحابة، وتأويل لظاهر القرآن أو حتى إدعاء قرآن آخر؟ فنقول أن الشيعة مذهب عريق شرد دعائه شرقاً وغرباً، وتعرضوا لحرب أرادت استئصاله تماماً؛ فاضطروا إلى سرية حالت بين الجمهور والأئمة فكانت "الغيبية" أمراً واقعاً، وكانت "التقية" تكتيكاً وأسلوباً لازماً، ولم يكن مناص في كثير من الحالات من الكناية والرمز واللجوء إلى لحن القول. وسمح هذا بوجود الغلاة والمتشددين بل واندساس بعض الأعداء والشائنين. وهي ظروف كان لا بد أن تتعرض لها دعوة سلخت ألف عام من الملاحقة والاضطهاد. وقد رأينا بأنفسنا كيف أن الاضطهاد الذي لاحق دعوة الأخوان المسلمين خلال خمسين عاماً أدّى إلى ظهور أجنحة تذهب إلى ما لم تذهب إليه الجماعة نفسها وتلوذ بصور من العنف والشطط، فما بالك لو ظل هذا الاضطهاد خمسمائة عام.

والمسلك الأمثل الذي يكون علينا أن نسلكه هو أن نتفهم هذه الأوضاع، وأن لا نحاسب الدعوة والجماعة على سلوك أحاد أو شذوذ أفراد، أو ظهور صور من الغلو والتشدد؛ فهذا أمر معهود في الدعوات، وقد تنبّه إليه كثير من كتاب الشيعة أنفسهم، وقد أمرنا الإسلام برأب الصدع ولم الشمل، وأن نصل من قطعنا، ونحسن إلى من أساء إلينا، وحذر النبي

المسلمين من أن يعودوا بعده كفارًا يضرب بعضهم رقاب بعض. وعلمنا القرآن أدب القول وحسن الاستماع فقال: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ وقال: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ وما أجمل هذا وأنبله وأبعده عن شأن العداوة ولدَدَ الخصومة. فما بالنا لا نستمع إلى ما يقول القوم ونتبع أحسنه..

والأمر بعد ليس أمر عاطفة فحسب، أو واقعة تاريخية، ولكنه أمر مصلحة عظمى قد لا يوجد ما يماثلها، وأي مصلحة أعظم من وحدة المسلمين وأن تعود "دار الإسلام" مفتوحة الأبواب، لا تحدها الحدود، ولا تقطعها السدود، ولا تعزلها الخصومات والقيود.

في سبيل هذا الأمل العظيم عمل حسن البنَّا ومحمود شلتوت وعبد المجيد سليم وغيرهم من الدعاة وأئمة المسلمين، وتغاضوا عن الخلافات والمزاعم، حتى مع افتراض وجودها، لأن الأهم يغلب المهم.

ونحن نقف من الشيعة الموقف الذي وقعه مفكر شيعي جعفري، عمل للثورة، ومهدَّ أمامها السبيل ذلكم هو "علي شريعي".

إن علي شريعي يفرق تفرقه حاسمة بين "التشيع الصفوي" و"التشيع العلوي" وينسب إلى الأول كل ما علق بالشيعة من مثالب ولوثات لأغراض سياسية، ولكسب التأييد الأعمى من الجماهير..

إن علي شريعي يقول:

- إن التشيع العلوي والتشيع الصفوي، يبدو أنهما فرقتين متقاربتين في الظاهر، ولكنهما في الواقع مناقضتان لبعضهما، ولا يوجد ما يربط بينهما سوى الاسم، سأحاول أن أعرض باختصار مقارنة بين هذين "المذهبيين"، وكيف ينظر كل منهما لمبادئ وقضايا أساسية وهامة لدى الشيعة:

في التشيع العلوي

الوصاية:

تعني أن الرسول، طبقاً لأوامر الله تعالى، أوصى بأفضل الأشخاص وأكثرهم كفاءة في أهل بيته، على أساس كونه أكثرهم علماً وتقوى واستحقاقاً.

الإمامة:

تعني قيادة ثورية، تهدي الناس في الكفاح من أجل بناء مجتمع سليم؛ وتقوم بتوعية الناس وحثهم على التفكير والاستقلال في الرأي. إنها قيادة تتكون من أشخاص هم التجسيد العملي لمبادئ ورسالة الإسلام؛ ويمكن بالعمل تحت قيادتهم أن نتربى ونعي أكثر فأكثر.

العصمة:

تعني الاعتقاد بالتقوى الفكرية والاجتماعية للقادة المؤمنين، الشعاعين بالمسؤولية، والساعين من أجل العلم وحكم الشعب. ويعني هذا، رفض حكم الجور، ورفض طاعة العلماء المشكوك بنزاهتهم ورجال الدين المزيفين المرتبطين بأجهزة الخلافة.

الولاية:

تعني القبول بحب علي، والتصرف اقتداءً بسلوك علي، باعتباره نموذجًا راقياً لأحد عباد الله. كانت قيادته تهدي الناس كسراج منير، وحكمه كان كتطلع الإنسان نفسه عبر التاريخ: أمل في العدل والحرية والمساواة. وإن في سنوات حكمه الخمس لخير دليل، ينشدها الناس ولا زالوا، كقدوة.

الشفاعة:

حافز على العمل من أجل اكتساب استحقاق النجاة في الآخرة.

الاجتهاد:

عنصر الحركة والتطور في الدين عبر الزمن، وخطوة فخطوة مع التاريخ والثورة الدائمة للإنسان. إنه تطور في نظرة الدين يسمح بتطور منسجم في الفقه حسب التغييرات.

التقليد:

علاقة منطقية وعلمية ضرورية بين عامة الناس وعلماء الدين، المتخصصين في المسائل العملية والحقوقية، وقضايا أخرى ذات طابع فني ومتخصص.

العدل:

الاعتقاد بوجود صفة العدالة في الله، وبأن الكون قائم على التوازن والعدل، فالنظام الاجتماعي والحياة أيضاً، يجب

أن ترسى على أسس العدل، إن الظلم واللامساواة هما نظام غير طبيعي وغير إلهي، بل إنه ضد الله. إن العدل هو أحد ركنين أساسيين في الدين، فالعدل هو هدف الرسالة والشعار العظيم للإسلام.

الدعاء:

نص يربي ويعلم. يلقن الجمال والطيبة. إنه عمل يقود الروح نحو المعراج، إنه يبعد المرء لحظات عن الحياة اليومية ليقرب من الله.

الانتظار:

الإعداد الروحي والعملية والعقائدي، من أجل الإصلاح والثورة وتغيير العالم أمل يعين على الإيمان القاطع بزوال الظلم وانتصار الحق والعدل، وسيادة الطبقة المحرومة والمستضعفة على العالم، حيث وعد الله بأن يرث المستضعفون الأرض. إنه ثقة بانتصار الجماهير والناس الصالحين الذين كرسوا أنفسهم من أجل الثورة العالمية.

الغيبة:

تعني مسؤولية الناس في تقرير مصيرهم، وفي اتخاذ القرار فيما يخص: إيمانهم، قيادتهم، حياتهم المعنوية والاجتماعية، تعني مسؤولي الشعب في انتخاب قيادة نابعة

من صفوفه، قيادة مسؤولة ونزيهة تستطيع أن تتوب عن قيادة الإمام.

* * * *

إن التشيع العلوي هو تشيع المعرفة والمحبة.

إن التشيع العلوي هو تشيع السنة.

إن التشيع العلوي هو تشيع الوحدة.

إن التشيع العلوي هو تشيع العدل، [العدل في العالم،

في المجتمع وفي الحياة]

إن التشيع العلوي هو تشيع الممارسة.

إن التشيع العلوي هو تشيع الالتزام.

إن التشيع العلوي هو تشيع الاجتهاد.

إنه تشيع المسؤولية.

تشيع الحرية.

تشيع ثورة كربلاء

تشيع الشهادة

تشيع السعي وراء التقدم والتطور

تشيع التوحيد

تشيع الاختيار

تشيع صداقة الحسين

تشيع الإنسانية

تشيع الإمامة العلوية

تشيع الانتظار الإيجابي

تشيع تقية المناضل الشجاع.

في التشيع الصفوي

الوصاية:

تعني تعيين سلطة غير منتخبة، وراثية، تستند إلى التسلسل الوراثي وعلاقة الدم والقرابة.

الإمامة:

هي الاعتقاد بـ (١٢) اسماً، باعتبارهم معصومين ومقدّسين، عناصر فوق البشر ومن ما وراء الطبيعة، وهم الوسيلة الوحيدة للتقرب والشفاعة، إنهم ١٢ ملاكاً يمكن عبادتهم، وهم مخلوقات غيبية، بل وإله صغير يتحكم بالدنيا وبمشيئة الناس إلى جانب الإله الأكبر في السماء.

العصمة:

تعني مفهوماً ذاتياً، صفة استثنائية خارقة لمخلوقات غيبية، ليست من طينة البشر، ولا يمكن أن يخطئوا في

شيء؛ ويعني هذا بأن ١٤ شخصاً فقط امتلكوا هذه الذات الخاصة وهذه الصفات.

هذا يعني أيضاً، الاعتراف بأن انحراف وعدم نزاهة الحكومات القائمة هي أمر طبيعي (لأنها ليست معصومة)، والقبول بعلماء الدين غير النزيهين ورجال الدين غير المتقين، بحجة أنهم غير معصومين، ولا يمكن توقع الكمال منهم.

الولاية:

تعني حب علي فقط، والتتصل من كل مسؤولية عملية. تعني الأمل بالجنة فقط، بسبب الاعتقاد بولاية علي. أي أن الولاية هي لضمان الآخرة، وليست شيئاً يفيد المجتمع والشعب. إنها مسألة لا تهم الناس بل تهم الله. إذ أنها تعني في مفهوم التشيع الصفوي التشارك مع الله في إدارة الكون والعالم.

الشفاعة:

وسيلة لنجاة من لا يستحق!

الاجتهاد:

عصر الجمود والتحجر في الدين، وعائق أمام التقدم والتجدد والتغيير، وسيلة لإدانة وتكفير وتفسيق كل عمل

جديد، كل كلمة جديدة، وكل نهج جديد في الدين ونظام الحياة
والعلم والفكر، وفي المجتمع.

التقليد:

الطاعة العمياء لرجال الدين. التبعية المطلقة وغير القابلة
للنقاش لرجل الدين، وذلك في العقل والعقيدة والحكم. أي
حسب تعبير القرآن: عبادة رجال الدين "عبادة الأخبار
والرهبان من دون الله"⁽¹⁾.

* * * *

هذا هو ما ارتآه علي شريعي

وهذا هو ما يراه من أهل السنة المنزهون من الغرض،
البُراء من المرض المشفقون من الفرقة الحريصون على
الوحدة.. والذين يريدون لإيران أن تكون قوة كبرى وعزاً
للإسلام والمسلمين..

وفي نظرنا أن علي شريعي وضع أمام "المؤسسة
الشيعية" البداية الصحيحة.. والتي لا مناص عنها. وإذا
سلكتها كسبت الشرف والانتصار، وإذا تجاهلتها خسرتها..

(1) هكذا تكلم علي شريعتي تأليف طالب رسول ص ١٧٧ - ١٨١

فلا يتصور أن ينجح اليوم، في عصر الثقافة والمعرفة
وثورة المعلومات، ما نجح قديماً في ضم الجماهير واكتساب
تأييدها، عندما كانت أمية، جاهلة، منقطعة عن العالم فكان
لابد من الأساطير، والتهاويل والرموز ليتمكن الحفاظ عليها،
 وإبقاء حبل الدعوة متصلاً حتى الانتصار..

وقد جاء الانتصار وأصبح هو "صاحب الزمان".

وقد انتصرت الثورة لا لإيمان خاص بالتشيع الصفوي..
ولكن لأن شيوخ الشيعة - آيات الله - مثلوا نبل رموز
التشيع العلوي في مواجهة أسوأ وأحط صور الحكم الديويي..
فالمؤسس الشيعية ليست اليوم في حاجة إلى الصفات
التي أضفاها التشيع الصفوي عليها من قداسة وعظمة..
فضلاً عن أن هذه الصفات تتناقض مع روح العصر وعليها
أن تعلن العودة إلى التشيع العلوي؛ ففيه وحده الرموز التي
تلهم الشعب القوة والمثالية..

* * * *

وليس لدينا تصور دقيق عما هو واقع في إيران اليوم.
نحن نعلم أن قادة الثورة يتصفون بالإخلاص، ويأخذون
أنفسهم بالتقشف ويجعلون من الدعوة نقطة الانطلاق
والتحرك..

ولكننا لا نعلم شيئاً عن حقيقة الأوضاع، أو أن ما نعلمه
يختلف عن الواجب..

فهل يتفق اصطحاب الدعوة الشيعية بالجماهير المستعبدة
والمستغلة.. بعدم وجود حركة نقابية تمثل العمال وتكون
دليلاً عملياً على مقاومة الاستغلال كائناً ما كان، أو نظام
شامل للتأمينات الاجتماعية أو سياسية قومية للصحة
والإسكان..

هل يتفق مع الأخوة الإسلامية أن يقاوم جناح شيعي
جناح مسلم آخر في لبنان، بينما ينتظر المارونيون المنتصر
ليجهزوا عليه..

هل يتفق مع تقاليد أن تضع إيران يدها في يد طاغية
سوريا الملوثة بدماء الأطفال والنساء. وهو الذي هدم حماة
على أهلها، ومارسَ وأخوه أخطأ صور التعذيب.
إن طاغية سوريا سفاح مثل يزيد؛ فكيف تصانعه
الشيعية؟

وهل يتفق مع تقاليد علي بن أبي طالب تجاه الخوارج..
عدم وجود معارضة.. أو حرية سياسية.. أو صحافة حرة
تعبّر عن إرادات ومشاعر الأحاد والجماعات..
إن الإمام علي كرم الله وجهه ذهب في الحرية مع
المعارضة إلى ما لم يذهب إليه أشد الأحرار.. فعندما تكتل

الخوارج ضده واعتزلوه وحملوا سيوفهم، لم يتعرض لهم وسمح بوجود هذا التكتل المسلح المعارض.. ولم يقربهم إلا عندما قتلوا أحد أصحابه.. عندئذ فحسب تعرض لهم لا بقتال.. ولكن طالباً أن يسلموه القاتل فهتفوا "كلنا قتله!" وعندئذ لم يكن مناص من قتال القتلة.. ومع هذا فقد أوصى أن لا يتبع هاربهم، ولا يجهز على جريحهم، ولا تستباح مغانمهم.

ولو اتبعت إيران تقاليد علي بن أبي طالب وما وضعه من قواعد مع المعارضة، لكانت أشد بلاد الله حرية..

* * * *

إن المؤسسة الشيعية اليوم على ميعاد مع التاريخ،

إنها تقف في مفترق الطرق..

وراؤها السلطة، العصمة القداسة، الغيبة، التقية، إسماعيل الصفوي، الشاه عباس، ما ألصق زوراً من اتهامات بالسنة بتأثير لدد خصومة الصفويين للأتراك السنيين، عندما كان الفريقان في حرب حياة أو موت..

وأمامها التواضع، الإخلاص، العدل، الحرية، المساواة،

علي بن أبي طالب، الحسين، زين العابدين، زيد.. جعفر..

فإذا التفتت إلى الوراء فستحتفظ - لفترة - بالسلطة

ولكن التاريخ لن يسامحها.. والجماهير لن تسكت عليها

وسيحكم الله عليها كما حكم على أمم قد خلت ﴿ فَمَا بَكَتْ
عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾.

وإذا نظرتَ إلى الإمام فستكون جديرة بتراث علي
والحسين الدعوي.. الكفاحي.. وسترود الطريق نحو "دار
الإسلام".

وستكسب الحُسنين النصر والشرف.

* * * *

الباب الثاني
دعوة العمل الإسلامي
الفصل الأول

تمهيد ومنطق

مقدمة

انطلقت الدعوات الإسلامية السابقة كلها من منطلق واحد هو "الإسلام" .. وبوجه خاص "الفهم السلفي للإسلام" .. فبعضها استهدف شرح الإسلام وإظهار حقيقته، وبعضها الآخر استهدف تنقيته من الخرافات .. إلخ. وقد يبدو أن هذا أمر طبيعي ومنتظر .. فماذا تريد من دعوة إسلامية غير هذا؟! .. إن إمعان النظر يوضح أن القضية ليست بهذه البساطة .. فهذه الدعوات ليست دعوات "أكاديمية" تقدم بحثاً لتتال بها درجة علمية، ولا هي هيئات "آثار" تنقب في الحفائر لتصل إلى أثرٍ توارى تحت الرمال .. إنها هيئات تقدم دعوة إلى الناس وتطلب منهم الإيمان بها ..

وهذا ما لا يتيسر إلا إذا أخذت الدعوة الإسلامية شكل نظرية لها مقومات وتكامل ووحدانية النظرية. وهو ما عجزت عن أن تقدمه الدعوات الإسلامية السابقة.

إنها لم "تستقطع" أو تستلهم من الإسلام نظرية ما. فنظريتها هي نظرية الإسلام، ولكن الإسلام رحبٌ وفسيحٌ بصورة لا يتأتى معها أن يوضع في سلة نظرية. وعندما أحييت الرفضة الجديدة فكرة "الحاكمية الإلهية" فإنها أوجدت "منطلقاً" لها.

وقد أوجد هذا المنطلق في القديم "الخوارج" بسيوفهم على عوانتهم، وجباههم مُسَوِّدَةً من السجود، وتلاوتهم للقرآن لا تجاوز تراقيهم حتى يفنون على شط النهران.

وأوجد - في العصر الحديث مثيلاً للخوارج ينطلقون حتى تحتويهم السجون، أو تحطمهم صخور الواقع أو يقتلون، ولكن المهم أنهم وجدوا "منطقاً" يدفعهم إلى حركة تتسم بجرأة وشجاعة، ونقطة القوة تعود إلى وضوح وبساطة وخلوص المنطلق، ونقطة الضعف تعود إلى أنه كائنًا ما كان - ليس إلاً منطلقاً وليس نظرية، وبالتالي فلا يمكن أن يقيم بناءً أو يبدأ عهداً.

وكان من أسباب عجز الدعوات الإسلامية عن التوصل إلى نظرية إسلامية أن جمهورها ورث الإسلام وراثته، ولم يؤمن به ابتداءً عن اختيار وفكرة وتمحيص. فلم تُثرُ عجائب الإسلام في نفسه الدهشة، ولم تدفعه غرائب إلى الرغبة في الاستكشاف ومر على آياته غافلاً.

كان هذا الجمهور كأهل مكة بالنسبة للكعبة، وكأهل القاهرة بالنسبة للأهرام، لا يأبهون لهما بينما يهرع الناس من أقصى الأرض لزيارتها واستلهاهم العبر والعظة. فإذا كانت الوراثة توصل الإسلام في نفس صاحبه كبقية الموروثات فإن هذا المسلم لم يستطع أن يرى الإسلام، لأنه ليس شيئاً خارجياً عنه (فالعين لا ترى نفسها).

وقصارى ما يمكن أن تصل إليه هذه الدعوات هو رؤية "جلد الإسلام" أو بعض جزئياته أو بعض منطلقاته. أما الإسلام ككل فهذا ما لا يمكن أن تراه تماماً لأن شرط رؤيته - ككل - هو البعد عنه.

وكما يحدث عندما يريد أي واحد منا أن يرى صورة ما ككل فإنه يبعد عنها. أما إذا اقترب منها، فإن البصر سينصرف إلى جانب دون آخر. وحتى عندئذٍ - فإن ما يراه من قرب ليس هو في حقيقة الأمر الإسلام موضوعاً ومجرداً، ولكنه الإسلام الموروث، الإسلام السلفي، أي أن

الفهم السلفي للدعوات الإسلامية حجبها عن رؤية الإسلام الحقيقي - إسلام ما قبل السلفية.

وكان مما دعّم هذه الحقيقة أن الدعاة الإسلاميين ركزوا دراستهم في الثقافة الإسلامية التقليدية، ولم يشركوا بها الثقافة الأوروبية الحديثة.. حتى وإن ألم بعضهم بها، فما كان الإيمان الموروث لديهم بقداسة الإسلام ليدع إلا هامشاً ضئيلاً من التأثير على موضوعية الدراسة وجديتها، ولو أنهم درسوا هذه الثقافة دراسة عميقة، وأخذوها مأخذاً جاداً لحقق لهم ذلك نوعاً من التكامل في الفكر.

ومن الخطأ الفاحش أن يظن أحد أن الثقافة الأوروبية لا بد وأن تكون مناقضة للإسلام بحكم صدورهما عن أوروبا، لأن الثقافة الأوروبية تدين فيما تدين به للإسلام نفسه، ولا يجوز أن نحكم على الثقافات بالأزمنة والأمكنة والمعيان على الصحة أو الفساد هو المعيار الموضوعي الذي وجهنا إليه القرآن الكريم وعلمنا إياه الرسول الكريم ﷺ.

واستغرق الدعاة الإسلاميون في دراساتهم الإسلامية، وركزوا العناية على الجوانب النظرية في الدعوة مثل صدق نسبة حديث ما إلى الرسول، أو الاستخدام اللغوي السليم لحرف ما في إحدى الآيات.. إلخ.

وهو وإن كان أمرًا لازمًا. ولا مناص عنه، إلا أن التركيز عليه جعلهم ينسون نقطة هامة جدًا، تلك هي أن دعوتهم إنما أُريد بها أن تقوم للناس، وسيطالب الناس بالإيمان بها؛ فهناك الناس الذين سنقدم إليهم، والدعاة الإسلاميون عادة قلما يلحظون الناس كطرف آخر، فاعل وله وجوده وله كيانه، وضروراته وآلياته. فهم ينظرون للناس كطرف سالب يتلقَى من الموجب، أو كوعاء فارغ يُصب فيه المضمون كأنه خلق لهذا، وقد يستشهدون ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾.

وهذا استشهاد خاطئ - والاستشهاد القرآني فيما نحن بصدده هو ما تعبر عنه الآية ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمَ مَا تُوسَّوسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ فهل حاول الدعاة المسلمون أن يتقربوا إلى الجماهير، ويعلموا ما توسوس به نفوسهم..؟ هل يعلمون أن أول ما يهدف إليه مراهق أو شاب هو أن يُشبع غريزته الجنسية التي تعوي بين جنبيه كوحش جائع؟.. هل يعلمون أن أهم ما يفكر فيه الأب هو إطعام أبنائه وكسوتهم؟.. هل يعلمون أن آمال المرضى هي الصحة، وأن آمال المسجونين هي الحرية؟ إن الله تعالى يعلم هذا، وهو أقرب إليهم من حبل الوريد، وقد وضع في الإسلام وسائل وطرق لتحقيق آمالهم وحل مشاكلهم. ولكن

الدعاة الإسلاميين غفلوا عن هذا - وتجاهلوا الصلة الوثيقة ما بين الإسلام والناس، ولم ينظروا إلى الإسلام من منطلق الناس، أو في مرآة المشاكل والاحتياجات والمشاعر والآلام - كأن الإسلام تجريد مُنَبَّتٌ عن الناس أو الحياة، واتجاهات وطرق دراستهم للإسلام تتم عن هذا، فهم في القرآن مثلاً لا يتحدثون عن الحكمة في الآيات قدر ما يدرسون "أسباب النزول" كما لو أن القرآن مجموعة "حواديت" نزلت الآيات بسببها. وانتَهَى الأمر. وعبثاً يقولون أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب" لأنه ما دام هناك سبب معين، فقد قُضِيَ الأمر، ولن يكون لهذه الإشارة من معنى إلا تشويه عموم اللفظ، وهذا أيضاً ما يفعلونه في اعتبار العلة في القياس وليس الحكمة، لأن العلة مغلقة، أو بتعبرهم "منضبطة" ولكن الحكمة مفتوحة..

* * * *

نقطة التحول الكبرى هي أن الإسلام يريد الإنسان - ولكن الدعوات الإسلامية تريد الإسلام وتعمل للإسلام مستقلاً عن الإنسان، في حين أن القرآن لا يفتأ يُرَدِّدُ أن رسالة الإسلام هي إخراج الناس من الظلمات إلى النور، ورفع الأضر والأغلال التي كانت عليهم.

نتيجة للأسباب السابقة.. أعني: أن الإسلام كورثة لم يضرب في النفوس جذوة النظر والاستكشاف والتأمل،

وأصبح نوعاً من تحصيل حاصل. وكانت هذه الحقيقة في أصل التسجيل السلفي للإسلام وإبرازه كتراث.. واقتصار الدعاة الإسلاميين على الثقافة الإسلامية السلفية التي دعمت المعنى التراثي والإطار السلفي، وعدم احتفالهم بالثقافات الأخرى التي كان يمكن أن تستكمل القصور في الفهم والحكم.

وإغفال الدعاة الإسلاميين لفكرة الإنسان وإن الإسلام إنما أنزل للإنسان، وأن خدمة الإسلام إنما تكون عبر الاتساق، وليس بتجاوز الإنسان، لأن تجاوز الإنسان لا يعني إلا أن يكون الإسلام دراسة أكاديمية مجردة - متحجرة فالإنسان هو العنصر الحي وهو الذي يمثل الحياة، والوجود العملي.. لهذه الأسباب..

لم تستطع الدعوة الإسلامية أن تقدم نظرية إسلامية، وكانت أقصى جهودها هي محاولة تنقيح العقيدة من الغشاوات.

ولا بد للوصول إلى النظرية الإسلامية التلخص من وجود القصور السابقة أي:

تجاوز السلفية ليتمكن الوصول إلى القرآن. إذ أن السلفية فرضت نفسها وصية على القرآن، أو عقبة في الطريق إلى القرآن. ولا يمكن الوصول إلى القرآن إلا يتجاوز السلفية.

الفهم الشامل والعميق للقرآن. وطبيعة الخطاب القرآني ومردود ذلك. ورفض انتزاع آية، أو جزء من آية من السياق، والحكم بما قد توحى إليه. إذ لا يمكن فهمها حقاً إلا في ضوء ما سبقها وما لحقها، ثم متابعة إيراد القرآن لمثل معنى هذه الآية في مواضع أخرى. إذ قد يكون لها حكم آخر بحيث يكون هناك بدائل وسعة، والتوصل إلى "روح القرآن" ومفاتيح هذه الروح من القيم العليا التي يستهدفها القرآن كالعدل والحرية والمساواة والسماحة.. والمعرفة وكرامة الإنسان.

مراجعة السنة في ضوء القرآن الكريم وقيمه العليا، ووضع معايير صارمة للحيلولة دون تسرب الوضع، أو تغيير المدلول نتيجة للرواية بالمعنى إلخ..

إحكام الثقافات والمعارف المختلفة التي تكشف عن "السُنن" التي وضعها الله تعالى لصالح النفس، وصلاح المجتمع، بما في ذلك ما تقدمه الحضارة الأوربية من دروس ثمينة. والمفروض أن نحرص على المعرفة أينما كانت، وأن نعمل بتوجيه القرآن ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْلَمُوٓا۟ اَعْدَلُوٓا۟ هُوَ اَقْرَبُ لِلتَّقْوٰى﴾.

ويجب أن يكون "الإنسان" هو منطلق هذه الثقافات والدراسات ومحورها، لأنه هو المادة الحية، ولأنه هو الذي نزل الإسلام له.

وهناك عامل آخر خارجي - يفترض التحرر منه. ذلك هو ملاحظة المستويات المتدنية، أو الخوف من الحفاظ المتأصل، أو مقاومة قوى مضادة، أو حتى الحرص على كثرة العدد، أو عدم الدخول في معارك. إن هذه العوامل إذا أخذت في الاعتبار عند وضع النظرية، فستؤدي إلى الهبوط بها، أو تمييعها، أو التنازل عن أجزاء ثمينة من مكوناتها. لهذا يفترض أن لا تستهدف النظرية عند وضعها اكتساب الجموع، أو الوصول إلى الحكم. فهذا وذاك يمكن أن يكونا "سم" النظرية. إن المهم هو السلامة الموضوعية، والإيمان بها، وحول هذا وذاك يجب أن يدور محور العمل.

وكل عارف بالدعوات الإسلامية القائمة ينتهي بسهولة إلى أن هذه الاشتراطات لم تتوفر في أيٍّ منها.. فكلها بدأت من "المقرر" السلفي، وليس من الفهم القرآني. وعلى أن بعض قادتها أحكم الثقافة الأوربية، إلا أن من المشكوك فيه أنه استفاد منها في تكوين دعوته، واصطدمت معظمها بالمستوى المتجني والتقليدي لفهم الناس، وغلبة الموروثات. وهو الأمر الذي اعترف به أيضاً قادة الدعوات الإسلامية اهتماماً بتجديد الفكر الإسلامي. وهو الدكتور حسن الترابي فيما سبق أن قدمناه. ونعلم أن الجبهة الإسلامية في السودان تسير في محاولاتها التجديدية على الشوك. وتتلقت يُمنةً

ويُسرة قبل أن تتحرك خطوه صغيرة. وتجابه كل يوم باتهام. وقد توضع قضيتها بين أيدي أكثر القضاة تزمناً [كما حدث بالفعل⁽¹⁾] وكان الإمام الشهيد حسن البنا في منهجه التربوي وملاحظته للاعتبارات المائلة وردود الفعل، يضطر إلى أن يأخذ الناس على قدر عقولهم، ويصانع أئمة المساجد ووعاظ الأوقاف.. الخ.. وقد خلّص المودودي الذي اعتزل في مكتبه من هذه المؤثرات البيئية، ولكن منهجه السلفي لم يصل به إلا إلى "فكرة الحاكمية الإلهية".

إن هذه الاعتبارات والاشتراطات كلها هي ما تضعه دعوة العمل الإسلامي نصب عينها، وهي تأمل أن تتجح في تقديم نظريتها الإسلامية ودعوتها.

المنطلق:

تأخذ دعوة العمل الإسلامي نقطة انطلاقها من واقعة هامة أثبتتها القرآن الكريم في أكثر من صورة وفي أكثر من آية. تلك هي استخلاف الله تعالى آدم على

(1) نحن نشير إلى واقعة معينة تعرضت لها الجبهة؛ عندما قدم الشيخ عبد البديع صقر رحمه الله إلى الشيخ عبد العزيز بن باز بالسعودية شكوى، يتهم فيها الجبهة بمجاوزة الحدود في بعض الاجتهادات.

الأرض وظروف وملابسات وطبيعة هذا الاستخلاف،
وما يستتبعه من نتائج.

عرضت سورة البقرة لهذه الواقعة:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً
قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ
بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

□ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ
أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ
الْحَكِيمُ ﴾

﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ
أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ
وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى
وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾

وفي سورة الأعراف، عرض القرآن نقطة سجود الملائكة
لآدم:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا
لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾
﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾

﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾
﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾
﴿ قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لأَفْعَدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾
﴿ ثُمَّ لَأَنبِتُهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾
﴿ قَالَ أَخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَّدْحُورًا لِّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

وفي سورة الإسراء جاء:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾
﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْتَسِبَنَّ نُرَيْتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾
﴿ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴾

﴿ وَاسْتَفْزَزَ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمُ
 بِخَبْرِكَ وَرَجَلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا
 يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾
 □ ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾

وفي سورة الكهف:

□ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ
 الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ
 دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾

وفي سورة طه جاء:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾
 ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾

* * * *

هذه الآيات في منتهى الأهمية والخطورة، ليس فحسب
 لأنها توضح تصوير القرآن لنشأة الحياة ومكان الإنسان فيها.
 ولكن أيضًا لأن هذا التصوير يختلف عن التصوير اليهودي
 المسيحي الذي تراه في العهد القديم والأنجيل في نقاط هامة،

تبرز تمييز الإسلام مثل استخلاف آدم⁽¹⁾، وسجود الملائكة لأدم. ورفض إبليس ذلك، أو حتى وجوده، فقد استغنى عنه بالحية. كما أن الإشارة إلى تعليم آدم الأسماء جاءت، وهي كبقية نصوص التوراة تحصره في "البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية".

لا يتسع المجال لإجراء مقارنة، لأن هذه المقارنة ستحيل موضوعنا إلى بحث أكاديمي عن مقارنة الأديان. وسيأتي هذا على حساب إبراز دعوة العمل الإسلامي.

(1) تضمنت كتب التفسير العديد من النقول والأقوال التي لا أصل لها عن قضية الاستخلاف، وهي أقرب إلى الخرافة منها إلى الحقيقة. فجاء في بعضها أن الاستخلاف إنما جاء بعد الملائكة، لأن الملائكة عاشوا على الأرض قبل آدم. وجاء في بعضها أن المقصود هو استخلاف جيل لجيل بمعنى "خلائف"، وقيل أن هناك قراءة "خليفة" بالقاف وليس بالفاء. وكلها لا تستند على أصل وأقربها إلى المعنى. وهو "خلائف" الأرض مما لا يكون للسياق معه معنى، ومن هنا فقد ضربنا صفحاً عنها، وأخذنا بما تدل عليه الألفاظ وما يؤدي إليه السياق، وهذا فيما نرى هو التفسير السليم للقرآن. أما ما عداه فهو أخذ بالرأي أو تحكيم للأقوال المظنونة في النص المحكم، والواضح الذي لا يحتاجها.

المهم أن التصوير القرآني لنشأة الحياة والإنسان الذي نجده على أتمه في سورة البقرة، ونجد إشارات عديدة إليه في السور الأخرى، يتضمن:

أن الله تعالى قرر أن يستخلف آدم وذريته على الأرض، رغم ما أشارت إليه الملائكة من إفساد وسفك الدماء..

أن الله تعالى ﴿عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ وهو تعبير يُقصد به مفاتيح المعرفة، وأن هذه الصفة هي التي تبرز تميز آدم على الملائكة.

أن الله تعالى بعد أن زوّد آدم بهذه المعرفة أمر الملائكة بالسجود له. فسجدت الملائكة كلهم إلا إبليس الذي تصوّر أنه أفضل من آدم، لأنه خلق من نار و آدم خلق من طين.

أن الله تعالى غضب على إبليس وطرده من السماء. وفي مقابل هذا جعل إبليس مهمته هي إفساد بني آدم وقد أنظره (أي مد له الأجل) حتى يوم القيامة، وسمح له باستخدام كل قوى الإغراء، وأن يعدهم مختلف الوعود.

كانت أولى صور ذلك إغراء آدم، الأمر الذي أدّى إلى نزوله الأرض؛ حيث واصل إبليس إغواءه. وأصبح استخلاف آدم على الأرض يأخذ صورة اختيار ما بين قوى المعرفة التي زوّد الله بها الإنسان والرسالات السماوية التي

أنزلها الله لتعزيز عمل هذه المعرفة، وحل ما استغلق منها..
وبين غواية إبليس وما يعرضه من فتن وشهوات وإغراءات
عادة ما تدور أحابيله فيها، حول المال والنساء والسلطان
والذات أو الأناثية!

ويقف الإنسان، الهداية على يمينه والغواية على شماله.
وعليه أن يختار بين هذين النجدين.

وهذا التصوير مليئٌ بالإحياءات والدلالات والفعالية
والديناميكية. وهو لم يرد مرة أو مرتين ولكنه جاء مرارًا
وتكرارًا. وذكر في معظم السُّور، وهو ما يؤكد أنه يمثل
التصوير القرآني للحياة. ودور الإنسان في الوجود.

واستخلصت دعوة العمل الإسلامي من هذا التصوير
الركائز الأربعة التالية، وجعلتها دعائم دعوتها:

الركيزة الأولى: كرامة الإنسان.

الركيزة الثانية: قداسة المعرفة.

الركيزة الثالثة: حرية الاختيار بين الخير والشر.

الركيزة الرابعة: أن العمل هو الذي يحكم على هذا
الاختيار ويصدق، فهو الفيصل في النهاية، وهو الذي يحدد
مصير الإنسان في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

ومن أجل هذا، ولأنه هو نتيجة وثمره الاستخلاف، فإن دعوة العمل الإسلامي حملت اسمه وأصبحت "دعوة العمل الإسلامي".

يلف هذه الركائز جميعاً ويحيط بها العدل المشتق من "الحق" الذي قامت به السموات والأرض.

يتضح من ذلك أننا نشق دعوتنا من صميم التصوير القرآني. وأننا لم نستجد تنظيراً - أو نحاول أن نلجأ إلى انتفاء مبادئ معينة، ومحاولة التلفيق بينها على غير أساس أو على أسباب الهوى، كما قد يظن البعض. إننا عمدنا إلى أقدس مقدسات الإسلام. وهو القرآن الكريم، فنقلنا منه آيات وبيانات واضحة ومكررة في أكثر من سورة، ثم أحكمنا من هذه الآيات نظريتنا، فإذا كان لنا من فضل فهو ترجمة المعاني التي تضمنتها هذه الآيات، دون تعسف من أي نوع، أو تطويع لا يسمح به المعنى. وإنما استطعنا ذلك لأننا لم ننظر في هذه الآيات بعيون الأسلاف، أو نقرأها في التفاسير أو نسمح للإسرائيليات والنقول أن تفتت على المعنى، لقد تركنا المعنى القرآني يقودنا فقادنا إلى نظريتنا.

كما يجب الإشارة أيضاً إلى أن الركائز التي استخلصناها مترابطة بعضها ببعض ترابط التكامل؛ فالعلم والمعرفة تعزز الكرامة الإنسانية.. والحرية شرط لازم لها

لا يتصور وجودها بدونها. وأن يكون العمل هو المحك
والثمرة والمعيار هو "القفلة" الطبيعية لمثل هذه الحياة، ولهذا
جاءت كل ركائز النظرية متوالية ومتتابعة في أربع آيات من
سورة البقرة، كل آية تسلم للأخرى، وترمز إلى إحدى
الركائز. فلا يتصور أن يكون فيها تنافر أو تضاد - فهذه
الآيات كالبنيان يشد بعضها بعضاً.

* * * *

الفصل الثاني

الركيزة الأولى: كرامة الإنسان

في دين يقوم على الوجدانية الخالصة، ويتمحور حول الله تعالى الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لا يلد ولا يولد ولم يكن له كفواً أحد، يكون أعظم تكريم يضيفه الله تعالى على خلق من خلقه أن يجعله "خليفة" له على الأرض.

لم يكن هناك شيء أعظم، أو أعلى من هذا، ذلك أن الإسلام لا يمكن أن يربط بين الإنسان والله تعالى برابطة بنوة، ولو على سبيل الرمز، فهذا ما لا يسمح به الإسلام، وما يخالف فلسفة فكرته عن الله تعالى.

ولم يكن الإسلام ليقول - كما قال العهد القديم "أن الله تعالى خلق الإنسان على صورته"⁽¹⁾، على صورة الله خلقه"

(1) الحديث الذي ينسبونه إلى النبي ﷺ عن أن الله تعالى خلق آدم على صورته، ورمزوا له بالصحة لم يقصد به أن الله تعالى خلق آدم على صورته تعالى. ولكن على صورة آدم التي كان عليها (وكان بالحديث أن طول آدم عندما خلقه الله تعالى ستون ذراعاً) ونقطع أن الحديث من الإسرائيليات. وأن المقصود به هو المعنى الذي في التوراة، ولكن جاءت إضافة الستين ذراعاً فأوجدت أشكالاً. وقد =

(التكوين ٢٨) أو "وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً بالخير والشر (تكوين ٢٣) فهذا لا يسمح به توحيد الإسلام وجوهر فكرته عن الله تعالى، وما قد يدفع البعض لأن يتصور تجسيماً لله - كالإنسان.

ولكن الإسلام مع هذا وضع الإنسان موضعاً يمثل أقصى درجة من درجات التكريم هو أن يكون خليفة.

وكلمة "خليفة" بالذات تستحق التأمل، فهي أعمق وأقوى في الدلالة من كلمة "نائب" أو "وكيل" وقد تعطي انطباعاً أن الله تعالى أسلم أمر الأرض للإنسان، وترك له حرية العمل على أن يحاسبه على النتائج.. وهو يتلاءم مع التصور الإسلامي للكون، والوجود، والسنن التي وضعها الله لحكم هذا الكون، والثواب والعقاب في الآخرة.

روى الحديث أبو هريرة عن همام بن منبه. وقد استشكل ابن حجر قال ابن حجر يُشكل على هذا ما يوجد الآن من آثار الأمم السابقة كديار ثمود، فإن مساكنهم تدل على أن قاماتهم لم تكن مفرطة في الطول. ولم يظهر لي ما يزيل الأشكال" (فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي ج ٣ ص ٤٤٧) وما يزيل الأشكال هو همام بن منبه - الإسرائيلي الأصل. وقد جاء الحديث في مشكاة المصابيح ولم يعلق - أو يستشكل عليه - محققه الشيخ ناصر الألباني.

ماذا يمكن للإسلام أن يفعل في تقديره كرامة الإنسان
أكثر من هذا؟..

لقد ارتأى كثير من المفكرين أن من أسباب تفضيل
الأوروبيين للمسيحية أنها كرمت الإنسان، وجعلته "ابناً لله"،
ومن الواضح بالطبع أن هذا فرض لاهوتي يعسر تفهمه في
حين أن الفرض الإسلامي أقرب إلى العقلانية في التصوير،
وفي تحقيق الكرامة. فلا يستخلف إلا من هو محل الثقة
والتكريم والإعزاز.

وهناك تفرقة أخرى بين الإسلام واليهودية والمسيحية
في هذا الصدد فالإسلام يتحدث عن استخلاف آدم على
الأرض، وعن تعليمه الأسماء كلها، وعن أمر الله تعالى
للملائكة السجود له.. كل هذا قبل أن يُزَلَّ الشيطان. ويكون
هذا هو السبب المباشر "لنزول" آدم الأرض، وليس السبب
الأصيل الذي كان في علم الله عندما قرر استخلافه بعد توبة
الله عليه. ولكن الرواية اليهودية/ المسيحية تعرض "نزول"
آدم باعتباره "السقوط" نتيجة لاستسلامه للإغراء أو بالتعبير
المسيحي "الخطيئة الأصلية"، الرواية الإسلامية ترى في
الاستخلاف تعزيزاً وتكريماً، بينما المسيحية ترى في
"السقوط" عقوبة أو تجريماً..

* * * *

ويشير القرآن إلى تكريم "بني آدم" ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي
آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ
وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ الإسراء ٧٠..

ويعطي القرآن هذا التكريم مدلولاً عملياً هو: أن الله
تعالى سخر كل ما في هذا الكون من شمس وقمر ونجوم
وسماء وأرض.. إلخ للإنسان.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ
الْأَنْهَارَ. وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ
وَالنَّهَارَ ﴾ (إبراهيم ٣٢ - ٣٣).

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ
فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الجناتية ١٣).

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن
يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾
(لقمان ٢٠).

﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ.
وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ. وَتَحْمِلُ
أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا يَشُقُّ الْأَنْفُسَ إِنَّ رَبَّكُمْ
لَرؤُوفٌ رَّحِيمٌ. وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً
وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ. وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ

شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ. هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ. يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ. وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ. وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَازِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿ (النحل ٥ - ١٤) .

فانظر إلى مدلول هذه الآيات، ومعنى "سَخَّرَ لَكُمْ" واحص كم " لَكُمْ" جاءت بآيات سورة النحل. وكيف شملت هذه الآيات تعبيرات - جمال - زينة - حلية - مما يدل على شمول تكريم الله تعالى للإنسان، وأنه لا يسد حاجاته المادية من أكل وشرب وركوب وسير. ولكن أيضا الزينة والحلية والجمال..

وتحدث القرآن عن المؤمنين حديثا يبين مدى تكريم الله تعالى لهم وفضله عليهم ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا. تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ الأحزاب ٤٣ - (٤٤).

﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (المائدة ١١٩).

﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (التوبة ١٠٠).

﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (البينة ٨)

وأشارت الأحاديث إلى أشعثٍ أُغبرٍ لو أقسم على الله لأبره، وحديثٍ قدسيٍّ "من تقرب مني شبرًا، تقربت منه ذراعًا ومن تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعًا. ومن أتاني يمشي أتيته هرولة، ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئًا لقيته بمثلها مغفرة" رواه مسلم.

وكائنًا ما كان المجاز في هذه التعبيرات وتعبير "يصلي عليكم" و "رضوا عنه" فإنها تتم عن تقدير رائع للإنسان. بل إن استخدامها مع ضرورات المجاز يترك هامشًا من المعنى الحرفي في إبراز معنى الإكرام. والحق أن هذا أحد الأدلة

على كرم الله تعالى الذي لا يُحد، ورحمته التي تفوق المدارك، فهو الخالق المنعم، يفيض على الإنسان دون حساب، ودون مقابل، لأن الحساب والمقابل إنما هي معانٍ إنسانية بحته.

مضمون هذه الآيات.

وما عبّر عنه القرآن الكريم من استخلاف لآدم وتكريم لبتّيه يستتبع أن يكون له مضامين عملية، وإلا لكان ذلك لغواً.. تعالى القرآن عن ذلك.

أ- الكرامة حقٌ إلهي:

أول هذه المضامين أن الذي قرر هذه الكرامة وأضافها على بني آدم هو الله تعالى، وما يقرره الله ويمنحه لا يمكن لأحد أن ينزعه، فالكرامة حق إلهي، لا يمكن لأي حاكم أن ينتكر لها.. وهذه الكرامة أشبه بحياة أديبة، لا يجوز لأحد المساس بها، إلا عندما يرتكب صاحبها أثاماً محددة، وكأنها في هذا تشبه الحياة المادية التي وهبها الله أيضاً للإنسان، ولا يجوز المساس بها إلا في الحالات التي حددها الله تعالى، فكأن الله تعالى حمى الحياة الأدبية للإنسان في شكل الكرامة الإنسانية، وحمى الحياة المادية له في شكل تحريم القتل. ولا

يجوز المساس بهذه أو تلك، إلا عندما يرتكب فرد ما من الجرائم ما يبرر ذلك.

ب- الكرامة لبني آدم جميعاً دون تمييز:

من الواضح بالطبع أن الكرامة الإنسانية التي أضفاها الله تعالى على الإنسان تشمل جميع بني آدم - رجالاً ونساءً دون نظر إلى لون أو جنس أو بلد.. أو ماضٍ أو مستقبل.. إن هذه الكرامة حق إلهي، لا يمكن لأي نظام أو فرد أن يُحرم الإنسان منه، أو هي بالتعبير الشائع "حق طبيعي"، وهو تعبير أن كان شائعاً، إلا أنه أقل في الدلالة من حق إلهي.

ومن هنا نعرف أن قصر الكرامة على البيض دون السود، أو الرجال دون النساء، أو الأوروبيين دون الآسيويين إلخ.. هذه التفرقات لا أصل لها، وتناقض الشمول الذي تضمنته الكرامة، كما أراده الله تعالى.

ج- كرامة الإنسان: جسداً...

ويفترض أن تغطي هذه الكرامة كل ما يتعلق بالإنسان جسداً ونفساً. فالجسد الإنساني له كرامة إذا أهدرت أهدرت كرامة الإنسان. لأن الجسد ما هو إلا الهيكل الجميل المحكم الذي خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وسواه، فعدله، وجعله في أحسن تقويم وأناط به العمل.

ويدخل في كرامة الجسد أن لا يهان بضرب أو تعذيب
أو حبس يقيد الرجلين عن الانطلاق الذي خلقهم الله له.
والجسد الإنساني ليس كجسد الحيوان. إن له حقوقاً
ومقتضيات. وقد يمكن لكل "قطة" أن تنام في صندوق قمامة.
ثم تقوم تتمطى وتلحس شعرها. فإذا هو يلعب ويبرق. وهذا لا
يصلح للإنسان. فكرامة جسد الإنسان تتطلب أن يغتسل.
وآداب الإسلام التي توجب ذلك بدءاً من الوضوء وما يتعلق
بالطهارة، حتى التخلص من الشعر الزائد في مواضع من
الجسم - هو مما لا يوجد في دين آخر، بل في أي تهذيب
آخر. ويروع الإنسان المسلم الذي يسافر إلى أوروبا وأمريكا
إهمال هؤلاء الناس لصور من النظافة والتجميل قررهما
الإسلام منذ خمسة عشر قرناً، عندما لم تكن الإمكانيات التي
وضعها العهد في أيديهم متاحة.

ولابد للجسد من أن يكتسي بلباس، وقد ينظر الإسلام
إلى الزي كما تنظر إليه بيوت الأزياء ريشاً، وجمالاً، وحلية
وهي ألفاظ قرآنية أشار إليها القرآن عند إشارته إلى الزي،
وعندما رأى الرسول أعراباً في أسمال احمرَّ وجهه - على
ما ذكرنا في موضع سابق - لأن هذا المنظر مخجل يدفع
بحمرة الخجل إلى الوجه.

ولا يحتفظ الجسد الإنساني بلياقته أو حتى بكيانه - ما لم يبسر له الغذاء المنتظم - فإذا لم يبسر له جاع. وإذا جاع لم تعد له كرامة، وقد خلق الله هذه الأرض، وقدر فيها أقواتها بما يكفي أهلها، وأوجب نظم التكافل الاقتصادي، وندد بالذين يكتزون الذهب والفضة، وجعل وجود المترفين مبرراً لتدمير المجتمعات كل هذا حرصاً منه لوفير الأمن الغذائي، لأنه بدونها لا تتوفر الكرامة الإنسانية، وأي دولة تدعى ثم لا تطبق هذا فإنها لا تفهم الإسلام.

ولما وقع الإسلام بين الضرورات التي تتطلب في بعض الحالات المساس بالجسم الإنساني، عندما يسيء فرد ما التصرف، فيسرق أو يزني إلخ.. وبين حرصه على كرامة الجسم الإنساني اضطر للأخذ بالجلد والقطع وهما معاً يهدران كرامة الجسد الإنساني. ولكنه إنما اضطر إليهما لأن البدائل عنهما أسوأ منهما. فلا جدال في أن في الجلد إهدار لكرامة الجسم الإنساني، ولكن هذه المهانة لا تطول لأكثر من ساعة. في حين أن السجن يتضمن صوراً متعددة من إهدار كرامة الجسم لسنوات طوال.

ومع هذا، فإن الإسلام رغم أخذه بالعقوبات البدنية احتفظ بمنطقة من الجسم، لا يجوز المساس بها، تلك هي الوجه. وهو اسمي وأجمل ما في الجسم الإنساني.

وقد حرمت الأحاديث تحريمًا باتًا لطم الوجه، وعندما لطم أحد أبناء مقرن (وهم ثمانية من رجالات الإسلام) جارية له، أمره الرسول بعقتها، وعندما اعتذر عن ذلك، وتعلل بشدة حاجتهم إليها، قال الرسول " فلتخدمهم حتى يستغنوا عنها، فإذا استغنوا عنها فليعتقوها".

وليس معنى تحريم الأحاديث لطم الوجه أن الإسلام لم يحرم الضرب مطلقًا، إن المبدأ هو التحريم، والاستثناء يكون لأسباب، وفي حدود وبضمانات حددها الإسلام لأن الضرب هو أكثر الوسائل بدائية وشيوعًا لإهدار كرامة الإنسان. ولما كان عادة يمارس بحكم الولاية فقد حرّمه الإسلام من المنبع. فأكثر هذه المنابع هو ما يتعلق بسلطة الحاكم على المحكومين. وقد وضّح عمر بن الخطاب أمام الناس بصريح العبارة: "إننا لا نرسل عمالنا ليضربوا أبشاركم ولكن ليعلموكم دينكم..". وأعلن أنه سيقنص من كل وال يضرب أحد الرعية، وعندما قال له عمرو بن العاص "يا أمير المؤمنين أرايت إن أدبَ الأمير رجلاً من رعيته أتقصه منه؟" فقال عمر: "ومالي لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله يقص من نفسه..". وهذا ما حدث فعلاً بالنسبة لعمرو بن العاص وابنه في القصة المشهورة.

فإذا قال أحدٌ ليس هذا هو ما نعرفه عن الإسلام، أو أن الإمام مالك أجاز الضرب للإقرار إلخ.. فنحن نقول: هذا هو إسلام القرآن وإسلام محمد.. فخذ أو دع.

وبعد ولاية الحاكم على الرعية تأتي ولاية السيد على خدَمِهِ. ومرة أخرى نرى الرسول يجعل العتق كفارة هذا الضرب في الحديث المشهور عن أبي مسعود البدري عندما كان يضرب غلامه بالسوط فقال له الرسول ﷺ: "أعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك، منه عليك على هذا الغلام" فقلت هو حرٌّ يا رسول الله.. فقال ﷺ: أما لو لم تفعل للفتحك النار أو "المستك النار" والأحاديث مترادفة في هذا المعنى. ومترادفة في عتق الذين ضربوا من الغلمان.

ولم يكن الضرب وقتنئذ بتلك الأسواط التي تشق الجلد. لا في الحدود أو في غيرها. وإنما كانت بأسواط بدائية. وأشار حديث نبوي إلى ضرب "بالسَّوَاك!"

قد يثار هنا تأديب الزوجة والولد.. والرد أن الأصل في التأديب أن لا يكون بالضرب. وإن الضرب إنما يمثل الاستثناء. وفي هذه الحدود العائلية الخاصة، والأفضل والأمثل أن نسلك مسلك الرسول فلم يرو عن الرسول ﷺ أنه ضرب خادماً أبداً ومن باب أولى إحدى زوجاته - وكن في بعض الحالات يغازبه، والنهي عن الضرب هو أيضاً من السماح به، فلا يحتج به، وقد قال رسول الله ﷺ "لا تضربوا إماء الله" فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال ذنن (1) النساء

(1) أي اجترأ وغلبن. والحديث رواه أبو داود وابن ماجه والدرامي (مشكاة المصابيح، ص ٩٧٣ حديث (٣٢٦١).

على أزواجهن، فرخص في ضربهم. فأطاف بالرسول نساء كثير يشكون أزواجهن فقال رسول الله ﷺ لقد طاف بآل محمد نساء كثير يشكون أزواجهن، ليس أولئك بخياركم" فقضية الضرب ليست أمراً مسلماً به، ولا هو مطلق.

ولا يكون من قبيل الاستطراد - ما دمنا بصدد كرامة الجسم الإنساني الإشارة إلى الأحاديث المتكررة التي توجب إحسان معاملة الأرقاء والخدم، وأن يأكلوا ويلبسوا مما يأكل ويلبس سادتهم⁽¹⁾.

ح- كرامة الإنسان نفساً:

وكرامة الإنسان كنفس لا تقل عن كرامته كجسد. بل لعلها أهم. والواقع أن القرآن الكريم يتكلم عن الإنسان باعتباره نفساً ليشمل الجانبين.

وكرامة الإنسان - كنفس - تشمل كل الجوانب الأدبية والنفسية والفكرية. فالإنسان يملك ما لا يملكه مخلوق آخر

(1) بل الحرص على "الكرامة" يمتد ليشمل الحيوان أيضاً فتحرير لطم الوجه في الإنسان يقابله تحريم الوسم في الوجه للحيوان. وتحرير الإرهاق واحد بالنسبة للإنسان والحيوان. وتحرير التعذيب يشمل الإنسان بحيث لا يجوز قصاصاً، ويضم الحيوان الكلب العقور، لأن هذه المبادئ وضعها الله تعالى رب هذا الكون بأسره من إنسان وحيوان. فهي أوسع وأشمل من الإطار الإنساني. كما أنها أكثر قداسة.

إنه يملك إرادةً وفكرًا، واحترامهما هو ما يعني كرامة الإنسان كنفس.

فيفترض أولاً أن يعامل الإنسان معاملة "أدبية" مهذبة كريمة، فلا يخاطب باسمه المجرد بل بلقبه أو كنيته، ومن باب أولى أن لا يشتم أو ينبذ بالألقاب، وعندما قال عمرو بن العاص لأحد الناس "يا منافق" رفع الأمر إلى عمر بن الخطاب الذي أوجب عليه حدًا..، وأن لا يروع، ولو هزلاً، وأن لا يُساء الظن به، أو تستقصي عوراته وعثراته، وأن لا يتجسس عليه، أو يوشى به، أو يكون موضوعاً لنميمة ﴿أُحِبُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾.

والنفس الإنسانية إرادة وفكر، وكرامتها تكون بتحقيق الحرية لهما. والبعد عن كل صور الإكراه والتقييد والضغوط - ويدخل في هذا حرية الفكر والاعتقاد. فكل نفس - من ذكر وأنثى - يجب أن تحترم إرادتها. ما لم توقع شرًا ملموسًا بأحد، أو تنتهك إيجابيًا إرادة آخر، ويجب الابتعاد عن التحكم في إرادات الناس وأفكارهم. وسيأتي الحديث عن هذا في الحديث عن الركيزة الثالثة من ركائز دعوة العمل الإسلامي وهي الحرية. لأن ركائز الدعوة متكاملة، وهذا الجانب يتصل بالحرية بسبب وثيق.

وتنسحب كرامة الإنسان جسداً ونفساً على بيته فيكون في حماية الستار فلا يجوز اقتحاماً أو الافتيات على خصوصيته. وما دام باب البيت مغلقاً، فلا يجوز لسلطة أن تقتحمه حتى وإن ارتكبت وراءه المنكرات، ما لم يدل على ذلك أثر يجاوز البيت إلى الخارج كارتفاع صوت (صراخ، شتائم، إلخ..). أو نفاذ رائحة.. والبيت في الإسلام هو قلعة المسلم أكثر مما هو في أي بلد آخر، لأنه في حماية الستار، الذي هو أقوى وأمنع من الدستور أو القانون.

* * * *

عندما قال الفيلسوف كانط: "إن الإنسان غاية في ذاته" اعتبر ذلك أفضل صياغة تعبر بها الحضارة الأوروبية عن "مبدئية" الإنسان، ولكن القرآن الكريم كان قد سبق إلى هذا عندما قال.. ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ فإن هذه الآيات تتضمن تقديساً لحياة الفرد على أساس مبدئي وعام.

ولقد كان يفترض - والاستخلاف يتضمن - بدهاء الكرامة. والآيات القرآنية عديدة عنها، أن يكون هذا المبدأ من المبادئ الشائعة في الفكر الإسلامي.

ولكن هذا المبدأ لم يجذب انتباه المفكرين الإسلاميين بالدرجة الواجبة، وأهدر معناه خلال النقاسير المقحمة على الآيات. بحيث لم يرتبوا على الاستخلاف ما يستتبعه..، بل أساء معظمهم لهم.

وقد يصور ذلك ما كتبه العلامة المودودي، عندما مسخ معنى الاستخلاف ليتفق مع فكرته المحورية عن "عبودية الإنسان" فقال:

".. فمنزلة الإنسان في هذا الكون من الوجهة الإسلامية أنه خليفة الله. أي نائب عنه في مملكته، لا يتصرف فيها إلا طبقاً لحق الاستخلاف والتصرف الذي وهبه الله إياه..

ثم يمضي فيقول:

.. أو لا ترى أنك إذا وكلت إلى أحد أمر ضيعتك وجعلته نائباً عنك فيها، تكون واثقاً من نفسك بأربعة أمور.. أولاً: أنك أنت صاحب الضيعة ومالكها الحقيقي، لا هذا الذي وكلت إليه أمرها.. ثانياً: أنه يجب على هذا الرجل أن يتصرف في ملكك حسب ما أمرته به أنت وأرشدته إليه. ثالثاً: أنه لا ينبغي له أن يشق عصا طاعتك، ويتعدى الحدود

التي أقمت له ولعمله. رابعاً: أن من واجبه في هذه الضيعة أن يقضي فيها ما تريد قضاءه أنت، لا ما يريد هو نفسه⁽¹⁾. والخطأ في هذا هو ما أشرنا إليه، عندما عرضنا لأسلوب المودودي في ضرب الأمثال. فالمودودي يقيس الله تعالى على الكائن الإنساني. ويتصور أن الله تعالى يريد ويتصرف كما يتصرف آحاد الناس. تعالى الله عن ذلك. وحتى بالنسبة لآحاد الناس، فإن الرئيس الذي لديه الملكة الإدارية يحسن انتخاب خلفائه، ثم يدع لهم الحرية في العمل، ويحاسبهم في النهاية. وقد يكون ظلوماً غشوماً مثل محمد علي باشا، ولكنه يكون من الذكاء؛ بحيث يقول لأعضاء مجلس الشورى بعد أن منَّ عليهم بأنه هو الذي علمهم وأنشأهم.. حتى إذا كنت أمر أحدكم شفاهاً أو تحريراً بقولي له أجر المادة الفلانية بهذه الصورة، وحصل منه اعتراضٌ عليّ، وذكرني وأفادني شفاهاً أو تحريراً، بأن المادة المذكورة مُضرةٌ، فهذا يكون منه عين ممنونيتي الزائدة.. فهذا الكلام قيل من أكثر من مائة عام ومن حاكم عسكري، ومع هذا فإنه

(1) نظام الحياة في الإسلام - للمودودي - الطبعة الخامسة - الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات - الطلابية (٢) انظر كتابنا "العمل الإسلامي لإرساء سيادة الشعب والحكم الدستوري" ص ٧٥.

يعلم أن التضييق على المستشارين والمندوبين إلخ.. يحول دون انطلاق مبادئهم الخالقة لتحقيق أفضل النتائج.

فما أورده المودودي خطأ في حق الله تعالى، وخطأ بالنسبة لكبار الإداريين. وهو يمثل نفسية عتيقة تمتلكها الغيرة وتحوطها الظنون والشكوك، نفسية تاجر رقيق أو فلاح ضيق الأفق.

ومع هذا فإن المودودي في كلامه هذا يمثل الاتجاه الإسلامي السائد. الذي قضى على الكرامة الإنسانية، وقضى على الحرية والإرادة، والعزة. ومكّن الآخرين من السيطرة على المسلمين، واستعبادهم و "من يهن يسهل الهوان عليه".

* * * *

الفصل الثالث

الركيزة الثانية: قداسة العلم

رأينا في التصوير القرآني الذي قدمته سورة البقرة لقصة الحياة الإنسانية. السياق الذي أخذته الآيات. فبعد تقرير الله تعالى استخلاف آدم، وبعد دهشة الملائكة لما تتسمته في بني آدم من ميل للفساد وسفك الدماء، يحدث شيء عبرت عنه الآيات:

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .
﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾

فالسباق هنا يبرز أن الله تعالى لما علم آدم الأسماء كلها، ولما عجزت الملائكة أن تجاربه أمر الملائكة أن تسجد لآدم. والربط ما بين تعلم الأسماء والسجود هو ما يحكمه

السياق. فضلاً عن أننا لا نجد ميزة أخرى للإنسان على الملائكة أو الشياطين. فإنه من طين. أكتف من الملائكة المخلوقة من نور، أو الشياطين المخلوقة من نار.. أما نفثة الحياة، فإن الله تعالى نفثها في كل مخلوقاته الحية. ففيما نرى أن مبرر السجود هو تمييز آدم بما علمه الله. وهذا ما يعطي العلم قداسة لا تعلوها قداسة أخرى، لأن السجود عادة لا يكون إلا الله تعالى⁽¹⁾.

وقد يثور تساؤل حول استخلاصنا لكلمة العلم من التعبير القرآني "وعلم آدم الأسماء كلها" وما قد يذكره بعض

(1) من النقط الهامة التي تبرز تمييز الإسلام عن المسيحية واليهودية أن العهد القديم يذكر أن الشجرة المحرمة هي شجرة "المعرفة" بينما يذكر القرآن أنها شجرة "الخلد" وهذا ما يتفق مع ما سبق من أن الله تعالى علم آدم الأسماء كلها فليس هو في حاجة إلى شجرة المعرفة، ولا في المساس بها شي يثير غضب الله تعالى أما "الخلد" فالأمر مختلف لأن الخلد معناه أن يحيا فلا يموت. وهذا يخالف ما وضعه الله للإنسان، وبقية الكائنات أيضا من سنة الموت كجزء لا يتجزأ من آيات الحياة. فضلا عن أن الحرص على الخلد فيه تشبث بالمضمون الذاتي. والإسلام يؤثر دائما المضمون الموضوعي. وإنما كانت سقطة الشيطان الكبرى هي أنه قال "أنا" خير منه ..

المفسرين "أو ما ذكرته بالفعل التوراة" (1) أو ما يوحي به المعنى الحرفي ولكن التقصي يثبت لنا أن ما اخترناه هو التفسير الحقيقي لما أراده القرآن. فلا معنى لأن نقول أن الله تعالى علّم آدم أسماء الحيوانات، والنبات، والبلاد فقال له "هذا أسد وهذا ثعلب وهذا تفاح، وهذا عنب إلخ.. فضلاً عن أن كلمة "كلها" تفترض أن يعلمه الله تعالى كل الأسماء بما فيها من أسماء صواريخ وطائرات ودبابات. وما سيأتي به المستقبل مما نجهله نحن الآن. ومجرد المعرفة للأسماء لا معنى له إذا لم يتضمن دلالة هذه المعرفة. فالتعبير في نظرنا لا يحتمل إلا معنى واحداً هو مفاتيح المعرفة وعناوينها، باختصار العلم. واستخدام القرآن الكريم للكناية والمجاز أمر معروف يتفق مع أسلوب القرآن في تفضيله لهما على التحديد القاطع، لأنهما أكثر إثارة للنفس من ناحية، ولأنهما يحولان دون إغلاق الموضوع واعتباره منتهياً. إن القرآن يريد دائماً للعقول أن تسرح في معانيه، ويريد لمعانيه أن تكون مجالاً لهذا السرح والفكر، لأنه لكل الناس ولكل العصور.

* * * *

(1) ت

ومن ناحية أخرى لا يمكن أن يقال أننا نقطع ثلاث أو أربع آيات لنقيم عليها دعوى عريضة، أو صرحاً ممرداً. الأمر ليس كذلك لأن القرآن الكريم تضمن مئات الآيات التي تتم عن قداسة العلم، وترفعه عاليًا، وتربط بينه وبين الإيمان، وتربط بينه وبين الإيمان. وهناك العشرات من الأحاديث النبوية التي تفضل العلم على العبادة. وعندما يكون الأمر أمر مئات من الآيات وعشرات من الأحاديث في معنى واحد فإن الأمر يخرج عن صفة الإمام الطارئ أو الظاهرة العارضة، إلى الركيزة الدائمة المقررة. كما لا يمكن أن نهمل دلالة أن تكون أولى آيات القرآن الكريم وتوجيهاته هي اقرأ:

﴿ اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ. ﴾

ومن الآيات التي توضح أهمية العلم وأنه طريق الإيمان:

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (آل عمران ٧).

فإذا عطفنا " والراسخون في العلم " على الله تعالى فكأننا
 رفعنا العلماء إلى مستوى واحد مع الله تعالى في هذه
 الناحية.. ونحن نؤثر الفصل، ويكون معنى الآية أن
 الراسخين في العلم يقولون آما به إلخ.. فالرسوخ في العلم
 حمل أصحابه على الإيمان به. وهذا أمر طبيعي. لأن العلم
 يبصر الإنسان بإعجاز الله تعالى، ومن ثم يسلم العالم له..

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا
 بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١٨ آل عمران)

فانظر كيف جمعت الآية بين الله تعالى والملائكة وأولي
 العلم.. في أمر من خاصة الإيمان..

﴿.. لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ
 بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ
 الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا
 عَظِيمًا ﴾

﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ
 الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (٦ سبأ)

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ
 مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا
 وَغَرَابِيبُ سُودٌ. وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ
 كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾

وهناك ٨٥ آية جاء فيها كلها فعل "يعلمون" بمعنى أن الذين يعلمون هم الذين يسيغون الإيمان ويفقهون الدين، وأن "الذين لا يعلمون" لا يستطيعون ذلك. ويسلك بهم عدم علمك مسالك الضلال أو المقاومة. ولو كانوا "يعلمون" لآمنوا ولجنّبوا أنفسهم الضلال والعذاب.

وقد ذهب الإمام أبو حامد الغزالي إلى أن كل الآيات التي جاءت في القرآن بمعنى إخراج الناس من الظلمات إلى النور هي بمعنى إخراجهم من الجهل إلى العلم.

وقد يقال إن العلم هنا هو العلم بالدين، وليس العلم بالجغرافيا والهندسة إلخ.. والرد أنه حتى لو كان الأمر كذلك فنحن نقبله، لأن المسلمين إنما أوتوا من جهلهم بدينهم، ولو علموه حقاً لعلموا أنه يقول على أعمال الفكر، وتوظيف الأبصار والأقدام للاعتبار بآيات الله ومشاهد خلقه وتراث الأولين إلخ.. ولو علموا هذا لتقدموا.. ولأقبلوا على دراسة الجغرافيا والهندسة إلخ.. لأنها كلها من آيات الله، ولهذا فإن الآية ٢٨ من سورة فاطر، جعلت "الكون" سواء في الثمرات، أو الجبال، أو الناس أو الدواب من آيات الله التي تستحق العلم والمعرفة، وتؤدي إلى الإيمان.

وليست الآيات التي سقناها عن العلم هي الآيات الوحيدة عن العلم والمعرفة، لأن هناك آيات بالمئات تشير إلى التدبر

والتفكير والاعتبار والاتعاظ واستخدام العقل، وهي كلها "أدوات" العلم ووسائله.. وكلها تؤدي إلى معنى واحد: إعمال العقل هو سبيل الإيمان.

ومما يتفق مع هذا أيضًا أن الإسلام، لما كان هو الذي يؤذن بالعقل، والذي يقدم العقلانية إلى الناس جميعًا بالأسلوب الذي يسيغه الناس، وليس بأسلوب الفلاسفة المتعمق الذي يشق على الناس فهمه - فإنه جعل معجزته "كتابًا" يتلى، ورفض مطالب العرب من الرسول ﷺ أن يأتي بمعجزة، أو تكون له جنة، أو ينزل ملائكة من السماء.. إلخ.. رفض الإسلام هذا كله وردَّ عليهم.. ﴿أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ..﴾ (العنكبوت ٥١).

* * * *

إن واقعة سجود الملائكة لآدم إثر تعلمه الأسماء..
والآيات العديدة عن العلم والعقل والتدبر والتفكير..
وأن أول آية استُهل بها القرآن كانت "اقرأ".
وجعل المعجزة الإسلامية كتابًا يتلى..
والأحاديث العديدة عن تمجيد العلم وفضل العالم على العابد.
كل هذا أليس كافيًا لتأكيد قداسة العلم والأهمية القصوى
للمعرفة..؟؟

ماذا كان يمكن أن يفعل الإسلام أكثر من هذا..؟؟
والمضمون العملي لهذه الآيات والأحاديث عن قداسة العلم
والمعرفة أن يكون الإمام بالعلم — كل صنوف العلم —
واجبًا على الإنسان المسلم.. وواجبًا على المجتمع المسلم
وواجبًا على الحكومة المسلمة.

لقد فهم المسلمون ذلك في أيامهم الأولى، وليس هناك ما
يشبه ذلك الإقبال على العلوم والمعارف في القرون الثلاثة
الأولى للإسلام التي أنجبت عباقرة الفكر في الفلسفة،
والأدب، والفقهاء، والهندسة، والطب، أو حركة الترجمة أيام
المأمون..

يكفي أن نعلم.. أن علم العلماء المسلمين كان هو
الأساس الذي قامت عليه حركة "الإحياء" في أوروبا في القرن
الخامس عشر..

* * * *

قد نفهم أن عوامل التحلل التي أصابت المجتمعات
الإسلامية أدت إلى شيوع الجهالة والامية..

ولكننا لا نفهم "سلبية" الدعوات الإسلامية إزاء واجبها
المقدس نحو الثقافة والمعرفة.. فالمفروض أنها كدعوات،
وأن دعواتها كرواد، يعلمون ما لا يعلمه عامة الجماهير..

إن أية دعوة إسلامية لا تضع العلم في صدارة اهتماماتها وألوياتها، أو لا تُقيم منه ركيزة من ركائزها، أو لا تجعل من الحث عليه (تعلم.. تعلم.. تعلم) شعاراً لها. مثل هذه الدعوة تكون قد ظلمت نفسها، وظلمت جمهورها.. وظلمت الإسلام.

في مصر مثلاً كانت الهيئة الوحيدة في الأربعينيات التي تستطيع محو أمية الشعب هي "الأخوان المسلمون"، لأنها هي التي تغلغت في أعماق الريف واكتسبت إيمان الفلاح، وجعلت الشيخ الصعيدي يلبس "الشورت" ويلعب "سويدي" ولو أنها نفضت يديها من كل شيء، وركزت جهودها لمحو أمية الشعب المصري.. لحققت شيئاً رائعاً، وكسبت أروع وأنبى ذكرى يمكن أن تُذكر عن هيئةٍ ما..

ولكن هذا لم يحدث لأن الإيمان بقداسة العلم لم يصل لدى الأخوان إلى الدرجة المطلوبة..

وليس الأخوان بدعاً في الهيئات الإسلامية، فما من دعوة توصلت إلى هذه الصلة الوثيقة ما بين الإسلام من ناحية والعلم من ناحية أخرى، أو تنبتهت إلى ما يعنيه سجد الملائكة لآدم، إثر تعلمه الأسماء كلها، أو الربط ما بين تعلم الأسماء.. والسجود..

* * * *

إن دعوة العمل الإسلامي تؤمن بالعلم وتؤمن أنه "تراث محمد" الذي غفل عنه المسلمون، وتنبه له الأوروبيون فبنوا عليه مجدهم..

إن العلم اليوم هو مصدر الثروة، ومصدر القوة.. كما أنه أحد مصادر العزة..

العلم هو مصدر الثروة.. لأن كل ثروة العصر الحديث إنما هي ثمرة لتطبيق العلم على العمل، الاختراع والكشف والبحوث على تربة الأرض، وهوائها وجبالها، على الحبوب وعلى لقاح الحيوان، وعلى عناصر الكون من كربون أو أكسجين..

في القرن الثامن عشر كانت أفكار استخدام طاقة وصنع آلات معدنية موجودة في فرنسا قبل بريطانيا، ولكن الفرنسيين كانوا وقتئذ ينظرون إليها كطُرفٍ وعجائب. أو "ألعاب" للكبار كألعاب الصغار. ولكنهم في بريطانيا طبقوها على صناعة الغزل والنسيج - فكان ذلك بداية الثورة الصناعية التي مهدت بعد ذلك للثورة الكهربائية، وثورات الذرة والإليكترون والكومبيوتر والترانزستور والليزر إلخ..

الصناعات كلها، والزراعات كلها، وسائل الانتقال والخدمات كلها.. من ثمار العلم.. وقد أصبح الآن من الممكن بفضل العلم أن نصنع أي شيء من أي شيء.. من

الكربون.. حريقاً ومن البترول لحوماً وهلم جرا.. لأن العلم أوجد "الإكسير" الذي يحوّل الرصاص إلى ذهب وأفنى القدماء أعمارهم فيه..

لقد سخر العلم للإنسان "بساط الريح" وجعل صواريخه تجاوز الجاذبية الأرضية، وتسبح في الفضاء العميق، وجعل له مرده كمرده الجان، تقيم الصروح الممردة وتذيب الحديد وتدفع إلى البحر بالمنشآت.. كالأعلام، كأنها قطع الجبال.. أصبح العلم يضاعف الثمار النباتية، ويحسن السلالات الحيوانية ويخصب التربة.

باختصار أصبح العلم مصدر الثروة.. وانظر إلى اليابان التي هزمت في الحرب.. فانتصرت في السلم بالعلم، وأصبحت أغنى دولة في العالم.

أما أنّ العلم هو مصدر القوة فمنذ أن اخترع العلم "الطاقة" البخارية، وقد أصبح مصدر القوة Power وهذا هو مارّد به جيمس وات على ملك إنجلترا، عندما زار "ورشته" وسأله ماذا يصنع..؟! فقال جيمس وات: إننا نصنع يا مولاي ما يريده العالم أجمع: نصنع القوة! وقد كان هذا الاختراع بدائياً فطرياً.. وقد تقدم الآن بصنع الصواريخ والديابات والطائرات التي تصور كل شيء والقنابل الذرية إلخ.. فكل الأسلحة والذخائر ومعدات القتال هي ثمرة من ثمرات العلم..

والعلم أيضًا هو أحد مصادر الكرامة لأن العلم يضفي على صاحبه سمًا وكرامة، ولأنه يجعله أهدى سبيلًا وأصدق حكمًا، وأبعد عن التأثر بالخرافات. وقد كان يكفي أن يكون شخص ما من حملة القرآن العظيم أو من حفظته ليكون محلاً للإكرام ومستحقاً لمزايا..

وهكذا نرى العلم مصدرًا للثروة وللقوة وللكرامة. إن الله تعالى لم يكن ليجعل الملائكة تسجد لمن علمه الأسماء كلها.. عبثًا، لقد كان سبحانه وتعالى - يعلم منزلة العلم وما أودعه في من قوى ومزايا.

* * * *

إن دعوة العمل الإسلامي، تؤمن بالعلم هداية للعمل.. وتدعو من لم يكن متعلمًا إلى أن يتعلم، ومن كان متعلمًا إلى أن يزداد علمًا ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ تدعو من يلم بلغة واحدة.. ومهارة واحدة إلى أن يعلم لغة أخرى.. أو ثلاثة.. ومهارة ثانية أو ثالثة، أن العلم كالبحر مهما تأخذ منه فإنه لا ينفد، ومهما تطلب منه لا يرفض.. ولا يطلب مقابلًا.

إن دعوة العمل الإسلامي تدعو للعلم المفتوح الذي لا يعرف أسوارًا ولا حدودًا ولا يشترط شهادات، ولا يأبه بالخانات أو الدرجات.. وتقدمه معاهد وجماعات حرة مفتوحة.

إن دعوة العمل الإسلامي تؤمن بالتدريب المهني
المفتوح أمام العمال، ليجعل من النابهين منهم مهندسين
ومديرين، وأبطالاً في مجال الإنتاج الصناعية، فينهضون
بأنفسهم وبلادهم..

إن دعوة العمل الإسلامي تدعو النساء بوجه خاص إلى
أن يتعلمن في كل ما يتجاوب مع قابلياتهن، فإذا كان الله
تعالى قد وضع في بعضهن ملكة، وموهبة للهندسة أو
الرياضة أو الآداب أو الفنون.. فمن هو ذا الذي يئد هذه
الموهبة، ويمارس في العصر الحديث ما كان يمارسه
الأعراب في الجاهلية.

إن دعوة العمل الإسلامي تدعو للكتاب.. تدعو للمطبعة
تدعو أجهزة الإذاعة والتلفزيون لتكف عن إذاعة التفاهات
وإشاعة الفاحشات.. ولتقوم بدور في التنقيف والتعلم.

إن دعوة العمل الإسلامي تدعو لإشاعة الفنون والآداب
وترى فيها زينة الحياة الدنيا وأحد علامات التدوق النفسي
والتميز الإنساني.

إن دعوة العمل الإسلامي تؤمن بالعقل، ولكل ما يهدي
إليه العقل، ولا ترى حدًا يقف عنده إلا الذات الإلهية.. وما
وراء الغيب..

إن دعوة العمل الإسلامي ترى أنه إذا كانت الدعوة لرغيف العيش مقدسة، وإذا كانت الدعوة للانتظام في صفوف الصلاة فريضة، فإن الدعوة للعلم وللكتاب لا تقل عن هذين، فكيف ندعو للبطن ولا ندعو للعقول.

إن دعوة العمل الإسلامي تدعو الهيئات الإسلامية التي تؤمن بالجهاد.. إلى أن تتعلم، لأن العلم هو وسيلة الجهاد، وهو الذي يضع في أيديها السلاح الذي يكفل لها المنعة في الداخل والانتصار في الخارج، وبدونه سيكونون عبيدًا للكفرة، ينظفون لهم مآولهم ويغسلون كؤوس خمرهم وأطباق خنزيرهم..

إن دعوة العمل الإسلامي تؤمن أن الشعب القوي الذي يعرف حقه فيطالب به واجبه فيؤديه، ويتصدى لحكامه هو الشعب المتعلم، أما الشعب الأمي الجاهل فما أسهل أن يخدعه الحاكم بمعسول القول:

ويدلون إذا أريد قيادهم كالبهم تأنس إذ ترى التدليلا

ثم يتحكم بعد ذلك فيهم كما يشاء.

إن دعوة العمل الإسلامي لا تتأثر بدعاوي "الغزو الثقافي" لأنها ترى أن المعرفة والعلوم إرث حضاري للبشرية كلها، دون تمييز أو حساسية، أسهم فيه المصريون القدماء واليونان، وقدّم المسلمون فيه إضافتهم المميزة

والإسلام بعيد عن مشاعر الدونية أو الاستعلاء أو الانغلاق.
إنه الحكمة والعدل مع الأصدقاء والأعداء ونحن بعد لنا
عقول.. نأخذ في ضوئها ما نشاء، وندع في ضوئها ما لا
نريد.. ولكننا نرفض كل دعوة للانغلاق أو لفرض وصاية
على العلم والثقافة والمعرفة.

وأخيرًا، فإن دعوة العمل الإسلامي تجعل من شعاراتها
الأثيرة "تعلم.. تعلم.. تعلم.. تعلم من المهد إلى اللحد.."

* * * *

الفصل الرابع

الركيزة الثالثة: الحرية

أعطتنا الآيات التي استشهدنا بها من سورة البقرة ركيزتين من ركائز دعوة العمل الإسلامي، هما الكرامة الإنسانية المتأتية من استخلاف الله تعالى الإنسان على الأرض. وقداسة العلم التي جعلت الملائكة تسجد لمن علمه الله الأسماء كلها: آدم.. ويمكن للآيات التي أعقبت الآيات التي استشهدنا بها من سورة البقرة أن توصلنا للركيزة الثالثة. ولكنها تشير إليها في اقتضاب. ومن هنا سنشير إلى آيات من سور أخرى تقدم لنا بنوع من التفصيل الركيزة الثالثة..

فهذه الآيات من سورة الأعراف تعرض بقية مشاهد ظهور الحياة الإنسانية، بعد أن تمرد إبليس على أمر الله تعالى، وما أعقب هذا:

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ (١٢)

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ (١٣)

﴿ قَالَ انظُرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (١٤)

﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ (١٥)

﴿ قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

(١٦)

﴿ ثُمَّ لَأَنبِئَهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ

وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ (١٧)

﴿ قَالَ أَخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَّدْحُورًا لَّمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١٨)

وفي سورة الإسراء يعرض القرآن هذا المشهد:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ

أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ (٦١)

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لِنِئْنِ أَخْرَتِنِ إِلَى يَوْمِ

الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٦٢)

﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً

مَوْفُورًا ﴾ (٦٣)

﴿ وَاسْتَفْزَزَ مِنْهُمُ ابْنُ مَرْيَمَ يَدْعُهُمْ إِلَى تَعْبَادِهِمْ وَإِلَى جَبَلٍ عَلَيْهِمْ

بِخَبْرِكَ وَرَجَلِكَ وَشَرِكُكُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْتُمْ وَمَا

يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (٦٤)

﴿ إِنَّ عِدَايَ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ (٦٥)

ومرة ثالثة يكرر القرآن الصورة نفسها في سورة الحجر:

﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ (٣٢)
﴿ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ
مَسْنُونٍ ﴾ (٣٣)

﴿ قَالَ فَاحْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ (٣٤)
﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (٣٥)
﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴾ (٣٦)
﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ (٣٧)
﴿ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ (٣٨)
﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ
وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٣٩)
﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٤٠)

في سورة ص:

﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي
أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ (٧٥)
﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ (٧٦)
﴿ قَالَ فَاحْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ (٧٧)
﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (٧٨)
﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴾ (٧٩)

﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ (٨٠)

﴿ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ (٨١)

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٨٢)

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٨٣)

إن هذه الآيات المترادفة من سور متنوعة بمعنى واحد، بل وبألفاظ تكاد تكون واحدة، تبرز عددًا من الوقائع على أعظم جانب من الأهمية، سواء بمعناها المجرد، أو بما يمكن أن يستخلص منها.

* * * *

فنحن نرى إبليس يتمرد، ويرفض إطاعة الأمر الإلهي لسبب معين، هو أنه يرى نفسه أفضل من آدم فقد خلقه الله من نار.. وخلق آدم من طين..

إننا نشهد للمرة الأولى "أنا" تظهر، وتؤدي بصاحبها إلى المنطق الذاتي، فيرى نفسه أفضل من غيره، لأنه من نار.. ولأن غيره من طين.. وسيأتي بعده كثيرون يرون أنفسهم أفضل من غيرهم لمجرد أنهم ولدوا في القصور، بينما ولد غيرهم في الأكواخ.

وهذا الدرس له أهميته في السلوك الإنساني، ويقدم مفتاح معظم الانحرافات، ولكنه ليس هو الذي يهمننا في السياق..

الذي يهمننا في السياق أن الله تعالى طرد إبليس من الجنة مذمومًا، مدحورًا، فأراد أن يثأر لنفسه من عدوه آدم وبنيه - وطلب أن ينظره - أي أن يسمح له بالبقاء إلى يوم القيامة، وأجابه الله تعالى إلى هذا، بل وسمح له بمشاركة الإنسان في الأموال والأولاد، وأن يستفز منهم من يشاء، ويجلب عليهم بخيله ورجله.. ويعدهم إلخ.. كما رأينا في الآيات.

في الوقت نفسه. فإن الله تعالى لا يدع الإنسان فريسة سهلة لإغراء الشيطان، إنه أولاً زوده بالعلم، والمعرفة، ثم هو أيضًا يرسل رسله وينزل كتبه لهداية الإنسان: "إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ، إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ..".

إننا لا نجد مثيلاً لهذا "الإخراج" و "الحبكة" في إقامة الحياة الإنسانية، وجعلها مسرحًا تؤدي عليه رواية الحياة.. بكل دراماتيكية، وديناميكية.. وحيوية.. وانتصار.. وهزيمة.

فنحن نرى الإنسان وعلى يمينه العلم والمعرفة، وهداية الرسائل السماوية والكتب المنزلة، والفطرة السليمة التي فطر الله عليها الإنسان، والأمانة التي نزلت في جذر قلبه.. وعلى يساره نجد غواية الشياطين من مال.. وجاه وشهوات وسلطان، وكل ما يمكن أن تثيره في النفس "الأنانيات" التي

هي في الأصل إثاره الشيطان، والتي تسرى في الإنسان مسرى الدم..

ويظل الإنسان حرًا.. مختارًا:

﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ﴾ (٢٩ الكهف)

﴿وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ (٢٩ الكهف)

﴿مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ (١٥ الإسراء)

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ (١٨ الإسراء)

﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ (١٩ الإسراء)

﴿كَلَّا نُمِدُّ هُوَآءًا وَهَؤُلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (٢٠ الإسراء)

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ (٤)

﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَانْتَقَىٰ﴾ (٥)

﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ (٦)

﴿فَسُنِّيئِرُهُ لِيُسْرَىٰ﴾ (٧)

﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ﴾ (٨)

﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ (٩)

﴿ فَسَنِيِّرُهُ لِّلْعُسْرَىٰ ﴾ (١٠ الليل)

والنهاية..؟

النهاية أن توجد الفئات المتفاوتة تبعًا لإيمانها وصلابتها.
أو ضعفها واستخذاتها..

هناك الأئمة الذين يدعون إلى الجنة.. والأئمة الذين
يدعون إلى النار..

هناك السابقون السابقون وهناك اللاحقون وهناك
القاعدون.. "منهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد، ومنهم سابق
بالخيرات".

هناك من صدق عليهم إبليس ظنه، وهناك من
استعصموا بالإيمان وانتصروا على الغواية.

وهناك من خلطوا عملاً صالحاً.. وآخر سيئاً..

وربما كان المثال "النمطي" هو آدم نفسه الذي استزله
الشيطان "فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى".

والحق أننا لا نكاد نجد واحدًا ينجو من الضعف
والإغراء، فكل بني آدم خطأون.. ولكنهم يتوبون ويتوب الله
على من تاب.. فرحمة الله أكبر من عصمة الإنسان، ولولاها
لهلك الإنسان..

.. هكذا يعرض القرآن الكريم الحياة الدنيا مشاهد
متتالية.. متقابلة.. من الهدى والضلال، من الاستسلام لزهرة
الحياة الدنيا. وشهوات المال والنساء وجاذبية الحكم والسلطان
والشهوة، والاعتصام بما هو أقوم من قُربى إلى الله، وإيثار
للعمل الصالح.

وبالطبع لو أراد الله تعالى لغير هذه الصورة،
كان يمكن أن لا يسمح للشيطان بممارسة هذه السلطات
الواسعة، وتملك كل هذه الأفانين للإغراء والإغواء..
كان يمكن أن يجعل الإنسان كالملائكة لا تخطئ.

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴾
(٦٠ الزخرف)

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
الْجَاهِلِينَ ﴾ (٣٥ الأنعام)

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾
(١٠٧ الأنعام)

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ
تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٩٩ يونس)

﴿ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ
بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ .

وَلِبِئُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَكَبَّرُونَ . وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ
لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٣ - ٣٥﴾
(الزخرف)

كان من الممكن أن يفضي الله بهذا، ولكنه أراد للحياة
أن تكون بالصورة التي عرضناها.
فما الحكمة من هذا..

الحكمة أن تكون الحياة الدنيا دار ابتلاء واختبار، فلا
تكون جنة تسكنها الملائكة أو ناراً تسكنها الأبالسة.. ولكن
يوجد فيها من الجنة هداية الأنبياء.. ومن النار غواية
الشياطين " ليحيي من حي عن بيئته.. ويهلك من هلك عن
بيئته.. ".

ولكن هذا الوضع لا يستقيم إلا بعنصر هو الذي يعطي
المشهد حيويته ومضمونة ذلك العنصر هو الحرية.
فالإنسان حرّ تماماً في أن يسلك مسالك الهداية..أو
يهوي مهاوي الضلال.

حرّ في أن يؤمن.. وحرّ في أن يكفر..
حرّ في أن يريد العاجلة.. وحرّ في أن يريد الآجلة.

وبدون هذه الحرية، لا يكون للمشهد كله أي معنى..
فلو قُسر الإنسان على الهداية لما كان له الفضل فيها..
ولو قسر الإنسان على الضلالة لما كان له ذنب فيها..
وليس للشيطان رغم كل قوته من سلطان على الإنسان
إذا أراد أن يستعصم، كما ليس للنبي من سلطة على من آثر
الضلالة، لأن النبي ليس حفيظاً.

إنها إرادة الإنسان، والحرية هي قوام الأمر كله.
وثمة حديث معروف يقول: "الأعمال بالنيات" فإذا كانت
الأعمال بالنيات.. فلا نيات دون حريات.. ومن ثم، فلا
أعمال دون حريات..
إنه لمن الغريب حقاً ضحالة الإحساس بالحرية لدى
المسلمين، في حين أنها حجر الزاوية في البناء الذي أقامه الله
للحياة الدنيا.. وللهدى والضلال، وبدونها لا يقوم ولا يكون
له معنى.

* * * *

بصرف النظر عن هذا التصوير القرآني للحياة الدنيا
وطريقة عملها، فإننا لو افترضنا أن الدولة الإسلامية هي هي
دولة العقيدة.. فإن هذا يفترض بالضرورة والتبعية أن تكون
دولة الحرية..

ذلك لأن من المستحيل أن نحمل الناس قسراً على الإيمان بالعقيدة.

بل إن الترغيب - يماثل الترهيب - في هذا، لأنه رشوة" على الإيمان..

لا الترهيب.. ولا الترغيب يمكن أن يصلا بالإنسان إلى إيمان صحيح، لأنهما يكونان قوة ضاغطة على حرية الإنسان من ناحية، وعلى قدرته على التمييز والاختيار، وبنعكس بالنتالي على إيمانه..

إن الإيمان الحقيقي هو الذي يتوفر له عنصران الحرية من ناحية الإنسان و "المنطقية" من ناحية الدعوة..

فالإنسان عندما يكون حراً مختاراً، ويرفض دعوة سليمة، منطقية، فإنه عندئذ يكون خاطئاً ويكون تفكيره منحرفاً ويستحق المؤاخظة، وعندما يؤمن بها ويسلم لها فإنه عندئذ يكون مستحقاً للثواب..

ولكي يؤكد القرآن الكريم معنى الحرية فإنه في آيات لا حصر لها قضى، قضاء باتاً ومؤكدًا، بأمرين:

الأول: أن الله تعالى نفسه هو الذي يحاسب الناس، ويؤاخذهم، ويفصل بينهم فيما كانوا فيه يختلفون من هداية وضلال إيمان وكفر.

الثاني: أن هذا يحدث يوم القيامة.. عندما تنصب محكمة العدل الإلهية. لإثابة المحسنين ومعاقبة المذنبين..
فالأمر خارج تمامًا عن سلطان الأفراد، أو النظم أو الهيئات، خارج عن إطار محاكم هذه الحياة الدنيا.

* * * *

في قضية الإيمان.. والكفر.. الهدى والضلال.. الأمر متروك تمامًا للفرد. فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر..
الحساب والعقاب عليها إنما يكون يوم القيامة والله تعالى وحده هو الذي يحكم فيها..

* * * *

هذه هي المبادئ القاطعة الفاصلة، البيئة التي ينطق بها التصوير القرآني لنشأة الحياة، والآيات المتكررة والمترادفة عن حرية الإيمان والكفر، والآيات التي تماثلها - تكررًا - ووضوحًا - عن أن الله تعالى وحده ودون غيره هو الذي يفصل يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون..

والآيات كلها متكاملة، لأنها من أصل واحد، فكل آية تكمل جانبًا من جوانب هذا الأصل. فلو لم يكن هناك حرية لما كان هناك معنى لغواية الشياطين أو لهداية الأنبياء، ولو جيز أن يكون الثواب والعقاب على الإيمان في الحياة الدنيا لما نشأ الضمير، فإنما ينشأ الضمير عندما يقبل الإنسان أو

يرفض. إيماناً دون جزاء مادي أو أدبي في الحياة الدنيا، كما لا يمكن لكل ما في هذه الحياة الدنيا من أساليب إغراء.. أو قوى ضغط أن تحوله عن إيمانه.

هذا هو الضمير، ولو جاز لأحد أن يتولى الحكم لكان يجب أن يعلم السرائر، ويشق عن القلوب وهيهات..
وكرامة الإنسان التي اقتضتها الاعتبارات التي أشرنا إليها في الفصلين السابقين، لا توجد إلا في مناخ الحرية، فلا كرامة في ظل إرهاب.

فالآيات كلها تصب في هدف واحد. إرادة الله تعالى أو تقيم بناءً واحداً أراد الله، وكل آية بمثابة لبنة في البناء..
ومع هذا كله ومع وضوح الصورة وتكرار الآيات عن حرية الاعتقاد فإن معظم.. أو كل الدعوات الإسلامية تعزف عن الحرية، وتتبنى بدرجات متفاوتة. ضوابط على الإيمان. يمكن أن تصل إلى حد قتل المرتد أو "من يجحد معلوماً من الدين بالضرورة".

والمجتمع المثالي لديها هو مجتمع القيود.. والأحكام المسلطة، والقوانين الأمرة..
إنه مجتمع العبيد..

وإنما فضل المسلمون الأول الإسلام لأنه أخرجهم من عبادة الحكام إلى عبادة الله..

وأى عبادة لله بقانون من العقوبات تكون عبادة لقانون
العقوبات. ولمن وضع قانون العقوبات ولا تكون لله..
وإنما تكون العبادة لله، والإيمان بالله عندما يصدر ذلك
عن حرية، وطواعية، بل وعاطفة وقُربى..

* * * *

إن دعوة العمل الإسلامي تؤمن بحرية الفكر والاعتقاد
إلى آخر مدى، إلى مدى " فمن شاء فليؤمن، ومن شاء
فليكفر.. " ولا تضع قيدًا من أي نوع على الفكر والاعتقاد..
فلو أراد مسلم أو كافر فإنما على نفسه يجني، ولن يضير
المسلمين أن ينقصوا فردًا، أو حتى مليونًا، ولن يمس الإسلام
شيئًا أن يخرج منه من لا يؤمن بالله. ولن يحزننا الذين
يسارعون في الكفر.

إن دعوة العمل الإسلامي لا تكفر أحدًا، حتى الذي يُقر
على نفسه بالكفر،⁽¹⁾ لأن القضية قضية "عدم اختصاص"

(1) إن مقارنة ذلك بما جاء في الدرّ النضير في إخلاص كلمة التوحيد
للسوكاني ص ٤٦، "وقال شيخ الإسلام تقي الدين في الإقناع من
دعاميتا. وإن كان من الخلفاء الراشدين فهو كافر، وإن من شك في
كفره، فهو كافر" يوضح المسافة البعيدة بين الاتجاهين. ناهيك
بناشئة دعوات الرفض الجديدة التي تكفر، وتهدر دم كل مخالف.

فليس من شأننا أن نقول هذا مؤمن. وهذا كافر.. وهذا سيدخل النار..

وأن يقر أحد على نفسه بالكفر شيء، وأن نقر نحن هذا - ولو تبعًا له - شيء آخر، لأنه حر يفعل بإيمانه ما يشاء ولكن ليس لنا أن نتدخل فيه. ولو كان إقرارًا لما يعترف به، لأن ذلك سيحملنا على أن نبني عليه حكمًا.. وهذا كله ليس من اختصاصنا، إنه اختصاص الله تعالى وحده.. يوم القيامة وحده. وقد يحمله سكوتنا على إعادة النظر في موقفه، قدر ما يدفعه تَدْيُنًا به على الإصرار عليه.

ودعوة العمل الإسلامي لا تبيح مصادرة كتاب لأنه لا يتفق مع المقررات، أو لأنه يدعو للإلحاد وينكر وجود الله وبعثة الأنبياء.. فلن يضر الله شيئًا، ولن يضر الإيمان شيئًا، أو ردوا عليه الحجة بالحجة، والدليل بالدليل والبرهان بالبرهان، وهو ما فعله القرآن مع ادعاءات المشركين.

إن المصادرة تبسط سيف الإرهاب الفكري، وحتى عندما لا يستخدم، فإن مجرد تجريد هذا السيف من غمده، وجعله مشهورًا سيسيء إلى حرية الفكر..

وليس معنى هذا أن يكتب أحدٌ سفاهات وبذاءات، أو ينشر قذفًا أو يسيء الأدب والذوق مع الرسل أو الأديان.. أو

الله تعالى. إن هذا مرفوض ومعاقب عليه، حتى عندما يمس
أقل شخص، فكيف عندما يمس الرسل.. والله تعالى..؟
إن القضية قضية إعمال فكر، قضية وجهة نظر مبنية
على مقدمات ونتائج.. حتى وإن كانت خاطئة وفسادة.

* * * *

إن دعوة العمل الإسلامي عندما تقف هذا الموقف،
تؤمن أنها تقف الموقف الإسلامي والموقف الموضوعي،
وليس بينهما تنافر أو اختلاف، وإنما يحدث هذا ما بين
الإسلام.. والمواقف الذاتية..

فمن الناحية الإسلامية. فالإسلام يعلم أنه لا فائدة من
سوق الناس للإيمان بالإرهاب والقسر، وأن الدعوة السليمة
إنما تقوم على الحكمة والموعظة الحسنة، وأن الحرية تكفل
مؤمنين أعمق إيماناً..

ومن الناحية الموضوعية، فإن الأصل في الإيمان هو
الحرية، ولا يمكن تصور حمل الناس على الإيمان قسراً،
فهذا يخالف طبيعة الأشياء..

فليس في القضية شيء يثير الدهشة، وعندما تكون دولة
الإسلام دولة عقيدة، فإنها تكون بالتالي دولة حرية.. ولهذا
يجمع القرآن الدعوة للإسلام، والحرص على الحرية،

والتتديد بكل صور "حمل" الناس على الإيمان أو إكراههم عليه..

القضية محلولة إسلامياً وموضوعياً، ولكن هناك سدنة يفرضون أنفسهم ما بين الناس والله.. وهذا الوضع يقضي عليهم، ولهذا يستमितون في الدفاع عن أوضاعهم المميزة، ومصالحهم المكتسبة، وأفكارهم التي تسربت إلى الإسلام في عهد التحلل والانحطاط.

* * * *

الفصل الخامس

الركيزة الرابعة - العمل

رأينا الإنسان وقد خصَّه الله في سابق علمه بالكرامة. فقرر أن يستخلفه على الأرض وعلمه الأسماء كلها. وأمر الملائكة أن تسجد له.. وأسلم له هذا الكوكب الجميل: الأرض بتربتها الخصبة وأنهارها الجارية وشمسها الساطعة وثرواتها المعدنية وأشجارها وحيواناتها.. ومنحه الحرية الكاملة..

بقي أن يقوم الإنسان بدوره الذي من أجله استخلفه الله، وعلمه الأسماء، ومنه الحرية..

هذا الجور لا بد وأن يأخذ شكل العمل، لأن العمل هو بلورة الحياة وثمرتها، وهو مضمونها وتجسيد معناها..

وحتى في مجال الفكر الخالص فنحن نقول "يعمل عقله" فالتفكير عمل.. بل إن عدم التفكير يؤدي إلى عمل في صورة سلبية - كالانسحاق والتقليد والاتباع..

وهذا ما يوضح الأهمية القصوى لهذه الركيزة، فكل الركائز السابقة هامة. ولكن أهميتها تكمن في أنها تهيب المجال، وتعد العدة وتبعد المعوقات، لكي يعمل الإنسان عملاً

صالحًا. فهذا العمل هو محصلة الركائز الثلاث السابقة وعليه تتوقف النتيجة.. إما شاكراً. وإما كفوراً.

وعندما نفتح المصحف، ونسير معه من الفاتحة حتى الناس، فإننا نلتقي في كل سورة تقريباً بتعبير قرآني متكرر ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.. فعمل الصالحات جزء مكمل للإيمان.. لأننا لو استبعدنا هذا الربط ما بين الإيمان والعمل، واقتصرنا على الإيمان، لكان كل واحد يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله مؤمناً يعادل أي مؤمن آخر يقول القول نفسه، ولوقفت قضية الحياة عند هذا، أو لانحصر التمايز بين رجل يصلي الفرائض، وآخر يزيد عليها النوافل وما إلى ذلك..

ولكن الشهادتين، والصلاة، والصيام لا تحرث الأرض، ولا تنبت البذر، ولا تغزل القطن، ولا يمكن أن تُركب لقضاء الحوائج، ولا هي تتضمن الهمة والنشاط والمثابرة أو الدقة والأمانة أو الوفاء بالوعد، والصدق عند الحديث، فكل هذه هي ما يقدمه العمل..

من أجل هذا دأب القرآن الكريم على الإشارة إلى العمل. ويؤدي بنا الربط المستمر للقرآن ما بين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ و ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إلى تفسيرين: الأول أن القرآن يشير بكلمة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى العقيدة، ويمكن أن

يلحق بها العبادات، وأنه يشير بالذين عملوا إلى العمل، وبهذا يكون الإسلام عقيدة وعمل، وهو ما يقول به كثير من الفقهاء وتصبح العقيدة شيئاً، والعمل شيئاً آخر، ويكمل كل واحد منهما الآخر ليتكامل "الإسلام"، كما أن من الممكن أن القرآن إنما يهدف بربطه ما بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات إلى أن يجعل من العمل مصداقاً للإيمان، بمعنى أن الذين يؤمنون حقاً لابد وأن يعلموا عملاً صالحاً، بحكم إيمانهم، فالعمل في التفسير الأول عنصر مستقل، وهو في التفسير الثاني عنصر مكمل وفي المحصلة الأخيرة لا نجد اختلافاً كبيراً فسواء كان العمل عنصراً مستقلاً أو عنصراً مكماً ففي الحالتين لابد منه، سواء كان كعنصر مستقل أو كعنصر مكمل..

ويغلب أن تأخذ إشارات القرآن إلى المؤمنين صورة من ثلاث صور، فعندما يذكر ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإنه كما قلنا يقرن ذلك بتعبير ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، والآيات التي جاء فيها هذا القرآن أكثر من أن تحصى في هذا الموجز، وعندما يتحدث إلى المؤمنين بصيغة الخطاب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإنه يقر ذلك بأحد التوجيهات العملية ﴿لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ﴾ ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾، ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾، ﴿أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾، ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ إلى آخر هذه التوجيهات التي

تتعلق بالسلوك أو المواقف التي يجب على المؤمنين وقوفها والالتزام بها. وأخيراً فإن القرآن عندما يشير إلى ﴿ مَنْ آمَنَ ﴾ فإنه يضيف إلى ذلك: ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾، ﴿ مَنْ آمَنَ ﴾ بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا ﴿، ﴿ مَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ ﴾، ﴿ أَمَا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾، ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾.. الخ.

وفي بعض الحالات لا يذكر القرآن العمل صراحة، ولكنه يعطي مضمونه جنباً إلى جنب مختلف العبادات.. ففي سورة الجمعة ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ وفي سورة الحج ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ. لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ ﴾، ولم يأنف من أن يرمز إلى الإيمان بكلمة تجارة ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُتَّجِعُكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ. تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَبِلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ وذكر جنباً إلى جنب الذين ﴿ يُفَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله ﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ

الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ
النُّشُورُ ﴿٤﴾.

فهذه الإشارات كلها للجمع ما بين الصلاة والحج
والمنافع وابتغاء فضل الله والرمز للإيمان ومختلف قربانه
بالتجارة كلها توضح أن العمل بالمعنى الاقتصادي أي العمل
المنتج اعتبر قريناً للإيمان ومصدقاً له.

وهذا الجمع المتكرر المتواتر بين الإيمان والعمل
الصالح يوحي أن الإيمان في القرآن يعد المدخل إلى عالم
العقيدة، و"الهوية" للمؤمنين. ولكن هذا المدخل والهوية لا
يكفيان وحدهما، بل لابد من العمل الصالح الذي يؤكدهما
ويصدقهما، فليس الإيمان بالتمني ولكن بما يصدقه العمل.

ولا يقل عن ذلك أهمية أن الإسلام لا يعتبر العمل
مصدقاً للإيمان أو مكملاً للإيمان فحسب. ولكنه يعتبر العمل
معيار الثواب والعقاب في الآخرة، وقد يقدمه عند الذكر على
التوحيد ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا
يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

والحق أن التصوير القرآني لنشأة الحياة الإنسانية على
الأرض، وما تطلبه من ركائز أشرنا إليها. لا يكتمل إلا بقيام
العمل، واعتبار معيار الثواب والعقاب في الآخرة والآيات

التي تنص على ذلك بصورة قاطعة أكثر من أن يستوعبها المجال، وهذا بعضها.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ (٣٠ آل عمران)

﴿وَيَسْتَخْلِفُكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (١٢٩ الأعراف)

﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢١ التوبة)

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (٧ هود)

﴿وَتُوفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١١١ النحل)

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٣ الحجر)

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٤٠ غافر)

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (٤٦ فصلت)

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ (١٥ الجاثية)

﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٤ الأحقاف)

﴿ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ (٤٤ الروم)

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (٧، ٨ الزلزلة)

وفي القرآن الكريم جزء من آية، ثلاث كلمات بعيدة الدلالة والمغزى تلك هي ﴿ وَعَلَّمَآهُ صِنْعَةً لَّبُوسٍ ﴾ (٨٠ الأنبياء) من هذه الكلمات الثلاث نعلم أن الحديث صادر من الله تعالى.. فالله تعالى هو الذي "علم" وأن الحديث موجه إلى داود، رأس بني إسرائيل وفخرها، وأن ما علمه الله لداود هي صنعة الدروع. فأى تكريم للصنعة كما جاءت اللفظة القرآنية، وهي نفسها اللفظة السارية بين العمال اليهوديين.. أن يعلمها الله نفسه لداود نفسه.. كما تتضمن الآية أيضاً أن العلم هو وسيلة الصنعة وليس شيئاً آخر.

وأبرز من هذا كله في الدلالة الآية ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ فلا شيء أصرح من هذا

في أن الله تعالى جعل هذه الحياة الدنيا امتحاناً يدور حول العمل.

ويتفق الحديث النبوي مع القرآن الكريم في الجمع ما بين الإيمان والعمل واعتبار العمل مبرر الثواب والعقاب. فالحديث النبوي عن أن الإيمان بضع وسبعون (وفي رواية وستون) شعبة أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، فهو يوضح لنا مدى شمول الإيمان بدءاً من ثورة العقيدة حتى أدنى عمل من الأعمال اليدوية..

وهناك الحديث المشهور عن الشاب الجلد الذي تمنى الصحابة لو كان جلدُه في سبيل الله فصاح النبي ﷺ لهم هذا المفهوم: "لو كان يسعى على أبوين شيخين فإنه في سبيل الله، أو يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله"، فسبيل الله ليس مقصوراً على الصلاة والصيام.

واعتبر النبي ﷺ أن "أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صلاة، وحملك عن الضعيف صلاة. وإنحاؤك القذى عن الطريق صلاة" رواه ابن خزيمة في صحيحه، وتحدث عن رجل "يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين.." ويقابل هذا امرأة "دخلت النار في هرة حبستها، فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض".

وجاء في كتاب أدب الدنيا والدين للماوردي:

وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ. وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ قال أهل التأويل فإذا فرغت من أمور الدنيا فانصب في عبادة ربك، وليس هذا القول منه ترغيباً لنبيه ﷺ فيها، ولكن ندبه إلى أخذ البلاغة منها. وعلى هذا المعنى قال ﷺ: ليس خيركم من ترك الدنيا للأخرة.. ولا الآخرة للدنيا، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه. وروى عن النبي ﷺ أنه قال: "نعم المطيئة الدنيا فارتلوها تبلغكم الآخرة" ودم رجل الدنيا عند علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه فقال رضي الله عنه: "الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار نجاة لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها"⁽¹⁾.

وعن أنس قال: "كنا مع النبي ﷺ في السفر فمنا الصائم ومنا المفطر، فنزلنا منزلاً في يوم حار، فسقط الصوامون وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركاب فقال النبي ﷺ: ذهب المفطرون بالاجر كله.

وكما فضل النبي ﷺ هؤلاء المفطرين في السفر على الصائمين، ورأى أنهم "ذهبوا بالاجر" فقد فضل في حديث تعددت رواياته امرأة لا تؤدي إلا الفرائض لكنها تتصدق ولا

(1) طبعة وزارة المعارف العمومية ١٩٢٨ ص ١١١

تؤذي جيرانها، على امرأة أخرى كثيرة الصلاة والصيام ولكنها تؤذي جيرانها.

وعن أبي قلابة أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ قدموا يثنون على صاحب لهم خيراً قالوا: ما رأينا مثل فلان قط ما كان يسير إلا كان في قراءة، ولا نزلنا منزلاً إلا كان في صلاة. قال ﷺ: فمن يكفيه ضيعته، ومن كان يعلف جملة، أو دابته قالوا: نحن.. قال ﷺ: فلكم خير منه.

وعن النبي ﷺ أنه قال: "ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع رزقاً فيأكل منه الطير أو الإنسان، إلا كان له به صدقة" لو قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة فليزرعها".

وعن عبد الله بن مسعود قال رسول الله ﷺ "طلب كسب الحلال فريضة بعد الفريضة".

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من آمنه الناس على دمائهم وأموالهم، وزاد البيهقي في شعب الإيمان برواية فضاله "والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب".

وعنه أنه ﷺ قال: "آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أئتمن خان، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم".

وعن أنس قال رسول الله ﷺ: "يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى واحد، يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى علمه".

وكان النبي ﷺ يستعيز من "علم لا ينفع" كما يستعيز من "قلب لا يخشع" ويقول إذا أراد الله بقوم سوءًا أوتوا الجدل ومنعوا العمل.. وكان الدعاء المأثور "اللهم علمني ما ينفعني انفعني بما علمتني".

وحديث المفلس يوضح لنا أهمية العمل في مقابل العبادة وكيف أن العبادة لا تغني عنه، ونصه: "أنترون من المفلس قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، قال ﷺ المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصوم وزكاة، وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن حسناته قيل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار".

فهذه الأحاديث كلها هي كآليات التي استشهدنا بها من قبل، تجمع ما بين الإيمان والعمل، وتوضح أنه حتى تعبيرات الصدقة والصلاة والإيمان والجهاد والمسلم والمؤمن تتسع لصنوف من الأعمال مستقلة عن العبادات قدر ما هي متصلة بممارسات من صميم الحياة العملية واليومية للناس،

بل إن العبادات نفسها تحكم بهذه الممارسات والأعمال وتقاس بها، حتى وإن شملت أدنى الأعمال، وامتدت إلى الحيوان والجماد.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه "لأن أموت بين شعبتي رحلي أضرب في الأرض، أبتغي من فضل الله أحب إليّ من أن أقتل مجاهدًا في سبيل الله".. وقد ذكر هذه الرواية أحد الفقهاء والأساتذة في السعودية على أساس أنها تقديم من عمر بن الخطاب للكسب على الجهاد استنادًا على تقديم القرآن الذين يضربون في الأرض لكسب الرزق على المجاهدين في سبيل الله ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (الزمل ٢) ونقل ما رآه بعض الفقهاء من أن الجهاد فرض.. "وقد اقترن بالضرب في الأرض للاكتساب فيكون الاكتساب فرضًا بدلالة الاقتران، وتقديمه على القتال يدل على أولويته"^(١)، ورأى الكاتب أن هذا لا يخرج عما أراده عمر من قوله واستطرد: "والحقيقة أنه لولا الكسب لما قام الجهاد

(١) الاحتراف وآثاره في الفقه الإسلامي للدكتور محمد رواس قلنجي، صفحة ٢١، ٢٢ بحث نشره المركز العالي لأبحاث الاقتصاد الإسلامي جامعة الملك عبد العزيز جده.

في سبيل الله، لأن المال عصب القتال، ومن هنا جاءت أهمية الإعداد الاقتصادي والاقتصاد الحربي لتمويل الحروب، خاصة في العصر الحاضر، إذ المال هو الوقود الحقيقي للحروب، حيث تصمد الدولة في القتال ما قويت على تمويل حربها(1).

وقد يذكر في هذا الصدد أن القرآن الكريم عندما يذكر الذين يجاهدون في سبيل الله، فيغلب أن يذكر الذين يجاهدون "بأموالهم" أولاً ثم "بأنفسهم" ثانياً.

كما قد يذكر أن حرص عمر بن الخطاب رضي الله على صحبة الرسول، وتقديره لأهمية ذلك، لم يمنعه من "الصفق في الأسواق" وعندما أعلم بحديث لم يسمعه قال: "ألهاني عنه الصفق في الأسواق". ولعمر رضي الله عنه أقوال أخرى معروفة في الحث على العمل، فهو الذي قال لأناس وجدهم في المسجد تاركين العمل: "لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول "اللهم ارزقني" فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة".. وقال: "إني لأرى الرجل فيعجبني

(1) الاحتراف وآثاره في الفقه الإسلامي للدكتور محمد رواس قلجعي، صفحة ٢١، ٢٢ بحث نشره المركز العالي لأبحاث الاقتصاد الإسلامي جامعة الملك عبد العزيز جده.

فأقول ألهُ حرفة..؟ فإن قالوا لا، سقط من عيني" وقد كان هو الذي عندما مرَّ بقوم من القراء فرآهم جلوساً في المسجد قد نكسوا رؤوسهم فقال: من هؤلاء فقيل المتوكلون فقال: كلا ولكنهم المتأكلون، يأكلون أموال الناس، ألا أنبئكم من المتوكلون قيل نعم.. قال: هو الذي يلقي الحب في الأرض ثم يتوكل على ربه". كذلك فإنه دخل السوق في خلافته فرأى غالبية من فيه من النبط اغتمَّ لذلك. ولما اجتمع الناس أخبرهم بذلك وعذلمهم في ترك السوق، فقالوا: إن الله أغنانا عن السوق بما فتح به علينا. فقال: والله لئن فعلتم ليحتاج رجالكم إلى رجالهم ونساؤكم إلى نساتهم.

ومقارنة جانبي العلم - أي العمل كمصداق للإيمان.. والعمل كمعيار للثواب والعقاب، توضح لنا أن العمل الإسلامي وإن كان محكوماً بالإيمان، ويفترض أن يأتي تصديقاً له.. إلا أنه من ناحية أخرى له وجوده الموضوع وكيانه الخاص، فالعمل الحسن أو بالتعبير القرآني (الصالح) من كرم أو شجاعة أو عدل أو إنفاق أو وفاء بالعهد والوعد.. إلخ له كيانه الخاص ووجوده قبل الإسلام وبعد الإسلام وسواء وقع في دار إسلام أو في دار كفر.. من مسلم أو غير مسلم.

وحتى في الجانب الذي يكون العمل فيه محكومًا بالإيمان فليس هناك صعوبة في تبين أن دعوى الإيمان مفتوحة ولا يمكن جردها لكل من يدعيها أو يقول "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، وإنما لا نستطيع أن نفترض في كل واحد فناء الحلاج، أو هيام رابعة العدوية، مما لا يمكن ضبطه أو تقديره، وما يمكن أن يجنح بصاحبه إلى بحار الأهواء المتلاطمة. وبالتالي فإن الدليل الوحيد الذي يمكن للمجتمع الاستدلال به على حسن الإيمان لابد وأن يكون العمل، لأن النية والقلب محجوبان عن هذا المجتمع لا يعلمهما إلا الله، ولهذا المعنى حُق للعمل، وهو المحكوم بالإيمان - أن يكون هو نفسه دليلاً على الإيمان، ومعياراً للنواب والعقاب ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.

وهناك حكمة دقيقة وهامة في هذا القرن ما بين الإيمان والعمل، وجعل العمل مصداقاً للإيمان، ذلك أن العبادات التي تصطبح تقليدياً في الأذهان بالإيمان من صلاة أو صيام أو حج.. إلخ يمكن أن تصبح طقوس شكلية، ويمكن أن تصبح أداة لتعميق الإحساس بالذات بصرف النظر عن المجتمع. فالمصلي لا يعنيه ما تدور عليه حياة الناس حوله وما يملأ دنياهم من هموم ومشاكل، ما دام هو عاكف على صلاته

وصيامه، مؤمن أنه أدى واجبه وأنقذ نفسه وأرضى ربه، بل قد يتطور الأمر فتعطي هذه الصلاة والصيام منعزلة عن العمل إشباعًا كاذبًا يرضي الضمير، وأن هذا هو المطلوب منه، وقد أداه فلا عليه إذا انصرف إلى غير ذلك مما يراه خارج إطار العبادة، وطبقًا لمصلحته وهواه، دون أي اعتبار آخر، وأخيرًا فقد تحيف العبادة على العمل، كما يحدث عندما يترك موظف عمومي عمله ليصلي الظهر بمجرد سماعه الأذان، ويدع الناس واقفين أو متعطلين في انتظاره، وقد يطيل ويصلي النوافل أيضًا، وكأنه يتلذذ بتعذيب الناس أو يتقرب إلى الله بتعطيل أعمالهم!! في حين أن في الوقت المباح متسع، وأن تفريج كربات الناس أفضل من أي قربى أخرى، وقد تحرص إحدى الموظفات على أن تغطي رأسها بطرحه كثيفة، ولكنها لا تحرص على خدمة المواطنين.

إن دعوة العمل الإسلامي إدراكًا منها أن العمل هو محصلة الرحلة الطويلة من استخلاف الله تعالى الإنسان على الأرض حتى يوم القيامة، وتقديرًا منها له فإنها حملت اسمه وأصبحت "دعوة العمل الإسلامي".

إن دعوة العمل الإسلامي تدق الناقوس. إنها تقول للمسلمين جميعًا: أيها المسلمون اعملوا..

فالعمل هو الذي سيضعكم في الجنة أو يؤدي بكم إلى النار.. هو الذي سيضعكم في الصدارة.. أو في المؤخرة في الحياة الدنيا..

أيها المسلمون اعملوا فإن الله تعالى لم يخلقكم عبثاً، ولم يستخلفكم في الدنيا سدى، فإذا لم تعملوا فأنتم آثمون عاصون بعيدون عن رضا الله مستحقون لغضبه..

أيها المسلمون

إذا كنتم حريصين على أن يكون لكم العزة فاعملوا.. وإذا أردتم أن تحموا أنفسكم من عدوان الآخرين فاعملوا.. وإذا أردتم أن تظهروا الإسلام على حقيقته الواقعة التي تكسب له الاحترام والتقدير فأعملوا، لأنكم بسليبتكم وتكاسلكم، واعتمادكم على الآخرين، وبضحالة إحساسكم بالعمل جعلتم من عملكم تلفيقاً، وهبطتم بالصناعة والتجارة والزراعة والخدمات، واسم المسلمين واسم الإسلام إلى الدرك الأسفل من الانحطاط.

إن دعوة العمل الإسلامي تقول لكم ما قاله الرسول ﷺ لابنته الحبيبة فاطمة، ولعمته الأثيرة صفية: يا فاطمة اعلمي، فإنني لا أغنى عنك من الله شيئاً، يا صفية اعلمي فإنني لا أغنى عنك من الله شيئاً.. لا يأتيني الناس بالأعمال وتأتوني بالأحساب..

إن دعوة العمل الإسلامي تعيد عليكم ما أمر به القرآن
﴿وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ
وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾
١٠٥ التوبة.

* * * *

الفصل السادس

وأخيراً - العدل: "مايسترو" الدعوة

ليس العدل ركيزة كالركائز السابقة، ولكنه وازن هذه الركائز، وضابط الإيقاع بينها أنه أشبه بالمايسترو الذي يقود الفريق، ليعزف كل واحد دوره طبقاً لما هو مسجل في النوتة، بحيث تأتي "السيمفونية" صادقة التعبير، آمنة من النشاز تقوم فيها كل من الطبله والكمان والبوق النحاسي بدور تتطلبه السيمفونية مع أن كل واحد منهم يختلف في طبيعة ما يصدره من صوت عن الآخر، أو هو شفرة الحياة التي تحملها "جينات" الوراثة في الذكر والأنثى، ويتمخض تلاقيها عن ميلاد كائن سوي لا تطول إحدى يديه عن الأخرى، أو تقصر إحدى رجليه عن الثانية إلخ.....، وإذا كان العمل هو معيار الثواب والعقاب؛ فإن العدل هو معيار العمل نفسه، ووجوده في الدعوة هو من طبيعة الدعوة نفسها، بحيث لا يمكن تصور خلوها منه. فالله تعالى استخلف الإنسان على الأرض فأضفى عليه كرامة وجعل الملائكة تسجد له؛ فأشار إلى قداسة العلم الذي كان مبرر هذا السجود ثم هداه النجدين، وأراد له حرية الاختيار، وجعل العمل هو المعيار والمصدق لهذه المسيرة التي تسلم كل خطوة منها

إلى الأخرى، باعتبارها النتيجة الطبيعية لما سبقها، تحوطها وتحكمها حقيقة كلية منبثقة من الأصل الأعظم، من الله تعالى، فإله تعالى خلق الكون بأسره ووضع النواميس التي تحكمه، واستخلف الإنسان في الأرض.. على أساس قبس منه هو الحق الذي هو بالنسبة للنواميس والنظم كالنفثة بالنسبة للخلق، وقد سمى الله تعالى نفسه الحق، وجعل السماوات والأرض تقوم بالحق وأنزل الكتاب بالحق، ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ فهذه المسيرة الإنسانية من الخلق حتى يوم القيامة ومن الميلاد حتى الوفاة تحكمها - وتضبطها وتحول بينها وبين الانحراف قيمة عظمى مهيمنة عليها هي الحق، وعندما يراد تطبيق الحق؛ فإنه يصبح العدل، لأن العدل هو إحقاق الحق ووضع كل شيء موضعه، وإعطاء كل ذي حق حقه. ولهذا فإن للعدل جوانب متعددة، فله الجانب الاقتصادي وله الجانب السياسي، وله الجانب الاجتماعي، "وهو القصد" وهو الذي يحكم الإرادة الإنسانية الطليقة من الشطط والجموح، ويضبط العمل بميزانه الدقيق حتى لا يتطرف إلى ظلم واستغلال، ويضبط العلم حتى لا يصبح المارد الذي يتحكم في صاحبه. وإنما أخذ العدل هذه الأبعاد كلها - لأنه كما ذكرنا ينبثق عن الحق الذي أراد الله له أن يحكم كل شيء: الأكوان والإنسان والنظم والنواميس. ولقائل أن يقول: ما هو العدل الأسطوري العجيب وكيف

نتأكد أنه ليس تمويهًا وخذاعًا وتضليلًا...؟ لقد قلنا في كثير من كتاباتنا السابقة أن العدل لا يمكن أن يُقبض عدًا ونقدًا، ولا يمكن أن يأخذ شكلاً رياضياً محددًا؛ فهو يقوم على حاسة في النفس، يفترض أن توجد وتتأصل نتيجة للإيمان بتوجيهات مؤكدة ومكررة في القرآن الكريم وفي السنة النبوية، وفي أصول الأشياء، وتميز هذه الحاسة الأعمال والتصرفات، وتحكم بما إذا كانت تتفق مع العدل أو تختلف معه، حتى عندما تختلف الأحكام من عصر إلى عصر ومن مكان إلى مكان، لأن العدل كظاهرة إجتماعية يخضع لاعتبارات المجتمع، ولكن الطبيعة الموضوعية - المعيارية له المنبثقة من الحق لا تجعل العدل جزءًا يتأثر بالأوضاع حوله، وإنما هو يلحظ هذه الأوضاع ويكيّفها، وهو في جميع الحالات يلتزم إطارًا مرناً وواسعاً، ولكن قسماته الرئيسية واحدة، فكل الأديان تحض على الخير والرفق والإحسان والإنفاق. وكل الأديان تحذر من السرف والسفه والتبذير، والانسحاق وراء شهوات التسلط وكل الأديان تندد بالقسوة والظلم والاستغلال، وهذه كلها ضوابط للعدل - مهما كانت مرنة فإنها لا تجعل من الظلم عدلاً.. ومن العدل ظلماً..

ويمكن على كل حال أن نميز بين طريقتين لتطبيق العدل يختلفان تبعاً للمجال، فالعمل كله محكوم بالعدل لأنه

يندر أن يوجد عمل لا يمس طرفاً آخر، ومن ثم فإنه يقع مباشرة في إطار العدل فالاقتصاد والسياسة والعلاقات كلها يحكمها العدل بصورة مباشرة، ولكن الأمر يختلف بالنسبة لمجال الفكر فإنه يعود إلى الحرية، وليس معنى هذا أن يخرج من صلاحيات العدل، لأن العدل المنبثق عن الحق يحكم كل شيء.. ولكن معناه أن تطبيق العدل والحكم بمقتضاه على الفكر مؤجل إلى يوم القيامة، ويتولاه الله تعالى، ذلك لأن الطبائع والنواميس التي أقامها الله تجعل التدخل في حرية الفكر - ولو لإحقاق الحق - من جانب السلطات يجلب من المشكلات، أضعاف ما يحقق من الحلول، ولذلك ترك الحكم فيه إلى الله تعالى يوم القيامة ما لم يقترن هذا الفكر بعمل يخرج به من إطار الفكر إلى إطار العمل الذي يحكمه العدل، فلو افترضنا أن أحد الناس اعتنق فكرياً فاسداً فهو حر ويمكن أن يصدر كتاباً أو يضم أتباعاً، ولكنه ما أن يمارس عملاً بعد ذلك حتى يخضع لضابط العلم وهو العدل.

وإنما سمح الإسلام بحرية الفكر وأن تحكمها ما ظلت في إطار الفكر إرادة خارج المجتمع، وليس العدل أن الحرية في حقيقة الحال هي حرية الرأي المخالف، وقد أراد الله تعالى - كما هو ثابت في العديد من الآيات - وجود هذا

الرأي المخالف في الحياة الدنيا؛ فكان لابد أن يحكم فيه هو يوم القيامة، فليس هذا الرأي المخالف يعني من الحساب.. ولكن حسابه مؤجل وليس معجلاً وهو إلى الله وليس الأفراد أو السلطات.

في نظرنا أن هذا التكيف قيس من الإعجاز الإلهي في وضع النظم وهو ما يميز النظام الإسلامي عن النظم الوضعية الأخرى التي تتمحور حول الإنسان، ويمكن أن نجد فيها الركائز الأربعة لدعوتنا: كرامة الإنسان، قداسة العلم، الحرية، العمل ولكننا لا نجد ولن نجد ما يسترو العدل الذي يحيط بها، ولن نجد لهذا العدل - في غير الإسلام موضوعية تستمد من الله تعالى، مثبتة في قرآن محكم، وتستعصي على التغيير والتحوير، ولن نجد إلا في الإسلام عدلاً يسمح بحرية الفكر، لا على إنها لا حساب عليها، وإنما على أن الحساب عليها إنما يكون من قبل الله تعالى يوم القيامة.

فالذي يميز دعوة العمل الإسلامي عن الدعوات الأوروبية هو أنها تعمل في رعاية الله تعالى وأمنه، وأنها تستلهم منه ركائزها ومثلها، وتجعل من قرآنه دستوراً، ومن رسوله أسوة وقدوة، وأنها أولاً وأخيراً في قبضته. وهي تسلم بهذا تسليمًا وتسعد به وتطمئن إليه، وتجد فيه الأمن والسلام والكمال، فضلاً عن أن استمداد قيمها من الله تجعلها

موضوعية - في حين أن هذه القيم [الكرامة - الحرية - العمل - العلم] في المجتمع الأوربي ذاتية، وما أن تدخل امتحاناً حتى تتضح نسبيتها وذاتيتها؛ فهي للأغنياء والبيض، وغيرها للفقراء والسود وهي ملحوظة داخل أوربا منسية خارجها.

وقد يدعي أحدٌ أن هذه ليست نظرية، وأنها تفتقد الإبداع والتكامل والأحكام الذي يُظن أنه يجده في الماركسية بشقيها المادية الجدلية والمادية التاريخية، وأنا إنما لفقنا مجموعة من القيم المثالية، ونحن نقول إنها دعوة إسلامية، وليست نظرية مستقلة عن الإسلام. ونحن لا نهدف إلى إبداع نظرية كالماركسية - تعالج التطور من زاوية واحدة أو من منطلق الجدلية لتكشف مائة سنة عن ثغراتها - وإنما نعبر عن التصور الإسلامي المتكامل لنشأة الحياة الإنسانية على الأرض وطريقة عمل هذه الحياة والهدف منها، وحلقاتها مترابطة ومتكاملة تماماً فكل واحدة تُبنى على الأخرى، وتبدأ منها لتكتملها دون أن يكون هناك تعارض أو تناقض، وإنما هو بناءٌ متماسك متناسق. أما دعوى المثالية فإن الإسلام فعلاً يرمز إلى المثال، ولكنه يتقبل الواقع كواقع، وكما قلنا في مناسبة سابقة:

"إن مثالية الإسلام تقوم على قاعدة صلبة، رصينة من طبيعة النفس الإنسانية، وهي تبدأ من هذه القاعدة وتسير بها بقدر ما تستطيع الطبيعة البشرية من مراحل التقدم، والإسلام يعلم أن مادة الطبيعة البشرية كمادة النفط يشتق منها الأسفلت الثقيل الكثيف، كما يشتق منها البنزين الخفيف الطيار والإسلام يبدأ من أسفلت الواقع ويتصاعد من هذا الواقع وبه حتى يصل إلى البنزين الطيار، وهو يعلم أن هذا الأسفلت لا بد منه، وإن كان للوطأ، وأنه يجب أن يحمد باعتباره موطناً للأقدام، وأن الطائرة لا يمكن أن تبدأ تحليقها أو تنهي رحلتها إلا على هذا الأسفلت"⁽¹⁾.

ومثالية الإسلام بهذا المعنى تختلف عن المثالية الخيالية فهي ليست مثالية بمعنى أنها ترفض الطبيعة البشرية بضعفها وقصورها، ولكنها كذلك ليست واقعية بمعنى أنها تستسلم للواقع، وترى أن علينا أن نأخذ الطبيعة البشرية ككل أو نرفضها ككل. إن هذا هو منطق النظريات التي تصدر عن الإنسان المجرد من الأديان، كالماركسية التي استهدفت التغيير، ولكن لأنها صادرة من الطبيعة البشرية؛ فإن تغييرها

(1) العمل في الإسلام ملاحق مجلة العمل بالقاهرة عدد ٨٥ لسنة ١٩٧١ ص ١٧.

كان داخل الإطار المطلوب تغييره نفسه؛ فأحلت الحكام الطغاة ونقمة السلطة محل الرأسماليين القساة ونقمة الملكية.. ولم يكن لها مناص من هذا ما دامت قد حبست نفسها داخل الطبيعة البشرية ورفضت رحمة الله وهدايته، أما الإسلام فإنه يرف نجماً ليستهدي الناس به، وما ظلوا يسرون في ضوءه فإنهم على هدى، وقد يتكبون ضوءه ثم يعودون إليه وفي جميع الحالات فإنهم لا يبلغونه، لأنه ليس الهدف هو أن يبلغوه فما هم بباليه وإنما أن يسيروا في ضوءه.

وباعتبارها دعوة إسلامية فإنها تتقدم للمؤمنين بالإسلام فعلاً. أما غير المؤمنين أو الذين في قلوبهم مرض فيفترض أن يتعرفوا أولاً على الإسلام وهو شيء آخر غير دعوة العمل الإسلامي شيء أوسع مدى، ويعالج قضية الإسلام أصلاً.

* * * *

خاتمة

إلى الشباب المسلم في كل مكان

لم يكن موضوع "الدعوات الإسلامية" جديداً على مؤلف هذا الكتاب، فمن الطبيعي، وهو نفسه داعية إسلامي أن يكون هذا نصب عينيه من وقت بعيد. فضلاً عن أنه عايش بعض هذه الدعوات معايشة طويلة، وتعرف على قيادتها في مناسبات عديدة. وفي سنة ١٩٧٨ أصدر كتابه "الدعوات الإسلامية المعاصرة ما لها وما عليها" الذي يعد الآن من الكتب الكلاسيكية في الموضوع، كما أشار إلى "الدعوتين الكبيرتين" أي الأخوان المسلمين والجماعة الإسلامية (باكستان) في كتيب "نحن ودعوتنا" الذي أصدره الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل.

ولكن الكتاب الذي تختمه هذه الكلمات يعد من أكمل الكتب في مثل حجمه عرضاً للموضوع، فقد توفر له من المواد والوقائع الخاصة بنشأة وتطور بعض الدعوات الإسلامية ما لم يتوفر لغيره، كما أن دعوة العمل الإسلامي عرضت لأول مرة في شكلها الأخير القائم على فكرة الاستخلاف الإلهي وما يعنيه هذا من مضامين.

إن الفكرتين المحوريتين اللتين انتهى إليهما الكاتب بعد دراسة وتمحيص خمسين عامًا؛ بحيث أصبحت عنده من الحقائق المؤكدة هما:

أولاً: أن أي نظام سياسي أو دعوة عامة تتجاهل الإسلام لن تجد قبولاً قلبياً من الجماهير، لأن الإسلام هو وجدان الشعوب الإسلامية، وأي نظام يحاول التلفيق أو التطويع أو الخداع محكوم عليه بالفشل، وقد حاوله كل الطغاة الذين حكموا المنطقة في الفترة الأخيرة وفشلوا، وكل نظام يضع نفسه في خصومة مع الإسلام فإنه يقضي على نفسه آجلاً أو عاجلاً.

ففي جميع الحالات لا مفر من الإسلام.

ثانياً: ليس في الإسلام مشكلة.. إن المشكلة في المسلمين وفهمهم، والأزمة التي يقال عليها "أزمة الإسلام" هي في حقيقتها الأزمة الحضارية للمجتمعات الإسلامية وفهمها السلفي المهيمن، الذي يطبق على المجتمع وعلى الدعوات الإسلامية التقليدية، ويجد حمايته في الأوضاع القائمة والمصالح المكتسبة، وقد فشلت حتى الآن كل المحاولات لهزّ - ناهيك عن زلزلة - هذا الفهم التقليدي. ونحن نؤمن إيماناً لا يتطرق إليه شك أن الفهم السلفي كائناً ما كانت مآثرة القديمة - فإنه لا يصلح مطلقاً في التحدي الحديث، وأن

المسلمين غير ملزمين مطلقاً بالتمسك به، وأن لهم مندوحة عمّا وضعه من قواعد ومبادئ وضوابط ما داموا في النهاية لا يخرجون عن توجيه القرآن، ولا يختانون أنفسهم في ذلك. وفي القرآن متسع والحمد لله.

وهذه المهمة المقدسة هي ما لم يتصدّى لها بعد كاتب أو مفكر بصراحة وقوة - لأنّ الخوف يشلّ الجميع، ومن يريد أن يصلح لا بد أن يرضي أوصياء على الفكر الإسلامي، ولا بد أن يتلطف، وأن يقدم الأعذار والمبررات، ولم يظهر من المفكرين الإسلاميين من يتصدّى لها تصدّي داعية، حتى وإن ظهر في الفترة الأخيرة عدد من الكتاب المبدعين لمس كل واحد منهم جانباً من جوانب القضية، وجاء فيه برأي جديد ولكنهم جميعاً ليسوا من طينة الدعوة، وليس لديهم من التجرد والتركيز ما يجعلهم يحكمون الدعوة، ويعيشون بها ولها، فبعضهم شغل الوزارة حيناً وأكل من حلواء القوم، وبعضهم يعمل بالصحافة ويخضع لضروراتها، بينما يعالج البعض الآخر الإسلام معالجة باحث أكاديمي. وجميعهم مرتبطون بالوضع والنظام.

نتيجة لهذا أخذت مجموعات عديدة من الذين خاب أملهم في الدعوات التقليدية، وتملكهم الروع من دعوات "الرافضة الجديدة"، يفتشون هنا وهناك، ويتلمسون البديل ويدعون الله

أن يأتيهم به. وقد لمسنا هذا مراراً، وطلب إلينا أن نقوم بدورنا، في الوقت الذي كنا نفكر فيه فيما هو أبعد مما تصوروا، إن دوراً تاريخياً ينتظر الدعوة المنشودة، دوراً يمكن أن يؤثر على مصير العالم بأسره وليس المنطقة العربية والإسلامية، لأن الإسلام اليوم مدعوٌ لتقديم عطائه الحضاري، كما قدمه منذ عشرة قرون، ولديه من الأصول ما يمكنه من ذلك لولا تلك السدود التي أقامها الذين احتكروا اسم الإسلام وقاموا بالوصاية عليه. وتشتد أهمية "الدور الإسلامي" بعد تهاوي الاشتراكية وما كانت تدعيه من قيم، وانفراد الرأسمالية بالساحة فهل قُضيَّ على البشرية أن تشهد عريضة الرأسمالية مرة أخرى. إن الإسلام وحده هو القوة الباقية التي يمكن أن تقف في مواجهة هذا.

إننا نقدم دعوة العمل الإسلامي مؤمنين تماماً أن فيها ما يشفي العصر الحديث من آفة المستعصية، وما يحل أزمة المجتمع الإسلامي/ العربي. ولا تخالجننا أثارة من شك في أن هذا لمن يمر سهلاً ولن يأتي قريباً. ولا تساورنا أوهام انتصار وشيك. إن الانتصار سيتطلب معارك مريرة طويلة وقد لا يأتي قبل مرور مائة عام. إننا نزرع بذرة لن نرى ثمارها. وتلك هي قسمة الدعوة، تسعد بهم ويسعدون بها..

إن دعوة العمل الإسلامي. دعوة إسلامية مائة في المائة كما يقولون من نقطة انطلاقها، وهي الاستخلاف الإلهي للإنسان على الأرض حتى غاية نهايتها، وقد قامت على آيات بينات محكمة من الكتاب الكريم. وعلى تفسير سليم لا تطويع ولا ابتسار فيه، ونحن نؤمن أن القيم التي تقوم عليها والأهداف التي تستهدفها هي ما يمثل روح الإسلام حقاً، وهي أفضل ما يمكن أن تقوم عليه دعوة إسلامية، ولغيرنا بالطبع أن يرى ما يشاء فنحن لا نصادر الآخرين..

وقد ينتقد البعض الأسلوب الذي عالجنا به الدعوات الإسلامية والصراحة التي تحدثنا عنها، وإطلاق الأحكام وذكر الأسماء وعدم ملاحظة ما يثيره ذلك من حساسيات إلخ.. وهذه الاعتبارات التي يلحظها الأكاديميون، أو الذين يحرصون على العلاقات والمجاملات، أو يعزفون عن إصدار الأحكام. أو يمسكون العصا من الوسط. لم تكن خافية علينا، ولكننا إنما أردنا أن نضع الحقائق كلها. وفضلنا ذلك على أن نخدع الناس أو نخفي عنهم جانباً، ولأننا نريد تشجيع الشباب على البحث والجرأة في تناول القداست المزعومة، لأن هذا هو ما ينقصه، وليس الحياء أو الاستخفاء، فهذا ما يجثم على الصدور.

وقد لا تفهم دعوة العمل الإسلامي تمامًا. لأن هناك جوانب عديدة من الفكر الإسلامي تتطلب معالجة أصولية جديدة لم يتسع لها عرض الدعوة نفسها، وهذا ما لم يكن خافيًا على المؤلف؛ عندما أصدر الأعلان العظيمان "الكتاب والسنة" والذي اختصره في كتاب "الدعوة إلى القرآن" وكتاب "الحكم بالقرآن وقضية تطبيق الشريعة" وعدد كبير آخر من الكتابات الإسلامية، وهو اليوم بصدد عمل عظيم هو "نحو فقه جديد".

فهذه المجموعة من الكتب تقدم فهمًا جديدًا متكاملًا للإسلام، فهمًا مستقبليًا لا فهمًا ماضيًا، فهمًا منتصرًا يعبر عن نفسه بلغة العصر، ويتسلح بسلاحه ويجابه تحدياته، بل ويصلح فساده.

وهذه الدعوة ملكٌ للمسلمين جميعًا، ولكل واحد يؤمن بها أن يقول "هذه دعوتي"، فلننا نحن أحق بها منه، إنها ليست مقصورة على أحد إنها دعوة، وليست هيئة والشباب أولى الناس بها.

فيا أيها الشباب المسلم في كل مكان:

إذا قلنا إن هذه دعوتكم، فإنما يعود هذا إلى أن المستقبل أمامكم طويل بعواصفه ومشاكله، وهذه الدعوة وحدها هي التي تمنحكم — كمسلمين حريصين على إسلامهم — جواز

المرور إلى عالم العصر. إن الفقهاء التقليديين أبعدوا العصر. ولم يكن ليعنيهم هذا في شيء. لأنهم بفصل أوضاعهم الخاصة يمكن أن ينالوا كل حقوق العصر وهم بمعزل عنه، فإذا كان أحد الشيوخ يستطيع كأستاذ جامعي أن ينال المزايا المادية لهذا الوضع التي تكفل له معيشة مترفة، مقابل أن يلبس زياً خاصاً، ويدرس حديث ابن حنبل أو فقه الشافعي كما وُضعا من ألف عام، فلا تعنيه في شيء مشاكل العصر.. ولكن مشاكل العصر تجابهكم، ولهذا قلنا إن هذه دعوتكم، لأنها هي التي تقدم الإسلام مدججاً بسلاح العصر، ومصلحاً في فساد العصر.. فخذوها بقوة.. وستفتح لكم مغاليق الطريق.. وتحل أزماتكم، وأزمة العصر الحديث أيضاً.. ربنا عليك توكلنا، وإليك أنبنا، وإليك المصير..